
المجلس الأعلى للثقافة
الأعمال الكاملة
المجلد الرابع
إبراهيم عبد القادر المازني
أشكال سردية
جمع وتحرير وتقديم
عبد السلام حيدر

ى الأعلى للثقافة

إبراهيم عبد القادر المازنى

الأعمال الكاملة

الأعمال غير المنشورة

المجلد الرابع

أشكال سردية

القسم الأول

جمع وتحرير وتقديم

عبدالسلام حيدر



٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حيدر ، عبد السلام.
إبراهيم عبد القادر المازنى - الأعمال الكاملة - الأعمال غير المنشورة ، المجلد الرابع / أشكال سردية - القسم الأول
جمع وتحرير وتقديم : عبد السلام حيدر .
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، ٢٠٠٩ ،
548 ص ، ٢٤ سم
١ - آداب عربية
(أ) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٠٧٢٤
الترقيم الدولى 978-977-479-637-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤ .

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

تمهيد عام

مرت عملية نشر أعمال إبراهيم عبد القادر المازنى - حتى الآن - بمرحلتين أساسيتين، فى المرحلة الأولى التى أنجزها المازنى نفسه يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة هى:

١ - أن المازنى بدأ بنشر الشعر "ديوان المازنى - الجزء الأول" (١٩١٣)، ثم الكتابات النقدية حول الشعر "شعر حافظ" (١٩١٣) و"الشعر غاياته ووسائطه" (١٩١٥)، ثم توقف عن نظم الشعر تقريباً عام (١٩٢٠) .

٢ - مع بدء عمله الصحفى بعد ثورة ١٩١٩ نشر (بالاشتراك مع العقاد) "الديوان فى الأدب والنقد" (١٩٢١) ثم "حصاد الهشيم" (١٩٢٥) و "قبض الريح" (١٩٢٧).

٣ - فى عام ١٩٢٨ بدأ المازنى مرحلة الإبداع القصصى؛ حيث اهتم بجمع أعماله القصصية والروائية، بينما امتنع عن نشر الكتب النقدية، وإن لم يمتنع عن مواصلة كتابة المقالات النقدية، وقد نشر فى هذه المرحلة: "صندوق الدنيا" (١٩٢٩)، "إبراهيم الكاتب" (١٩٣١)، "خيوط العنكبوت" (١٩٣٥) ونشر مسرحية واحدة هى "غريزة المرأة" أو "حكم الطاعة" (١٩٣١) والتى أثارت ضجة ضخمة بسبب "انتحالها" كما ادعى البعض.

٤ - وفى عامى (١٩٣٥) و(١٩٣٧) نشر على التوالى مجموعتى "خيوط العنكبوت" و"فى الطريق" وامتنع عن نشر المجموعات حتى عام ١٩٤٤ حيث نشر مجموعته الأخيرة "ع الماشى".

٥ - وفى عام (١٩٤٣) نشر عدة روايات هى "عودٌ على بَدء" فى أبريل ، و"إبراهيم الثانى" فى يونيه، و"ميدو وشركاه" فى يونيه أيضاً، أما "ثلاثة رجال وامرأة" فقد صدرت فى يناير من عام (١٩٤٤) .

***

أما فى المرحلة الثانية التى أنجزها آخرون، وهى المستمرة حتى الآن، والتى جرى فيها تشويه أعمال المازنى بدرجات متفاوتة أعظمها الإهمال شبه التام لها، وفى هذه المرحلة يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة أيضاً:

١ - أول "تشويه" لأحد أعمال المازنى تم فى حياته حين نشرت طبعة مختصرة إلى النصف من "صندوق الدنيا" فى سلسلة "كتب للجميع" عدد مايو (١٩٤٨) .

٢ - وفى آخر (١٩٤٩) صدرت روايته القصيرة "من النافذة"، وفى لقاء خاص مع الأستاذ محمد إبراهيم عبد القادر المازنى فى ١٩٩٢/٤/٢٨ ذكر لى أنه نشر "من النافذة" وبعد وفاة المازنى بشهرين، إن الكتيب الذى نشر فى سلسلة اقرأ كان جاهزاً للنشر قبل وفاته وأنه قد أضاف إليه بعض المقالات، وواضح أن الرواية تنتهى عند الفقرة رقم (٧) وهى السلسلة التى نشرها تحت نفس العنوان فى جريدة البلاغ فى الفترة ما بين ١٩٤٣/١٠/١٠ وحتى ١٩٤٣/١١/٢٨ وقد نشر المازنى أربع مقالات أخرى تحت العنوان نفسه: الأولى فى ١٩٤٣/١٢/٥ وتمثل الفقرة رقم (٨)، والثانية فى ١٩٤٤/١/٢ وتحمل رقم (١٢) وهذه سقطت من الكتيب، لا ندرى بمعرفة المازنى أم لا، والثالثة فى ١٩٤٤/١/٩ وتمثل الفقرة رقم (٩)، والرابعة فى ١٩٤٤/١/٢٣ وتمثل الفقرة رقم (١٠)، وظنى أن المقالات التسع الباقية - التى كتبها المازنى فى عامى ١٩٣٦ و١٩٤٤ - هى التى أضافها محمد المازنى حتى يصبح الكتيب فى حجم كتيبات سلسلة اقرأ!

٣ - فى الذكرى العاشرة لوفاة المازنى بدأت "الدار القومية للطباعة والنشر" فى إحياء ذكرى المازنى بإعادة طبع بعض أعماله السابقة، وجمع بعض الأعمال غير المنشورة، فى كتب جديدة، ورغم أن الدار قد أحسنت بجمع ونشر بعض الأعمال غير المنشورة، إلا أنها شوهت أغلب الأعمال التى أعادت نشرها، ربما كان السبب أن لكتب الدار حجماً معيناً ومن ثم فقد تم تعديل (أو تشويه) هذه الأعمال بطريقة منظمة، حتى تناسب الحجم المقرر لها مسبقًا، والمشكلة هى أن أغلب الطبعات التالية (على سبيل المثال طبعة دار الشروق لبعض أعمال المازنى) اعتمدت - ربما بسبب الكسل - على هذه الطبعة المشوهة وكأنها الأصل الذى نشره المازنى فى حياته وقد حاولت تحديد هذا التشويه الذى بدأ منذ بداية الستينيات فتوصلت إلى ما يلى:

(أ) فى أغسطس ١٩٦٠ تم حذف مقدمة الطبعة الأولى من "إبراهيم الكاتب" (سبع صفحات) وهى المقدمة التى أثبتها المازنى فى الطبعة الثانية عام ١٩٤٥، بل وأضاف إلى هذه الطبعة الثانية مقدمة ثانية قصيرة حذفت أيضاً فى كل الطبعات التى صدرت حتى الآن.

(ب) مجموعة "فى الطريق" التى جرى تشويهها فى سلسلة كتاب الهلال فى عدد نوفمبر ١٩٥٣ بحذف ١٤ صورة وأقصوصة، جرى تشويهها مرة أخرى على يد الدار القومية فى مارس ١٩٦١ بحذف ثلاثة أعمال أخرى، ومعنى هذا أن أكثر من نصف المجموعة قد اقتطعت وتمت إضافتها إلى كتب ومجموعات المازنى الأخرى!

(ج) فى عام ١٩٧٤ نشرت مجلة "الجديد" رحلة المازنى لحضور مهرجان المعرى تحت عنوان "رحلة الشام" وادعت أن النص لم ينشر من قبل وكذلك فعلت مع نص محاضرة المازنى للمؤتمر، والتشويه يأتى من هذا الادعاء رغم أن نص الرحلة نشر فى جريدة البلاغ (فى الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٤٤ إلى

٢٣ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "فى مهرجان المعرى" وكذلك نص محاضرة المازنى إلى المهرجان التى نُشرت مرتين لا مرة واحدة: الأولى تحت عنوان "أبو العلاء الشاعر الإنسانى" فى عدد أغسطس/سبتمبر ١٩٤٤ من مجلة "الحديث" الذى تم تخصيصه للمعرى بمناسبة المهرجان، والمرة الثانية فى "جريدة البلاغ" على ثلاثة أيام (فى الفترة من ٣٠ سبتمبر وحتى ٢ أكتوبر من عام ١٩٤٤)، مباشرة بعد نشر نص الرحلة، تحت عنوان "أبو العلاء المعرى، كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى"، من الجدير بالذكر أن مدحت الجيار أصدر نفس المخطوطة فى كتابه "أدب الرحلة، رحلة الشام للمازنى نموذجًا" (١٩٩٤)، ورغم أن المازنى لم يقم بالرحلة إلا فى عام ١٩٤٤ إلا أنه يذكر أن المازنى كتب المخطوطة وراجعها بقلمه عام ١٩٣٦ ، وربما كان الأقرب للصحة أنه كتبها ونشرها فى البلاغ عام ١٩٤٤ ثم راجعها وأضاف المقدمة فى عام ١٩٤٦ أو حولها.

(د) فى عام ١٩٧٥ أعادت دار الشروق نشر مجموعة المازنى الأخيرة "ع الماشى" وكان التشويه هذه المرة بالإضافة حيث أُضيفت للمجموعة خمس أقاصيص كانت قد نزعت من مجموعة "فى الطريق" وهى: الوطواط، والشيخ مبارك، والبرهان، وورطة، وأرواح متآلفة، ولم أستطع حتى الآن التبين إن كان هذا وقع من الدار القومية أولاً أم لا.

وقد ذكر محمد المازنى لى أن ما سقط فى الطبعات التالية كان بسبب غفلة عمه أحمد عبد القادر المازنى الذى كان مسئولاً آنذاك عن نشر تراث أخيه، والغريب أنه رفض أن يطلع على مخطوطة "رحلة العراق" التى بحوزته - لمقارنتها بالنصوص المنشورة تحت نفس العنوان - لعدم ثقته فى الأكاديميين لأن أحدهم، كما قال، قد أخذ بعض المخطوطات ونشرها دون أن يعطيه حقه! والظن أنه يوجد داع للمقارنة لأننى

أتصور أن المازنى قد جمع رحلتيه إلى العراق عام (١٩٣٦) وعام (١٩٤٥) تحت مسمى واحد وبمقدمة جديدة، ولأننى لم أتمكن من رؤية المخطوطة بعد، فقد رأيت أن أنشر الرحلتين كل على حدة مع التفريق بينهما بذكر سنة الرحلة بين قوسين.

***

بقى أن نشير إلى أن الدار القومية قد نشرت فى الستينيات عدة كتب للمازنى بمعرفة ورثته هى:

(أ) "قصة حياة" (فى ١٩٦١/٥/٤) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره، وهو تجميع لسلسلتين من المقالات الأولى نشرها المازنى تحت عنوان "حياة الخوف من الخوف" فى الفترة من نوفمبر ١٩٣٧ وحتى فبراير ١٩٣٨ وتمثل ترجمة ذاتية للفترة المبكرة من حياته الاجتماعية والدراسية، والثانية نشرها تحت عنوان "كيف ولماذا اعتزل الناس" فى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٩ وتمثل ترجمة فكرية للسنوات الأخيرة من حياته الفكرية والأدبية.

(ب) "مختارات من أدب المازنى" (فى ١٩٦١/٧/٦) وهو تجميع لما نزع من "صندوق الدنيا" و"فى الطريق" بالإضافة إلى ثلاث أقاصيص جمعت من الدوريات هى: "حلم"، و"المطلوب مديرة بيت"، و"عاقبة سليمة".

(ج) "أحاديث المازنى" (فى ١٩٦١/٨/١٠) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره، وهو يحتوى على عدد من الأحاديث والمقالات والصور والأقاصيص، وهذا ما يمكن أن يقال أيضًا عن كتاب "سبيل الحياة" الذى نشر فى نفس الفترة، ويحتوى على مجموعة من المقالات والصور التى لم يسبق جمعها فى كتاب مع استثناء وحيد يتمثل فى قطعة "خواطر فى

مرقص" المنزوعة من "صندوق الدنيا"، فى هذه الفترة تعرضت "من النافذة" مرة ثانية للتشويه حيث زيدت فقرتين، وأضيف لها ملحق جديد هو "صور من الحياة" الذى حوى ثمانى أقاصيص جمعت لأول مرة.

ورغم أن عدد صفحات هذه الكتب الجديدة يقارب الخمسمائة صفحة، إلا أنه بقى الكثير من كتابات المازنى التى لم تجمع، لذا عزمت على تتبع كل ما نشره المازنى لجمعه وتوثيقه، حتى يتيسر إصدار أعماله الكاملة، ولا بد أن أشير إلى أن هاجس إخراج أعمال المازنى الكاملة كان - وما زال - يرافقنى منذ دراستى إياه (فى الفترة ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٤) لنيل درجة الماجستير، وكنت آنذاك قد جمعت كمية صالحة من هذه الأعمال، وعندما وجدت الفراغ المطلوب والاستعداد المبدئى من قِبل الدكتور جابر عصفور لطبع الأعمال الكاملة للمازنى، على أن نبدأ بالأعمال غير المنشورة، عدت إلى ما سبق أن جمعته، وشرعت فى جمع الباقى أو نسخه، ورغم صعوبة الأمر، خصوصاً بعد ضياع أو تمزق بعض الدوريات القديمة مما جعل العمل فى بعض الأحيان يشبه عمل علماء الحفريات، إلا أننى واصلت العمل لجمع وتحرير ودراسة الأعمال المجموعة هنا، وقد اعتمدت فى ذلك على ببليوجرافيا أعمال المازنى التى أعدها حمدى السكوت ومارسدن جونز، ورغم اكتشافى أنها، فى بعض الأحيان، لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية؛ حيث نسبت للمازنى أعمالاً لابنه محمد أو لسميه إبراهيم المصرى، إلا أنها أفادتنى فى إعداد هذه الأعمال للنشر فالشكر الجزيل لهما.

وقد قسمت الأعمال المجموعة هنا، على أساس موضوعى، إلى ثلاثة أقسام، قسم "التأملات والذكريات" ويقع فى المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة ويضم ما نشره المازنى من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها وحول الحياة بصفة عامة، وفى المجلد الثانى والثالث جمعت ما تيسر جمعه من "المقالات والدراسات النقدية" وقسمتها بغرض التسهيل إلى "نظرات نقدية عامة" و"تطبيقات نقدية"، أما المجلد الرابع فخُصص لقسم "الأشكال السردية" سواء كانت قصيرة مثل الصورة

والأقصوصة والمقال القصصى أم طويلة مثل الرواية (وسوف نخص رحلات المازنى بمجلد خاص خامس).

وقد حرصت على تقديم كل قسم بمقدمة خاصة أشرت فيها إلى بعض خصائص الأعمال المنشورة فيه، تبقى ثلاث ملاحظات: الأولى أننى رتبت الأعمال المجموعة فى كل مجلد على أساس تاريخى، والثانية أن تأملات وذكريات المازنى تخترق أيضًا المجلدات الأخرى، ولكنها ليست غالبة كما فى المجلد الأول الذى خصصته لهذا الأمر، والأخيرة أننى ما زلت احتفظ بالكثير من مقالات المازنى الاجتماعية والسياسية خصوصًا تلك التى نشرها فى أخريات حياته لأننى لم أرتح بعد إلى طريقة مناسبة لنشرها.

وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أشكر كل من مد يد العون لإنجاز هذا العمل وأخص بالذكر موظفى مخزن الدوريات بدار الكتب المصرية: نجيب عبد العظيم، وعبد الحكيم على محمد، ومحمد عبد المحسن، وخالد سعيد، وأستير مسعد مقار، كما أتوجه بالشكر للمجلس الأعلى للثقافه وأمينه العام الذى وقف خلف هذا العمل حتى اكتمل.

عبد السلام حيدر

مقدمة المجلد الرابع

سنقتصر فى هذه المقدمة القصيرة على مساهمة المازنى فى مجال "الأشكال السردية" سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصى، أم طويلة مثل الرواية.

- ١ -

أصدر المازنى منذ عام ١٩٢٨ حتى وفاته فى عام ١٩٤٩ جل إبداعاته السردية التى أفسحت له مكانه فى الصدارة وجعلته أحد أكبر رواد القصة المصرية الحديثة، وفى هذه المرحلة السردية التى استمرت عشرين عامًا استغل المازنى، كما سلف، ذكرياته ومشاهداته، كان لديه حنين دائم إلى الماضى فكانت أفكاره لا تفتأ تلتفت إلى الخلف وتكاد تدفن نفسها فى الأيام الخوالى، ولذا غلب التذكر والاجترار على نتاج هذه المرحلة، ومن عادة المتذكر أن يستظهر العبر من كل حدث، ولذا نجد لكتاباته إبان تلك الفترة بُعدًا أخلاقيًا، ونجده أو نجد راويه مرتديًا ثوب الخبير المجرب الذى خبر الناس وعرك الحياة، ولم يكن المازنى ينكر هذا الطابع، بل يقول: "إنى كالخروف دائم الاجترار لما فى جوفى"[١]، فأغلب إبداعاته كما يقول ذكريات يجترها بعد أن يضمخها بدماء فنه ويشعشعها بماء خياله، فتصير عندئذ فنًا لا ذكريات!.

---

(١) المازنى: المرأة فى حياة الأديب، الرسالة ، أول مايو ١٩٣٩ ، ص٨٥٠ .

يتوزع نتاج المازنى فى مجال "الأشكال السردية" بين الرواية والرحلة وثلاثة فنون سردية قصيرة هى: الصورة والأقصوصة والمقال القصصى، وبما أننا سنخصص المجلد التالى للرحلة فإننا سنقصر المجلد الرابع على الفنون السردية (مرتبة تاريخيًا) عدا الرحلات.

- ٢ -

جاءت أكثر كتابات المازنى وأشهرها فى قالب المقالة القصصية، وهى كما يبدو من اسمها الشكل القصصى الذى يقف فى مكان ما بين المقالة والأقصوصة، وقد يكون هذا الشكل هو أقدم الأشكال السردية التى خاض المازنى غمارها إبان شبابه المبكر حينما كان - كغيره من شباب هذه الفترة - يعيش سنوات الكفاح التى شهدت ذروتها فى عام ١٩١٩، ولكن سرعان ما فترت الثورة، ثم انتكست وتعرض، مثل شباب جيله، لما يشبه الصدمة إثر تحطم آمالهم وأحلامهم، وكان المازنى آنذاك شغوفًا بالاطلاع على نتاج كتاب الإنجليز فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين خصوصًا الأشكال القصصية التى تختلط بالمقال غالبًا، وكانت تنشر فى الدوريات اللندنية المعروفة باسم "السبكتاتور" **The Spectator** و"الرامبليز" **The Rambler**، لقد وجد المازنى أن هذا الشكل القصصى هو أنسب الأشكال للتعبير الأدبى عن تجاربه وخيبة آلامه؛ وهذا ما أكسب مقالاته تلك وما بعدها مسحة شخصية خاصة ميزته منذ فترة مبكرة عن كُتَّاب عصره، فالمقال القصصى كما يفهمه المازنى لا يقوم موضوعه على التأمل العقلى أو الوجدانى وكفى، بل كثيرًا ما كان يكسر حدة ذلك بالدعابة أو التجارب ذات الطابع الانفعالى الخفيف؛ لذا يكتب عادة - كما سنوضح فيما بعد - بالضمير الأول "ضمير المتكلم" بل ربما يذكر اسمه صريحًا كما لو أنه يكتب يومياته، وربما يذكرنا هذا بما يسمى العقد السيّرى (الأتوبيوغرافى)؛ حيث يصرح المؤلف بأنه الراوى والشخصية الرئيسية فى نصّه.

أما الخاصية الفارقة بين الصورة والأقصوصة كما فهمها المازنى فتتمثل فى أن الصورة تعتمد على الوصف وتفتقد إلى الحركة أى الحدث ذى الحبكة الذى يميز القصة القصيرة.

والمطلع على نتاج المازنى النقدى يلاحظ ندرة حديثه عن الأقصوصة قياسًا على القصة (الرواية)، بداية يلاحظ أن المازنى يحرص على استخدام مصطلح الأقصوصة ونادرًا ما كان يستخدم المصطلح المترجم "قصة قصيرة" رغم أنه كان ذائعًا فى الأوساط النقدية آنذاك، وقد يرجع السبب إلى أنه لا يستمرئ استخدام المصطلحات المترجمة حرفيًا عن اللغات الأخرى طالما وجد فى العربية ما يغنى عنها كما فى هذا مصطلح أقصوصة، فهو أكثر تعبيرًا وإيجازًا وكذلك مشتقاته، والأقصوصة كما يفهمها المازنى لا تختلف كثيرًا فى قواعدها العامة عن القصة (الرواية) فأصلهما واحد، والأقصوصة تتطلب نفس الاستعداد والإخلاص والصبر الذى تتطلبه القصة أو الرواية، ثم الدربة والصقل الدائم للأدوات، ولكنهما تختلفان فى الطول ورسم الشخصيات وعددها ووحدة الانطباع، وكان المازنى يقول: "الأقصوصة - كالقصة - تحوج إلى رسم الشخصيات بإيجاز وإطناب، وإلى الحوار والوصف"(٢) .

ومن أدق إشارات المازنى موافقته للدكتور بشر فارس على ما قدم به مجموعته "سوء تفاهم" عندما قال - أى المازنى - فى معرض تقريظه لهذه المجموعة: "وكل أقاصيصه على نحو ما وصف فى التقدمة (يجب أن تكون القصة برقًا لماحًا طى سحب سود، والسحب السود هى الحياة الجياشة، ويجب أن تنطوى القصة على الشاعرية فى الأداء والتصوير خاصة، حتى تفلت من جفوة الواقع، وأما قوامها فرهافة فى تحسس القيم الإنسانية بمعالجة كأنها هينة، مادتها حادث تفه، عبارة سانحة، شعور قد ومض، مع اجتناب التبيين المنطقى) وأحسب أن هذا من أصدق ما يقال فى الأقصوصة أما

---

(٢) المازنى: حديث الأحد: سوء تفاهم للدكتور بشر فارس. البلاغ ، ١٥ مارس ١٩٤٢، ص٢ .

القصة الطويلة فلا غنى فيها ولا معدى عن مقدار من الإفاضة فى التبيين المنطقى، والتحليل المطرد والغوص المتتابع"(٣) .

ووجه التوفيق فى هذا القول إشارته القوية إلى وحدة الحدث والانطباع، وإلى القصر وإلى لغة الأقصوصة التى لا بد أن تقترب وبقوة من لغة الشعر بتوهجها وتركيزها وتكثيفها، ومن هنا فإن الاستطرادات أو الإيضاحات - حتى المقبول منها - زوائد مشتتة لا يسمح بها العمل الفنى عموماً والأقصوصة خصوصاً، والمازنى نفسه يرى أن الأقصوصة يجب أن "تكون كاللمحة أو كالمنظر"(٤)، فهذه الجملة تجمع فى ثناياها بين أهم صفات الأقصوصة من حيث القصر ووحدة الانطباع والتأثير ثم الأسلوب الشعرى المكثف.

لا بد أننا لاحظنا أن جل كلام المازنى فى نظراته القصصية كان يتركز بصفة خاصة على القصة الطويلة، ولا يرى مانعاً فى أن تطبيقه - فى خطوطه العامة - على أختها الصغرى "الأقصوصة" مع الاحتفاظ لها بسماتها الفارقة عن القصة الطويلة كالقصر والإيجاز والإحكام ووحدة الانطباع واللغة الشاعرية المكثفة التى تخفى أكثر مما تبوح، وأخيراً لحظة التنوير كأهم السمات الفارقة والمميزة للأقصوصة عن القصة الطويلة، فهى - أى لحظة التنوير - التى تحدد معنى ونهاية الأقصوصة، بينما الرواية أو القصة الطويلة يمكن أن يكتب لها الروائى نهاية أو يتركها بلا نهاية وتحتفظ مع ذلك بكونها رواية لها معناها شبه المكتمل، أما الأقصوصة الجيدة فعلى العكس من ذلك أى لا بد لها من لحظة تنوير وإلا صارت خبراً لا أقصوصة.

ورغم هذا نجد المازنى يخترق هذه الأساسيات فى أكثر من موضع، لعل أهمها أنه لم يكن يفرق بدقة بين خصوصية كل من الأقصوصة والفصل الروائى، فكثير من

---

(٣) السابق.

(٤) المازنى: أحاديث المازنى. ص٣٥ .

فصول رواياته نُشر - بعد تحوير طفيف - كأقصوصة ذات عنوان مستقل، بل إن بعضها نشر كمقالة فى بعض كتبه، وقد اعترف المازنى بشىء من هذا فى مقال له تحت عنوان "الكتابة وحالات النفس" وصف فيها تغير حالاته النفسية من يوم إلى يوم وأثر ذلك على كتاباته، ومثال ذلك إحدى رواياته التى كلما أجال النظر فيها غيّر وبدل حتى تغيرت الرواية فتركها فترة، ثم أعاد النظر فيها فغيّر وبدل يقول: "حتى يئست فانتزعت منها فصولاً تصلح أن تكون قصصًا قصيرة ومزقت الباقى"(٥)، وهو يقصد روايته "ميدو وشركاه" وقد صرح بذلك فى مقاله "قصة كتاب يأبى أن يصدر"(٦)، وقد كان هذا دأبه مع أكثر قصصه الطويلة خصوصاً "إبراهيم الكاتب" و"عود على بدء" ثم "ميدو وشركاه".

فيما يخص "إبراهيم الكاتب" وجدت أن الفقرة الثانية من الفصل الرابع فى القسم الثانى (الصفحات من ١٤١ وحتى ١٤٦ ، طبعا فى الطبعة الأولى غير المشوهه!) نشرها المازنى كأقصوصة تحت عنوان "ليلة ممتعة" فى"السياسة الأسبوعية" فى أول يوليه ١٩٢٩، أما الفصل السابع من نفس القسم (الصفحات من ١٥٧ وحتى ١٦٤) فقد سبق نشره فى "قبض الريح" مع بعض التصرف تحت عنوان "بين السماء والأرض: كأس على ذكرى" وكان قد نشره قبل ذلك فى جريدة "الاتحاد" فى الرابع من نوفمبر ١٩٢٦ وكان المازنى يرأس تحريرها آنذاك، أما آخر فقرة فى الرواية (الصفحات من ٣٠٥ وحتى ٣٠٨) وهى التى تبدأ بقول الراوى: "وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك..." فقد نشرها فى "قبض الريح" تحت عنوان "ليلة بين الصحراء والمقابر".

---

(٥) المازنى: سبيل الحياة. ص ٩٤ .

(٦) المازنى: قصة كتاب يأبى أن يصدر. البلاغ ، ٢٤ يناير ١٩٤٣ ، ص٤ .

وفيما يخص "عود على بدء" وجدت أن الجزء الخاص بخادمته (الصفحات من ١١ وحتى ١٧) نشره تحت عنوان "الخادمة المخلصة" فى جريدة "البلاغ اليومى" فى ١٤ فبراير ١٩٤٣، وظنى أنها فى الأصل صورة حشرت فى الرواية دون داع فنى ملح وإنما لمجرد التطويل (غالبا استجابة لطلب الناشر!).

وفيما يخص "مبدو وشركاه" وجدت أن أغلب فصول الرواية نشر أولاً كأقاصيص، وهذا ثبت بذلك:

- الصفحات من السادسة وحتى السابعة نشرت كجزء من مقال قصصى تحت عنوان "عصران فى دار" مجلة "الرسالة" فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٥ .
- الصفحات من ٢٨ وحتى ٤٦ نشرت تحت عنوان "حمادة " فى مجلة "مجلتى" فى ١٥ مارس ١٩٣٥ .
- الصفحات من ٤٧ وحتى ٥٨ أى الفصل الثالث نشرت تحت عنوان "عقلة" فى مجموعته "فى الطريق"!
- الصفحات من ٨٩ وحتى ٩٤ أى الفصل السادس نشرت تحت عنوان "زوزو" فى مجلة "الرسالة" فى ١١ مارس ١٩٣٥ .
- الصفحات من ١٣٤ وحتى ١٤٠ أى الفصل العاشر نشرت تحت عنوان "بين فتاتين" وقال إنه "فصل من رواية لم تُكتب" وفى "الرسالة" فى ٨ أكتوبر ١٩٣٤ .
- الصفحات من ١٤١ وحتى ١٤٧ أى الفصل الحادى عشر نشر تحت عنوان "من أجل قبلة" وذلك فى مجلة "شهرزاد" فى أول أكتوبر ١٩٣٥، وهذه الصفحات نالها من التبديل والتحوير أكثر من غيرها فهو يصوغها بضمير المتكلم كأنها تجربة شخصية، ويحل القبلة مكان المخطوط الذى يبغى سرقته أحد أبطال الرواية كما يحل أخت خطيبته مكان السيدة حنيفة فى "ميدو وشركاه" هذا بالإضافة إلى عدة تعديلات أخرى يقتضيها السياق الجديد، وقد أعدنا نشرها حتى تتيسر المقارنة.

ومعنى هذا أن المازنى فى هذه الجزئية لا يكاد يختلف عن بعض الآراء التى تجاهر بأن الأقصوصة ما هى إلا تصغير للرواية أو جزء منها، وما سبق يدل على أنه لم يفهمها على أنها عمل كامل الاستقلال، فالأقصوصة مستقلة إذا نشرت بمفردها ولكنها إذا أدمجت مع غيرها أصبحت لبنة فى بناء قصصى أكبر هو الرواية، فهى فى رأيه لا تعدو أن تكون جزءًا من كل أو مجرد عينة على صنف أكبر، ويؤيد هذا أن المازنى كان يختصر بعض الأعمال الطويلة فى أخرى قصيرة ويطلق عليها أقصوصة كما فعل فى أقصوصته "عاقل" من مجموعة "فى الطريق" وهى تلخيص لروايته "إبراهيم الثانى"، وكما فعل فى أقصوصته "وردة أو الحبان" من مجموعته "خيوط العنكبوت" وقد أعلم قراءه بالأمر فى هامشها فقال: "هذه القصة خلاصة أخرى أضخم وأقوى"[7]، ومن طالعها يعلم أنه ربما يعنى "روميو وجوليت" لوليام شكسبير!.

ولعل هذه النظرة كانت طبيعية آنذاك، فقد كانت الأقصوصة وحتى وقت قريب تعول فى تحديد خصائصها على الرواية بوصفها نقطة للمماثلة أو المخالفة، فالأقصوصة تابعة للقصة وفى خدمتها، ومنفذ للطبع السريع إذا تعذر طبع الرواية كاملة، وهذا ما كان يفعله المازنى.

- ٣ -

لعله من المفيد هنا أيضًا أن نقف على بعض التقنيات السردية لدى المازنى؛ فمن المدهش أنه كان عارفًا فى هذه الفترة المبكرة نسبيًا بالتقنيات المتنوعة والعديدة التى

---

(٧) المازنى: خيوط العنكبوت. ط١ ، ص ٣٣٨ .

يستخدمها كُتَّاب القصة فيما يتصل بالشكل والعنوان وطرق السرد وفيما يتصل بالزمان والمكان والإيقاع وعوامل التصعيد الدرامى، بل والتقنيات النفسية التى اقتحمت القصة كالمناجاة وتيار الوعى.

ولم يكن المازنى يعنى نفسه بإظهار معرفته بالأصول النقدية لهذه التقنيات، ولا ينبغى أن نُرجع ذلك إلى جهله أو عجزه، لأن هذه التقنيات فى أعماله تفصح عن عمق علمه بها، وإنما يمكننا إرجاع ذلك إلى تمرده الدائم أو لامبالاته المعهودة، وقد كان المازنى يعترف بعدم منهجية العرض الفنى لديه، يقول: "ليست لى طريقة أعرفها فى الكتابة وإنما أقول ما يحضرنى وأتناول الكلام من حيث يسلس، هكذا كنت فى صدر أيامى وكذلك أرانى بعد أن استدبرت من الشباب ما كنت أستقبل.."[(٨)] ، وقد أكد هذا المعنى عندما سئل عن طريقته فى تأليف قصصه حيث قال: "ليس لى طريقة فى تأليف قصتى، كل ما هنالك أننى حين أعزم على كتابة قصة أجلس إلى مكتبى وأنا خالى الذهن إلا من هذا العزم، فإذا كتبت السطر الأول منها انحلت أمامى كل مشكلة، وأخذت أكتب ما أريد بسهولة، فإذا عرض لى موقف من المواقف يحتاج إلى الحل عرضته على وقائع الحياة، وحللته على طريقتها ولكنى ألبسه مع ذلك ثوبه الفنى"[(٩)] . وبعد السطر الأول يكون السح والهطلان على حد تعبيره فى موضع آخر!

وهنا يمكننا الإشارة إلى عدة خصائص أسلوبية ألفها المازنى حتى صار كل منها دليلاً على لغته وكتابته وطريقته فى القص:

١ - مخاطبة القارئ.

٢ - كثرة الاستطراد والتظرف فيه.

---

(٨) المازنى: الشباب الثانى. البلاغ ، ٤ نوفمبر ١٩٣٨، ص٤ .

(٩) راجع كل شىء والدنيا ، ٢٢ مايو ١٩٣٥ ، ص٢٠ .

٣ – السخرية التى تعتمد على التناقض فى وصف الواقع.

٤ – التضمين أو الاقتباس من الشعر والأمثال والكتب المقدسة.

٥ – الجمل الاعتراضية، أحيانًا لميله إلى الشرح، وأخرى لكلفه بالمشاكسة والتشويق.

رغم تنويع المازنى فى الأشكال السردية إلا أن استعماله "ضمير المتكلم" غلب على كتاباته السردية حتى أصبح سمة أساسية ملحوظة منذ نشره "صندوق الدنيا" (١٩٢٩)، فعندما نصحه أحد مريديه بأن عليه أن يقلل من ذلك وأن يعدل بالرواية إلى ضمير الغائب خوفًا من أن يظن القراء أن كل ما يقصه المازنى من واقع تجاربه الشخصية – كان جواب المازنى أن الأديب حين "يروى عن نفسه أو يشرح عاطفة أو يبين حالة لا يعنى أنه هو فلان الفلانى يحدثنا بحقيقة وقعت له، وإنما يعنى أنه يتخذ من نفسه رمزًا للإنسان المحس المدرك، وليس غرضه أن يكون مؤرخًا لنفسه"[١٠]، وقد أوضح المازنى، فيما بعد، نظرته تلك بقوله: "إنى أرتاح إلى هذا الأسلوب فى القصة وأراه أعون لى على تمثل ما أحاول وصفه وتصويره فليس فيما أروى شىء شخصى، وكثيرًا ما نبهت إلى هذا، ولكنى أهمله أحيانًا اعتمادًا على فطنة القارئ"[١١] ، وبالفعل كان المازنى بعد ذلك ينص فى مقدمة أغلب فصوله القصصية والروائية التى نشرها فى الدوريات المختلفة إلى أن أحداث القصة وإن كانت تروى بضمير المتكلم إلا أنها لم تحدث له، ومثال ذلك فصوله الروائية التى نشرها تحت عنوان "ذات الثوب الأرجوانى"[١٢] والتى نعيد نشرها هنا حيث قال: "ملاحظة – الكلام ليس شخصيًا وإن

(١٠) المازنى: فن الأدب والتجربة الشخصية أو استعمال ضمير المتكلم للدلالة على الموصوف. السياسة الأسبوعية ، ٢٦ أبريل ١٩٣٠، ص٤،٣ .

(١١) المازنى: المرأة فى حياة الأديب. الرسالة ، أول مايو ١٩٣٩ ، ص٨٤٩ .

(١٢) العنوان يذكرنا بالرواية البوليسية الشهيرة "ذات الرداء الأبيض" للبريطانى ويلكى كولنز (١٨٢٤–١٨٨٩).

كان بلسان المتكلم، وذات الثوب المذكورة هنا لا وجود لها إلا فى الخيال"[١٣]، يتضح من هذا الإلحاح ما يلاقيه المازنى من قرائه ومعارفه، وكأنه كان يسأل يوميًا عن حقيقة ما يكتب فكان يكرر هذه المقدمة التى تدل على وعى المازنى منذ فترة مبكرة إلى ضرورة ودقة الفصل بين دور المازنى فى الحياة ودوره كقاص يقوم بدور الراوى فى أعماله القصصية ولا يمكن مؤاخذته بما يقول الراوى فى سردياته، ورغم أن استعمال ضمير المتكلم هو سبب هذه المفارقة الفنية بين المازنى وقرائه إلا أنه حفظ تعاقده ولم يعبأ بما يلاقى وفضل أن يسير على نهجه الذى يفضله ولم يتنازل عنه خوفًا أو اصطناعًا أو ترضية.

ويمثل الاستطراد ظاهرة أسلوبية فى أعمال المازنى السردية، وكان يعلل ذلك بأنه يجد فيه متعة لأنه يتيح له أن يرسل نفسه على السجية، ويشعره بالحرية، وبالقدرة على البوح بما يخطر له غير عابئ بشىء أو بأحد[١٤]، وأغلب الظن أن هذا الاستطراد ناشىء عن استعداد طبيعى صُقل بقراءات متعمقة لأدباء مزيتهم الاستطراد كالجاحظ مثلاً، ولكن هذا الاستطراد قد يكون مضرًا قدر إفادته أو أكثر، وكثيرًا ما آذى بعض بنايات المازنى الإبداعية بأن كان أحد أسباب الضعف الظاهر فى بناء هذه الأعمال، فإذا كانت المقالات تتسع للمسارات المتعددة وللاستطرادات فيها، إلا أن الأقصوصة لا تقبل مثل هذا، فالاقتصاد فى التعبير إحدى أهم سماتها وكل زيادة على التعبير الدقيق المحدد المقتصد دليل على الضعف أو عدم المبالاة.

وقد أفضت هذه الظاهرة إلى أخرى وهى أن المازنى فى بداياته كان يكتب العنوان بعد الانتهاء من كتابة ما يكتب[١٥] وقد تطور الأمر حتى أصبح لا يضع عناوين

(١٣) المازنى: ذات الثوب الأرجوانى (١). الرسالة ، ٨ يونيه ١٩٣٦ ، ص٩٢٣ .

(١٤) راجع المازنى: فى عالم الكتب ، الرباط المقدس لتوفيق الحكيم. البلاغ ، ٨ أبريل ١٩٤٥ ، ص٤ .

(١٥) المازنى: قبض الريح. ص٨ .

لمقالاته وربما لبعض سردياته أيضًا، وكانت الصحف تكلف أحد محرريها بقراءة ما يكتبه المازنى كى يضع عنوانًا مناسبًا لما ليس له عنوان[١٦]، ولكن هذا لم يكن يحدث فيما يخص الأعمال الكبيرة كالروايات أو المجموعات لأنه كان يتولى الأمر، بل ويعانى كثيرًا حتى يصل إلى العنوان الذى يرضيه.

***

هناك أدوات أخرى كثيرة اهتم بها المازنى منها ما هو قديم مألوف مثل "التضمين" أو "الاقتباس" فما من مقال أو صورة أو أقصوصة له إلا ووجدنا بها تضمينًا أو أكثر من الكتب السماوية أو من الحكمة القديمة أو من الشعر أو الأمثال الشعبية، ومن هذه الأدوات ما هو حديث مثل استفادته الكبيرة بالكشوف التى أسداها التحليل النفسى للأدب، ومن هنا معرفته بتقنيات مثل المنولوج الداخلى، وتيار الوعى واستخدام الحلم، والغريب أن المازنى لم يشر إلى هذه التقنيات والطرائق الفنية، بل استعملها وترك لنا معاناة الحديث عنها.

***

وأخيرًا يبقى أن أشير إلى أننى اعتمدت على المادة المجموعة فى هذا المجلد فى كتابة الجزء الأخير من رسالتى للماجستير عام ١٩٩٤ والتى أشرف عليها الدكتور أحمد هيكل واشترك فى مناقشتها الدكتور عبداللطيف عبدالحليم وإليهما أهدى هذا المجلد تقديرًا وعرفانًا.

د. عبدالسلام حيدر

(١٦) راجع عبدالمنعم شميس: إبراهيم عبدالقادر المازنى. مجلة الجديد ، أول أبريل ١٩٧٦ ، ص١٥ .

نصوص "أشكال سردية"

(مرتبة تاريخيًا)

تناسخ الأرواح[١٧]

كان لى صديق عريض الدعوى يزعم أنه عميد أهل العلم، وإمام أولى العرفان، وقِبلة المحققين والمجتهدين، صاحبته دهرًا فما عرضت لنا مسألة إلا ادعى أنه توفر حظه منها وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على جلائلها ودقائقها، ومن أقواله المأثورة التى يرويها عنه كل من أمتع به "إن كل شىء أفعله له لو علمتم سببًا يدفعنى إليه" فمن ذلك أن عنده قردًا صغيرًا قد كلف به الكلف الشديد فسألته فى ذلك مرة فقال:

"إنكم معشر الماديين لا تعرفون من الحقائق إلا ما يُلمس باليد ولا تؤمنون إلا بما يناله الحس وتتطلع عليه المدارك على نقصها وعجزها أما ما وراء ذلك فلا قبل لكم به وكيف وأنتم لا تنظرون إلى أبعد من أنوفكم ولا تنضون رواحل أذهانكم إلا إلى ما ليس وراءه طائل من الأمور المادية، فإذا سمعتم شيئًا عن الروح قلتم سخف وهراء فإذا جادلناكم قلتم هاتوا دليلاً علميًا، أفحسبتم أن الروح مما يوضع فى موازينكم الحساسة ويطحن فى هاوونكم العلمى ويغلى ويحلل على نار (بنسن)؟ كلا! يا سيدى آمنوا بالروح فإنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها".

قلت: ومن أنباك أنى لا أومن بها؟

قال: ما كنت أحسبك إلا كغيرك ممن سدت المعامل فى وجوههم منافذ النظر والتفكير.

---

(١٧) نشرت فى مجلة البيان، فى سبتمبر سنة ١٩١٤، (ص٤٢٢-٤٢٤).

ثم اندفع يحدثنى عن الروح وأنا أنظر إليه كمن غاب عنه معنى ما يسمع ويقول:

إن الأرواح بعد الموت لا تفنى ولا يتقاضاها ما يتقاضى الجسم من البلى بل تلبس أجساماً أخرى وكلما بلى بدن خلعته واكتست غيره وكثيراً ما حدث أنى أبصرت عصفوراً يعذبه أصحابه فابتعته منهم وأطلقته إذ ما يدرينى لعل فى جسم هذا العصفور روح قريب لى أو عزيز علىّ ومن أجل هذا ترانى أُكرم هذا القرد وأبالغ فى توفير أسباب الراحة له.

ثم أطرق وجعل ينكت الأرض بعصاه وقال بصوت خافت كأنما يحدث نفسه: "إلا من لى أن يرحم الناس هذه الروح التى بين جنبى إذا انتقلت إلى جثمان غير جثمانى!"

ثم ودعته وانصرفت، وأتفق لى بعد ذلك أن زرته فأبطأ على وكان فى المكان قلم ودواة وورق فتناولتها وكتبت له هذه الرسالة على لسان القرد وتركتها تحت عينه:

سيدى ومالك رقى:

لقد حرمتنى المقادير نعمة النطق بما سلبتنى من الإنسانية ووهبتنى من الحيوية فلم يكن فى مقدورى وهذه حالى من العُجمة أن أُفصح لسيدى عن شكرى لصنائعه وأياديه وأكشف له عن حقيقة أمرى حتى قيض الله لى هذه الأدوات فأحببت أن أوقفه على ما يجهل من أمرى جزاء ما قلدنى من النعم وطوقنى من المنن، فليعلم سيدى أنى كنت فى أول حياتى وبدء نشأتى كبير البراهمة وعميدهم فى الهند يرجعون إلى فى الشدائد ويستصبحون برأيى فى كل معضل من الأمور وعويصة من المسائل، ولم أزل بينهم مسموع الكلمة محترم الرأى ملحوظ المنزلة حتى وافانى القدر المحتوم فنفضت عنى رمتى وانتقلت إلى جسم آخر فلم أزل صاعداً فى مدارج الشرف ومراتب الجاه حتى صرت وزيراً لبعض الملوك، ولكن طبيعة الإمارة والحكم أفسدت من خلقى ولوثت

طهارة البرهمى لما تدعو إليه من الظلم وتحمل عليه من الجور والتعسف وأخذ الناس بالقسوة والعنف فى بعض المواطن، وحمل الرعية على الطاعة والاحتفاظ بما فى اليد من قوة ونفوذ والحرص على السيادة لاسيما فى تلك الأعصر الأولى، فزينت لى نفسى أن أستأثر بالأمر دون الملك وسولت لى أن أنزله عن سريره فدبرت لذلك مكيدة وتآمرت مع الساقى على أن يدس السم فى كأس الملك ولكنه لسوء حظى أخطأ فناولنى الكأس المسمومة فمت لساعتى بين يدى الملك ونجا الساقى اللعين إذ زعم عند الملك أنه تواطأ معى ليوقعنى فى شر أعمالى، وكأن الأقدار أرادت أن تسلط بأس انتقامها وتجزينى بإساءتى الماضية فألبستنى جلدة مصرى فتزوجت امرأة جعلتنى عبرة فى الغابرين ومثلاً وأحدوثة فى المتأخرين ولقيت من ذل العيش وثقل الدين وسوء العشرة ما جعلنى أمضى سابقًا أجلى، وكانت هجرتى الثانية إلى قاض شرعى فذكرت ما كنت فيه من الدين والحاجة والفقر فقبضت يدى كل القبض وعشت عيالاً على الناس وحميلة على أهل البر حتى صرت بغيضًا إلى الناس مشنوءًا من صغارهم وكبارهم على السواء فعزلت لسوء سيرتى وشناعتها وقضيت بقية أيامى فى بؤس وخصاصة، ثم صرت بعد ذلك نملة فسمكة ولو شئت أن أقص عليك كل أدوار حياتى وكيف تقلبت بى الأحوال وتنقلت بى الظروف من مدرس إلى جرذ إلى عصفور لاحتجت إلى السنين الطوال لشرحها وتبيانها ولكن أذكرك يا سيدى بتلك الفتاة التى ملك عنانها حبك وخلب لبها فضلك وحسنك والتى كانت تطالعك مع الشمس من نافذتها كل صباح وتسهر لك الليل كل مساء حتى أصابها البرد وماتت، لترى يا سيدى أنَّا صديقان من قديم وأن ليست هذه أول مرة طوقتنى فيها سلاسلك، فعسى أن تدوم لى نفحات برك لتقرن بين قديم النعم وحديثها وتجمع بين تالدها وطريفها.

عبدك العانى

القرد

فلما نزل صاحبنا ورأى القرد ينظر إلى الورقة ثم إليه تناولها وقرأها وما زال إلى اليوم فى ليل من الشك مظلم لا يعلم أكتبتها له أم كتبها القرد.

صور وأخلاق

ملاحظات صديق[١٨]

صدق الشاعر العربى حين قال إن التغرب "يجدد" المرء وإن طول المقام فى مكان بعينه "مخلق لديباجتيه"، فإن الأسفار تنبه الحواس التى تكون قد تبلدت، وتفتح العيون المغمضة وتصقل النفس، وليس من الضرورى أن يتغرب المرء فقد لا يسعه هذا حين يريده، ولكن من الضرورى أن يتنقل كلما استطاع أن يختلس بضعة أيام، وليس من همى أن أكتب فصلاً فى فوائد الأسفار، فقد تكفلت بذلك "الفوائد الفكرية" إذا كانت ذاكرتى لم تخنى، وإنما أردت أن أكرر هنا ما نصحت به لصديق ذهب يصطاف، قلت:

عليك بالفنادق المزدحمة إذا كانت مواردك تسمح لك بالنزول فيها، وإياك والارتماء على أحد من الأقارب أو الأصهار أو المعارف طلباً للاقتصاد، فإنه اقتصاد يضيع عليك أمتع ما يفوز به المصطاف مما لا يجلو صدأ النفس سواه.

ثم رويت له بعض ما حدثنى به صديق آخر قال:

كنت نازلاً فى فندق كبير وكان غاصاً بالمسافرين أو "الضيوف" فلما دق جرس العشاء جلسنا إلى الموائد ولم أكن أعرف أحداً فى الفندق ولكن هذه الوحدة لم تقلل ما أفدت من المتعة، وكان أمامى – على مائدة أخرى مستطيلة – رجل وقور جليل الطلعة

(١٨) نشرت فى مجلة الجديد، ٢٣ يوليه سنة ١٩٢٨ (ص٤-٦).

ولكنه على ما يظهر كان قد روى من الشراب من قبل، وكان يحاول أن يخفى هذا وألا يدع حركاته أو إشاراته تنم عليه أو تشى به، وكان إلى يمينه زجاجة نبيذ فى فمها السدادة فتناولها وأمالها على الكوب دون أن يرفع عينه عن الطعام ثم أعادها إلى مكانها عن يمينه ومضى فى طعامه، وبعد قليل رفع الكوب إلى فمه ليشرب فإذا به فارغ، فبدت عليه أمارات الدهشة وألقى نظرة عن عرض إلى جاره وكان شاباً هائل الأنحاء، ثم عاد إلى الزجاجة فأمالها على الكأس، وعيناه تدوران فى الجالسين ليرى أيلاحظه أحد منهم أم هم عنه فى شغل؟ وأكب على طعامه يلتهمه، ثم رفع الكأس إلى فمه فوجدها فارغة للمرة الثانية فوضعها وهو مغيظ ورمى جاره الشاب الذاهل عنه بنظرة حقد وحنق لو التقطها مصور فى تلك اللحظة لفاز بشىء له قيمة.

ثم كأنما خطرت له فكرة جميلة فهز رأسه لجاره الغافل ونقل الزجاجة والكأس إلى جانبه الأيسر وصب من تلك فى هذه وهو جذل والتهم لقمتين ورفع الكأس فإذا هى للمرة الثالثة فارغة، فكدت أقهقه بصوت عال ولكنى كتمت الضحك بجهد، واعتدل الرجل وفحص جيرانه بدقة ثم دفع الطبق عنه ووضع مكانه الكأس وأمسكها بيسراه وتناول الزجاجة بيمناه وأمالها ليصب منها فلم ير شيئاً ينحدر إلى الكأس فقلب الزجاجة على الكأس فلم تنزل منها قطرة، فنحاها يائساً وجذب الطبق إليه، وفى ظنه على الأرجح أن جيرانه قد شربوها كلها، وإن كانت فى الواقع لا تزال ملأى.

قال صديقى: وبعد أن فرغنا من الطعام تفرق الناس فى الحديقة وفى الحجرات، وكان فى واحدة منها "بيانو" قديم فدنت منه سيدة إفرنجية وأجرت عليه أصابعها وهى واقفة وانصرفت عنه، فقد كانت أوتاره غير صالحة للعزف، ولم يكن موضوعاً هناك إلا للزينة بلا شك، ولكن فتاة مصرية رشيقة شديدة الإحساس بنفسها عظيمة الاعتداد بجمالها ومواهبها جلست إليه وانطلقت "تدق" عليه "دقاً" مؤذناً بختام حياته، وأظنها كانت تريد أن تعزف "يا طالع السعد" ولكنى لست على يقين من ذلك، ولم تكد تعبث فيه حتى تصلبت عضلات الوجوه وشحبت الألوان وصرت الأسنان ومضت هى على دلها

تخرج من الأصوات أشدها تنافراً، وصبر الحاضرين قليلاً ثم لم يعودوا قادرين على احتمال صراخ البيانو وتوجعه فأخذوا يتسللون واحداً فى إثر واحد فراراً من هذه المجزرة الحامية الدامية، التى تقتل فيها الأنغام وتنحر الألحان، ولم أر فى حياتى أتم من هذا النصر الذى خرجت به الفتاة، ولا أكمل من هزيمة "الضيوف" فما بقى فى الغرفة سواى معها، ولم يكن يسعنى بطبيعة الحال أن أخذل مواطنتى الجريئة أو أخونها مثل هذه الساعة، وعلى أن الوطنية لم تكن هى الباعث الوحيد على بقائى، فقد كنت معجبًا بها إذ كان عزفها بالغًا حد الكمال فى بابه، ذلك أن الصوت الذى عزفته كان شر ما أخرجته أنامل امرأة مذ عرف الناس الموسيقى إلى يومنا هذا، فقمت إليها ورجوت منها أن تعيد هذا "الدور" الممتع وأكدت لها أنى لم أسمع مثله، فشاع السرور فى وجهها وعكفت على البيانو بحماسة مضاعفة ونشاط مستجد، وكان الناس فى أثناء ذلك يدنون من الباب والنوافذ ويطلون برؤوسهم وينظرون إليها وهى مُكبة على التقتيل منهمكة فى التذبيح، وإلىّ واقفًا إلى جانبها أشجعها وأستحثها، ثم يهزون رؤوسهم عجبًا واستغرابًا ويمضون، ثم يعيدون كأنما يجذبهم سحر الموقف وفتنة الأمر، وهكذا حتى انتهى الدور فتركت ذراعيها يهويان إلى جانبيها وتنهدت - وحق لها ذلك - ودارت بالكرسى فأدركتها مخافة أن تفطن إلى معنى ما حدث، بقولى إن الموسيقى العربية تكون أجمل حين تسمع من بعيد ولكم تمنيت لو أنى كنت الساعة على شاطئ البحر حين كنت تعزفين.

فقالت مسرورة: أصحيح هذا؟

قلت: أقسم عليه، والآن هل تسمحين لى....

وكنت أريد أن أقول "أن انصرف" ولكنها قاطعتنى بقولها "بكل ارتياح" فخطر لى بأسرع من البرق أن أنسى ما هممت به، وأن أفهم "بكل ارتياح" على غير ما لعلها قصدت إليه فمنحتها ذراعى وقلت: "هيا إذًا بنا إلى البحر".

فوجمت قليلاً ولكن الموقف كان أقوى منها فلم يسعها إلا أن تسير معى، ومضينا إلى الشاطئ والضيوف ينظرون إلينا ويعجبون لنا ولا أدرى لماذا؟ وقالت لى فى أثناء حوار حيرتها فيه قليلاً:

"هل تعلم أنك كنت ظريفًا معى؟"

قلت: "نعم أعلم ذلك"

فرفعت إلىّ وجهها بسرعة وفى عينيها طيف من اللوم وقالت:

"أكنت تضحك منى؟"

قلت: "لا أذكر"

قالت: "إنك لا تتكلم جادًا"

قلت: "أيجب أن أكون جادًا؟"

قالت: "أرجو"

وصمتنا وأشعلت سيجارة فقالت:

"لقد أردت أن تعلم...."

فقاطعتها بقولى: "إنى كنت ظريفًا معك؟"

فهزت رأسها موافقة وهى تبتسم فقلت: "أشكرك، إنى أعلم ذلك"

ثم قالت: "إنى لا أرتاح إلى الرجال"

قلت: "ما أحسن هذه الفاتحة لحديثنا وما أعونها لى"

قالت: "لست جاداً الآن! لقد أردت أن أقول إنك غير الآخرين"

قلت: "أظن هذه قضية مفروغًا منها"

قالت: "لقد أردت حين قلت لك بكل... ولكن لا شك أن هذا جنون"

قلت متجاهلاً: "صحيح؟"

قالت: "إنك فاهم مرادى أليس..."

قلت: "أهو شىء جدى أيضًا؟"

فهزت رأسها بقوة ثم قالت:

"إنى أخشى إذا تكلمت أن تعدنى و..و..."

قلت: "جادة؟"

قالت: "أيغضبك أن أتكلم بصراحة؟"

قلت: "كلا!"

قالت: "أواثق أنت؟"

قلت: "سأستمد من يعقوب بعض صبره"

قالت: "لنفرض أنى فعلت شيئًا فى منتهى الحماقة فماذا يكون رأيك، إنى أسألك لأنى أتوسم فيك..."

قلت: "أحسد الرجل السعيد"

فخجلت وقالت: "ألا يمكن أن تكون جادًا؟"

قلت: "أصغى إلى هذا الكروان! إذا طلبت منه أن يكون جادًا ألا يكون رده أنى سعيد جدًا فلا يسعنى أن أكون جادًا؟"

قالت: "ولكن ألا ترى..."

فقاطعتها قائلاً: "كلا! لست أرى شيئًا، إن الظلام حالك"

فقالت وقطبت وجهها: "إن من الصعب جداً أن يحادثك الإنسان"

وبعد فترة سكون قالت: "ماذا تظن بى ؟"

قلت: "أظن أن الأفضل ألا أقول"

فضحكت وقالت: "إنك متعب والحر شديد.. إلخ."

ولم أرو هذا الحديث من حكاية صديقى إلا مخافة أن يعدها القراء مبتورة، على أنى أرى الوقوف عند هذا الحد والاجتزاء منه بذلك القدر.

صور وأخلاق

روح الشجر[١٩]

قصدت عصر يوم إلى "حديقة الحيوانات" وكان الطريق إليها هو غايتى دونها، ولكنى لما صرت عندها ملت إليها ودخلتها، وكان الجو رقيقًا فجلست فى ظل شجرة لا بالضخمة ولا بالصغيرة، وجعل النسيم يحمل إلىّ ريحها ويسمعنى خشخشة أوراقها، فجرى ببالى النظرية الهندية عن الفنون، وهى نظرية تقول إن مظهر الشجرة مثلاً وشكلها شىء لا ينبغى أن يعنى به الفنان أو يجعل له المحل الأول وإنما ينبغى أن يدرك "الفكرة" أو "الروح" وذلك بالتأمل الطويل وبالانقطاع له، فرفعت عينى إلى الشجرة وحاولت أن أنفذ إلى روحها وأن أدركها من خلال أغصانها الوريقة المطلولة، ولكن خواطرى كانت تشرد ويطرد بعضها بعضًا، وكان وراءها جماعة من القردة فى أقفاصها وكانت هذه (القردة) لا تفتأ تقتاد إليها قسرًا أعنة الحدق، غير أنى كنت أعود إلى الشجرة بعد كل انصراف عنها وأسألها مناجيًا:

"متى تبدين لى روحك؟ ومتى تكونين "الشجرة" كما ينبغى أن تدرك: أحين تسكنين كما أنت الآن ويصافحك النسيم وينثنى عنك بالأرج أم حين تثور بك الرياح؟"

---

(١٩) نشرت فى مجلة الجديد، ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٨ (ص٤).

وأحسبنى لم أزل أحصر خواطرى فى الشجرة وأجمع شواردها حتى نمت، ولكن ظللت أرنو بعينى صاح منتبه فقد بدا لى كأنى أرى فتاة يتهدل شعرها الوحف على كتفيها وصدرها وقد حفت بها - إلى الثديين - الأزاهير ما بين بيضاء وحمراء وبنفسجية، وكان فى وجهها جمال ورقة ولشفتيها حلاوة وعذوبة، وفى عينيها عمق ولهما سحر، وكانت الغلائل الرائعة الأشكال والألوان تتهاوى حولها وتتناثر لا أدرى من أين؟ ولكن عينيها ظلتا تنظران إلىّ وتحدقان فى عينى من خلال هذه الأوراق، وخيل إلى أن نَفَسَها كان ينفخ الأوراق حين تحاذى فمها وهى متهاوية، وبدا لى كأن "أرى" نَفَسَها وأسمعه، وكان فضى اللون لين الموسيقى.

وكان الحب يومض فى عينيها وتندلع ناره فى وجنتيها فهممت بالقيام إليها، ولكنى لو أقو على النهوض وقيدنى إلى مقعدى ما لا أعلم، وكنت كلما خبت وعجزت عن القيام اقرأ فى عينيها الأسف، وكانت ذراعها العارية ممتدة كالتى (تشير) إلى شىء، وراحتها إلى السماء وبين السبابة والإبهام زهرة بيضاء، فنقلت عينى إلى أصابعها فراعنى منها أنها كأشعة القمر باهتة طويلة لينة.

وإنى وإياها لكذلك إذ حط على هذا الذراع غراب أسحم]فكاد [صدرى ينشق من الغيظ والنقمة والاشمئزاز، وخيل إلى أن الرعدة سرت فى كيانها وهى تمرر كفها الأخرى على رأس الغراب وظهره، ولم أفهم لماذا لا تزجره عنها، وكيف تلاطفه وهى ترجف منه؟ ولكنى كنت أرى أن الغراب سعيد قرير العين فزادنى ذلك سخطًا فانتفضت أريد القيام إليها، ولكن قوة أكبر من عزمى صدتنى فارتميت على المقعد منهوكًا، ورأيتها فى تلك اللحظة تتلوى وتتثنى كأنما تعالج هى أيضًا أن تتفلت وتأتى إلىّ، وهفا النسيم بشعرها فسبحت خصلة منه إلى ناحيتى، حتى الغراب الذى على

ذراعها كان يهز لى رأسه ويحدق فى وجهى ويلحظنى لحظات إشفاق كأنما كان يدرك أنها ساعة فوزه، فلم أطلق صبراً ومددت إليها يدى ولمستها بأطراف أصابعى وحمل النسيم شعرها إلى فمى فأسكرنى أريجه وأغمضت عينى ولم أعد أعى شيئًا ولما فتحتهما لم يكن أمامى سوى الشجرة ومن ورائها أقفاص القرود.

أهى روح الشجرة تلك التى تراءت لى فى هذا الحلم المضطرب.

صور وأخلاق

الرجال والنساء على التليفون[٢٠]

كنت جالسًا مرة اقرأ فصلاً من كتاب لـ"شلجل، ولا أكاد أفهم منه شيئًا على الرغم من العناية والتدقيق وحصر الذهن؛ فطلبت منى سيدة - وليس يعنى القارئ أن يعرف من هى! - أن أدعو لها سيدة أخرى إلى التليفون، فوضعت "شلجل" حيثما اتفق وقمت إلى التليفون وطلبت الرقم ولما أُجبت مددت يدى بالسماعة إلى السيدة وعدت إلى مجلسى وإلى "شلجل"، ولكنه لم يسعنى إلا أن أسمع هذا الحديث العجيب، وليس هو بالغريب أو العجيب فى ذاته فإن النساء كلامهن أبدًا هكذا، ولكنما الغريب فيه أنه ذو طرف واحد، وأن الطرف الثانى مفقود ولا أحتاج أن أقول إنى لو كنت هربت إلى أقصى ركن فى البيت لظلت هذه الناحية من الحديث تدركنى كليل النابغة!

أللوا فلانة؟ كيف أنت؟

متشكرة.

منذ متى؟

يا سلام!

(٢٠) نشرت فى مجلة الجديد، فى أول أكتوبر ١٩٢٨ . (ص٥-٦).

لا! ليس هذا.

يغلى الماء وفيه العلبة مقفلة كما هى ثم تسوى المادة على قطعة من الشاش وتوضع على الظهر أربعًا وعشرين.

نعم؟؟ لا أسمع، ألو ألو ما لهذا التليفون؟

هكذا دائمًا.

معى فى نفس الغرفة.

مرسى يا ستى.

لا خير فيه على الإطلاق.

كم؟ كم؟

لا. لقد أخذته بأقل من ذلك كثيرًا.

نعم شكوريل.

أختى؟

لا؛ لا تحلو إلا مشوية!

الأولاد؟ كيف هذا؟

مستحيل.

إنكِ تدهشيننى!

أعوذ بالله.

ووالدتها؟ هل كانت حاضرة؟

لا أذكر.

أحبها جداً ولكنه يكرهها ولذلك لم يشتر من أدواتها إلا واحداً أو اثنين.

كلا! إنى مرتاحة جداً.

إذا استطعت (لم أعد أشعر بذراعى من التعب).

لا لا لا! إنه لا يلتفت إلينا.

صحيح والله، لقد اعتاد العمل فى وسط الضجيج.

هنيئًا يا ستى!

لا بأس، أوريفوار.

أبداً.

يوم السبت؟ حسن، أوريفوار.

لا لم أرها منذ شهر، أوريفوار، مع السلامة.

الله يسلمك، مع السلامة.

صحيح؟ هذا شىء يسرنى، سأكلمها على التحقيق، أوريفوار.

متى؟ لم أسمع بهذا إلا الساعة.

غداً؟ انتظرى لنذهب معاً.

هذا واجب، لقد فرحت لها جداً.

لم تقل لى شيئًا مع أنها كانت عندى أمس.

الله يسلمك، مع السلامة يا ستى.

لم أتعب أبداً.

والله، أوريفوار.

ثم وضعت السماعة وهى تقول: "أشهد أن لا إله إلا الله".

وهكذا يقطع النساء الحديث ويصلنه، مرة وأخرى وثالثة ورابعة إلى غير نهاية، فحديثهن لا يطرد فى مجرى ولا ينقطع إلا ليتصل ولا يتصل إلا لينقطع، وهو وثب غير منتظر، كالشرار الذى تقدحه حوافر الخيل، وليس كذلك الرجال، فإن "أوريفوار" حين يقولونها - إذا قالوها - باتة نهائية لا رجعة فيها، ولا كلام بعدها.

صور وأخلاق

الأديب[21]

السؤال الخالد لا يفتأ الأديب يلقيه على نفسه كلما فتح عينيه على الدنيا هو: "كيف صحتى اليوم؟" أو قل إذا شئت إن هذا أول خاطر يجرى بباله كل صباح، ذلك أن صحته أغلى ما فى الدنيا، وأكثر ما يكون الأديب فى صدر حياته وحداثة سنه، على يأس غير قليل من طول العمر، وتمضى الأيام وتتعاقب السنون وهو لا يموت ولا يرى أنه صار أقرب إلى القبر مما كان فى اعتقاده، فيعود إليه الاطمئنان ولكنه لا يكون صرفًا ولا خالصًا بل يظل مشوبًا بمقدار من القلق يدفعه إلى التحفظ والرعاية وتوقى أسباب التلف، ولست أدرى أهى السن التى تفعل ذلك أم غيرها؟ ولكن الذى أدريه أن المرء فى شبابه لا يُعنَى نفسه بالوقاية بالغًا ما بلغ سوء اعتقاده فى صحته، حتى إذا جاوز الشباب ودخل فى حدود الرجولة صار همه التوقى والاحتياط وهو فى الأديب شىء يبعث على الابتسام المقرون بالعطف، ذلك أن حرصه على حياته ليس مجرد تعلق بالدنيا وتشبث بالحياة، بل هو متصل كذلك وإلى حد غير قليل بتقديره لنفسه ورأيه فى آثاره، فكأنه يُشفق على الدنيا أن تخسره.

وبعد أن يدير الأديب عينه فى نفسه إذ يقوم من رقاده ويتحقق أنه لا يشكو شيئًا وأن جسمه سليم، يروح يشتغل بغير ذلك ولكن نفسه تظل عنده بين العين والقلب؛ فهو

---

(٢١) نشرت فى مجلة الجديد، ١٥ أكتوبر ١٩٢٨ . (ص٤-٥).

مثلاً يسأل زوجته أو أمه أو ابنه "كيف أصبحت؟"، وبينما يجيب المسئول يكون هو قد انثنى إلى شأنه وارتد إلى نفسه وراح يقول مثلاً: "يحسن أن أُدير المقال على الموضوع الفلانى وأن أكتبه هذه المرة فى كذا وكذا" أو "أن فلان الفلانى لم يفطن إلى المغزى الذى قصدت إليه، إن هذا الغبى يحسب أن فكاهتى ليس وراءها شىء! ماذا يصنع المرء لهؤلاء الناس؟ أيخلق لهم العقول التى يفهمون بها الكلام على وجهه؟".

وتكون اللقمة فى فمه والحديث على المائدة دائرًا وهو يضرب كغيره فى زحمته، ويلقى إلى هذا كلمة، وإلى تلك ملاحظة، ويجيب على ما يُسأله، ويبدى رأيه فى كل شىء، ولكنه مع هذا لا يكف عن محادثة نفسه، فيقول لها مثلاً :"متى أُتم روايتى التى بدأتها؟ إن بى حاجة إلى فراغ طويل، فإن من الإرهاق أن أجمع بين عملين؛ وستكون هذه أول رواية عربية بالمعنى الصحيح فلا بد من الأناة والتجويد ونفض الطريق قبل الإيغال فيه".

ويحلق ذقنه قبل ذلك، وليس أعون من الحلاقة على التفكير، فإن هذه، كما يستطيع القارئ أن يدرك إذا لاحظ نفسه، ساعة الابتكار والتوليد، وهى لهذا ومن أجل هذا ساعة تتوتر فيها الأعصاب، وتعود كالوتر المشدود، لأن المرء لا يزال من فرط ذهوله يجرح نفسه فيسخط ويهيجه أن يرى نفسه مضطرًا إلى أن ينزل من سماء الفكر للبحث عن الكولونيا يريقها على الجروح والقطن يمسح به الدم، وتأبى زوجته أو أمه مثلاً إلا أنه تخاطبه فى هذه الساعة فى شأن لها أو للمنزل فيرد عليها وهو لا يكاد يعى ما يقول، وقل إنه يذكره بعد أن يفوه به، وما أكثر ما يحتج على أنه لا يجد وقتًا للتفكير المنتظم المطرد.

ويذهب إلى الحمام وذلك أنسب الأوقات للفلسفة وخواطرها، وربما اشتهت نفسه أن يفضى إلى إنسان آخر بما يهتدى إليه ويوفق له من الآراء العميقة، وقد ينسى موقفه وما هو فيه من فرط استيلاء هذه الرغبة على نفسه فيصيح بزوجته من وراء الباب "لقد تبينت أن الحياة إنما تقوم على..." ولا تكون زوجته من اللواتى يكترثن للفلسفة أو

يعبأن بالأدب أو يفهمن هذا الشذوذ الذى يبدو لهن أو يصبرن عليه فتقطع عليه الفكرة وتأخذ عليه متوجهها بكلام لا يشجع على العبارة عنها أو يعين على إيضاحها.

ثم يخرج ويلبس ثيابه، وقد يقف لحظة أمام المرآة ويناجى نفسه :"لماذا لا أستطيع أن أحصر خواطرى كما ينبغى؟" ويتناول الجاكتة فيلاحظ أن "زرارًا" يوشك أن يسقط فيتقدم إلى زوجته لتثبته وهو متبرم من إضاعة الوقت فى هذه الصغائر، وتتناول زوجه الخيط والإبرة وتعملها فى الزرار وقد تقارب حاجباها وانزوى ما بين عينيها من فرط استغراق هذا العمل لها، فيقول لنفسه :"تالله ما أعجبها؟؟ كيف تستطيع الصبر على هذه التوافه طوال اليوم من أجلى؟".

ثم يمضى إلى عمله؛ وليكن عمله ما يكون فما يكظ ذهنه ويملأ شعاب صدره غير نفسه.

صور وأخلاق

القصص والحياة[٢٢]

زارنى مرة صديق أديب، فوجد فى يدى قصة، فسألنى عنها، وتناولها منى ليلقى عليها نظرة على عادة الأدباء فيما بينهم - وهم، كما تعرف، أو كما لا تعرف، من أشد الناس فضولاً - فوجد الصفحات الأولى متشابكة لم تفتح فنظر إلىّ عن عرض فابتسمت وهززت كتفى وقلت :"ماذا يهم؟".

فوضع الكتاب على رجله وحدق فى وجهى ولم يقل شيئًا، فغاظنى هذا الوجوم وما ينطوى عليه من سوء الظن بعقلى وركبنى عفريت العناد فقلت متحديًا له :"إنى أسألك ماذا يهم؟؟ أليس عندك جواب؟".

قال: "جواب؟ كلا!"

قلت: "ألا يستطيع المرء أن يبدأ قصة من الفصل السادس أو السابع أو من آخرها راجعًا إلى أولها؟".

قال: "كيف يستطاع هذا؟"

فأحسست بالضجر من هذا الغباء والتفت إليه وقلت وفى لهجتى بعض الحدة :"متى عرفتنى؟".

---

(٢٢) نشرت فى مجلة الجديد، ٢٤ أكتوبر ١٩٢٨ . (ص٤).

قال: "وما دخل هذا؟".

قلت: "أجب ما دمت تأبى إلا أن تحور تلميذًا صغيرًا".

فبهت وأطرق وندمت على هذه القسوة ولكنى كنت محرجًا فواصلت حملتى وقلت: "هل عرفتنى مذ جاء بى أبواى إلى هذه الدنيا السخيفة؟"

وكأنما فطن إلى هذه المعنى الذى فى نفسى وكانت فيه دعابة فابتسم وقال: "معذرة إذا كنت أسأت الأدب، فلست أحتاج أن أؤكد أن لك فى نفسى احترام الوالد".

فتغاضيت عن هذا وقلت: "إن الإنسان يعرف صاحبه فى وسط الطريق، كما عرفتنى أنت، وكما هو الأغلب والأعم ولا يشعر أحد منا بالحاجة إلى أن يكر راجعًا إلى أول الطريق ليعرف من أين ابتدأ صاحبه وكيف كانت بدايته، ولا يمنعه جهله بالبداية أن يلم بصاحبه ويخبره ويعرف عنه كل ما يعنيه أن يعرف، وأن يجد فى قصة حياته إمتاعًا كافيًا، وقد تفرق بينهما الأيام بعد ذلك زمنًا طويلاً أو قصيرًا، ويعودان إلى اللقاء ويستأنفان السير معًا، ولا يشعران بهذه الحلقة التى سقطت من سلسلة حياتهما، وليس هذا بمانع أن يحيط كل منهما ببداية الآخر شيئًا فشيئًا أو أن يقف منها على طرف أو أطراف ولكن جهلهما بالبداية - إذا ظلا يجهلانها - لا يؤثر ولا يقدم ولا يؤخر، ولو أنك عنيت بأن تسأل نفسك عما تعرف عن بدايات من تتصل بهم كل يوم من الإخوان لراعك مبلغ جهلك، كذلك القصة تقرؤها من أولها إذا شئت، أو من وسطها إذا أحببت - سيان - أو تكر راجعًا من فصلها الأخير إلى بدايتها، وليس خير القصص تلك التى لا تمتع القارئ إلا إذا تناولها من الفاتحة ومضى معها خطوة خطوة إلى الخاتمة، فإن هذا اطراد يخطئه المرء فى الحياة التى لا تزال يعتورها الاضطراب، وتنقطع منها حلقات وتتصل أخرى ويعفى فيها جديد على قديم وتنبت حبال وتستمر أخرى، لا على قاعدة ولا سنة ولا على مقتضى منطق ومن أين يبدأ موج البحر؟ إن البحر هو البحر، تراه من فوق ظهر السفينة أو من الشاطئ أو وأنت سابح على متنه - كله بحر، وكله فتنة وسحر

وإمتاع وروعة وجلال، وكذلك الحياة، ومثلها ينبغى أن تكون القصص، وأنا أتناولها على هذا الوجه فإذا خذلتنى ورأيت نفسى أتعثر وأحتاج إلى الرجوع والكر رميتها وعددتها صوراً مزورة مكذوبة لا حاجة بى إليها ولا خير فبها لى".

قال: "لا أدرى! ربما كان الأمر كما تقول".

قلت: "ستنتهى إلى مثل رأيى، فكر فى هذا بعد عشر سنوات".

قال: "سأفعل".

وقد مضت سنوات على هذا الحديث ولعل صاحبى نسيه فإن كان قد فعل فهذه تَذْكِرة!

صور وأخلاق

نزاع النفس إلى الحرية[٢٣]

لى صاحب يغالى فى تحرى التقاليد والآداب المرعية، ويفرط فى ذلك إلى حد يزهق النفس ويحرج الصدر، فكل ما فى الدنيا عنده لا يخرج عن أحد أمرين: ما يليق وما لا يليق، حتى الطعام لا يشاور فيه رغبته وما تشتهى نفسه، بل ما يليق بمثله أن يأكل وما لا يليق أن يروى عنه أنه يستمرئه من الآكال، وهكذا فى كل شىء، وقد أضجرنى منه هذا، واتفق أن كنا فى مجلس حافل ففاجأته بهذا السؤال: قل لى يا فلان :ألم تنازعك الرغبة قط أن تتمرغ فى التراب كالحمير؟

فبهت – كما بهت الذى كفر فيما روى كتاب الله الكريم – واندلعت النار فى وجهه وزغردت منه عينيه وقال فى غضب وحماقة: "ماذا تعنى؟ أتريد أن تهيننى؟"

قلت فى سكون: "كلا! إن الاستخفاف بك لا يخطر لى على بال، ولكنى أريد أن أنبهك إلى أن لك نفساً، وأن لك من أمرها شيئًا، وأن حق الناس عليك واستيجابهم منك رعاية التقاليد المقررة بينهم والاضطرار إلى ملاحظة اللائق وغير اللائق – كل هذا له حدوده".

فلم يفطن إلى غرضى وله العذر، ولم يدرك العلاقة بين السؤال وشرحه وقال فى دهشة: "ولكن ما علاقة هذا بمساءلتك إياى هل لم تطلب نفسى أن أكون حماراً؟؟"

---

(٢٣) نشرت فى مجلة الجديد، ٢٤ ديسمبر ١٩٢٨، (ص٤).

قلت: "هون عليك، فما أنت بالذى يصلح أن يكون حماراً، ثم هون عليك مرة أخرى فإن للحمير قيمتها ومزاياها والإنسان فى نهاية الأمر حيوان، وأنا لا أريد إلا أن أعرف منك إلى أى حد تضيق ذرعًا بقيود الاجتماع وبالاضطرار إلى النزول على ما تقضيه ضرورات الحياة، وماذا يبلغ من حنينك إلى الحرية وشوقك إلى استعمالها بأوسع المعانى".

فعاد يعترض ويقول: "ولكن هل الحنين إلى الحرية يستوجب أن يشتهى الإنسان محاكاة الحمير؟"

قلت: "إن كلمة الحمير هنا عرضية فألقها من النافذة إذا شئت وأسقطها من جملة الحساب وتفصيله، وأنا أريد أن أقول إن الإنسان لا يكون إنسانًا إلا بمقدار نزاعه إلى الحرية ونشدانه لها وتململه من أغلال العادات وأصفاد التقاليد ولا أظن إنسانًا حقيقًا بهذا الاسم إلا اشتهت نفسه أن يكون قادراً على أن يفعل ما يشاء من غير أن يحسب لشىء حسابًا ويتقى ملامًا أو يخشى تعذيراً، وليس التمرغ الذى سألتك عنه إلا مَثل تعمدت أن أتخيره متطرفًا أفلا تحب أحيانًا أن تضحك ملء فمك فى الطريق وأنت سائر فيه وحدك أو أن تقطعه جريًا ووثبًا من غير أن تحفل الناس؟ ألا تشعر أحيانًا بنشاط الحياة يفيض به جسمك فتتمنى لو وسعك أن تأتى عملاً جثمانيًا يرفه عن أعصابك ويستنفد مقدراً من هذا النشاط الذى يعيى به بدنك، كالأطفال يجرون ويتوثبون ويحطمون أوانى الزهر ويقلبون الكراسى ويمزقون الورق ويخرقون الصور لا لأنهم يبغون أن يحدثوا هذا التلف بل لأنهم لا يدرون ماذا يصنعون بهذه الحيوية الواقفة فى أجسامهم الصغيرة، والفرق بين الطفل والرجل هو أن الرجل لكونه أنضج يستطيع أن يحول النشاط الجثمانى إلى مجار عقلية مثلاً، غير أن هذا لا يمنع أن يحس بالرغبة جامحة فى مثل حرية الطفل التى لا تتوقع الاعتراض، بل فى مثل حرية الرياح".

فلم يفهم صاحبى وظل ينكر منى أن جال بخاطرى أنه يمكن أن يحلم بمحاكاة الحمير، ولم تُجده هذه الصدمة بل لعلها زادته تعلقًا بلياقته لينفى كل شبهة عسى أن تكون قد جرت ببالى فى حماريته.

صور وأخلاق

الحب والسعادة[٢٤]

خرج الفتى والفتاة من زحمة الرقص التى كانا يضربان فيها والعرق يتصبب من جبينهما، وكانت الساعة الأولى صباحًا، ودبت بهما الرجل إلى باب الفندق فخرجا إلى الهواء وسارا فى الطريق على غير قصد، وكان ذراعها حول ذراعه، حتى وقفا على النيل فرفعت الفتاة إليه عينها وقالت:

"أتدرى بأى شىء أحس؟"

"قولى.."

قالت: "كأنى ربوة تشرق عليها الشمس وتغمرها بالضياء".

قال: "وأنا أحس كأنى هذه السحابة المصفرة فيها الرياح".

قالت ومالت إليه: "بل أحس كأنى شجرة تفاح تنضج وتطرح ثمرها".

فاستوى ورفع رأسه وقال: "إنى أشعر كأنى عملاق".

فلصقت به وأسندت خدها إلى ذراعه وقالت: "إنى أحس كأنى الآن أنشودة".

قال وأحنى رأسه إليها: "هل أغنيك".

---

(٢٤) نشرت فى مجلة الجديد، ٧ يناير ١٩٢٩ . (ص٤).

قالت: "ليس هنا فوق الجسر، بل فوق عباب الماء المنحدر".

قال: "ولا فى هذا الموضع، بل حيثما تتداح على جانبيه سهول لا يأخذ الطرف آخرها، وتعود الوحوش إلى شاطئيه لتشرب، وتكون الشمس مشرقة والقمر مضيئًا، وهناك فى حيث لا نراه، يغنى إنسان آخر ونكون نحن فوق الماء..."

فقاطعته: "هلم بنا نجر".

وانطلقا يعدوان ويدها على كتفه، وذراعه حول خصرها، وهو لا ينفك بعد كل بضع خطوات ينظر إلى وجهها الندى، وقد خيل إليه أن فى وسعه أن يجرى إلى آخر الدنيا ما دامت إلى جانبه.

ثم وقفا وقد صارا إلى حيث لا يعلمان، ونفضا المكان بعيونهما ثم كرا راجعين فى صمت هو أعذب فى النفس من كل كلام، وأحلى فى القلب من كل نجوى، وكانت السيارات تمر بهما خطفًا فلا يريان إلا ذراعًا عارية أو رأسًا يميل على صدر وقد تصافح مسامعهما ضحكة فضية، وكان كل شىء فيما عدا ذلك ساكنًا ملفوفًا فى شملة رقيقة من الظلام، فوقفا تحت شجرة صغيرة صامتين يحدقان فى السيارات التى تخطف أمامهما، ثم استأنفا السير والكلام أيضًا فتناولا كل موضوع - الأعياد والدين والسياسة والحرب والكرة والزواج والشيوعية والثورة فى الأفغان، وتاجور، ومذهب دارون، حتى صارا مرة أخرى على الجسر الذى اجتازاه فوق النيل قبل ساعة، فوقفا عليه مرة ثانية وأطالا النظر إلى مائه الذى ينساب تحتهما متدافعًا متزاحمًا بين عمد الجسر، كأنما كانا قد آليا أن يظلا كذلك حتى يشهدا مشرق الشمس عليه.

ثم ثنى الفتى إليها عينه فالتقت بعينها وشاعت فى كيانه الغبطة إذ قرأ فى وجهها أنها تحبه وكأن نظرته أغرتها فدفعت كفها إلى عنقه وجذبت فمه إلى فمها فالتقت الشفاه فى قبلة.

بعد ذلك رجعا خفيفين كأنما كان كل منهما قد حط عن كاهله وقرا، ولم يجر بينهما حديث كأنما أغنتهما القبلة عن كل كلام وأحسا كأن لم يعد لهما جسم وكأنما أضحا روحين يهفوان على جناح النسيم.

تلك كانت قبلة الحب الأولى.

وهما الآن زوجان، ولا يزال الحب بينهما على أحر ما كان ولكنهما غير سعيدين، فهل هذا لأن الحب القوى يجعل الأعصاب كالوتر المشدود الذى يوشك أن ينقطع، ويرد النفس قابلة لمعاناة الهزات العنيفة ولو من أتفه الأسباب؟ فأيهما يا ترى يكون خيراً: حب كهذا جامح قوى يعصف بالسعادة أم حب فاتر وشيك الزوال أم لا حب بل صداقة وود معتدلان كالذى يكون بين الإخوان؟؟ لا أدرى ولعل غيرى ليس أدرى منى؟؟

صور وأخلاق

المرأة(٢٥)

المرأة – أو الأنثى إذا شئت – مظهر قدرة ليس وراءها قدرة، لأنها هى عمدة الحياة ومعولها، وليس الرجل – إذا ذهبت تعتبر الواقع – إلا مضافًا إليها ومحمولاً عليها، ولا أريد أن أطيل فبحسبى وحسب القراء آيتان من أبرز هذه القدرة، أولاهما: أن المرأة رمز للتضحية بالنفس، فهى فى سبيل النوع تستهدف للموت، ومع أنها تعانى فى الوضع من الغصص ما يكون الموت رحمة إذا قيس بها، فإنها لا تزال تطلب النسل وتريد الذرية وتلقى بنفسها إلى هذه التهلكة التى لا تنجو منها حين تنجو إلا بأعجوبة، وثانيتهما: العواطف التى تثيرها الأمومة، ولنسائنا المصريات مثل يذكرنه حين يذكرن هذه العواطف، فيقلن ما معناه "أن القطة وثبت بصغارها فوق سبعة بيوت"، ما أظن بالقارئ إلا أنه رأى مرة قطة تحمل صغارها فى فمها وترحل بها من غرفة إلى غرفة خوفًا عليها وضنًا بها أن يصيبها أذى، ولست أعرف منظرًا أروع من هذا أو أجمل.

ويجىء الطفل الجديد إلى الدنيا فتتولاه الأم الناجية من الموت، ترضعه وتلاطفه وتأرق له ولا يضجرها بكاؤه أو صراخه، وتهد كيانها العناية به والتعب فى سبيله، ولكن صبرها لا ينفد وعطفها لا ينضب وحنانها لا يفتر، وقد يستقل القارئ هذا لأنه لم يفكر فيه ولم يجعل باله إليه، وليس أحق بأن يعينه على تصور هذا الجهد الهائل من أن

---

(٢٥) نشرت فى مجلة الجديد، ٢٨ يناير ١٩٢٩ . (ص٥-٦).

يحاول أن يقوم مقام الأم فى تعهد طفل رضيع يكابد شيئًا من الألم ولو ربع ساعة - كما فعلت أنا - عمدت إلى طفل لى معجب بقوة حنجرته فرح بجدتها فحملته وصنعت كل ما أرى أمه تصنعه من هز وتربيت ورفع وحط وغناء ومداعبة فلم أفلح، فقعدت به فزاد صراخه، فنهضت فلم يكف عن الصياح، فلثمته فلوى عنى وجهه الصغير فقلت لعل نظارتى تخيفه وخلعتها وحملقت فى وجهه بعينى عاريتين فبدا لى كأن هذا صار أدعى إلى فزعه، وخطر لى أنه لعله لا يرتاح إلى رؤية شاربى، وعز على أن أحلقهما من أجل سواد عينيه وهما كل - أو على الأصح جل - ما يميزنى عن الأطفال، وعلى أنى لو أردت ذلك لما وسعنى وهو يعول، فاكتفيت بشىء من (البودرة) مسحتهما به لأخفيهما عن نظره أو أحيلهما أحلى فى عينه وأمتع لناظره، فكأنى أريته عفريتًا فعجبت ومضيت إلى المرآة وتأملت وجهى فيها فخيل إلى أنه قد يكون أدعى إلى الضحك، أما الصراخ فهذا ما لم أجد له مسوغًا، وحططته على السرير عسى أن تكون رقدته عليه أبعث على راحته فجعل يشيل رجلاً ويحط أخرى ويهم برأسه كأنما كنت قد أنمته على شوك، فحرت وأعيانى أن أهتدى إلى حيلة تسكته وضاق صدرى بهذا الصياح وشعرت كأن أذنى تتمزق وحدثتنى النفس أن أضع كفى على فمه غير أنى خفت العاقبة، فتوسطت وجعلت أضع أصابعى وأرفعها بسرعة فلم تعجبنى الأنغام التى صرت أخرجها بهذه الطريقة، فدرت أتلفت فى الغرفة وأنفخ وقد أحسست أنى لا أتردد إذا طال الأمر، فى إلقائه من النافذة، ولم أجد مفرًا من دعوة أمه فلم يكد ينتقل إلى ذراعها حتى أمسك فجأة وبدأ يبتسم!

وقد سألت أمه عن سر هذا، وبينت لها أنى فعلت كل ما أراها تفعل ولكن على غير جدوى، فسرها إخفاقى وأخافها ما علمته من سرعة ضجرى وقالت فى بساطة وهى لا تدرك مبلغ ما فى قولها من العمق: (ليس ليدك من الحنو ما ليد الأم)

والأم تصبر على هذه المتاعب لا يومًا ولا ليلة، بل شهورًا وأعوامًا، فلا يدرك نفسها كلال، ولا يعتور حنوها الملال بل ينمو معه حبها له.

صور وأخلاق

مناقشة منتجة(٢٦)

لى صديق دائم التسخط والتذمر وإن كان بطبيعته أميل إلى المجون والدعابة، ولكن الحياة قست عليه بعد أن بسم له الحظ زمنًا فهو خليط عجيب: يشوقك ويُملك، ويقبض نفسك ويشرحها، ويسود الدنيا فى عينيك وهو يجلو لك مفاتنها ويكشف لك عن مهازلها، ويضحكك منها وهو يثيرك عليها، وأنا آنس به وأرتاح إليه وأحبه ولا يكربنى تسخطه لأنى من طول ما عاشرته، أستطيع حين أشاء أن أفىء به إلى الرضى، على أنى لست خيرًا منه وقد تثقل وطأة الحياة على كاهل صبرى فيرفه عنى أن يعاطينى السخط ويبادلنى النقمة على الدنيا.

وقد لقيته منذ أيام فسألته: "أين تنوى أن تقضى هذا العيد؟".

قال: "وأين تظننى أقضيه؟" وهز رأسه ولوح بيديه مستغنيًا بذلك عن الكلام،

فأدركنى العطف عليه وعلى نفسى أيضًا فقلت: "ليتنا نرتد أطفالاً صغارًا!".

قال: "أى والله" وعاد إلى رأسه يهزه وإلى كفه يقلبها فقلت:

"إن العيد للأطفال ثياب قشيبة وزمامير وكرات ولعب وصخب بلا خوف من الزجر، وهو عند النساء فطير وكعك وفاكهة تزار بها المقابر وتوزع على الفقراء أو تقدم للضيفان دونهم، وهو عند الرجال نفقة ليس لها آخر معروف ولا علاج موصوف...".

---

(٢٦) نشرت فى مجلة الجديد، ١٨ مارس ١٩٢٩ . (ص٤).

فقال مقاطعاً: "إن أعيادنا أسخف الأيام ونحن فيها أحمق الناس".

قلت وقد سرني أن يرد عينه عن نفسه إلى الدنيا: "وكيف ذلك؟".

قال: "أبك حاجة إلى السؤال؟ أى معنى لقضاء الأعياد بين القبور؟ لقد صرنا أمواتاً - جثثاً محنطة - لطول ما انصرفنا عن الحياة إلى الموت، وأظنك أنت الذى قلت فى قصيدة: "إن مصر متحف كبير".

قلت: "دع ما قلته ولا تشوهه من فضلك، وقل لى أليس هذا التفكير الدائم فى الموت أدل على دقة الإحساس بالحياة، وأنم على الشعور العميق بها وعلى استقلال مدتها واستصغار فسحة الأجل فيها؟".

قال: "ماذا تعنى؟".

قلت: "أعنى إن مصر هذه التى لا تعجبك مدهشة، وما أظن بها إلا أن لها سحراً يمصر كل طارئ عليها، ودخلها اليونان فتمصرت أديانهم وفنونهم، وفتحها العرب فتمصرت حياتهم وأعيادهم، هى بلاد تهضم كل ما يدخل فيها وواد "يؤقلم" كل ما يحل فيه، ونحن الآن، فى القرن العشرين، لا نزال نفعل كما كان يفعل قدماء المصريين أو الفراعنة كما نسميهم، كانوا يبنون الأهرام وينقبون القبور فى الصخر الأصم ويرفعون فوقها أو على كثب منها الهياكل والمعابد ويدفنون مع الموتى كل ما ألفوا فى حياتهم من الأفرشة والآكال والأشربات - فهل ترانا نفعل غير ذلك؟ ألسنا نشيد المدافن واسعة رحيبة ونؤثثها ونتخذ فيها حجراً للنوم وللاستقبال ولتلاوة القرآن والأدعية والصلوات؟ وأعيادنا التى أخذناها عن العرب ألم نقلبها مواسم لزيارة القبور؟ فهذه الروح القوية التى لا تقهرها الحقب والأجيال الطويلات المدد ولا تعفى عليها المدنيات الأجنبية التى تغزو البلاد وتستفيض فيها، بل التى تغزوها المدنية الفتية فلا تلبث هى أن تطبعها بطابعها وتفيض عليها صبغتها الخاصة - أقول وأسألك: هل هذه الروح المصرية القهارة لا تروعك ولا تحرك فى نفسك إلا معانى الاستخفاف والسخط؟".

فأطرق قليل ثم قال: "ولكنها روح لا تبعث إلا فنون الموت".

قلت "إن الموت ليس سوى وجه من وجوه الحياة، والذى يحسن فنون الموت يحسن فنون الحياة: الطب والكيمياء والهندسة والحفر والتصوير والأديان والآداب إلخ – كل هذه نمت فى ظل الموت الذى عنى به الفراعنة، فلا تنظر إلى الموت، ولكن انظر إلى الشجرة الوريقة التى أينعت فوق القبر".

قال: "يعنى..."

قلت: "يعنى إن الحياة أعقد من فلسفتك الساخطة العمياء، والآن أجبنى أين تنوى أن تقضى العيد؟".

فابتسم وقال: "أما والله لأقضينه معك!"

وهكذا خرجت من الحوار البرىء بضيف باهظ التكاليف.

صور وأخلاق

إرادة الحياة[٢٧]

أذكر أني مرة – منذ بضع سنين لا أدرى عددها – كنت جالسًا مع لفيف من إخوانى، وكنا نجدّ تارة ونهزل أخرى، وكنت يومئذ لا أزال أقول الشعر فقلت وقد جر الحديث إلى ذلك:

إن الموت ثمرة الحياة.

وكان أحدهم رفع الكأس وكاد يلمس بها شفته فردها ونظر إلىّ ووضعت يده الكأس ثم قال: "يعنى ماذا؟".

فساءنى ألا يفطن إلى هذا المعنى الشعرى الجميل وأدركت أنه لم يطلع على "ديوانى" ولم يقرأ فيه قصيدة لى فى هذا المعنى، فامتعضت ولم أجبه، وبأى شىء أجيب والألفاظ نفسها ترسم الصورة ولا تفتقر إلى شرح؟

وسمعت آخر يعجب للناس لماذا صاروا أقصر أعمارًا، فقال ثالث: "إن وطأة الحياة أثقل ومطالبها أشد إجهادًا".

فقلت وعدلت بالخطاب إلى صاحبى الذى ساءنى: "يمكنك أن تفهم على الأقل أن الموت هو نفاد الحيوية".

---

(٢٧) نشرت فى مجلة الجديد، ١٥ أبريل ١٩٢٩ . (ص٤-٥).

فلم يعبأ بى وقال: "ليس فى هذا جديد".

قلت: "سنصل من "الألف" التى تراها "الياء" التى لا تبدو لك، يعنى إنفاذ إرادة الحياة".

فابتسم فقلت وقد زدت غيظًا: "يعنى أن فى وسعك أن تحيا مائة سنة لو صحت إرادتك على ذلك، وإن كان لا داعى له".

فنحى الكؤوس والأطباق عنه ووضع ذراعيه على المائدة وأقبل علىّ يقول: "هل تعنى أن..."

فقاطعته وقد كرهت وجهه بلا سبب وأحسست أن النظر إليه يستفزنى وقلت وأنا لا أكاد أستطيع أن أضبط لسانى: "أعنى إنى لن أموت ما بقيت "أريد" الحياة".

فنظر كل منهم إلى جاره، وصفق أحدهم، وفهم الباقون مراده فوقفوا ثم انصرفوا عنى.

***

ونسيت على الأيام هذه المناقشة التى أثارت الشك يومئذ فى صحة عقلى، ثم اتفق لى أن قرأت قصة صغيرة فى مجلة إنجليزية يصف فيها كاتبًا رجلاً من أهل مراكش أو الجزائر - لا أذكر - عاش على ما سمع ألف عام، والقصة متخيلة كما لا حاجة بى أن أقول، والمهم فيها هو أن كاتبها يعلل هذا بأن إيغال النفس فيما وراء الوعى بطول العمر يمد الجسم بالحيوية الكافية لإرجاء الموت.

فتذكرت ما كنت قد قلت على الشراب وما حسبنى إخوانى من أجله مجنونًا أو سكران، وحمدت الله على أنى لست الوحيد فى هذا العالم الذى لا يصدق أبناؤه أن فى مقدورهم أن يطيلوا آجالهم.

وبينما كنت منذ أيام أرتب بعض كتبى وأقلبها، لهذه المناسبة، عثرت على كتاب "لبرنارد شو" فيه قصة أسماها "إنجيل الإخوين برناباس" وقد أدار المحاورة فيها على

إمكان إطالة العمر إلى ثلاثمائة عام - والمحاورة بين اثنين من السياسيين يمثلان المستر لويد جورج والمستر (اللورد) إسكويث من ناحية (وهما بيرج ولوبين) وبين الأخوين كونراد وفرانكلين: ويسأل بيرج عن السر الذى يطال به العمر.

كونراد - السر الحقيقى؟ عن أى شىء يتكلم هذا الرجل؟

بيرج - المادة، المسحوق، القارورة، الأقراص، لقد قلت إنها ليست ليموناً.

كونراد - يا سيدى ليس عندى لا مسحوق ولا قارورة ولا أقراص، إنى لست دجالاً، وإنما أنا عالم بالحياة (بيولوجست) وهذا شىء سيحدث.

لوبين - سيحدث؟ أوه! أهذا كل شىء؟

بيرج - سيحدث؟ ماذا تعنى؟ أتعنى أنه ليس فى وسعك أن تجعله يحدث؟

كونراد - ليس فى وسعى إحداثه، بأكثر مما كان فى وسعى إحداثك أنت.

فرانكلن - فى وسعنا أن نقرر فى أذهان الناس أنه ليس ثم ما يمنع حدوث ذلك إلا إرادتهم هم أن يموتوا قبل أن يتم عملهم، وإلا جهلهم بالعمل البديع الذى ينبغى أن يؤدوه.

كونراد - انشروا هذه المعرفة وهذا اليقين تقع المعجزة على التحقيق كما أن الشمس ستطلع غداً على التحقيق، إلخ، إلخ.

***

فهل كنت قد قرأت هذا ثم نسيته؟ ربما وسواء أكنت قد قرأته أم ألهمته فلا شك أن قوة الإرادة تصنع المعجزات، وأعنى الإرادة التى تشيع فى النفس حتى من غير أن يكون المرء مدركًا لها، لا مجرد الرغبة التافهة التى لا تخلق شيئًا فى النفس ولا تؤثر فى الأعصاب، ويخيل إلىّ أنى اليوم أصح على العموم وأقوى أملاً فى الحياة مما كنت قبل أن يعمر صدرى الإيمان بذلك.

صور وأخلاق

فى القطار[٢٨]

اتخذت مكانى فى القطار وأخرجت سيجارة أشعلها ورحت أنفخ دخانها وأتعقبه بعينى وهو يتلوى، وكانت الشمس قد دلفت إلى المغيب فراقنى منظر الحقول فثنيت إليها الطرف غير أنى ذكرت أن "للجديد" مقالاً يجب أن يُكتب، وهو - أى "الجديد" - كهذا القطار عليك أن تدركه وليس عليه هو أن ينتظرك ريثما تصل إلى مكان ليس فيه هذه القلقلة التى لا تدع القلم يثبت على الورق، غير أن الواجب واجب على كل حال - ما من هذا بد ولو كان تحتى زلزال.

وليس أقبح من أن يكتب المرء فى القطار إذا كان إلى جانبك أحد، لا لأن الكتابة تستعصى، بل لأن رفقاءك لا يزالون يلحظونك عن عرض ويعجبون لك وقد يزيد بعضهم فيبتسم استخفافًا أو عطفًا أو إشفاقًا من أن يكون هذا الذى يراه يكتب مجنونًا، وقد لاحظت لما هممت بالكتابة أن جارى يحدجنى بنظره فوضعت القلم والورق وملت إليه أسأله:

"قل لى!"

قال فى شىء من الدهشة: "أفندم".

(٢٨) نشرت فى مجلة الجديد، ٢٢ أبريل ١٩٢٩ . (ص٤).

قلت: "عفوًا! ولكن معى كتابًا أظنه ممتعًا فهل تحب أن أعيرك إياه مسافة الطريق".

قال: "أ.. أ.. أشكرك"

فعلمت أن شكه قد زاد، فعدلت عما كنت قصدت إليه وقلت: "أو لعلك تؤثر أن تقرأ مجلة؟"

قال: "معذرة يا سيدى ولكن.."

فقاطعته: "أو عسى أن تكون الصحف اليومية أحب إليك؟"

قال: "يا سيدى إنى.. إنى.. لست أدرى والله ماذا أقول ولكن يمكنك..."

قلت: "بطبيعة الحال، أم أتراك تؤثر أن تقرأ إعلانات؟"

فأربد وجه وقال: "يا حضرة الـ.. الـ.. الأفندى أنت..."

قلت: "لا بأس، إن معى برتقالاً فهل لك فى واحدة؟ إن البرتقال يرطب الفم ويهدئ الأعصاب، وأؤكد لك أنه يافاوى".

فوثب على قدمه ومضى إلى الباب، وإنه ليفتحه وإذا بالقطار قد وقف فجأة فتصادمت المركبات وارتج من فيها، فسقط على المقعد وهوت فوقه حقيبة أخرجتها الصدمة عن مكانها، فانطلقت أقهقه فألقى إلى نظرة مقت وحقد وخوف فى آن معًا وأخلى لى الميدان.

***

ولا شك أن هذا الرفيق المسافر ما كان يستريب بعقلى أو يستقل شأنى ويستصغر أمرى، لو أنه رآنى أقرأ ولم يرنى أكتب، لأن القراءة قد تكون للتلهى وتزجية الفراغ وقتل الوقت، أما الكتابة فلا تكون فى رأى أمثاله إلا أداءً لواجب، أو شذوذاً غير محمود، أداء الواجب شىء ينبغى أن يكون خفية وسراً، وأحسب أن العمل فى قطار معناه عند هذا النفر أن المرء يشتغل فى هذه الدنيا وليس من أصحاب الضياع وممن بهم غنى حتى عن أن يرفعوا إصبعًا أو يفتحوا عينًا فى سبيل العيش، ومن هنا يشعرون أنهم أرفع مقامًا وأسمى درجة، وأبعد من ذلك عن الفهم عندهم وأدهى إلى الأسف أو الاستهانة أو لا أدرى ماذا غير هذا، أن تكون الكتابة مقصودة لذاتها لا لغرض من أغراض المعاش.

من سينما الحياة[٢٩]

"هل تعلم أنك آنستنى؟"

"كلا"

ونفخ الدخان وحنى رأسه وهو ينفض رماد السيجارة وقال متممًا أو مستأنفًا الكلام:

"ثم أن هذا لا يعنينى"

فلم تسؤها هذه الصراحة وابتسمت له وقالت: "ولكنى أرتاح إلى مجالستك.. حقيقة".

فسألها دون أن يبدى اكتراثًا: "لماذا بالله؟"

فأجابته بسؤال: "ألا ترتاح أنت إلى مجالستى؟"

فقال: "لا تطمعى أن تفتنينى! وإن كان لك وجه... وأقول لك الحق إنى أشد ارتياحًا إلى طعامك".

فضحكت؟ وعاد هو إلى الكلام فقال: "وعلى ذكر الطعام، لقد فرغنا منه منذ أجيال، فإلى متى نظل قاعدين إلى هذه المائدة بعد ما رُفع عنها كل ما كان عليها؟ أهى قاعدة عندك ألا تدعى ضيفك ينهض حتى يهضم ما أكل".

---

(٢٩) نشرت فى السياسة الأسبوعية، ١٨ مايو ١٩٢٩ (ص٥).

"ألم أقل لك إنى آنس بك وأسكن إليك؟"

"مناوشة؟ سأهرب إذن.. على الأقل إلى الشرفة".

ونهضت وراءه وهى تقول:

"لا تخف فإنى مثلك لم يعد لى قلب يؤسر، ولو أمهلتنى لكنت قد بينت لك أنى أرتاح إليك لأنك لا تحاول أن تسبينى".

وجلسا على الشرفة وانطلقا يدخنان فى سكون ثم قال:

"سبكتك النار؟ هه؟"

"أما سبكتك أنت؟؟"

"فلم يجب بلا أو نعم، وعادت هى تسأله بعد لحظة: "ولماذا تخلت عنك".

"لم تتخل عنى ولكن مللتها"

فظهرت على وجهها أمارات الاستهجان وسألته وهى مقطبة: "كيف؟ ماذا تعنى؟".

فلم يكترث لتجهمها وقال بلهجة السأمان:

"أوه! أخرج مكرهاً حين يحلو لى أن ألازم البيت، وأضطر إلى السهر وإحياء الليل على حين يحن رأسى إلى الوسادة، وأذهب إلى دور السينما ومسارح التمثيل لأشهد ما لا أريد أن أراه.. إلى آخره إلى آخره.."

"أنا أيضاً كادت تجننى الحيرة والخوف والقلق و.."

فقاطعها قائلاً: "دعينا.. إن الحب مرض والسلام، خبل يصيب المرء حيناً ثم يبرأ وينجو".

"إلى الأبد؟"

فأطبق فمه ولم يجب كأنه لم يسمع وبعد لحظة سألته: "كيف كانت تلك التى أملتك؟ حدثنى!".

"جميلة"

"ولهذا مللتها".

"ولكنك أجمل منها".

"حاذر!"

"جيدك ساحر، ليتك تَرينه - وفمًا على الخصوص شفتك العليا مغرية التقويس، وكأنى بها تهيب بالناظر إليها أن يهوى بالقبل عليها".

"يا صاحبى إنك توشك أن تفسد الأمر، إن لذة صداقتنا فى خلوها من الحب، كما تقول، فاحذر النكسة فإنها شر من المرض".

فأشار بيده مستخفًا وقال: "لا تراعى إذا كان كل ما تخافين هو انتكاسى، فأنت آمنة، ثم يجب علينا أن لا نخلط، فإن كونى غير قابل للحب ليس معناه ولا من مقتضياته أن أبخسك حقك وأن أذهب أزعم أنك دميمة بغيضة لا لسبب سوى أن تطمئنى، ووصف جمالك ليس معناه وصف حبى".

فاحمر وجهها وقالت كأنما تحاول أن تستدرجه: "إذن ما معناه؟"

"معناه أنى أنظر إليك كما أنظر إلى صورة بديعة أو تمثال رائع الحسن، ولو غيبت الصورة أو التمثال عن عينى، لما آلمنى ذلك ولا حز فى نفسى؛ ولا أستوحش قلبى، كذلك أنت، يعجبنى حسنك ويحلو لى أن أصغى إلى صوتك شهرًا كاملاً بلا انقطاع؟ ولكنك لو اختفيت فجأة - ابتلعتك الأرض أو صعدت إلى السماء - لما افتقدتك، قد تكون هذه الصراحة سوء أدب ولكنه ليس أعون منها على بقاء ودنا صحيحًا وصداقتنا سليمة من الأمراض، أنا أعجب بمحاسنك وأثنى على جيدك وفمك وأنت تفتتنين بأذنى!

وأنا أتحدث عن سحرك وظرفك بلا تأثر وأنت تأنسين بى كما تقولين من غير أن يدور رأسك، فهل شيء أمتع من هذا؟"

فقالت بعد فترة سكون: "ولكن أليس من حقنا وواجبنا أن نخشى أن تتسرب الصداقة الجافة فى الحب المضطرم؟"

فقال: "لا خوف على الإطلاق، أنت واحدة من مائة ألف لا تعبأ بالرجال، ولا يريد أن يحبها أحد، وأنا لعلى الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يغالب فتنتك ويصرف عن نفسه سحرك، وفى وسعنا أن نتناول كل موضوع وأن نتحدث فى كل شيء من غير أن يسيء أحدنا فهم صاحبه".

فقالت وغمزت بعين: "ألا تعلم أن بعض الناس يتحدث عنا كأننا خطيبان؟"

فقال: "لأنهم يروننا متفقين؟"

قالت: "من يدرى؟ إننا نظن أننا متفقان، ولكننا قد نكون أشد تباعداً من.. من.."

قال: "إن الحديقة تبدو جميلة فى جملتها والمرء يستطيع أن يأخذ حسنها بنظرة ولكن من بعيد، - وهو خارج عنها، والحياة على كل حال كشريط السينما، وصداقتنا هذه فصل ممتع، أما الزواج فخاتمة".

ونهض ووقف متكئًا على سور الشرفة ثم سألها: "ماذا نصنع غداً؟"

"وما حاجتنا إلى صنع شيء؟"

["..."][30]

قالت: "أشكرك"

---

(٣٠) فقرة مفقودة من الحوار (المحرر).

قال: "العفو!"

وبعد فترة قالت: "أظنك محقًا، فلنبكر غدًا ولنخرج إلى الأهرام".

قال: "يجب أن نتفاهم، فإن الظهر هو الوقت الذى افتح فيه عينى على الدنيا".

قالت ونهضت إلى جانبه: "الظهر؟ عن أى شىء نتحدث؟ أما أن نخرج فى الفجر أو فى المساء".

فالتفت إليها مستغربًا وقال: "الفجر؟ لعلك تحسبيننى من الطير!"

فعادت إلى كرسيها وقالت: "معذرة، سأبحث عن رفيق آخر".

ففتل شاربيه وقال بتؤدة: "إذا سمحت لى فإنى أرشح ابن عمك".

فأرسلت فى الظلام نظرة حالمة وقالت: "إن المصيبة أنه سيعد دعوتى له دليلاً على.. على.. ويتخذ من ذلك مسوغًا لمضايقتى".

قال: "هذا شىء يكرب، ثقيل على النفس".

فقالت: "إنك تدرك ما فى هذا الموقف من الثقل فهلا كنت لطيفًا؟".

قال: "وكيف أكون كذلك؟ علمينى!".

قالت: "تحمينى من ابن عمى".

قال: "هذا عجيب، ولكن كيف؟ إنى بطئ الذهن".

قالت: "تصحبنى أنت، إنك متى استيقظت من نومك فى الفجر لا تعود تشعر بالحاجة إلى النوم".

قال: "صحيح لقد سمعت هذا من قبل، وأستطيع أن أؤكد لك أنى مقتنع ولكن المسألة هى أن أستيقظ".

فقالت: "اختر الوقت الذى يناسبك".

فانثنى إليها وقال برقة: "يا فتاتى المسكينة لن أفسد عليك نزهتك، إذا كنت تحبين أن تخرجى فى الفجر فليكن ما تشائين".

فوضعت كفيها على كتفيه وقالت: "أوه! ما أحلى هذا! إن لى عمراً وأنا أشتهى أن أخرج فى نزهة كهذه ساعة الفجر، سيكون الطريق خالياً - ملكاً لنا، وتسرع بالسيارة، تخطف بها الأرض وتجعل قلبى يثب إلى حلقى، ما أبدع هذا!".

قال بابتسام: "حسن، سأقف ببابك الساعة الثالثة وأنتظر ربع ساعة فإذا تأخرت عدت إلى سريرى!".

***

فى فجر اليوم التالى كانا ينهبان الأرض بالسيارة وكلاهما صامت فلما جاوز الجيزة مالا إلى شجرة وأخذا يدخنان ثم قال: "هل صدقت ما قلته لك من إنى..."

فلم تمهله وقاطعته بقولها: "كلا، وو.."

فقال مقاطعاً بدوره: "ولا أنا صدقتك، إن الرجل الذى يحبك ثم يستطيع أن يدعك لا بد أن تكون به لوثة".

فقالت: "هل تغفر لى أنى كنت أفتح لك باباً بعد باب وأكاد أضع الكلام فى فمك؟"

فمال إليها وأهوى على فمها بفمه وهو يقول: "يا ساحرة! لقد كافحت وقاتلت شهوراً ثم انهزمت، وكنت أحس إذ أراك أن فى جنبى سيفاً، وأقسمت أمس أن أخرج من نارك بسلام ومن غير أن تحترق شعرة فى رأسى، ولكنى أخفقت".

قالت: "لقد فعلت ما لم أفعله من قبل وما لم أكن أحلم أن فى وسعى أن أفعله، أغرقت كبريائى ودست غرورى وخنقت احترامى لنفسى، عرضت عليك كل مفاتنى، أفرغت روحى فى نظراتى وفى صوتى فأخفقت، ولم أدر أنى ظفرت إلا هذه الساعة".

فلثم فمها فصاحت به: "احذر فإن الحب مرض، وقد أعديك".

فقال: "أيتها الطفلة الخبيثة، إنى أنا الذى أعديتك به، لقد ظللت مصاباً من شهور ولكنى لم أتبين حقيقته إلا..."

فسألته مقاطعة: "متى؟ قل لى!"

فقال: "فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة من صباح اليوم"

من سينما الحياة

ليلة ممتعة(٣١)

ذكرى تلك الليلة لا تزال تسرى لها فى بدنى رعدة، كما ينتفض المحموم أو يرتجف المقرور، وقد يخيل لى، بعد كل هذه السنين التى لا أكاد أصدق أنها مرت بى - جميعًا - كان الأمر كله حلم، لو أن الأحلام يمكن أن تقع مرتبة كأنها رواية معدة، فلعله حلم ولكن من أحلام اليقظة، وكان الوقت صيفًا والجو قد طال به الركود، ورمضان لم يبق على مَقدمه إلا أيام، فذهبت إلى "المحطة" أودع صديقًا لى مسافرًا إلى الإسكندرية، ووقفنا على الإفريز نتبادل الكلام المألوف فى مثل هذا المقام فالتفت إلىّ صديقى فجأة وقال:

"ما قولك؟"

قلت: "فيم؟"

قال: "فى السفر معى - الآن - أليست هذه فكرة؟"

فابتسمت وأى جواب كان ينتظر؟ ولكن "الفكرة" مع ذلك دارت فى رأسى بسرعة وما عتمت أن تملكتنى واستولت على لبى، فغافلت من حولى وعددت ما معى من النقود،

---

(٣١) نشرت فى السياسة الأسبوعية، أول يونيه ١٩٢٩ (ص٦). "يلاحظ أن هذا العمل نشر بعد تحوير فى رواية "إبراهيم الكاتب"، قارن بالطبعة الأولى (الصفحات من ١٤١-١٤٦) أو بالفقرة الثانية من الفصل الرابع فى القسم الثانى فى الطبعات كلها" (المحرر).

وشاء الحظ أن يكون كافيًا لذهابى وإيابى ولبضعة أيام أقضيها هناك أيضًا، فملت إلى صديق فى يسراه كتاب وقلت: "أتعيرنيه"

قال: "ماذا؟ الكتاب؟ نعم"

فتركتهم لحظة ثم عدت ومعى "تذكرة" السفر فكان ضحك وسرور ومزاح، وتحرك "القطار" وأنا أتناول الكتاب من صديقى وأهمس فى أذنه بالرجاء أن يبلغ أهل بيتى ما حدث.

***

لم تكن معى حقيبة، فلم أر أن بى حاجة أن أذهب من (وقتى) إلى دار أقربائى الذين اعتزمت أن أنزل فى ضيافتهم، فاكتفيت بأن أدق التليفون، فعلمت أن أقربائى قد رحلوا منذ أيام إلى ضيعة لهم وأنهم عائدون ليلة الصيام، وأن ليس فى البيت سوى الخادمة والبواب، فلو كان جيبى عامرًا لآثرت الفندق، لذلك لم يسعنى إلا أن أوصى بإعداد غرفتى، وبترك الباب مواربًا لدخولى، وتعهدت بإيصاده، ورجوت ألا يسهرا فى انتظارى.

وحلمت وأنا نائم، كأنى قد انقلبت بقدرة الله القادر على كل شىء، "جعة" مثلجة فى زجاجتها وأن محافظ الثغر - ولا أذكر من كان فى ذلك الزمن - شربنى على كمية غير معقولة من كبار "الجنبرى"، وأنى احتججت فى حلقه - أو وقفت فيه، لا أدرى - ولكنه أكرهنى على الانحدار إلى جوفه، فلم أزل أجاهد أن أفلت - أعنى أن أرتد - حتى أصيب المسكين بانتفاخ "دائم" جعل له "كرشًا" كروية أكسبته سمنًا وأبهة ورشحته لعليا المناصب التى لا يصلح لها النحاف العجاف، وأنه سُر بذلك كثيرًا فأقام - على سبيل التذكار لهذه الحادثة السعيدة - "سبيلاً" يستطيع من شاء أن يرشف منه أعذب السم الزعاف بلا ثمن، وفى كل ساعة من ساعات الليل أو النهار، إذا شاء ذلك وطلبه بلسان "سريانى" فصيح".

وقمت من النوم مفزعًا، ويدى على رأسى، كأنما أبحث عن "سدادة" الزجاجة، ثم ابتسمت ومضيت إلى النافذة، وكانت الدنيا ملفوفة فى شملة سميكة من الظلام تفيض على الليل سحرًا ورهبة، واندمج كل موجود فى ظله، ولم يعد شيئًا بعيدًا وآخر قريبًا، والبحر يهدر وكأنه يزحف وراء صوته، والنسيم الوانى يهمس فى آذان الشجر.

وحانت منى التفاتة إلى حيث كتلة البناء - وكنت أنا فى جناح متصل بها ومرتفع عنها - فلمحت شعاعًا من النور باديًا من خلال "الشمسية" فى غرفة المائدة، فاستغربت، ثم قلت لعل الخادمة جهزت لى طعامًا ثم قامت تنتظر هل أصبت منه، ولكن النور لم ينطفئ، فأشفقت عليها أن تحيى الليل كله فى انتظار من لا يجيء، وخطر لى أن الواجب أن أصرفها لتنام، فانحدرت - حافيًا - وقلت لما بلغت الباب.

"لماذا تنتظرين يا..."

ولم أزد! وإن كان فمى قد ظل مفتوحًا، ذلك أنى لم أبلغ "يا" حتى كان مسدس مصوبًا إلى رأسى؛ إذا صح تقديرى، وكان الذى رفعه إلى وجهى أشبه بالعمالقة منه بمن رأيت من الناس، وهوت ذراعاى إلى جانبى كأنما كانتا "كمين" فارغين، وتلخلخت ركبتاى، وأظن عينى جحظتا - بل لا بد أن تكونا قد فعلتا - وابتسم العملاق فابتسمت - لا سرورًا، فإن القارئ أذكى من أن يتهمنى بذلك - بل لأنى صرت فيما أعلم آلة حاكية، وقال:

"سوف، كلمة واخدة تروخ بلاس"

فلم أفهم مراده، وحرت فى هذه "الكلمة الواحدة" ما معناها! هل هى مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد، أم تشمل الكلام العادى أيضًا، ولكنى آثرت الحذر والاحتياط، لأن التفسير - ولاسيما إذا كان من جانب واحد هو الجانب الأعزل - غير مأمون المغبة، فأطبقت فمى - وكان لا يزال مفتوحًا - وهززت رأسى مرات إعلانًا للامتثال.

فقال لى: "خس"

فوددت لو نحى عنى هذا الحديد البارد قليلاً، ولكنى أطعت وحملتنى رجلاى خطوات فى خط مستقيم حتى صدتنى المائدة، وهو ورائى، وأدرت له وجهى وحده مستفهمًا وأشرت بعينى إلى كرسى فابتسم وسألنى وإصبعه إلى فمه:

"لسان مفيس"

فتشهدت، وعلمت أنه يبيح لى الكلام أيضًا وعادت إلى الطمأنينة؛ مع الحياة واللسان، أما السرقة فلا أرى لى حيلة فى منعها الآن، وإذا لم يحدث ما ليس لى أو له فى حساب، فما من شك فى أنه سيمضى بما يجمع.

وقعدت على الكرسى الذى أومأ إليه فى زاوية بعيدة عن الباب، وانصرف هو إلى عمله فى هدوء رائع، وكان يجمع الأوانى الفضية ويفحصها ويرتبها ويضعها فى حقيبة معه، وتبينت وأنا أنظر إليه أن على كفيه قفازين، ومضى عام وأنا قاعد، واشتقت أن أدخن، فقلت:

"معك سيجارة؟"

فرفع حاجبيه كالمستغرب ثم ابتسم وقال: "آه باردون؟ يا خبيبى"

ومضى إلى "البوفيه" وعاد إلى بسيجارة وأشعلها لى، فشكرته، وأنا أذهل، فما رأيت لجرأته مشبهًا ولا سمعت بمثل سكينته وتنظيم جهوده وقصرها على ما ينشد دون أن يفسدها بتجاوزها إلى ما سواها، وبدا لى وأنا جالس أتأمله وأنفخ الدخان كأن السطو والسرقة ليس أسهل منهما، فما على الإنسان إلا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله، وأعربت له عن هذا الرأى، وفى مأمولى أن أجره إلى الكلام فيطول الوقت لعل شيئًا يحدث أثناء ذلك يلجئه إلى الهرب وترك ما جمع أو يؤدى إلى القبض عليه، وكان ذلك أملاً بعيداً ورجاء محقق الخيبة، ولكن المشفى على الغرق يتعلق بالقشة.

وأدرك اللعين المدرب غرضى فقال وهو ماض فى عمله: "أنت مكار"

فأكدت له أنى معجب بفنه ودقته وحذقه فيه وأن السرقة حقيقة تبدو لى سهلة قياساً على ما أرى فقال: "سوف، أنت على البر".

قلت: "بل فى قاع الجب".

قال: "أوخس هاجة الـ... الـ.. اسمه أيه.. الواحد مس يسبع".

قلت: "الطمع".

قال مثنياً: "برافو".

قلت: "أحسبك تفعل ما تفعل الآن على سبيل الإحسان ومن قبيل البر".

قال: "سوف، فيه كثير راخ فى داهية سان لازم كمان... "مس يسبع".

فأعربت له عن إعجابى بهذه البلاغة وقلت: "لقد كنت أظن لبلاهتى إن اللص يلقى كل ما يجمع فى غرارة ثم يذهب من حيث جاء ويفعل الباقى فى مخبئه، ولكنك علمتنى شيئاً، وإنى لأعجب الآن كيف فاتك أن تجىء بالأدوات اللازمة لصهر المعادن أيضاً".

فمط فمه مستخفاً وقال: "مس سغلى دى".

وبعد هنيهة: "أنت فاخم دى كله يروخ كاسورة؟"

فقلت: "لم أكن أعرف أنها لازمة لآنية بيتك".

وكان قد فرغ مما جاء له فأطبق غطاء الحقيبة وأدار المفتاح فى قفلها ثم أومأ إلى وقال: "من فضلك"

فنهضت وأنا أقول: "هل أطلب لك عربة؟"

فابتسم وقال: "مرسى! أنت كويس"

قلت: "شهادة قيمة، ألا تكتبها إلى لأحتفظ بها؟"

فلم يلتفت إلى هذا وقال: "بس مس يلزم تخاف كده!"

قلت: "معذرة يا خواجه، سأتدرب على لقائك"

فربط يدى وراء ظهرى ووضع لى بين أسنانى بكرى خيط صغيرة وتناول قبعته وقال: "ليلتك سعيدة يا بيه".

ولم يستطع "البيه" أن يرد التحية بأحسن منها أو حتى بمثلها، ولكنه استطاع أن يشيعه إلى باب المسكن وأن يرده بغلقه وراءه.

وعاد "البيه" يعدو كأحسن ما يستطيع إلى غرفة الخادمة فوق السطح؛ وإنه ليركل بابها برجله؛ وإذا بنباح يوقظ الموتى!

***

وكان الذى حدث - كما علمت فيما بعد - أن اللص لم يكد يدنو من باب السور الحديدى حتى كان الكلب الحارس على ظهره؟ وأسنانه مغروزة فى عنقه، وكان كلبًا أرمنتيًا ضخمًا كالسبع، لا أدرى أين كان رابضًا، ولا ماذا ألهمه أن يظل ساكنًا حتى يصير اللص أمامه وعلى مسافة كافية للوثب، ولكن الذى أدريه أنه من فصيلة لا يحمد الغريب لقاءها فى الليل وأن وثبته ردت صاحبنا آخر الأمر بشر من خفى حنين: أعنى بأكثر من قطعة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه.

صور وأخلاق

رياضة النفس بالتليفون(٣٢)

بعد أن هد التليفون كيانى، ومزق أعصابى، وأطار ما بقى لى من لب. تذكرت قول النواسى "وداونى بالتى كانت هى الداء": فصار هو سلوتى، وانقلب عونًا لى على الحياة، وثبت لى مرة أخرى أنه ما من شىء إلا وهو يكون كما تحب: - داعيًا من دواعى التنغيص أو باعثًا على المسرة ومجلبة للروح الإيناس، على حسب ما تتلقاه به، وأن النفس هى التى تفيض على الحادث من مزاجها وتصبغه بألوانها، ومن هنا ما يتفق كثيراً من أن الشىء الواحد يسرك مرة ويسوءك أخرى، وليس تعليل ذلك باختلاف الأحوال التى يتكرر فيها الحادث إلا تعلقًا بالظاهر، وعلى أن هذا يعادل القول برد الأثر إلى اختلاف الحالة النفسية.

وقد لا يملك المرء التحكم فى حالته النفسية فى كل وقت، ولكن محاولة ذلك رياضة نافعة على كل حال تجلو الصدأ وتحيل عبوس الأيام بشراً، ولا بأس من مثل:

لم يكن أكفل بإزعاجى وإثارة غضبى وسخطى وإفساد صحتى من أن أضطر إلى القيام من النوم مثلاً على دق التليفون فإذا المطلوب غيرى وإذا الرقم المراد غير رقمى، ولكن هذا الخطأ هو الذى أستمد منه الآن التسرية والترفيه، كنت مرة فى الحمام ولم يكن فى البيت أحد سواى، وكان الوقت شتاء: وانى لأنعم بحرارة المساء وإذا التليفون

---

(٣٢) نشرت فى مجلة الجديد، ٣ يونيه ١٩٢٩ . (ص٤).

يدق ويدق ويصرخ، وأيقنت وأنا أسمعه أن هناك خطأ وأن الدق لغيرى، فقد ألفت ألا يقع الغلط إلا فى مثل هذه الأحوال المحرجة، وتصورت وثبى من الماء الدافئ وإسراعى إلى الالتفاف بشىء وعدوى إلى التليفون والنوافذ مفتحة والهواء القارس يعض، ثم لا يكون هناك إلا أن الخط وصل بغير المطلوب، ومع ذلك راقنى الأمر، وما هى إلا ثوان حتى كانت السماعة على أذنى فكان ما توقعت ووجدت رجلاً يتوهم أن بيتى "جراج".

فابتسمت وقلت:

"أتسألنى هل عندى "تاكسى" ما أغربه من سؤال! يا سيدى إن عندى مدرسة كاملة! معملاً تامًا! أتحب أن يكون من طراز "فيات" أم تؤثر أن يكون "رينول"؟ ماذا؟ تريده حالاً! آه! هذه هى العقدة! آسف لأنى لا أستطيع أن أرسله حالاً كما تطلب.. السبب بسيط جداً... ليس عندى سوى ولدين أحدهما رضيع والثانى فى المدرسة الآن! بل سمعتك جيداً... كلا لم يحصل خطأ، أنا فاهم ما تقول.. اسمع أنت.. يمكننى أن أرسله إليك بالبريد فيكون عندك غداً صباحًا.. كلا، لست مجنونًا.. ولا أنت أيضًا.. المجنون غيرنا.. حسن، فلنتكلم فى شىء آخر... صحتك جيدة على ما أرى!.. من قوة حنجرتك.. آسف جداً، لم يسعدنى الحظ برؤية وجهك إلا فى التليفون.. أنا؟ عبد رق للتليفون.. من ضحاياه... أشكرك، فى مثل هذه الساعة من كل يوم واستوثق أول أنى فى الحمام، لا يهم، اطلب أى رقم.. إنى سنترال وحدى.. لا مؤاخذة... لقد أزعجتك، أكنت فى الحمام مثلى؟ كلا؟، ما أقدرك!، معذرة".

وأعدت السماعة إلى مكانها.

والواقع أن التليفون رياضة ليس أكفل منها بتدريب المرء على ضبط النفس وتلقى ما هو حقيق أن يسوء أو يهيج بالبشاشة والصبر، وهو دواء كل ما يُعيى الأطباء دواؤه، من الحماقة وما إليها، فأعرف هذه "الفائدة" وأعمل بها!

صور وأخلاق

فصل من رواية لم تكتب[٣٣]

لن أفعلها مرة ثانية، فما أظن بإنسان إلا أن بحسبه من ذلك تجربة واحدة، وأشهد مع ذلك أنها أفادتنى متعة لا يظفر بمثلها الكثيرون فى الأعوام الطويلة، وإن كانت، على هذا، متعة "الذكرى" بعد أن صارت شيئًا "كان"، كما يقف المرء يتأمل ما يقع لسواه فيتسلى، وكنت يومئذ فى "الأقصر" فقصدت إلى غرفة معدة للكتابة والصحف، لأكتب رسالة إلى بيتى، فجرى القلم بضعة سطور بلا توقف ثم أمسك وأبى أن يخط حرفًا فقرأت ما كتبت وزدت نقطة هنا ووضحت حرفًا هناك ثم شرعت أعبث بشاربى، وأدرت عينى فى ماضى، ورميت بنظرى إلى المستقبل وتأملت أناملى وأصلحت ربطة رقبتى ومسحت كمى - كل هذا فعلته بلا جدوى، فقمت إلى "الجرس" أدقه للخادم لعل القهوة تنبه حواسى الخامدة وتوقظ مداركى الراكدة فلما عدت إلى المكتب وجدت فتاة لا أظن عينى وقعت على أجمل منها قدًا أو أصبح وجهًا أو أفتن من عينها وميضًا - جالسة إلى طرفه الآخر - قدامى! فاستعذت بالله من كل هذا الحسن ونويت أن أتشاغل عنه بالكتابة، ولكن الصعوبة التى كنت أعانيها تفاقمت فصارت استحالة، فلا الماضى أتذكر منه شيئًا، ولا المستقبل أستشف من وراء أستاره شيئًا، ولا الحاضر فيه سوى عينين أمامى تمنيت أن أصفهما ولكنى أكتب إلى بيتى!

---

(٣٣) نشرت فى مجلة الجديد، ١٧ يونيه ١٩٢٩ . (ص٤، ٦).

وجعلت أنقر بالقلم على أسنانى لأخفى الضحك الذى أعانيه، من سخافة هذا الموقف ثم رميت إليها نظرة فإذا هى ليست بخير منى حالاً! فرفعت رأسى وقد اطمأنت نفسى، وقلت:

"هل فرغت من الجو؟".

فهزت رأسها أن نعم.

فقلت: "والفندق؟"

هزة أخرى.

فقلت: "والنازلين فيه؟"

فقالت: "لقد كتبت أنهم جميعًا مملون"

فتناولت القلم وكتبت وقرأت وأنا أكتب: "أن النازلين فى الفندق جميعًا مملون ما عدا اثنين".

ثم رفعت رأسى واعتدلت فرأيت النجوم فى عينيها ترقص، ولكنها لم تقل شيئًا فأضفت: "وإن كنت لا أرى أحداً يشاطرنى رأيى فى الاستثناء".

فأقبلت تكتب بيد مرتعشة "ما عدا اثنين" فتنفست الصعداء وعدت إلى الورقة وقلت وأنا أكتب:

"والأثاث فى الفندق ضخم جداً كما أن الآثار المصرية هنا ضخمة جداً".

فقالت وهى تكتب: "... ضخمة جداً..." وبعد أن رفعت رأسها "أنى منتظرة" فقلت:

"صبرك لحظة واحدة: كيف تتهجين "جميل؟"

فقالت وعلى ثغرها طيف ابتسامة: "بياء واحدة مثل فظيع!".

فبلعت ريقى ثم كتبت وأنا أقرأ:

"ولو أن المكتب الذى أنا جالس إليه كان عرضه نصف ما هو لكان...خيراً".

ورفعت رأسى فإذا هى مرتجة من الضحك ففكرت بسرعة وقلت وأنا أكتب:

"وخير ما يصنع المرء فى ليلة مقمرة كهذه هو أن يركب زورقًا يسبح به على النيل".

فدونت هذه الملاحظة فى الرسالتين وزادت هى عليها:

"ولكنى لا أستطيع الليلة أن أمتع نفسى بهذه النزهة الجميلة لأنى مضطرة أن أعد حقائبى فى المساء".

فلما أفقت من الصدمة كتبت:

"ولكنى لن أتنزه الليلة على النيل لأنى سأساعد بعضهم على إعداد حقائبه".

فأضافت إلى رسالتها:

"وأرجو أن أراك مرة أخرى".

فسجلت الرجاء وزدت عليه "قريباً جداً".

فأمالت رأسها وكتبت: "وإليك تحيتى وأشواقى".

فكتبت "من الخادم المخلص والعبد المطيع الأمين الوفى الذى لن ينسى أبداً أبداً".

وبدا لى كأنها ترددت قليلاً، فقد غامت النجوم فى عينيها، ثم كتبت اسمها فى صمت، فعضضت شفتى، ووضعت هى الرسالة فى ظرفها وأنا أحملق كالمجنون فى وجهها - مفتونًا بتقويسة شفتها، مسحوراً بلمعة عينيها - ورددت نفسى بجهد ثم قلت وأنا أكتب "المازنى".

فنهضت وهى تقول: "أهو أنت".

فقلت وأنا أنهض "لا تراعى! فإنه أليف"

فنظرت إلى كأنما تفحصنى ثم ابتسمت وقالت، "وأنا ليلى - إلى المساء" وخرجت ومزقت رسالتى.

***

وانتهى الفصل الأول وأسدل الستار عليه وكانت استراحة: ساعة وبضع دقائق سنجعلها نحن أسبوعاً كاملاً إلى مثل هذا اليوم أحيانا الله وأحياكم أو صنع بكم ما يشاء.

صور وأخلاق

فصل ثان من رواية لم تكتب(٣٤)

"تصور أنى أعرف بيتك!.. "على حدود الأبد"، أليس كذلك؟ "وإلى يمينى الصحراء، وإلى يسارى.. الصحراء، وفى كل ناحية يرتمى فى فجاجها الطرف... الصحراء، وفى القلب.. لا أدرى سوى أنه قواء!" أصحيح هذا؟".

"ماذا؟"

قالت مفسرة: "أ.. أ.. أنه قواء؟"

فارتعت، وقلت مغالطًا: "إن ذاكرتك قوية".

فضحكت، ثم سألت: "ألا تزال تجعل الفتيات يعددن لك النجوم؟".

فقلت متلعثمًا: "لقد تخيلت ذلك، وأقسم لك".

فأقبلت تلح: "وتخيلت أيضًا "لولو"؟ وتلك التى...".

فقلت مقاطعًا: "اسمعى، إن إلى يسارى ملكًا موكلاً بإحصاء ذنوبى وسيئاتى، وهو كفء لهذه المهمة قادر على الاضطلاع بها على خير وجه وأظن..".

---

(٣٤) نشرت فى مجلة الجديد، ٢٤ يونيه ١٩٢٩ . (ص٤، ٥).

فقاطعتنى بدورها: "إن هذا كالحلم، تخرج كتابًا فيتفق لى أن أقرأه.. ثم.. ثم ألقاك.. لا أظن اثنين تعارفا كما فعلنا أواثق أنت أنك تخيلت هذه الفتاة ولولو.. و.. ؟"

فقلت بابتسام: "نعم".

قالت: "فإن لى عندك رجاء أو لى عليك مقترح، أتقبل؟".

قلت: "ربما".

قالت: "تضع قصة – ليس من الضرورى أن تكون طويلة – قصة قصيرة أكون أنا بطلتها".

فقبلت بلا تفكير ولا نظر إلى العواقب، وفرحت بهذه الفرصة التى لا بد أن تعوقها عن السفر أيامًا، ولم أكن أدرى أنها كانت تعابثنى وتتخابث علىّ حين أوهمتنى أنها راحلة من الغد، وأشهد لقد كنت مغفلاً، فقد صار وقتى وحياتى – فضلاً عن القصة وموضوعها وأسلوبها – كل ذلك انقلب ملكًا لها وليس لى أنا من الأمر فيه شىء، وألفيت نفسى أتخبط فى أوقيانوس من الاقتراحات وبدأناها قصة صغيرة فإذا بها تطول وتكون بضعة فصول، وإذا بالفصل الرابع ينقلب هو الأول، والثالث هو الأخير، أما الأول والثانى فيقطعان أربًا أربًا وتدس أوصالهما الممزقة فى آخر الحكاية التى لم يعد لها أول أو آخر أو معنى أو طعم، ولا تسل عما احتملت وأنا أكتب وصفها وأصور مواقفها، فهى كما تعلم بطلة الرواية ومحورها، وهى فيها العاشقة المعشوقة فمرة ينبغى أن يموت الرجل – يذوى حبًا فما يموت المحبون إلا هكذا – وتارة ترق له وتبقى عليه وتسمح له بالحياة ولكنها تحتم أن يغمى عليه حين يراها أول مرة، وطورًا تستهجن ذلك وتطلب أن ينقذها من الغرق أو من بين صخور الجبال أو من حريق فى الفندق الذى لم يرد له ذكر فى القصة، ومن أجل ذلك يجب أن يحشر الفندق فى الحكاية ولم يرضها وصفى لثيابها، فأرتنيها وشرحت لى دقائقها وكرت لى تكاليفها واسم التى فصلتها،...

وأخيراً يئست فتناولت الأوراق ومزقتها ثم أشعلت فيها النار وبدأت أكتب من جديد من غير أن أجعل بالى إلى اقتراحاتها التى لا تنتهى، وجلسنا إلى الشاى فقالت لى:

"لا تعذبنى هكذا، أذكر أنى جننت به، فإذا مات.."

فقلت: "لا تخافى.. سيظل حياً".

ففكرت قليلاً ثم قالت:

"ولكن ألا ترى أن العدل يتطلب فريسته؟"

فلم أفهم لأنى نسيت اقتراحاتها بعد أن أقصيتها عن ذهنى وطردتها من رأسى وكان لا بد أن أقول شيئًا فقلت مراوغًا:

"على كل حال يجب علينا أن نتقبل الحياة كما نجدها وأن نتناولها كما هى".

فقالت: "وهل كتبت الفصل الذى غيرناه؟"

قلت "نعم" وخفت أن تنتقل من الإجمال إلى التفصيل.

قالت: "ألا تقرؤه لى؟"

قلت: "بعد الشاى – على النيل فى زورق".

ورجوت أن تنسى، ولكنها تذكرت الرواية ونحن على رأس السلم فسألتنى عنها فسرت فى بدنى رعدة وأيقنت أن ركوب النيل سيكون ركوباً للأخطار، وفكرت بسرعة وتعمدت أن تزل رجلى فوقعت، وقلت لنفسى: "النجاة بأى ثمن وأية وسيلة".

وأقبلت علىّ فإذا بأسنانى تصطك وبدنى ينتفض فسألت: "ماذا بك؟ إنك مريض".

قلت: "لا لا.. لا شىء.. ملاريا جربتها مائة مرة.. كينين.. كينين".

قالت وهى تعاوننى بيد وتشير إلى الخادم بالأخرى: "سأدعو طبيباً"

فـفـزعت وقلت بصـوت عـال: "كـلا، لا تفـعلى، ولكن يجب أن أعـود إلى غـرفـتى، صدقينى.. لا شيء".

وظن خـدم الفندق أنى سـأمـوت ولا شك، فـجعلت اهزأ بهم وأنا ارتعش ولما بلغت غرفتى وصرت فى سريرى سألت الخادم: "أين ليلى هانم ؟"

قال: "لا أعلم يا سيدى".

قلت: "ابحث عنها وطمئنها، وهات لى كينين، بسرعة".

وخرج الخادم فقعدت وأنا أضحك، لقد نجوت والسلام.

ولما أقبلت تعودنى، قلت لها: "إنى آسف، لقد أزعجتك".

قالت: "دع هذا، كيف أنت الآن؟"

قلت: "كأصح ما أكون لولا الضعف الذى أشعر به، لقد كنت أحس كأنى احترق، كان غطاء السرير ملتهباً، والمخدات متقدة، نوبة الحمى، ومن حسن حظى أن النوبة فى هذه المرة قصيرة، ولكن رأسى لا يزال يوجعنى وأحس كأن جسمى ممزق، كم الساعة الآن؟".

قالت: "الثامنة".

قلت: "ثلاث ساعات لا أعى منها إلا قليلاً وإن كانت فيما كنت أحس كأنها ثلاث سنين، وآخر ما أذكر هو أنى كنت أنتفض من البرد ثم انطلقت موجة من الحرارة فى عظامى المرتعشة، ثم تصبب العرق وذهبت الحمى".

فقالت: "مسكين"

ووضعت كفها الصغيرة البضة على وجهى، فقعدت ولكنها ردتنى وغطتنى فقلت: "يجب أن تقومى يا ليلى".

قالت: "لماذا؟ ألا ترتاح إلى وجودى".

قلت: "ألا تفهمين؟".

فلمعت عينها وقالت: "ألا تعلم؟".

قلت: "ماذا؟"

قالت: "أنهم هنا يحسبوننى خطيبتك".

فذعرت، ولكنى لم أقل شيئًا، وماذا عسى أن أقول؟.

***

وصرت وحدى فضحكت، هذا مشكل جديد، لقد أذهلتها عن الرواية ساعات وأخلق بها الآن أن تذهل عنها أبد الدهر بعد الذى جد.

ولا أطيل.. كبر علىّ الأمر أولاً فحرت ماذا أصنع؟ ورحت ألوم نفسى وأؤنبها، وكان علىّ أن أكون أحرص من أن أجرح إحساسها، من غير أن أتورط، ولم يكن فى هذا عسر على أو مشقة، وكان كل ما أخافه ألا تفطن هى إلى دقة الموقف ووجوب الحذر، ولكنى أشهد أنها كانت أحكم منى وأبرع، وأقدر أيضًا على اعتصار كل ما فى الموقف من المتع، ولقد تزوجت بعد ذلك وهى الآن سعيدة قريرة العين بزوجها الذى يجلها ويحبها، ولكنها لم تنس أنها كانت يومًا ما "خطيبتى" ولم تأسف قط على أنها لم تتزوجنى، أما زوجها فتحيته لى حين يلقانى "أهلا بخطيب امرأتى!"...

صور وأخلاق

كيف كنا نقضى؟[٣٥]

عقدناها محكمة – فى الطريق – فقد زعم صبى فيه بلاهة شديدة أنى سرقت كرة منه، وكان قد أرانيها فوجدتها مخروقة لا تصلح لشىء فألقيت بها فى وجهه فعدا ورائى يلح علىّ أن أتقبلها منه وألحف حتى رضيت بديلاً من قتله إذ أطال اللجاج وجاوز حد الاحتمال ثم انقلب يتهمنى بسرقتها.

وجلس القضاة ثلاثة على العتبة، ووقف أربعة معهم صفائح ينقرون عليها بعنف كلما علت الضوضاء ليغرقوها ويعيدوا السكون الواجب ووقفت إلى اليمين والمدعى إلى اليسار وجئ بالشهود – شهود كل حادثة لأنهم مستضعفون – فربطونا بحبل واحد شد طرفه إلى حديد نافذة، ولما كثرت حركاتهم واشتد تململهم قيدت أرجلهم أيضاً.

وسألنى الرئيس: "هل سرقت الكرة؟"

قلت: "كلا!"

فصاح بى فى غضب: "إذن لماذا لم تسرقها؟"

فقلت: "لأنى لست مغفلاً"

---

(٣٥) نشرت فى مجلة الجديد، أول يوليه ١٩٢٩ . (ص٤، ٥).

فقال: "هذا اعتراف خطير، فهل سمعت ما قلت؟"

قلت: "لم أكد أسمع نفسى، لماذا لا تخرس هذه الطبول؟"

وقال قاضى اليمين: "ألا تأمر بالقبض عليه بعد هذا الاعتراف؟"

فقال له الرئيس بعنف: "لا أطيق المقاطعة، وإذا عدت إليها مرة أخرى فسآمر بتقييدك ومحاكمتك بدلاً من اللص" والتفت إلىّ وقال: "أى الشهود تريده أولاً؟"

فهززت كتفى وقلت: "ليس لى اختيار، كلهم سواء، لم يروا شيئًا، ولكن اثنين من هؤلاء الطبالين شهدا نصف ما حدث"

فقال الرئيس: "هذان لا يصلحان لأنهما رأيا كما تقول، والآن قص علينا الحكاية فإنى مشتاق لسماعها"

ففعلت، ونودى المدعى ليناقش قصتى فبدأ يسألنى:

هو : ماذا كنت لابساً صباح اليوم؟

الرئيس : سؤال بديع.

أنا : سأخبرك غداً، فليس لى قدرة على التنبؤ.

هو : ولكنك تنبأت بأن الكرة قد صارت...أ.. لقد نسيت فأعدها من فضلك.

أنا : قلت إنها صارت فارغة كرأسك.

الرئيس : هل تستطيع أن تثبت هذا.

أنا : أن رأسه فارغ؟

الرئيس : نعم.

أنا : هات حجراً وأنا أدق لك رأسه وأريك فراغه.

الرئيس : نؤجل هذا إلى ما بعد، ألك سؤال آخر؟

هو : لقد قال شيئًا آخر..

أنا : قلت أيضًا إنها صارت فطيرة لا كرة.

هو : مصفقًا – نعم، نعم، وما الفرق بين الكرة والفطيرة؟

أنا : الكرة معروفة وأما الفطيرة فمثل جسم الرئيس.

الرئيس : جسمى أنا؟

أنا : نعم إذا حكمت علىّ.

الرئيس : كيف؟

أنا : بعد أن أضربك علقة.

الرئيس : فرغنا من المسألة الأولى فعلى المدعى أن يثبت أنه يعرف السارق".

وعصبوا له عينيه وحشرت بين الطبالين على الصفائح بعد أن نقصوا واحداً حللت أنا محله وخطر لى أن أحك رأسى فخلعت طربوشى ووضعته على الصفيحة التى أحملها فذهب المدعى يتفرس فى وجوهنا ويحك خده ويحملق فينا واحداً واحداً ويعض إصبعه وقد بهت فانفجر الشهود والقضاة ضاحكين، ولما زاد تردده وأتضح أن ليس فيه تكلف وقف الرئيس يصفق وسائر الصبية وراءه، واضطرب المدعى فراح يخبط كفًا بكف والألسنة تنوشه وتتعاقب عليه بالنكات ولم يبق إلا أن يضع المسكين يده على سواى لتبلغ الضجة حداً يستوجب أن تفتح نوافذ البيوت فقضى الرئيس بإدانة المدعى وفك قيد الشهود وربطه مكانهم ورفعت الجلسة.

وفى هذه اللحظة صب الماء من نافذة فهوى كله على رأس المسكين، ودوى المكان برعد الضحك والتصفيق، ونزل صاحب البيت فأشبعه ضربًا ثم أطلق سراحه.

لقد كان قضاؤنا عادلاً كما ترى.

صور وأخلاق

الكلاب(٣٦)

لا أطيق الكلاب، هى عندى جميعًا سواء بلا تفريق أو تمييز ولست أعرف عنها إلا أن لها أنيابًا حادة طويلة ونباحًا مزعجًا،وقد يتفق لى أن ألتقى فى طريقى بواحد - أعنى بكلب - فأجلو عن الطريق أو أدخل أى بيت أرى بابه مفتوحًا أو أتحكك بشرطى وأخلق لى حديثًا معه أو أستدرجه إلى مرافقتى حتى يمر صاحبنا بسلام.

ومنذ عشرين سنة اشترى أحد جيرانى فى البيت الذى كنت أسكنه كلبًا أرمنتيًا- اشتراه رضيعًا ولكنه نما بسرعة فلم تمض شهور حتى صار شيئًا مهولاً، ولم تعد السلاسل التى يقيد بها تجدى لأنه كان يقطعها، فكنت إذا أردت الدخول أو الخروج لا أستطيع ذلك ولا أجرؤ عليه إلا فى صحبة واحد من سادته،وقال لى صاحبه يومًا لما كثر احتجاجى واستقر عزمى على ترك المنزل:

"يا أخى لاطفه ولاعبه، أعطه مرة لقمة أو ألق له عظمة يألفك".

قلت: "يا صاحبى أتريد أن أحمل لكلبك اللقمة أو العظمة من أعلى دور إلى فناء البيت؟ إنى مستعد أن أنقده كل يوم قرشًا أجرًا له على السكوت، أما اللقم والعظام فهذا تملق لا أرضاه لنفسى".

---

(٣٦) نشرت فى مجلة الجديد، ٨ يوليه ١٩٢٩ . (ص٤).

ودعانى صاحبى هذا إلى الغداء مرة مع نفر من إخوانه، ونادى كلبه فلم يرقه إلا الكرسى الذى كان إلى جانبى وجعل صاحبنا يحدثنا عن نكاته ونوادره الظريفة ويصف لنا ما فيه من دعابة مستملحة، وما أوتى من القدرة والخفة والنشاط، وكيف أنه مرة بينما كانت لقمة "سندويتش" فى طريقها إلى فمه - أعنى فم الرجل - إذا بها قد انحدرت فى حلق الكلب.

فنظرت إلى الكلب ثم قلت: "ربما كان لأخينا اعتراض على طريقة أكلك"

وإذا بأخينا على صدرى يداه على جانبى عنقى، وفمه فى "زمارة" رقبتى والمدعوون يصفقون ويضحكون، فيزداد حماسة ويقوى إقباله علىّ، وأنا أرتد بالكرسى إلى الوراء شيئًا فشيئًا حتى بلغت الأرض برأسى فوثب عنى ثم كر إلىّ وتناول كمى بأسنانه ومضى يشد حتى استخلص بعضه.

فكتمت ألمى وفكرت بسرعة أن رفض هذه المداعبة ليس من الحزم فى شىء، ولا يزال أمامى ربع ساعة قبل أن نقوم إلى الطعام، فإذا اقتصرت المداعبة علىّ فأخلق أن تنقلب ثيابى هلاهل، وربما أُريق دمى أيضًا؛ فيجب أن أجعل المزاح عامًا وأن أشيع الفكاهة بين الحاضرين جميعًا؛ فابتسمت ودنوت من صاحبه كأنى أحتمى به ثم ملت على أذنه فعضضتها استخلاصًا لبعض حقى فما أسرع ما كان الكلب على ظهرى ويد صاحبه على أنفى فصرخت من الألمين ورحت أعجب ما الفرق بين الصداقة العميقة والعدوان، وتخليت عن الأذن التى كنت قد غرزت فيها أسنانى فأفرج صاحبى عن أنفى فالتفت إلى الكلب واحتضنته فسره هذا وتناول جانبى رأسى بكفيه وجعل يدفعه "أى رأسى" إلى الوراء وسمعت أحد الضيوف يقول:

"إنه لا يحب منظر وجهك"

وقال مضيفي: "أتريد فنجانًا من القهوة..؟"

فقلت: "انتظر حتى يكون على عنقك، والآن ماذا أصنع؟ إني أسأل جادًا؟"

قال: "ابق ساكنًا، ولاطفه وسأخبرك حين يعضك"

فتحريت أن أظل ساكنًا ولكن الكلب تناول أذني وشرع يفصل هذا العضو عن وجهي فلم أجد بدًا من طرحه عني فعض يدي ووثب فكان إلى جانب صاحبه.

بعد هذه المعركة التي سال فيها دمي وتمزقت ثيابي وكادت تقطع أذني صارت حياتي حربًا على الكلاب من حقيقية ومجازية..

صور وأخلاق

العادة وسلطانها[٣٧]

قلت مرة لصديق لى فى رمضان، وأنا أحادثه، إن المرء منا لا يلبث أن ينقلب حزمة من العادات وهذا هو الفرق بين الشباب والشيخوخة، ومن هنا استعداد الشباب للتحول والتنقل وعجز الكهولة عن ذلك، وضربت له نفسى مثلاً، فقلت إن أعصابى أصبحت منظمة على ساعات الليل والنهار، فأنا حين أفتح عينى لأول مرة فى الصباح الباكر أعلم أن الساعة السادسة ولا أحتاج إلى أن أراجع الساعة التى اعتدت أن أدسها تحت الوسادة وعلى ذكر ذلك أقول إن النوم لا يؤاتينى الآن إلا على دقاتها، ولقد تعطلت مرة واحتاجت إلى الإصلاح فأصبت بالأرق، وقد بلغ من انتظام عاداتى ووقوعها فى مواقيتها المضبوطة أن صار فى وسع من شاء الآن أن يضبط ساعته علىّ كما كان الناس يضبطون ساعاتهم حينما يرون "كانت" الفيلسوف الألمانى وهو خارج إلى رياضته اليومية.

فقال صديقى وهو من أهل الاطلاع الواسع:

"لقد قرأت فى بعض الكتب قصة تصلح أن تكون دليلاً على صدق هذه الملاحظة، على الرغم مما فيها مما عسى أن يعده بعض الناس أدخل فى باب المبالغات

(٣٧) نشرت فى مجلة الجديد، ١٥ يوليه ١٩٢٩ . (ص٤، ٥).

والتهويلات التى يقصد بها إلى المزاح منها فى باب الحقائق الجافة التى تصلح للمعامل، وتلك أن رجلاً كانت له زوجة طويلة اللسان جداً، فكانت تصبحه وتمسيه باللعنات والشتائم والإهانات والتأنيب المر والطعن الجارح، وكان فى أول الأمر ينفر من ذلك ويثور عليها بمثله ولكنها كانت أقدر منه وأطول باعًا وأصبر على المواظبة فاستخذى وألف ذلك حتى صار لا ينام إلا على صوتها المتدفق ببراعات الهجو ومبتكرات القدح والذم، ثم توفاها الله بعد أربع وعشرين سنة من هذه الحياة فأقبل عليه آله وإخوانه يهنئونه ولكن الرجل تضعضع وانهد كيانه وتقوض بنيانه وتلفت صحته فراح يعرض نفسه على الأطباء فلم يجده علاجهم ولم تؤثر فيه منوماتهم، ثم أشار عليه لبق ذكى من أصدقائه أن يلتمس له زوجة كالأولى فحار الرجل ولم يدر أين يجدها، وراح ينشد طلبته بين الأرامل إذ كانت الفتيات الأبكار لعدم خبرتهن لا يصلحن للاضطلاع بهذه المهمة الجسيمة، وأخيراً جاء صاحب له وأبلغه أن امرأة من "الطراز الأول" توفى زوجها عنها أمس فعليه بها، فمضى فى اليوم عينه وشرع يتودد إليها ولم تمض بضعة شهور حتى فاز بها، ولكنه وجد أن صوتها ضعيف لا يبلغه وهو فى الحديقة، فصار يحتمل كرسيه إليها فى القاعة ويجلس قبالها يشرب لعناتها ويعب فيها عب الظمآن، غير أنها لم تكن مع الأسف سوى صدى ضعيف لذلك الصوت الزاخر الذى أخرسه الموت، وكانت المرأة تبذل أقصى ما يسعه طوقها نصف ساعة أو نحو ذلك ثم تحس بالفتور فتمسك، فيفتح الرجل عينيه ويقول متسائلاً أو حاثًا لها "أأنت هنا يا عزيزتى؟"

فتقول: "هنا؟ وأين كنت تحسبنى أيها الغر المغفل؟"

فينشرح صدره ويبدو البشر والسرور فى أسارير وجهه ويقول لها:

"تكلمى يا عزيزتى فإنى مصغ إليك"

ولكن بئر سفاهتها نشفت وبعد لأى ما كانت تستطيع أن تمتح ما يكفى ربع ساعة، فكان الرجل يراها تسكت فيهو رأسه ويقول لنفسه: "كلا! لقد كانت زوجتى الأولى - عليها ألف رحمة - درة يتيمة"

وكان إذا أراد النوم لا يزال يستحثها ويستثيرها لتسح فيقول لها مثلاً حين يبدو عليها الفتور ويثنى رأسها النعاس:

"نعم يا عزيزتى إن بالى إليك، لقد كنت تحدثيننى عن فلانة وكيف كنت أحملق فى وجهها على الطعام ولا أحول نظرى عنها إعجاباً بجمالها"

فتهيج به تمطره صيباً من محييات نفسه ومنعشات قلبه، ولكن السحابة سرعان ما كانت تقلع ويعود إلى الجو صفاؤه وإلى الليل هدوءه وإلى قلب ذلك المسكين حنينه اللاعج فيقول:

"هل رأيت فلانة فى ثوبها الجديد، تالله ما أشد انسجامه على قوامها الرشيق!! لقد أخذت قلبى معها حين ودعتنا البارحة"

فتكر عليه بنفس متقطع وصوت محشرج من فرط الإعياء فيرميها بآخر سهم فى جعبته ويقول: "أسمعت ما قالت فيك فلانة؟ لشد ما أضحكتنى والله!"

فتفتح عينيها وتسأله: "أضحكتك أيها الخائن؟ أتقول أضحكتك أيها الكلب العفن؟"

فيستبشر ويقول: "وكيف لا أضحك وهى تقول إن لك وجهاً كالسردينة؟"

ويغمض عينيه ويرهف أذنيه ليتلقى بهما أمواج أنغامها الصاعدة الهابطة إليهما برأيها فيه، ولكن البقية الباقية من قوتها لا تلبث أن تنفد فيتحسر الرجل على النعيم

الذى زال عنه ويظل إلى الصباح يصعد آهاته وتأوهاته على ما فقد ويتأفف مما صار إليه".

***

فسألت صديقى: كم عاش هذا الرجل بعد زوجته الأولى؟".

فقال: "لم يذكر الكاتب شيئًا عن موته ولكنى لا أظن عمره قد طال".

قلت: "لا عجب فإن للعادة سلطانها الذى لا يقهر"[(٣٨)].

(٣٨) "لم يذكر لى صديقى اسم الكتاب فلم أستطع مراجعة القصة، فهى هنا كما سمعتها منه، فإذا كان فيها بعض التحريف فلا حيلة لى فى ذلك ولا لأثم علىّ، وكل ما يسعنى أن أقوله هو إن الحكاية تكاد تكون مروية بحروفها، فقد استظرفتها جداً فلم أنس منها شيئًا" (المازنى).

أنا وضميرى[٣٩]

لما كانت الحرب العالمية دائرة، لاحظت يومًا أن رجلاً يتعقبنى ثم تبين لى أنه موكل بى، ولم يكن لهذا فيما أعلم داع، ولكنها كانت أيامًا سوداء، فلم يكن لى معدى عن احتمال هذا الضنك، وكانا أمرين أحلاهما مر: أن أدع ظله الراكد يرتمى علىّ حيثما أكون، أو أن أعالج المروق منه فأريبه وتكون العاقبة الاعتقال، لذلك رضت نفسى على الصبر والرضى بزمالته المفروضة علىّ، ثم بدا لى على الأيام أن أعابثه وجمحت بى الرغبة فى مداعبته وركوبه بالمزاح، فكنت أسير فى الطريق متمهلاً وكأن لا شىء على ظهر الأرض يعنينى، ويمر الترام يخطف إلى جانبى فأثب إليه بغتة فينطلق المسكين يعدو ورائى فى حذاءيه الثقيلين الذين لا يساعدان على السرعة وأنا أصيح به "إلى الملتقى"، وكنت فى تلك الأيام – وما زلت – مشَّاء، أعنى أنى صبور على المشى مسافات طويلة، فكنت أطوف به القاهرة وضواحيها متمهلاً تارة ومهرولاً أخرى، ومنسلتًا عنه هنا أو ههنا، ثم أبرز له بعد الاستخفاء وأستأنف السير وقد أنبث التراب برجلى فى وجهه، حتى أراه يزك ويقارب خَطوَه من فرط الإعياء فأترفق به، وأخيراً ضجر المسكين ولم يستطع الصبر على هذا الإرهاق ولم يجد فى خلطائى ولا فى سيرتى ما يريب فاتفق معى على أن يرمى إلىّ بالزمام ويعفينى من صحبته على شريطة أن أسرد له فى آخر كل يوم روحاتى وغدواتى، وهكذا كان وصرنا صديقين إلى أن أراحنى الله منه.

---

(٣٩) نشرت فى مجلة الهلال، فى ديسمبر ١٩٢٩ . (ص١٦٥-١٦٩).

كذلك فعلت مع ضميرى: ولم أكن فى صدر حياتى أحسه أو أجعل بالى إليه، إما لأنه هو كان ضميراً غريراً لا تجربة له ولا خبرة بالدنيا، وإما لأنى أنا لم أكن أحوجه إلى مطاردتى، ثم بدأ ظله يتسع ويطول ويعرض حتى رأيته يستغرق رقعتى من الدنيا، وأشد ما كان يسخطنى عليه تناقضه وعدم اطراد منطقه معى، من ذلك أنى صرفت مرة متسولاً بإشارة ضجر، فعنفنى وقال: "هلا قلت له قولاً جميلاً يأسو ما جرحت الفاقة؟ أنسيت قول المتنبى: فليسعد النطق إن لم تسعد الحال؟".

ثم لقيت سائلاً فقلت له: "يا صاحبى إن أسفى والله لعظيم، إذ ليس معى فلوس وإذا قابلتك مرة أخرى فسأعطيك جزيلاً"، فشكر الرجل ودعا ولكن ضميرى هز رأسه منكرًا علىّ أنى كذبت مستهجنًا من اللجوء إلى الكذب ضنًا بمليم أو قرش، وإذا كان المرء يكتب من أجل مليم فأى إثم لا يجترح؟. قلت: "صدقت، وقد تبت".

والمستكفون فى مصر كثيرون فلا عجب أن أكون مكثوراً على كغيرى ما دام أن فى كل طريق سائلاً، فلما قلت لواحد بسط لى كفه: "اسمع يا هذا، إن من الجناية على المجتمع أن نشجع أمثالك أنت قادر على العمل فاذهب واعمل واكسب رزقك بعرق جبينك" – صاح بى ضميرى: "هذه قسوة لا داعى لها، وقد كان يسعك أن تصرفه ولو بكذبة بريئة فلن يطالبك بالدليل على صدق ما تزعم، ولأن تكذب عليه خير وأسلم عاقبة من أن توغر صدره بسوء المعاملة فتدفعه إلى التمرد والإجرام بعد أن دفعته الفاقة إلى التكفف".

وجدت مرة على سائل بقرش فهاج بى ضميرى يلعننى ويقول: "تفسده وتشجعه بالعطاء، فهلا ذكرت أنك البارحة أبيت أن تسخو لابنك بمثل هذا القرش؟ فأيهما أولى يا ترى؟ ابنك وأنت مسئول عنه أم هذا المتبطل الذى لا شأن لك به؟"، وهكذا، فكل ما أعمل أو أترك، قبيح، كأن "مهنة" الضمير أن يسوِّد الدنيا فى عينىّ المرء ويدفعه إلى الندم على كل عمل أو خاطر، نعم فما تسلم حتى الخواطر ونجاوى النفس من لسانه اللاذع.

ولكن ضميرى بالغ جداً وأغرق فى النزع "والحرمان فى الإغراق" كما يقول ابن الرومى فرغبت إليه أن يبرز لى ويرينى وجهه الذى لا شك فى أنه مسيخ ففعل؛ فقلت له وأنا أقدح عود الثقاب لأشعل له السيجارة: "اسمع يا صاحبى..."

فأشار إلىّ مقاطعًا وهو ينفخ الدخان ويضع رجلاً على رجل:

"لست صاحبك من فضلك".

وكان صوته كالصفير يجرح الأذن، ولهجته جافة تصد النفس فكظمت غيظى وقلت:

"نوشك أن نتفاهم يا هذا، فهل لك أن تبين لى ماذا أنت بالنسبة إلىّ؟"

"كل شىء إلا أنى صاحبك.. عدوك إذا شئت، بل أنا ذاك على التحقيق، ولكن لا ينبغى أن تدعونى "يا هذا" فإنى سيدك ولست "يا هذا"، وأنت عبدى ولست ندى".

فلم أطق هذه القحة، وتناولت الدواة فرميته بها وهويت على عنقه بيدى قبل أن يتمكن من الهرب وهززت رأسه بعنف وأنا أصيح به:

"سأريك أينا عبد الآخر أيها القزم الدميم! أتحسب أنك تستطيع بعد الآن أن تسود عيشتى بكلامك الفارغ؟ سأستل لسانك من حلقك وأشويه وآكله تحت عينيك هاتين: ونغص بعد ذلك حياتى إذا استطعت؟".

ولم أكن أريد قتله لأن من البلاهة أن أشنق من أجل "ضمير" حقير كهذا، ولكنى أردت تعذيبه وإذلاله، فكففت عنه ولما بلغ ريقه طلب الهدنة فقبلت.

وطالت "المفاوضات" بيننا ويكاد يتعذر الاتفاق أكثر من مرة، فقد أبيت إلا الاستقلال تامًا غير منقوص، وله إذا شاء أن يعد نفسه صديقًا أو حليفًا، أما أن يكون له حق الملاحظة أو الاعتراض فهذا ما رفضته رفضًا باتًا وزادنى إصراراً على الرفض أن ملاحظاته لا تجئ إلا بعد الأوان وبعد أن يكون المرء قد فعل الشىء أو أهمله وانتهى

الأمر وضاعت الفرصة ولا حيلة له فى إصلاح ما فسد، وأخيرًا اتفقنا على أن يتحرر كل منا من رق صاحبه، وقلت له وأنا أصافحه:

"إذا استطعت ألا تريني وجهك وأن تعفيني من صحبتك فإن شكرى لك يكون مضاعفًا، فإنك تعلم أنك أشبه بالقرد بل أقبح، ولست أحب أن يراك معى إخوانى".

فقال: "لا تخف فلن ترانى غير عينك، أما أنى دميم فمن المسئول عن ذلك؟!".

قلت وقد آنست من لهجته أنه يتهكم: "من؟ هل استشارنى أحد فى أمرك؟".

فقال وهو يبتسم: "لا أدرى ولكنى أعرف أنى كنت صبيًا وسيمًا وطويلاً غير قصير، قبل أن تدخل أنت فى حدود الرجال".

فسألته: "ولماذا بالله لم تمت فى صباك؟".

قال: "كيف كان يمكن أن أموت وأنت حى؟ ولما كنت أنت شابًا حى الضمير كنت أشتد وأزهو وأربو، وكان عملى ممتعًا كثير التنوع وكنت ألتذ الآلام التى أحدثها لك حتى بدأت تتمرد أو على الأصح تتبلد وفتر وقع تعذيبى لك وكثرت المواضع التى مات حسها فهزل غذائى وتضاءلت إلى أن صرت كما ترى، وإن فيك الآن لمائة أو مائة وعشرين نقيصة، ولكنها لا تكفى ولا تمدنى بأسباب الصحة".

فقلت له: "وهكذا يكون نموكم معشر الضمائر عكسيًا! فلماذا لم تلفتنى إلى هذه الحقيقة منذ عشرين سنة؟؟ إذن لكنت وجهت عنايتى إلى ما تسميه "نقائصى" – وإن كنت لا أرى فضائلى تسلم من لسانك – وبلدت كل المواطن الحساسة ورددتك هباءة لا ترى إلا بمنظار".

فقال: "ألا يكفيك أنك أحوجتنى إلى استجداء الضمائر الأخرى والتماس عونها على الحياة؟".

قلت: "وكيف يكون ذلك؟ ألك بضمائر الناس غيرى معرفة؟".

قال: "نعم يجمعنا النادى والنقابة".

فوثبت إلى قدمى وقد جرى ببالى خاطر جهنمى، وسألته بلهفة:

"وأين ناديكم هذا؟ ومتى تجتمعون فيه؟".

فأغرب اللعين فى الضحك حتى كاد يستلقى على قفاه فهاجنى ذلك واستثار غضبى فصحت به: "ماذا يضحكك من سؤالى أيها القرد المسيخ؟"، ورميته بالحذاء وأتبعت الحذاء بكتاب وأردفت الكتاب بالقلة، ولكنه راغ من قذائفى كلها ووثب إلى رف قعد عليه.

وقال: "تسألنى ماذا يضحكنى؟ لو لم تكن حماراً - كلا! لا تشكرنى من فضلك - لأدركت أنى شىء غير مادى، ألم أقل لك إن غيرك لا ترانى عينه؟ فما دلالة هذا؟ ولكنك كنت هكذا أبداً - حماراً لا يفقه، وقد صرت الآن حماراً بليداً لا يؤثر فيه وخزى، لا بأس، سألتحق فى نادينا بمكتب تدريب الضمائر الغريرة".

فلجأت إلى الحيلة وقلت: "ولكنك تدهشنى بقدرتك على الوثب".

قال: "ألم أقل لك إنك حمار؟".

قلت: "وما دخل كونى... كذلك فى قدرتك على الوثب؟".

قال: "لأنك لما نهضت تمطرنى أسئلتك كان الطرب شائعًا فى كيانك فصار ضميرك كالريشة".

فعضضت شفتى ووددت لو أننى لم أكن مسروراً، إذن بوسعى أن أقبض عليه وأكرهه على الإفضاء إلى بمكان هذا النادى، ولكنى كتمت هذا وسألته: "ولكن كيف عرفت أنى مسرور؟".

فقال: "تالله ما أبلد ذهنك! كيف أكون ضميرك ولا يسرى على شعورك؟!"

فقلت: "حسن، ولكن هل مع تسرب شعورى إليك تستطيع أن تقرأ خواطرى؟"

فقال: "نعم، وإن لم يعد لى تأثير فى حياتك".

لا فائدة إذن ما دامت سريرتى لا تخفى عليه، ولكنها مع ذلك فرصة ضاعت، ولو تمكنت من ناصيتها لأصبحت أكبر محسن إلى العالم، فقد كنت معتزماً إذا عرفت منه مكان النادى ووقت اجتماع الضمائر أن أنسفه عليها بالديناميت فأخلص إخوانى فى الإنسانية من الأسر وأعتقهم من هذا الرق، وأحزننى أن الفرصة أفلتت وكرب نفسى أنها لن تعود، وتحسرت على الخير الجزيل الذى كنت موشكاً أن أهديه إلى البشر، وحزت فى خيانة الحظ وشعرت بقلبى ينكسر وكأن شيئاً يقبض عليه ويضغط فهويت إلى الكرسى كأن ليس فى ثيابى ما يمسكها وتدلى رأسى على صدرى من الهم والحزن، وإذا بشىء ثقيل يقع على الأرض فتنبهت والتفت فإذا ضميرى عند قدمى لا يكاد يقوى على حركة وقد خبا الضياء الذى فى عينيه وراح رأسه يخفق ويهيم.

ولم أكد أرى ذلك حتى انقضضت عليه وأخذت بمخنقه وقلت من بين أسنانى:

"قد وقعت فى يدى ولا نجاة لك، فعجل وقل لى أين ناديكم لعنة الله عليكم من شياطين وأبالسة وإلا عصرت روحك وضربت دمك".

فقال وهو يكاد يجود بنفسه: "لن يسعك أكثر من خنقى فافعل، ولن تكون أول من خنق ضميره، وأنا ميت ميت سواء أفضيت إليك بالسر أم كتمته عنك فاصنع بى ما بدا لك فلن أخون عشيرتى".

فلم يسعنى إلا إكباره وإن كان ضميرى، ورفعت يدى عن عنقه وقلت:

"ولكنى أشتاق أن أرى مجمعكم".

قال: "كيف يمكن أن تراه وكل ضمير لا يبدو إلا لصاحبه وحده؟ ولكنى أحدثك عنه".

فتهيأت للاستماع وأشعلت سيجارة وناولته مثلها وقلت: "تفضل".

فقال: "أشكرك، نحن كالوطاويط لا نظهر إلا فى الظلام، أعنى لا نجتمع ولا نؤم النادى إلا بعد أن ينتصف الليل، ذلك أنَّا فى النهار مشغولون بأعمالنا وكل منا ينصرف لأداء واجبه نحو صاحبه، لا تبتسم، إن هذا عملنا فى الحياة، ونحن نستمرئه ونستمتع به، على أن منا من لا يتيسر له أن يزور النادى لأنه يؤرق صاحبه فيضطر إلى ملازمته ولا يسعه أن يتحول عنه، والسعيد السعيد الذى يفوز بصاحب سريع الاستجابة للضمير، فإن الضمير يجد فيه مرتعًا خصيبًا فيطول ويعرض ويتورد خداه ويسمن ويبلغ من ضخامته أن يضطر إلى النوم فى العراء أو خارج البيوت لأنه ما من غرفة تسعه، أتعجب لهذا؟ هو عملنا يا صاحبى وليس أمتع للضمير ولا أصح لجسمه وروحه أيضًا من أن يرى صاحبه يمزق قلبه، لا تمط شفتيك! أعدى أعداء الإنسانية؟ نعم، وماذا إذن؟، لسنا من أبناء أبيكم الشيخ آدم فبأى حق تتقاضوننا الإخلاص لكم والوفاء لجنسكم؟، وأى غرابة فى أن نكون أعداء لكم ومنكم من هو عدو أخيه؟!

"وأكثر ما نجتمع فى الهواء الطلق لأن فينا كل ضخم هائل الأنحاء، والرئيس أعلانا رأسًا أعنى أطولنا وأذهبنا فى الفضاء، كذلك فينا الضئال الذين فى حجم عقلة الإصبع وآخرون كالذر ومن لا يبدون إلا تحت عين الميكرسكوب، وقد احتجنا أخيرًا إلى ميكرسكوب أقوى وأشبه بآلات رصد النجوم، وكلما هزل منا واحد لقلة عمله ضممناه إلى فرقة المعلمين الموكلين بتدريب الضمائر الجديدة تمهيدًا لمباشرة العمل ومزاولة المهنة، أوه! دائمًا هذه الابتسامة السخيفة! لكأنى بك تظن فى وسعكم بنى آدم أن تستغنوا عنا! ولا عجب أن تتوهم ذلك لأنكم مبنيون من الغرور! أى والله! ليس لغروركم آخر يقف عنده أو حد ينتهى إليه، ولكنى أسألك كيف كانت حالتكم تكون لولا أنَّا راصدون لكم؟ لولا أنا نضع لكم اللجم فى أشداقكم ونزجركم عن الجماح ونردكم عن ركوب رءوسكم؟ أجبنى أنت: كم رجل كنت تقتل لولا عنانى الذى أشده ولا أرخيه؟ وزوجة صديقك الجميلة ماذا منعك أن تخونه فيها؟ كم فرصة للسرقة أتيحت لك وأنت

آمن أن تفتضح فلم تمدد يدك؟ لماذا؟ ألأنك عفيف وفاضل ونزيه بطبيعتك؟؟ لا أحسبك تجرؤ أن تدعى ذلك، إنما تعففت وتنزهت حياءً منى وخوفًا من لسانى وجزعًا من كيى لفؤادك، وأنت الآن حر طليق، وقد خلصت من أسرى، وأكبر ظنى مع ذلك أنك لن تسرق أو تقتل أو تفعل غير ذلك مما كنت أعظك أن ترتكبه ولكن كفك لن يكون عن طبع فيك بل عن تطبع رُضتك عليه، فأنا أمنحك استقلالك وأنا آمن عليك النكسة، إلا أن تكون قد خدعتنى عن حقيقتك، ومن يدرى؟ ألم تكن تهم بقتلى منذ لحظة؟ وما أراك كنت إلا أبله قصير النظر، فلو أنك قتلتنى لاسترحت من ضمير واحد، ولكن ثق حينئذ أنه كان يثور عليك ألف ألف ضمير تنوشك بأوجع من الرماح من كل ناحية ولا تدع لك ثانية واحدة تستقر فيها وتهدأ، ولكنك معذور، ومن أين كنت تعلم أن لنا نقابة قوية تحوط أعضاءها بالرعاية وتتحفظ بمصالحهم وتثأر ممن يمس واحداً من جماعتها بسوء؟؟ إن الماسونية مأخوذة عنا ونحن الذين ابتدعوها وأنتم مقلدوننا فيها على عادتكم فى المحاكاة وإن كنتم لا تحسنون شيئًا، كالقردة من بنى عمومتكم، تحاكى دون أن تفهم، ....".

فقلت: "هى مؤامرة إذن؟ يجب أن يحاط البوليس علماً بذلك".

فقهقه ونهض وتناول طربوشه وعصاه وقال وهو يمد إلىّ يده:

"إلى الملتقى، ولا تحسب أنك فرغت منى".

فقلت: "أوه، إنى مستعد أن أراك من حين إلى حين".

فقال: "ليس هذا ما أعنى".

قلت: "ماذا إذن؟".

قال: "هى الحاجة إلى النشاط تضطرنى إلى تسليط بعض الضمائر عليك وإغرائها بك".

فهززت يده مستخفًا وقلت: "افعل ما بدا لك بالطبع".

فقال: "أنتم كذلك دائمًا يا بنى آدم، تستهينون بما لا ترون: إذا لم يكن القيد حول أعضائكم فلا قيد هناك غيره، ويجب أن يجز فى جسمكم ويؤلمكم أيضًا لتفتحوا عيونكم وتعلموا أنكم مقيدون، أما القيود التى تفرضها عليكم علاقاتكم بغيركم فهذه لا وجود لها فى نظركم، ومن أجل، أنك أخفتّ صوتى أو اسكتنى عنك أو سددت أذنيك، تتوهم أنك حر بأتم معانى الحرية.... ها ها! مسكين مسكين! إذا كنت أنا لا أقدر على إسماعك صوتى فسترعد فى مسمعيك ضمائر من حولك وعند ذلك نرى ماذا يبلغ من حريتك المزعومة أيها المخلوق الضيق المحدود".

ومضى عنى ولم أسمع، بعد، هذا الرعد الذى أنذرنى به، ولكنى حشيت أذنى قطنًا.

تجارب الغلام التائه[٤٠]

أطلقوا "المنادى" فى الدروب والأزقة يسأل "أولاد الحلال" عن غلام فى السادسة من عمره، ليس لأبويه سواه، يلبس "جلابية" أرجوانية، وعلى رأسه "طاقية" من نسجها، وتحت قدميه المصبوغين بالحناء قبقاب، محلى بالأصداف وله "جلاجل" رنانة، وأذناه - يعنى الغلام - مثقوبتان وفيهما قرطان من المرجان تشبيهًا له بالبنات لعل الله يطيل عمره ويرد عنه عين الحسود.

وكان الغلام قد اختفى بعد تمام الساعة العاشرة صباحًا بربع ساعة أو نحو ذلك، ولم يعثروا به إلا حوالى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، وكان الغلام عنيداً كتوماً قلّ إن يبيح أحداً دخلة نفسه، إلا إذا اطمأن إليه ووثق به، فاختفى ثم ظهر وظل ما فعل فى يومه ذاك سراً مطوياً عن والديه، وشهد القصاب أنه رآه فى منتصف الساعة الحادية عشرة، يلعب على خطوات من دكانه وفى يده شىء مشدود إلى خيط لا يدرى أهو عصفور أم يمامة صغيرة، وقال ابن البدال - جار القصاب - إنه مر به وتلكأ أمام دكان أبيه لحظة فلما نهره رماه بحصاة وذهب يعدو، فلما مثل ابن البدال كيف يستطيع أن يعدو بهذا القبقاب، قال إنه كان حافياً.

وجاءت امرأة تدخل البيوت بسلة فيها مقادير من الحمص والفول السودانى واللب الأبيض والأسمر، تبيع السيدات منها، فأعربت عن خوفها أن تكون إحدى الجوارى السود قد خطفته أو أن يكون الشيخ "الملوانى" قد سحره! فأما الخطف فآمنت به الأم

---

(٤٠) نشرت فى مجلة مصر الحديثة المصورة، أول مايو ١٩٣٠ . (ص٨، ٤٢).

واستبعده الأب، وأما السحر فقد أشفقت منه الأم واصفر وجهها لذكره، ولكنها فى سريرتها لم توله اهتماماً كبيراً، وأبى الوالد أن يصغى إلى أى كلام فى السحر أو يعده احتمالاً معقولاً.

وكاد سر هذه الغيبة الطويلة يطوى إلى الأبد لولا أن الغلام فى ساعة من ساعات تبسطه أفضى به وكشف عنه لابن عمه وخدنه، ويؤخذ من روايته أنه دخل فى الصباح على أمه وكانت أمامها أباريق القهوة وفناجينها بعضها على مدار "المنقد" - يعنون الموقد أو المدفأة - والبعض فى "الصينية" وإلى جانبها حُق البن وحُق السكر، فتحكك بأمه وأراد أن يمد يده خلسة إلى حق السكر ليتناول منه قطعة أو اثنتين، ولكن أمه زجرته ونقلت الحُق عن موضعه فيئس وانصرف عنها، وخطر له أن يخرج إلى الطريق فجمع أدواته وهى عبارة عن "نحلة" وخيط لها يسمونه "القيطان" وزمارة قصيرة، وغطاء قلة قديم، ورقيقة من رقائق "الصفيح" ومسمار كبير مما تعلق به الستائر، ثم وقف يلعب أمام دكان القصاب - لا ينكر الغلام هذا - ولكنه ينكر أنه كان معه عصفور، فما كان يلعب إلا "بالنحلة"، واعترف بأنه رمى البدال بحجر جزاء له على انتهاره له لتوهمه أنه يريد أن يخطف، شيئاً مما فى المقاطف المرصوصة أمام دكانه، ولم يلبث بعد أن جرى أن أدرك عربة "كارو" يجرها حمار ويجرى بها مسرعًا، ويظهر أنه أراد أن ينشط جسمه أو يقيس سرعته إلى سرعة الحمار فأخذ يعدو محازياً للعربة، والتفت صاحب العربة إليه وكأنما أدركه العطف عليه فدعاه أن يركب ففعل وجلس مربعاً ساقيه وراء الحمار وراح يخزه بالمسمار ليستحثه على موالاة الجرى، فغضب الرجل وأنزله، فلما بعدت العربة عنه رفع عقيرته الصغيرة بوصف سمعه من الخادمة "حليمة" لمثل سلوك هذا الرجل.

وكان نزوله فى شارع "الدراسة" فأبصر دكاناً أمامها عدى صفائح، فتسلل إليها فألفى واحدة قد رفع عنها الغطاء، ونظر فوجد فيها عسلاً أسوداً، فتلفت أولاً حتى اطمأن ثم دفع يده فى جوف الصحيفة ومضى يلحس، وقد اعتقد أن الله قد عوضه

خيراً من السكر الذى أبته عليه أمه، وأنه لكذلك وإذا برجل ضخم يضربه على ظهره يجمع يده ويشتمه بأقبح الألفاظ، وأراد سوء الحظ أو حسنه - فما يدرى الغلام - أن تكون اللكمة أقوى مما يلزم وأن يكون الغلام فى تلك اللحظة حانيًا على الصفحة فإذا برأسه ينغمس فى عسلها، فشده الرجل وقد زاد غضبه ثم وقفه ودخل الدكان وعاد بصحن فارغ ودنا من الغلام، ففزع وخاف أن يكون الرجل قد نوى أن يضعه فى الصحن ويضيف قدراً من "الطحينة" ثم يأكله، فولى هارباً.

ويقول الغلام فى روايته إن هنا فترة نسى ما وقع له فيها وكل ما يذكره منها أنه كان يجلس على أعتاب الأبواب وكان يبكى فى أول الأمر، ولكن العسل كان يسيل على وجهه فجعل يمسحه عن وجهه وفى ثيابه، ثم خطر له أن يجعل مسيله إلى فمه فلما أعياه هذا صار يتناوله بإصبعه، وفيما عدا هذا الشاغل لا يذكر شيئًا عن هذه الفترة.

وأقبل المساء وعضه الجوع، فقام يمشى وهو لا يدرى إلى أين، وهم بالبكاء، بل هو يقر أنه بكى، ولكنه ما لبث أن كف فقد رأى سرادقًا كبيراً وصافحت سمعه جلبة عظيمة من داخله، فدار به أولاً يبحث عن بابه فإذا عليه خلق كثير، فعاد إلى الدوران حتى وجد مكانًا خاليًا فرفع طرف السرادق عن الأرض وزحف داخلاً.

وقال الغلام إنه لا يستطيع أن يصف ما شهد من المناظر المدهشة، فمن خيل صناعية تدور براكبيها على أصوات الطبول، إلى مهرج - بلياتشو - لا بد أن يكون قد وضع وجهه فى "قفة" من دقيق القمح وعلى رأسه "طرطور" طويل متعدد الألوان وفى أطراف سراويله الحمراء "جلاجل"، وهو يتوثب ويقول كلاماً مضحكًا جداً ويلطمه رجل عظيم الجثة فى الهواء، ومن حصان ينفذ من عجلة، إلى امرأتين شوهاءتين تتباريان فى ميدان السفاهة، وهكذا إلى آخره مما لم يكن الغلام يومئذ يقوى على توفيته حقه من الوصف والتصوير.

وخرج من الملعب بعد أن انفض السامر وكان الظلام قد شمل الدنيا، فعاد إلى المشى والجلوس على الأعتاب، وكان يبكى على بعضها وينام على البعض الآخر وإذا به - لا يدرى كيف - يلقى نفسه محمولاً على الأيدى فموضوعاً فى فراشه.

وقد غسلوا له رأسه وجسمه بالماء الدافئ، فكان شعره يقطر عسلاً، ولا يزال الغلام يذكر ذلك مع الارتياح والسرور، وهو يؤكد أنه لم يشعر بحنين إلى البيت أو شوق إلى أبويه، ولكن الجوع.. الجوع.

وقد أفضى إلى ابن عمه بتجاربه هذه على أن يُحتفظ بها سراً ولا يُكاشف بها أحداً وختمها بسؤال ابن عمه "معك مليم بقى؟"

أما كيف انتقلت إلىّ الرواية مسألة أخرى...

فى جهل الشباب(٤١)

ظلت الفتاة - أو لعل الأصح أن نقول المرأة - ستة شهور طويلة وهى تحب "زكى" فى صمت وصبر، ولم تحاول قط ولا مرة واحدة فى هذه الشهور كلها أن تفكر فى الأمر من غير الناحية الشخصية، وكانت المسألة مسألة جهد - وهو ما لم تبذله، وإنما تركت نفسها تحبه وتحلم به وتتعذب، وتراه فى كل يوم مرات من شباك "المشربية"، وكان البيتان متقابلين متدانيين، حتى ليسع المرء أن يخطو من نافذة أحدهما إلى نافذة الآخر، وكانت تضع القلل على المشربية ليبردها تيار الهواء الذى يمر فى هذا الزقاق الضيق، وكذلك كان أهل البيت المقابل يصنعون، وكانت حميدة - فهذا اسمها - ربما رأت زكى يشرب، فتتنازعها نفسها بعد أن يخرج من الغرفة، أن تمد يدها فتتناول القلة التى عب منها زكى، وتلثم موضع فمه، ولكنها لم تفعل ذلك قط وإن كان سهلاً ميسوراً.

ولم يكن زكى يدرى بها أو يحسها أو يعرف شيئًا من ذلك، فقد كان شابًا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، وقد نشأ نشأة دينية صارمة، ولم يكن يعرف أو يرى من النساء إلا أهله، وكان يتيمًا مات أبوه عنه وهو طفل، ولكن أمه أحسنت تعهده، وكانت أذكى وأحكم من أن تدعه يشعر برقابتها أو تجعله يحس أن عليه قيدًا أو نطاقًا مضروبًا، فنشأ وهو يشعر بالحرية ولا يحس أن به حاجة إلى التمرد على الضغط أو الحرمان، وكان إرشادها له بالإيحاء أكثر مما كان بالأمر أو النهى، وبالقدوة

---

(٤١) نشرت فى مجلة مصر الحديثة المصورة، ٢١ مايو ١٩٣٠ . (ص٦).

دون الزجر أو التلقين، وكانت تشركه فى أمور البيت وشؤون الأسرة وتستشيره وتجعله يشعر بالتبعة، فنضج قبل الأوان واتزن فى سن الجهل والطيش.

واتفق فى ليلة من ليالى رمضان، أن كان عائداً من بيت صديق له، وكان ذلك حوالى منتصف الليل، فلما مال إلى الزقاق المظلم لم يكد يسير فيه بضع خطوات حتى أحس ذراعين لينتين تطوقانه، ففزع وقد جرى فى وهمه أن هذا شيطان، وكاد يصرخ لولا أنه خجل أن يسمع أحد صراخه، وهو يعد نفسه رجلاً ويستكبر أن يبدو منه مثل سلوك الصغار، ولم يكن ثم وقت للتفكير؛ فجاهد يريد أن يتخلص، ولكن الذراعين على لينهما كانتا قويتين فأعياه أن يفلت من عناقهما، غير أنه ظل يحاول أن يتملص بقدر ما يسعه طوقه، والمرأة التى تحتضنه تشد عليه وتخطو متراجعة، وهو يجاهد ويتوهم أن قوته هى التى تردها إلى الوراء، فيضاعف جهده، وكلا المتصارعين صامت لا ينبس بحرف، فليس أعجب من حالهما ولا أغرب من موقفهما: هى امرأة ظلت تحب وهى صامتة صابرة على الحرمان حتى من النظر إلا من وراء حجاب أو نافذة حتى دار رأسها واضطرمت النار فى دمائها فلم تعد تدرك ماذا هى فاعلة فانحدرت فى جوف الليل فى حفل من الزينة تنتظر أوبته وهى مسندة ظهرها إلى الحائط فى هذا الزقاق المظلم، وهو فتى لو غيره فى مكانه لما أحوجها إلى مد يدها، ولكنه لم يخطر له إلا أن هذا شيطان، وإن كانت الشياطين تسجن فى رمضان، فهمه كله أن يتملص وينجو بجلده.

وصار أمام بابه هو، فأمده شعوره بالقرب من أهل بيته، بقوة جديدة فتفلت ودفع الباب بكتفه وراح يعدو ولا يتوقف، أما هى فرفعت كفها إلى جبينها ثم مسحت العرق المتصبب، وتنهدت ثم غابت فى ظلامين من اليأس والليل.

***

مضت ثلاثة أعوام على هذه الحادثة، وفتح فتانا عينه على الدنيا، واطلع على كثير مما كان مغيباً عنه منها، فصار كلما دخل الزقاق فى الليل يذكر ما وقع له فيه ويضحك أو يسخط تبعًا لحالته النفسية، وبدأ يتطلع من ثقوب الشبابيك وقد دار فى نفسه أن التى احتضنته لا بد أن تكون فى هذا الزقاق، وتعلم أن يصعد عينه فى النوافذ وهو داخل أو خارج.

وكان يومًا خارجًا فلما قارب الباب إذا به يفتح وتدخل منه امرأة لم يرها من قبل، فوقف يرنو إليها من غير أن يتنحى ليفسح الطريق، فعل ذلك بغريزته ولأن هاتفًا هتف به أن يقف معترضًا، فوقفت قبالته وكانت نظرتها ذائبة وصدرها كالموج يعلو ويهبط، فأقبل عليها وضمها ووضع خده على خدها فعل ذلك كأنه حقه أو كأنه شىء طبيعى، وخيل إليه أنه يحلم وأن هذه أسطورة هو بعض خيالاتها ثم قال وهو يحدق فى عينيها:

"ولكنا بعض حقائق الحياة، وليس فى الحياة أساطير".

فظلت عينها متعلقة بعينه ولم تجب، فمسح شعرها وقال:

"إنى أحب شعرك، رائحته جميلة، هل تظنين إن قبلتك أن فمك يتحول وردة؟ إنه كالوردة تمامًا".

وأدارت له شفتيها، فأوسعها تقبيلاً ورفعت كفها ولمست شعره.

وسألها: "ولكنى لا أعرفك ولست أحب أن يكون آخر عهدى بك".

فقالت: "أنا أعرفك... أنا التى أفزعتك فى الليل. أتذكر؟"

فضحك من غفلته وسذاجته! وقد أحب بعد ذلك غيرها ولكن هذه الفتاة ظلت لها نوطة فى قلبه إلى آخر أيامه.

مصر المجهولة[٤٢]

الشعب الإنجليزى من أجهل الشعوب بغيره من الأمم - حتى جيرانه الأدنين - إن لم يكن أجهلها على الإطلاق، وهو يعيش فى جزيرته غير عابئ بما وراءها أو معنىّ إلا بشؤونه، وقد أخرجته الحرب من عزلته؛ وفتحت عينه على الحقيقة التى كانت شواطئ الجزيرة تحجبها عنه، وأرته أن فى الدنيا أممًا غيره تستحق أن يوليها نظرة احترام، ولكن السواد الأعظم ما زال كما كان آخذًا سمعة فى هذه الدنيا من غير أن يجشم نفسه لفتة إلى اليمين أو اليسار، وكما أن الإنجليزى إذا صادفته فى قطار أو نحوه يصر على تجاهلك ويأبى أن يعيرك نظرة، كذلك الشعب فى جملته، يمضى فى طريقه كالجواد الذى تستر له جانبى وجهه حتى لا يرى إلا الطريق أمامه، وقد يخيل للمصرى وهو يقرأ ما تكتبه الصحف الإنجليزية عن بلاده وما يجرى فيها، أن إنجلترا قائمة قاعدة وأنها لا تفتأ تلهج بمصر وتلغط بأنبائها، حتى إذا صار المصرى بين القوم تبين له أن الأمر لا يعدو أن يكون واجبًا تؤديه هذه الصحف لفريق من قرائها تعنيه هذه الأنباء.

سألتنى سيدة أتيح لها أن تزور أكثر أملاك إنجلترا المستقلة من مثل كندا وإفريقية الجنوبية: كم زوجة لك؟؟ ولم تكد تلقى سؤالها حتى صرت فى نطاق من الأحداق، وكان هذا آخر ما أتوقع أن تسألنى عنه إذا خطر لها أن تسألنى عن شىء، فقلت وأنا أتكلف الجد والبساطة:

---

(٤٢) نشرت فى السياسة الأسبوعية، فى ٩ أغسطس ١٩٣٠، (ص٣).

"هذا سؤال محير، لأنى لا أدرى هل أدخل الحظايا والسرارى والجوارى فى عداد الزوجات الشرعيات أو... فماذا تقترحين؟".

فتعلقت بى الأنظار وبدا على الوجوه الاهتمام وزحفت سيدة أخرى بكرسيها وهى تقول: "عفواً، ولكنى أعتقد أنك ذكرت الجوارى، فهل أفهم من لك أنكم..."

فقاطعتها قائلاً: "نعم بلا شك، الجوارى تباع وتشرى فى أسواق معينة، والأمر يجرى طبقًا لخير تقاليدنا الموروثة".

فندت عن الصدور ألفاظ مفردة تعبر عن الاستبشاع، ولكن بصوت خافت، ولم أعبأ بذلك شيئًا، واستأنفت كلامى فقلت:

"ليس أبدع من منظر الجوارى، وهن يعرضن على الراغبين، متجردات أو شبه متجردات، فنونهم التى يحسنها، ويجلون لهم مفاتنهن.. أؤكد لكم أنها تجارة ليس أروج منها فى مصر، لأن أقوى وسائل الإغراء متوافرة، والأثمان ليست باهظة ولا مرهقة، لأن التجار يدركون أن الرخص أكبر عوامل الرواج، فالحركة دائمة ونشاطها مضمون، وإذا كان يدهشنى شىء فى إنجلترا فهو إغفالها هذه التجارة الربيحة".

فصاح الجمع: "أوه!" بصوت واحد وانطلقت الضحكات المقرقعة، فقلت:

"لو كان لى مال لأقمت فى بلادكم، وأقمت فيها سوقًا للجوارى، إن الأمر لا يتطلب مالاً كثيراً، ولكنه يحتاج إلى مال على كل حال، وأنا لسوء الحظ لا أملك إلا قوت يومى".

فقال واحد خالجه الشك على ما يظهر وخطر له أنى لعلى أمزح: "هل تعنى حقيقة أنك..".

فقلت مقاطعًا: "يا سيدى العزيز إنى أعنى كل حرف مما قلت، أنا واحد من أوساط الناس العاديين أغير جوارى كل أسبوع، أبيعهن وأعتاض منهن غيرهن، وهكذا، فكيف بالأغنياء والموسرين؟ تصور مقدار الربح الذى يجنيه التاجر من هذه الحركة الدائمة".

فقالت السيدة التى افتتحت هذا الحديث بسؤالها: "هذا يذكرنى بسؤالى الذى استطردنا عنه".

قلت: "معذرة. إن الكلام يفتح بعضه بعضًا، ولكنك لم تقترحى طريقة للعد والحساب".

فقالت: "أظن أن الأوفق أن بعد كل فريق على حدة، إن هناك فرقًا بين الزوجة والجارية أليس كذلك؟".

فقلت وأنا أمط شفتى وأحرك رأسى بتؤدة: "فرقًا؟ أوه! ليس الفرق بكبير، نعم هناك فرق من الجهة الشكلية ولكنه لا يستحق الذكر".

فراح كل واحد يرمى إلى الجماعة نظرة شاملة، ومضيت فى كلامى فقلت وأنا أعد على أصابعى: "الزوجات. أ، نعم، أربع.. أما الجوارى فمن العسير إحصاؤهن لأن العدد يتغير من أسبوع لأسبوع، فقد يكون العدد واحدًا إذا كانت الجارية مليحة إلى حد يغرى بالانصراف عن سواها، والقناعة بها – إلى حين كما هو ظاهر بالبداهة – وأحيانًا تكون هناك جاريتان أو ثلاث، وربما ارتفع الرقم إلى العشر إذا أصيبت السوق بالركود، وثم أيضًا.."

فصاحت واحدة لم تستطع أن تضبط أعصابها: "أكل هذا لا يكفى فهناك غيره؟".

فقلت بابتسامة المتسامح: "لا تراعى يا سيدتى، فليس هناك سوى الأغوات، وهم رجال نجردهم فى طفولتهم من مميزات الرجولة، والغرض منهم أن يقوموا بخدمة السيدات وأن يكفلوا لهن كل أسباب الراحة من غير أن يخشى عليهن عاقبة الاختلاط بهم لأنهم ليسوا رجالاً إلا على المجاز".

فابتدرتنى واحدة بهذا السؤال: "هل تلبسون هذه الثياب فى بلادكم؟".

فأدركت أنها تريد أن تنقل الكلام إلى موضوع آخر فقلت: "كلا! نلبس من الثياب أخفها، إن بلادنا حارة، هى قطعة من الجحيم فى الواقع لأنها على خط الاستواء كما تعلمون جميعًا، ولذلك يكثر عندنا العرايا إلا مما لا بد منه، ولو كان ورق الشجر ينفع لعشنا كما كان آدم وحواء يعيشان بعد أن طردا من الجنة وهبطا إلى الأرض".

فعادت تسأل: "هل يسهل الوصول إلى بلادكم؟".

وهنا تعمدت أن أريب القوم فقلت: "كلا، الوصول إليها يستغرق شهرًا، لأنها كما تعلمون ليس فى آسيا ولا فى أفريقيا وربما كانت أقرب إلى أمريكا الشمالية"

فصاح رجل: "ماذا تقول؟".

فاستويت وقلت: "أقول إنكم معشر الإنجليز أجهل شعوب الأرض، فلا أدرى كيف فزتم بكل هذا الشطر الذى تحكمونه منها".

وعرف القوم أنى كنت أمزح.

ولكنى مع ذلك لا أعجب كيف يحكمون هذه الدنيا، فإن صفاتهم تؤهلهم لذلك، ومن يدرى؟ لعل هذا الضرب من الجهل مزية.

من سينما الحياة

قصة فى إعلان[٤٣]

من عادتى حين أتناول صحيفة إنجليزية أن أقرأ الإعلانات المنشورة فى باب المراسلات الشخصية، وقلما أعنى بالمقالات أو أكترث للأخبار التى تتلقفها هذه الصحف من مراسليها فى أنحاء الكرة الأرضية، لا لأنى قليل الاحتفال بهذه المباحث والأنباء، بل لأن هذه الإعلانات - أو على الأصح هذه السطور القليلة المقتضبة - كثيراً ما تكون منطوية على فصل أو فصول من قصص الحياة، وقد يتفق لى أحياناً أن يستوقفنى واحد من هذه الإعلانات فأضع الصحيفة وأذهب أتصور ما تنبئ به السطور وتشى به العبارة الوجيزة، ولا أزال أكد ذهنى وأجهد خيالى حتى أقتنع بأنى وُفقت فى تأليف المناظر وتنسيق الحكاية أو تكوين الموقف الذى اختزله كاتب الإعلان فى ثلاثة سطور أو أربعة، مثال ذلك أنى قرأت مرة هذه الرسالة:

"بات، كنت وحدى حين حضرت ولم أكن أحادث سوى كلبى، فأرجو تعيين موعد.

ديزى"

فها هنا قصة مختزلة فى أربع عشرة كلمة، وأشخاصها ثلاثة وإن كان الإعلان لا يذكر سوى اثنين، أما الشخص الثالث فهو هنا - كما هو دائماً فى كتب النجاة -

---

(٤٣) نشرت فى السياسة الأسبوعية، فى ٦ سبتمبر ١٩٣٠، (ص٣).

غائب، وليس من الضرورى أن يكون فى القصة الواحدة مائة شخص، فقلما تدور الرواية - أعنى حوادثها الجوهرية - على أكثر من اثنين، وهما هنا باتريك الذى تدعوه ديزى إلى تعيين موعد.

والآن ما هى قصة هذين: باتريك وديزى؟

يُخيل إلىّ أن بينهما حبًا، بل الأرجح فى الظن أنهما متعاهدان على الزواج أى أن بينهما خطوبة، فإنها تدعوه "بات"، وهذه صيغة تصغير لباتريك، وفى إيثار هذه الصيغة ما يشعر بالألفة وينم على توثق العلاقة، وثم سبب آخر أقوى سيرد عليك فى موضعه من هذا التحليل.

والأغلب فى الاحتمال أن يكون صاحبنا باتريك عنيفًا سريع البادرة شديد الغيرة، فهو من ذلك الطراز الذى يقلب الحياة المنزلية جحيمًا ثائرًا، ولا يبعد حين يتزوج - إذا كتب عليه الزواج - ولا يكون مستغربًا منه أيضًا أن يتعمد الأوبة إلى بيته فى غير المواعيد المقررة، وإذا شرب قليلاً من الخمر فأكبر الظن أن نفسه ستحدثه بفتح الدواليب والنظر تحت الأسرة أو غيرها لعل بها أو تحتها أو وراءها رجلاً مختبئًا، ومهما يكن من ذلك فالمحقق أنه لا يطيق أن يرى ديزى خطيبته تحادث رجلاً سواه أو تبتسم له أو تنظر إليه.

وقد حدث منذ أيام - أسبوع أو نحو ذلك - أن كان على موعد معها، فقصد إلى بيتها ودق الجرس ففتحت له الخادمة، ولمّا وقعت عليه عينها هشت له وقالت وعلى ثغرها النضيد وفى عينيها الزرقاوين ابتسامة ترحيب أساء صاحبنا فهمها كما سترى فيما سنقصه عليك:

"المس ديزى فى غرفة الاستقبال".

فقال :"أشكرك يا هاربيت، ولا حاجة بك إلى الصعود فسأعلن إليها قدومى بنفسى".

ووثب إلى السلم يرقى درجاته مثنى وثلاث على عادة أمثاله الذين تستغرقهم العاطفة وتسلبهم كل اتزان فى الحركة والتفكير والعمل، ولا شك أن القارئ قد عرف الآن الشخص الثالث فى هذه الأقصوصة، فإنه لا أحد غير هاربيت الخادمة، التى كانت ابتسامتها البريئة من أدلة الاتهام وبينات الإدانة فيما قضى به صاحبنا باتريك على خطيبته ديزى، ونحسب أن القارئ لم تعد به حاجة إلى دليل على أن كليهما كان مخطوباً لصاحبه، فما كان يجوز لباتريك أن يتخطى التقاليد المرعية وأن يثب إلى الفتاة على هذه النحو أى أن يقصد إلى الغرفة التى هى فيها بلا إعلان أو إنذار إلا إذا كان له مركز الخطيب.

ولم يكد يبلغ الغرفة حتى كان الوثب السريع قد بهر أنفاسه، فوقف هنيهة أمام الباب المقفل يلهث وفى نيته بعد أن يستريح أن ينقر ويدخل، ولكن الله لم يكتب له الراحة فى لوحه المحفوظ، فقد سمع باتريك خطيبته ديزى تقول بأعذب صوت وأرقه: "ستقبلك ديزى هنا يا متعة العين وروح القلب وأنس النفس" أو كلاماً آخر فى معنى هذا.

فتجهم وجه باتريك وأربد وأطبق فكاه القويان وارتد مقدار خطوة وكاد، لولا لطف الله وحسن الحظ، يهوى على درجات السلم، فقد أيقن أن ديزى خطيبته تناجى حبيباً لها فى هذه الغرفة، فاضطرمت نار الغيرة فى صدره وطغت على عقله وأنسته أن من غير المعقول أن تكون ديزى على موعد معه وأن تجئ مع ذلك برجل آخر تغازله وتناجيه، وخيلت له - نعنى الغيرة أيضاً - أن هاربيت الخادمة كانت تبتسم له ابتسامة السخرية، ونسى كذلك أن هاربيت لم تتقدم لإعلان قدومه بل اكتفت بإنبائه أن سيدتها فى غرفة الاستقبال، ومعنى هذا أن فى وسعه أن يصعد وحده إذا شاء، فلو أن هناك

رجلاً آخر مع ديزى لحاولت هاربيت أن تنقذ الموقف حين سمعت دق الجرس أو على الأقل: أن تطلب من باتريك الانتظار ريثما تنبئ سيدتها.

ولكن الغيرة مجنونة، فلا عجب أن تكون قد أذهلته عن هذه المسائل كلها وأن يكون قد اندفع راجعًا وفى نفسه أن ديزى قد خانت عهده، وأن عليه أن يبت ما بينهما من صلة – على حين كانت ديزى ترتقبه فى غرفتها وقد ملت ملاعبة "متعة العين وأنس القلب" وراحت تعجب لحبيبها وسيدها لماذا أخلف الموعد.

ولم يكد باتريك يعود إلى غرفته حتى تناول القلم وكتب إليها يبلغها أن "المصادفة" كشفت له عن خيانتها لرجل مثله كل ذنبه أنه يحبها حبًا جمًا وإن كان يدرك الآن أن غيرها كان أولى به.

بل إن باتريك لم يجترئ بهذا، فإنه، كما بينّا، رجل يندفع مع أول خاطر إلى آخر المدى، وقد رأى أن عليه أن يؤكد لها أن من العبث أن تحاول أن تسترضيه أو تؤول ما حدث، فقد صمم أن يمزق رسائلها من غير أن يفضها، وإذا كانت تظن أن من العسير أن يرد إنسان رسالة وأن يستطيع تمزيقها قبل قراءتها، فلتعلم أنه قادر على ذلك وأنها أعرف به من أن يخالجها شك فى صحة عزمه، ومع ذلك فهو مسافر غدًا إلى فرنسا من غير أن يخلف وراءه عنوانًا، فلا ضير فى الكتابة إليه فإن رسائلها لن تبلغه.

ولكن ديزى أعرف به مما يتوهم، وإذا كان قد امتنع عليها أن تكتب إليه، فإن أمامها باب الصحف مفتوحًا لإبلاغه ما تريد، ولا شك أنها تعلم بالتجربة أنه ممن ينثنون إلى هذا الباب فى صحف الصباح، ومن أجل ذلك بادرت إلى نشر هذا التفسير.

ولا تزال للقصة بقية لا تخلو من فكاهة، فإنها تقول له فى إعلانها :"أرجو تعيين موعد" ذلك أن ديزى عرفت صاحبها معرفته، بل أنا أيضًا قد عرفته، فلو رأيته فى

الطريق لصافحته وكأنه زميل العمر، وأحسب ديزى توقعت أن يحدث الإعلان أثره، فيفئ باتريك إلى الرضى والندم بأسرع مما غضب وأساء الظن، ولا يبعد أن يقتحم عليها البيت بلا إنذار وتكون فى تلك اللحظة لسوء الحظ تحادث القطة أو الببغاء، كما كانت تحادث الكلب، فتتكرر المأساة، ومن أجل ذلك رجت منه أن "يعين موعداً" لتعنى بأن تكون وحدها وتضمن ألا يجر عليها لسانها الثرثار مثل هذه الأزمة.

فليت صحفنا تفتح باب هذه المراسلات - إذاً لوجد الناس فيها ما يقرؤن، ولكنى صحفى فلأقصر.

من سينما الحياة

نادى الرافضية[٤٤]

يحسن أن يعرف القارئ من الآن، وفى مستهل الكلام، أنى كثيراً ما أحلم وأنا مفتوح العينين، وأن هذه الأحلام لا تطوف برأسى إلا والظلام حالك والدنيا سوداء - أعنى مجازياً - ففرص الأحلام التى تتاح لى أضعافها عند غيرى، لأن هناك - أعنى هنا - ظلامين: ظلام الليل الطبيعى الذى يشاركنى فيه الناس جميعاً ويتساوون أيضاً، والظلام المجازى الممتاز، على أن المقام ليس مقام مفاخرة أو مكاثرة، فلأقصر.

ومن أحلامى ما يتكرر مرة بعد أخرى ويلح علىّ بصوره وخيالاته، فمن ذلك أن بيتى - أعنى مسكنى، فما لى فى الدنيا بيت - قائم على الطريق إلى مقابر اليهود، واليهود يموتون كغيرهم من خلق الله، فالطريق عامر بهم أبداً، ومن هنا لا أنفك أحلم أن واحداً منهم كان مهملاً على غير العادة فسقطت منه "محفظة" عامرة وعثرت أنا عليها، ولا أحتاج أن أقول إنى لا أزال وسأظل أحلم بهذا..

والكلام يفتح بعضه بعضاً وكذلك الأحلام، وقد جر حلمى باليهود وبأموالهم التى لا يطلق سراحها، إلى حلم آخر بسبيل من ذاك، فلست أفتأ أسائل نفسى: "إذا أعطيت مليوناً من الجنيهات فما هو أقصى ما تستطيع أن تصنعه من الخير بهذا المليون؟".

---

(٤٤) نشرت فى السياسة الأسبوعية، ١١ أكتوبر ١٩٣٠، (ص٣).

ولو سئل القارئ لكان الأرجح فى الظن أن يذهب يعد بإنشاء المستشفيات والمصحات أو المدارس أو التكايا أو غير ذلك مما لا أكتم أحداً أنى لم أفكر فيه ولم أجعل بالى إليه، ذلك أن رأيى أن غاية ما يدخل فى طوقى من الخير هو أن "أرفض" هذا المال المغرى، لأن حلمى الخاص أعز علىّ وأحب إلىّ وأسحر لقلبى وأفتن للبى من كل ما عسى أن يساعد هذا المليون على الحلم به من أمثال هذه المنشآت، وحلمى على بساطته جليل رائع، وهو أن أجعل الرفض ضربة قاسمة لظهر "إله المال" وصدمة لحياة الترف والرخاء، ووسيلة جديدة لا عهد للناس بها، للدفاع عن كبرياء النفس وحريتها.

وربما استطردت فقلت لنفسى: "ألا يمكن أن يقوم فى هذا البلد ناد للرافضية؟"، و"الرافضية" لفظ قديم أخلع عليه معنى جديداً هو [الذين يرفضون الهبات والمواريث وما يجرى هذا المجرى أو يتصل به من قريب أو بعيد] وأتصوره نادياً ليس له غرف - لا كثيرة ولا قليلة - وأعضاؤه أقل من القليل، ويكون رسم الدخول فيه مائتى جنيه والاشتراك السنوى مائة، وأعنى بذلك أن يكون الراغب فى عضوية النادى قد رفض مائتى جنيه على الأقل، وأن يتعهد بأن يرفض فى خلال العام مائة أخرى وهكذا فى كل سنة.

وأضرب طائفة من الأمثال لتقريب المراد وتوضيح الغرض المقصود فأقول:

رجل اسمه "غريب" - هو من خيالات أحلامى - ألهمه الله أن ينقذ رجلاً آخر من تحت عجلات الترام أو من الغرق أو الحريق أو غير ذلك من الميتات، وكان الذى كتبت له النجاة ممن لا يذهب العرف عندهم - وهذا أغرب - فبعث لمنقذه بمائة جنيه، فما كان من صاحبنا "غريب" إلا أن تناول قلمه وكتب إلى واهب المائة يؤكد له أنه - أى غريب - لا يتخذ إنقاذ الناس من تحت عجلات الترام أو من ألسنة النيران أو من الموج المتدافع مهنة له وصناعة يجوب من أجلها الطرق باحثًا عن المستهدفين للموت بذلك وأشباهه، وإنه ليس من عادته أن يتقبل عطاء أو هدية أو مكافأة من رجل لم يسبق له به معرفة،

وإنه لم يصنع شيئًا غير عادى فيستحق عطاء أو مكافأة، وأنه لهذا كله لا يسعه إلا رفض هذا المبلغ، فهذه قيمة اشتراك عام فى نادى الرافضية قد أداها غريب.

وهناك أيضًا - فى أحلامى - "نادر" ترك له أبوه ثروة حسنة جمعها لا يدرى أحد كيف، وكان فى حياته يقتر على ابنه ويبخل بنفقات تعليمه وينغص عليه عيشه، فلما ذهب إلى رحمة الله، وهو أحوج ما يكون إليها، وتلقى "نادر" الميراث فأباه لنفسه من أب نمت ثروته بنقل حدود الحقل فى الليل وتوسيع رقعته على حساب الجيران المستضعفين، وبغير ذلك من الأساليب والوسائل التى لا يرضاها "نادر" ولا يقرها فضلاً عن أنه - ونعنى الأب - لم يكن يجود على "نادر" بالقرش إلا باقتلاع الضرس ولم يكن يظهر له حبًا أو عطفًا أو اكتراثًا لمصيره فى الدنيا، ووهبها كلها إلى الجمعيات الخيرية لأن سيرتها لا تنطوى على شيء من الخير فهى أولى بمال أبيه - فهذا جدير بأن يكون عضوًا مدى الحياة، وبأن يعفى أيضًا من الاشتراك السنوى.

وثم أيضًا من يرفضون فرصًا، لا مالاً، ومن هذا الفريق طائفة من الكتّاب والصحفيين، فى جيوبهم "قائمة سوداء" بأسماء الصحف التى يأبون أن يعملوا فيها أو يكتبوا إليها، لأسباب شتى، كأن تكون إحداها قد لفقت خبرًا، أو يكون محررها المسئول عنها رجل سوء أو فاجرًا أو غير ذلك، والصحفى أو الكاتب من جماعة الرافضية يريد أن يبسط لسانه فيه ويتناول سيرته بما تستحق من الطعن والتجريح وأن يكفل لنفسه الحرية فى ذلك.

ومن الأعضاء أديب مؤلف، لم تتح له فرصة لرفض مال أو عمل، ولكنه رفض على كل حال أن يفضى بحديث فى الأدب لجريدة أو مجلة ليس لمحرريها أو قرائها أدنى إلمام بالأدب أو اكتراث له، ويليه فى العضوية محامٍ أبى أن يدافع عن متهم يقتل لأنه غير مقتنع ببراءته، وقاض رفض الإنعام عليه برتبة، وعضو فى حزب سياسى رفض وظيفة فى القضاء.

ولا أطيل فإن نادينا أعضاؤه - على قلتهم - شكول، ولا تؤلف بينهم إلا هذه النزعة الرافضية، وشعارهم جميعًا "طوبى لمن يستطيعون أن يرفضوا فإن أيديهم وقلوبهم ستظل نظيفة"، وهم لا يرفضون الحياة، ولكنهم يرفضون القيد، ولا يكرهون إرضاء النفس، ولكنهم يكرهون لها الضعة والرياء، وعندهم أن القدرة على الاستغناء أو على احتمال التجرد أو الحرمان - هى الحرية الصحيحة، وأن الذى يستطيع أن يحرم نفسه من غير أن يألم الحرمان أو يأسف للتجرد، ولا يعجزه أن يقول للمغريات "لا" وهو راض وجذل، هو أوسع الناس حرية وأعزهم جانبًا أيضًا.

حدثنى رئيس نادينا ونحن نتمشى فى الصحراء قال، وهو يشير إلى صوى القبور البادية من بعيد: "انظر يا مازنى! إن الموت هو المثل الأعلى للحياة، وأعنى بالموت القوة الكامنة فيه، ماذا تستطيع الأقدار نفسها أن تصنع بالميت الثاوى فى جوف هذه الأرض؟ كل هذا الكون بما فيه من قوى ظاهرة وخفية لا يملك ضرًا ولا نفعًا لهذا الميت، لأنه صار فوق الحياة إن كان فوقها شىء، وكذلك التجرد من شهوات النفس، التعرى مما تخايلنا به الحياة وتفتننا وتسحرنا ثم تأسرنا - هذا يرفعنا فى الحياة فوق مستواها، يعلينا، يخلصنا، يحررنا، يطلقنا من الأسر، لا يبقى لشىء ما، سلطانًا علينا، وأنا أريد أن أرشحك لوكالة النادى فإنى أشيم فيك الكفاية لذلك من لمحاتك، وآنس من سلوكك سمة الاستعداد، ولكن ينبغى أن تروض نفسك على رفض كل شىء، وأن تدربها على الاستغناء حتى عن الصحة بل حتى عن الحياة، فلا خير فيمن يحرصون ويشتهون - هؤلاء أسرى الحياة، ألاعيب فى أيدى الأيام، وماذا يستطيع الموثق العانى؟ إن القوى القادر هو الحر الطليق الذى لا يخاف ولا يتقى، فاذهب وهيئ نفسك للوكالة".

***

ذاك حلمى لو صحت الأحلام.

من سينما الحياة

التليفون[٤٥]

لم يكن من رأيى قبل هذه الحادثة أن يبكر الآباء بإرسال أبنائهم إلى المدارس، وحبسهم فيها وإضنائهم باسم التعليم، ولكن شاعرنا العربى - ولا أذكر من هو؟ - يقول:

من لم "يعلمه" والداه

"علمه" الليل والنهار

ولو استغنى عن الوزن والقافية وزاد "والأبناء" على الليل والنهار لجاء بيته أحكم وأصدق، فقد والله علمنى ابنى ما لم أكن أعلم، بل ما أشتهى من أجله أن أرد طفلاً أجرب ما جرب، وأزهى به وأغتبط، وكان يومئذ فى الخامسة أو أكبر قليلاً، وكنا - أعنى نفسى والمحروس - فى الإسكندرية نقضى أياماً من الصيف، وفى البيت تليفون له فرع فى السلاملك، كما يسمون ذلك الجانب من البناء الذى يفرد لاستقبال الرجال.

ولاحظ النجل الفاضل أن صاحب البيت يخاطب وكيله بواسطة آلة موضوعة على رف متحرك، وفوق الآلة شىء يرفعه المرء عنها ويتكلم منه فى مثل الفنجانة، ثم يعيده إلى مكانه، فاتفق يوماً أنه كان يلاعب ابن صاحب البيت - وهو فى مثل سنه أو أكبر

(٤٥) نشرت فى السياسة الأسبوعية، ١٤ أكتوبر ١٩٣٠، (ص٨).

قليلاً – فمر بهما البواب وكان شيخًا هرمًا يتوكأ على عصا، فسألاه ماذا به؟ فوقف يحدثهما عما أصاب ساقيه من الأوجاع، وشاء أن يعزو ذلك إلى قلة الدفء من حيث ينام فى الشتاء لا إلى بلوغه التسعين ومجاوزتها أيضًا، فأدرك الغلامين العطف على هذا المسكين وتشاورا، ثم تحننا عليه بما كان معهما، وإليك البيان:

ثلاثة ملاليم – واحد من ابنى واثنان من زميله.

عصفور موثق كان الزميل يلعب به.

"نعارة" كبيرة ملونة كان ابنى يلعب بها.

مفتاح بلا أسنان ونصف أكرة باب كانا مع ابنى أيضًا.

قطعة من الشكولاتة ملفوفة فى ورقة زرقاء كانت مع الزميل.

كوم من الخيوط والمسامير والطباشير وأقلام "الرصاص" كانت ملكًا مشاعًا بينهما.

فتقبل الرجل الشكولاتة والملاليم شاكرًا وتناول بقية الهدية فى كفيه باسمًا وجعل يقلبها مستغربًا كأنما ولد شيخًا ولم يكن فى حياته طفلاً، ثم رد ذلك كله معتذرًا بأنه لم تعد فيه "همة" يعنى القوة والنشاط، كأنما كان هذا هو كل ما يمنعه أن يقبل الهدية وينتفع بها.

فلم يرتح الغلامان إلى ذلك، وشق عليهما أن الرجل لم تبق له "همة"، وتساءلا عن "الهمة" ماذا تكون؟ وكيف تكتسب؟ فقال أحدهما مفسرًا:

"همة يعنى نطالة".

فرد عليه الآخر – وكأن كلاهما ألثغ – بقوله: "بث! بث! بلاث كلام كده، طيب ده...".

وأعياه التعبير واحتاج إلى شىء محسوس يوضح مراده فتلفت ثم صاح: "ثوف! ثوف!".

فقال الأول متلفتًا أيضًا: "إيه؟ فين؟".

فأجابه الثانى "الكلب أهو لائد، تعال الفثه كده دلوقت".

فظنها الأول مكيدة وتراجع وهو يقول وعينه إلى الكلب: "لا يا خويه، إيه؟ والنبى؟".

فطمأنه الثانى "ما تخافث، ما يعدث بالنهار ثوف حتى، أهو بوبى، بوبى، ولا حاجة أبدًا وحياة بابا".

وأنساهما هذا الحوار وما أفضى إليه من الاستطراد، الباعث على هذه الالتفاتة إلى الكلب، ويظهر أن "الزميل" كان يريد أن يقول لابنى: إن البواب يبدو فى النهار متهدمًا لا تكاد تقوى رجلاه على حمله حتى إذا جاء الليل دبت فيه الحياة ولان ما يبس من عظامه، ومثله فى ذلك مثل الكلب الحارس يجترئ عليه طفل بالنهار، فإذا غربت الشمس انقلب سبعًا ضاريًا لا يفلت منه أحد - ولكن خوف ابنى من الكلب أذهله عن مثاله وأنساه ما كان يقصد إليه، فلم يبق فى ذهنه إلا أنه يريد أن يطمئن ابنى ويجرئه على رفس بوبى أو على الأقل لمسه وملاعبته - كما كدت أنا أنسى الحادثة التى أردت أن أقصها.

واتفق يومًا أن سأل الزميل أباه فجأة:

"بابا، بابا تقدل تكلم عم حثن بده؟" وأشار إلى التليفون.

فسأله الأب مستغربًا: "عم حسن؟ وأى داع لمخاطبة العم حسن على الخصوص؟"

فقال الولد: "بث بثأل".

فقال الوالد: نعم أستطيع، ولكن لماذا؟".

فكاد الغلام يفشى سره ولكنه كبح نفسه بجهد واضح، وأعنى عاطفته المخنوقة بالوثب والقفز – أعنى أنه أحالها عرقًا متصببًا من جبينه وقال: "تكلمه دغلى".

فقال الأب: "نعم ولكن لماذا تسأل؟".

فلم يزد الغلام على أن قال: "مفيش حاجة".

وخرج يعدو باحثًا عن ابنى، فلما رآه بين شجيرات الورد يحاور نحلة ليقنصها ويلعب بها صاح به: "محمد، محمد".

فرفع محمد رأسه الصغير وأدار وجهه إلى مصدر الصوت، ورأى صاحبه يناديه ويشور له بكلتا يديه، فتردد: هل يجيب نداءه ويترك النحلة تشور الزهور ويخسر المتعة التى كان يمنى بها نفسه؟ أو يهمل صاحبه ويستأنف المحاورة والمداورة؟ غير أن زميله كان أرأف به من أن يدعه لعذاب التردد، فجرى إليه وشده، وهو يلح عليه أن يسايره، حتى مضى معه، ولما رأى أنه يتجاوز به الفناء والحديقة على الشارع، نازعته الرغبة فى الاستطلاع، فتوقف وقال: "لايح فين؟ مث تقوللى؟".

فقال الآخر: "بث تعال، مث هنا".

فلم يعجبه هذا الجواب وقال معترضًا: "ليه يعنى؟ لأ قوللى قبله".

فأخرج له لسانه ملغزًا ثم مضى يعدو فى الطريق، فارتد ابنى كئيبًا كاسف البال وفى ظنه أن زميله عثر على كنز من "البلى" أو اهتدى على لعبة طريفة، أو أن فى جيوبه حشوها من الشكولاته والحلوى، وثقلت عليه وطأة هذه الظنون المحزنة، وأحس لأول مرة أنه غريب هنا وأنه فى غير بيته، فترقرق الدمع فى عينيه وارتفعت كفه إلى جفنه، وراح صدره يعلو ويهبط، ووقف شىء فى حلقه ولم يكد يرانى مقبلاً عليه حتى انتحب.

وطيبت خاطره، وسكنت له نفسه، فما أسرع ما صار يضحك والدمع لا يزال ينحدر على خديه: وكان صاحبه قد عاد فانطلقا معًا لسوء حظى!

نعم لسوء حظى، فقد حدث أن خرجنا نحن الكبار ولم يبق فى البيت إلا هذان الصبيان اللعينان والخدم، فخلا لهما الجو، وقال الزميل لابنى:

"خليك هنا جنب التليفون عبال ما الجع".

فاستفسر منه عن السبب ولكنه ضن به وإن كان يتحرق شوقًا إلى الإفضاء بما يجن صدره الصغير، وما عتم أن عاد متمهلاً مترينًا وبين يديه "صينية" عليها قدحان من اللبن، وكانت العادة فى هذا البيت أن يسقوا الأولاد قليلاً من اللبن قبل طعام العشاء بنحو ساعة، ليعينوهم على التصبر، فتناول محمد قدحه ورفعه إلى فمه فصاح به الآخر:

"لأ لأ! اثتنى ثويه"

فأقصى محمد القدح ونظر إلى صاحبه مستفهمًا، فقال هذا:

"والا معلهث بقى اثلبه انت"

وانصرف عن محمد على التليفون ووضع القدح إلى جانبه بعناية ثم قال:

"ياله بقى نثقى عم حسن فى التليفون".

ولو أن محمد لم يرقه هذا الاقتراح بل لم يسحره لما كان جديرًا بأن يكون طفلاً، فلا بدع إذ كان قد تقبله بما هو أهل له من المرح والتصفيق - أو محاولة التصفيق بالأصابع - والقفز حتى نبهه صاحبه إلى وجوب الشروع فى العمل، وبعد مدة قضياها فى التزاحم والتدافع قال صاحب الاقتراح: "طيب معلهث، كلمه أنت".

ولكن محمدًا رفع السماعة قبل أن يدير اليد لدق الجرس، ووضعها على أذنه الدقيقة كما رأى الكبار يفعلون، وكان صاحبه يساعده على وضعها حيث ينبغى أن تكون، ومحمد يهز رأسه منكرًا أن تكون به حاجة إلى معونة ومحتجًا على استجهاله، ثم سكتا وراحا ينصتان، فلم يسمعا شيئًا، ولم يجبهما "عم حسن" فقال صاحب الاقتراح: "اضلب الجلث كمان مله".

واتفق فى هذه المرة أن لمست يده حامل السماعة فهوت إلى مكانها بينما كان محمد يدق الجرس، فسمع صوتًا لينا يقول: "سنترال، سنترال، فطار فرحًا وصاح فى البوق":

"عم حثن، ده إحنا"

وبعد أن أدلى بهذا البيان الوافى نظر إلى صاحبه، فقال له هذا:

"ما تقولوث حاجه بقى، نثقيه على طول".

وتناول أحدهما السماعة بين يديه بحيث تكون فتحة البوق إلى فوق، وشرع الثانى يصب فيه اللبن حتى يملأ البوق ثم وقفا ينتظران أن يذهب اللبن إلى فم "عم حثن" ولكنه لم يفعل، وطال تلكؤ اللبن فى الانسياب فى هذه المجرى وتعب الطفلان، وقال محمد:

"ده مثدوده باين عليها".

فقال الآخر: "لأ يا أخى، بابا قال إن الثكة دغلى، بث بث.."

ولم يجد ما يزيده فأقصر، وفى هذه اللحظة سمعا البوابة الخارجية تفتح، فخشيا أن يراهما أحد فاتفقا على أن يكتفيا بما صباه من اللبن ووضعا السماعة على الرف، وإلى يمينها التليفون وإلى يسارها دفاتر الأسماء حتى لا يراق اللبن، وتركاها، هكذا يبلغ اللبن حلق الرجل على مهل.

ومن سوء حظى أنى كنت القادم الذى سمعاه يفتح الباب، وكانت الغرفة مظلمة، فلما دخلت لم أر أن أنير المصباح الكهربائى لأنى لا أريد أكثر من اجتيازها إلى سواها، غير أن عينى أخذت شيئًا أبيض إلى جانب التليفون فدنوت منه فرأيت السماعة على الرف واستغربت هذا البياض الذى فى بوقها، فتناولتها بغير احتياط وإذا باللبن يسيل على ذقنى وينحدر إلى ثيابى ومن تحتها فوق صدرى!

لم تكد المدارس تفتح بعد ذلك حتى عجلت بإلحاق ابنى بروضة الأطفال.

نادى الرأى العام(٤٦)

جلست فى إحدى الليالى أفكر فى الغلاء الذى يكابده الناس فى هذه الأيام، وفى تذمر الجمهور وتأفف الخلق من وطأة الأزمة، وفى عجز ما نسميه "الرأى العام" - على فرط ألمه وسأمه - عن مكافحة الأزمة وحمل التجار على الاعتدال والقصد فى طلب الربح، فخطر لى - وأنا صحفى كما تعلم أو لا تعلم - أن هذا "الرأى العام" الذى لا نزال نلهج به ولا نفتأ نحشره فى كل كلام نكتبه، وهم وخيال ليس وراءهما شىء، وكم أجريت قلمى بالإعراب عن سخط هذا "الرأى العام" ونقمته، أو رضاه واغتباطه! ولكن أى شىء هو؟ وما يسعه فى الواقع إذا كان يسعه شىء؟ أكون جالساً إلى مكتبى فيتفق أن يدخل علىّ أحد الزملاء ويبلغنى أنه لاحظ أن الناس كانوا فى مركبات الترام ساهمين أو واجمين أو بادية عليهم أمارات التأفف والضجر، ويذكر لىّ ذلك على أنه شعور "الرأى العام" ومظهر حالته النفسية كما تراءت له، فلا يجرى ببالى أن الضجر قد يكون مرجعه إلى سوء حال هذه المركبات وقلة غنائها ووفائها بالحاجة فى صيف أو شتاء، أو إلى اشتداد الزحام وما يجر إليه من امتناع الراحة، ويتقرر عندى أن "الرأى العام" ناقم، وأدعه يصفه بذلك ويعزو إليه السخط، أو أقوم أنا عنه بعبء هذا العنت، وتظهر الجريدة وفيها أن الرأى العام كاسف البال حزين أو مغيظ محنق ولو قالت الجريدة إنه راض مغتبط لما أبعدت.

---

(٤٦) نشرت فى مجلة الهلال، أول نوفمبر ١٩٣١، (ص٥٧-٥٩).

ولكنى الآن، بعد أن طالت هذه الأزمة، واستفحلت أيضًا، بدأت أشك فيما ألفت - كغيرى - أن أسميه الرأى العام، وغير يسير على نفسى أن أحملها على إطراح ما دأبت هذا العمر كله على الإيمان بوجوده، لذلك دفعنى الحرص عليه والضن به إلى التفكير فى ابتكار وسيلة تخلقه خلقًا وتقلب الشك فى أمره يقينًا، وإلى القراء ما استقر عليه رأيى:

قلت: أنشىء ناديًا لإثبات الرأى العام ومحو الشك فى وجوده، وقد يكون هذا الاسم أطول من أن يطلق على ناد، غير أن من الممكن اختصاره والاكتفاء بتسميته "نادى الرأى العام" وحسبى من الأعضاء مائة، فإن فى هذا الرقم الكفاية.

والآن، مم يشكو الناس؟؟ إنهم يشكون من الغلاء! حسن، إذن يدعى الأعضاء إلى الاجتماع، ويقف كاتم السر فيبين لهم الغرض المنشود من وراء اجتماعهم ويشرح لهم الموضوع ثم يناشدهم المروءة والرحمة أن ينقذوا الناس من طمع التجار ويهيب بهم أن يثابروا على المقاومة والجهاد حتى يقلموا هذه الأظفار الدامية، ويطرح عليهم الاقتراح الذى يراد من "نادى الرأى العام" أن يوافق عليه وينفذه.

والاقتراح بسيط لا تعقيد فيه، سهل لا عسر فى العمل به، وهو لا أكثر ولا أقل من أن يقصد أحد الأعضاء إلى أحد تجار الصنف الذى يتأذى الناس من غلائه وليكن اللحم مثلاً، ويقول:

"بكم الرطل من اللحم الضأن؟"

فيقول القصاب :"بستة قروش".

فيظهر العضو كل ما يدخل فى طوق وجهه - ولا سيما العين والفم - من دلائل الدهشة والإنكار، ثم كأنما ثابت إليه نفسه بجهد فيصيح به:

"ستة قروش!؟ أتقول ستة قروش؟ أصحيح ما سمعت من أن الرطل بستة قروش؟"

فيعجب القصاب لهذا الذى كأنه لا يعيش فى الدنيا ولكنه يتحالم وإن كان لا يستطيع أن يكتم زرايته: "نعم. إذا أعجبك.."

فيخبط العضو كفا بكف ويقول:

"أعجبنى! وهل يعجبنى أن تنهبنى؟ كلا! يفتح الله عليك! لن آكل لحمًا ما دام الرطل منه بستة قروش".

ثم يمضى وهو يلوح بيديه ويهز رأسه وكتفيه أيضًا:

ولو اقتصر الأمر على هذا، لما أجدى فتيلاً، ولا كان صاحبنا القصاب خليقًا أن يبالى ما بدا له من شذوذ هذا الزبون، ولا كان اللحم حريًا أن يرخص، ولكن عضوًا آخر يكر فى المساء أو الصباح الثانى ويعبقه ثالث ورابع، ويتفرق الأعضاء ويتكفل كل عشرين منهم بقصاب يصبحه أو يمسيه فى كل يوم واحد منهم بمثل هذا الاستهجان والزهد فى اللحم ما بقى ستة قروش، فلا يمضى أسبوع حتى يقول كل قصاب لنفسه:

"إن المسألة خطيرة، والتذمر عام، والكف عن أكل اللحم يوشك أن يشمل الناس كلهم، ولخير لى أن أنزل عن قرش مما أربح، وإلا بارت تجارتى وخرب الطمع بيتى".

ويكون ما أراد الرأى العام، ويرخص اللحم، وتنقطع الشكوى، وهكذا فى غير ذلك مع اختلاف فى قوة "الحملة" وطول الفترات بين كل هجوم وآخر، فإذا كان "شيكوريل" مثلاً هو الذى يشكو الناس غلاء بضائعه وجب أن يتعاقب عليه أعضاء النادى جميعًا - المائة كلهم - وبين كل واحد وواحد فترة لا تقل عن يومين، ويحسن أن تتنوع وتتعدد

المطالب، فعضو يبغى مناديل، وثان ينشد الجوارب، وثالث قمصاناً أو أربطة للرقبة، وهكذا، وما منهم إلا من يستفحش الثمن، ثم يعودون إلى الكر والهجوم، فيطلب الجوارب من كان يريد أن يشترى مناديل، ويذهب إلى قسم الأحذية من كانت طلبته الطرابيش إلخ...

ولا يتعجل القارئ فيحسب أن هذه حيلة قد تجوز فى أول الأمر، ولكن سرها لا يلبث أن يفتضح، فلا يعود التجار يحفلون بما يسمعون من عبارات السخط والاستنكار، لإيقانهم أنه "رأى عام مفتعل" كلا! فإن كل رأى عام، يصنع، وأعلم أن بنى آدم قردة، أعنى أنهم سراع إلى التقليد، ويكفى أن يرتفع صوتان فى محل تجارة بانتقاد الأثمان وإعلان الامتناع عن الشراء والإضراب عن الاستبضاع حتى تهبط الأسعار إلى المستوى المعقول، وتفشو النقمة وتسرى عدوى الإضراب، ونحن - أعزك الله - أعنى معشر الأناسى مازلنا كهذه القطعان من الغنم، يتبع بعضنا بعضاً بلا روية، على الرغم من طولنا وعرضنا وما نعتز به من العقول والمواهب، ولست أرى مشينا على قدمين اثنتين منتعلتين قد أجدانا كثيراً - على الأقل - من هذه الناحية.

ولكن نادينا خليق أن تطغيه القوة، ويخشى جداً أن يسئ استعمال السلطان الذى صار له، ولن يكون هذا مستغرباً إذا حدث، بل هو الطبيعى والمعقول، فما منا إلا من تبطره النعمة وتغره القوة وتركبه مراكب الطيش والجهل، وقد يستطيع نفر من الأعضاء أن يغروا الباقين بكاتب مسكين مثلى - مثلاً - فيكتب كل منهم على التوالى إلى صاحب الجريدة التى أعمل فيها أن أسلوبى سخيف النسج وأن آرائى فجة أو غير ذلك، بعبارات مختلفة، فيروع صاحب الجريدة هذا الوابل الذى يمطره إياه البريد ويفزعه أن يكون هذا رأى القراء فىّ ويؤثر جانب السلامة فيعتذر إلى ويستعفينى، وتكون هذه هى الطامة.

لذلك ينبغى أن يكون هناك ما يكفل ألا يسئ النادى استعمال هذه القوة، كأن يُرفع إنسانًا حقه الضعة، ويخفض آخر حقه الرفع، ولا سبيل إلى اتقاء هذا التخليط والظلم والطيش إلا بأن يكون على رأس النادى رجل معروف بالحزم والأناة والعدل وحسن التقدير وسداد الرأى واتزان الحكم، ولست أرى أخلق بهذا المركز ولا أكفأ له من الفقير

إبراهيم عبد القادر المازنى

حاشية – بعد أن كتبت هذا، دارت فى نفسى اعتراضات شتى على هذا الاقتراح، أراها كلها وجيهة، منها أن قيام هذا النادى لا يثبت وجود "الرأى العام" ولكنه يثبت أنه شىء يلفق، ومنها أيضًا، أنه لا ضير من الغلاء ولا داعى لتفريج الأزمات، وأنه ليس أصدق ممن قال "اتق شر من أحسنت إليه".

المازنى

ذكرى من الأيام السالفة(٤٧)

لم يكن من عادتى أن أشترى شيئًا لبيتى وأنا عائد إليه من عملى، لصعوبة حمله وطول العناء فى نقله، ثم لأنى كنت فى ذلك العهد أحب أن أقضى المسافة إلى البيت فى التفكير أو القراءة، وكانت شهوتها لا تزال فى عنفوانها - لا غالب لها ولا كابح، ولكنى اشتهيت السمك يومئذ فابتعت سمكة عظيمة دخلت بها على أهلى مزهواً وقلت:

"دعوا ما عندكم وهاتوا لى من هذه فما أحب أن يذهب تعبى سدى، وأنا عجول سريع الكر إلى الزهد، وأخشى إن أبطأتم علىّ أن تفتر رغبتى فلا يبقى لى فى السمك مأرب وينقلب ما تجشمت عناء باطلاً".

فهشوا لى وأثنوا علىّ، وأقبلوا على السمكة ينزعون زعانفها وحراشفها وتركتهم يصنعون بها ومنها ما شاءوا وقلت أستريح حتى يهيئوا لى منها طعاماً.

ولكنى لم أسترح، بل عاودنى الداء، وكانت أعصابى فى تلك الأيام مكدودة مضطربة، فخيل إلىّ أنى أفرطت فى إتعاب نفسى بحمل هذه السمكة وأنى لا بد أن أكون قد أصبت ببرد فى الطريق، وكان الوقت صيفًا، ولكنى قلت إن ثيابى قد بللها العرق المتصبب، والهواء يضرب فى صدرى فلا شك أنى قد وقعت فيما كنت أخشى.

---

(٤٧) نشرت فى مجلة "الدنيا المصورة"، ١٠ يناير ١٩٣٢، (ص٧).

وانتقلت من التقدير إلى اليقين، فشاع فى نفسى الإحساس بأن حمى ستنتابنى وأن النار ستتقد فى بدنى وأنى سأهذى، فسرت فى جسمى رعدة، وكان سبب الرعدة أنه شق علىّ أنى سأصير إلى الهذيان، ولكنى اعتقدت أنها بادرة الحمى التى كبر فى وهمى أنها ستصيبنى، وكانت الحمى شر ما أخشاه من الأمراض لأنها تطلق اللسان بغير ضابط من العقل أو كابح من الإرادة، ولكل امرئ ما يدفنه فى صدره ويغيبه تحت ضلوعه ولا يحب أن يطلع عليه إنسان، ففزعت وتجسم لى الوهم حتى شعرت أن رأسى يضغطه حديد، وأسرعت دقات قلبى واضطرب تنفسى وصارت أصابعى ترعش، وبدنى كله يتفزز، وصارت المسألة: هل أدعو أمى أو زوجتى؟ أم احتمل وحدى وفى صمت ما أنا فيه من العذاب حتى يقضى الله ما أراد؟ وترددت فى دعوة أحد منهما مخافة أن أكون غير مالك لحواسى، ومن يدرى لعلى أهذى الآن، وليس ما يدور برأسى إلا أخيلة الحمى! كلا لن أدعو أحداً - هذا آمن - وماذا يسع أمى أو زوجتى مما لا يدخل فى طوقى؟ وكيف يملكان أن يدفعا شيئًا نزل بى؟ قم إذن على سريرك وارقد يا مسكين واسأل الله أن يلطف بك فيما يمتحنك به.

وقد كان - رقدت وتغطيت بالصوف على الرغم من الحر، وأحكمت لف جسمى بالغطاء حتى صرت كالدمية الملقاة، وأغمضت عينى وتهيأت لاحتمال ما يجئ، ونسيت السمكة العظيمة وكل ما فى الدنيا من متع ومسرات مادية وأدبية، وطافت برأسى الكروب المختلفة التى يمكن أن يبتلى بها المرء فى الحياة، وتعاقبت على ذهنى صور الأوجاع والآلام التى تنزل بالإنسان ورحت أتخيل وقع هذه الآلام على أعضاء الجسم كأنها عصا مادية، وإلى أى حد يصبر المرء عليها وعند أى حد يفقد القدرة على احتمالها، وفقدت أعصابى بقية اتزانها فبدا لى كأنى مصاب بكل شىء وكأن جسمى لم تعد له طاقة ولا فيه إمكان مدخر، وبرز لى شبح الموت من ظلمات هذه الأوهام وانفتحت القبور لعينى وتجسدت وحشتها وجثمت على صدرى، وشعرت بما يشبه

الاختناق كأنى أكابد غصص الموت فى صوره الشنع فانتفضت، وكانت بقية من الأمل وإرادة الحياة راسبة تحت لجج هذه الأوهام فرحت اضرب بيدى ورجلى كالغريق وأصيح طالبًا الغوث وإذ بى بين يدى أمى.

***

على صدر أمى، دون صدر زوجتى – نعم صدر أمى وحدها – بقيت ساعة، لا أنا نائم ولا أنا مفيق، ولكنى مستريح على هذا الصدر الحنون الذى لا يشكو ولا يضيق ولا يضطرب إلا بالعطف والحب والإيثار، ولا يعرف إلا أن ابنها عليه فلتذهب الدنيا كلها ما خلاه على الجحيم، ولو شئت لوسعنى صدر الزوجة ولكنى كنت حريًا أن أخجل، أما بين ذراعى الأم فلا خجل، وزايلنى الخوف لأنى بين ذراعيها، وغابت القبور واحتجبت وحشتها واختفى شبح الموت الرهيب، واستسرت الأوهام وذهبت الكروب والآلام ولم يبق إلا لسكينة التى أفرغها على إيمانى بأمى ولم يكن أحد يتكلم، وما زالت تلك الصورة مطبوعة فى ذهنى: أمى جالسة وأنا على صدرها كالطفل وذراعاها على، وزوجتى جاثية إلى جانبى وبودها لو تولت أمرى، ووجهها ساهم وعيناها لا تتحولان عنى إلا لتستخبر أمى، وهذه لا تجيب ولا تزيد على أن ترفع عينها إلى السماء!

وهدأت أعصابى شيئًا فشيئًا، وثابت إلىّ نفسى، فاعتدلت، ولكنى كنت مهدود القوى فقالت زوجتى: "ألا أجيئك بالطعام؟".

فأشارت إليها أمى، أن كلا، ليس الآن واقترحت أن نخرج لنتمشى فى الطريق المؤدى إلى الفسطاط وهو طريق مرصوف يمتد فى جوف الصحراء كالنهر، وكان ما اقترحت، وخرجنا كبارًا وصغارًا ونساءً ورجالاً نتمشى ويتعثر العجائز والأطفال فاغتبطت بهذه المناظر التى لم تكن تخلو مما يضحك، وأنعشنى الهواء النقى الخالص فتم هدوء أعصابى.

وقد مضت على ذلك سنون وقبض الله إليه الزوجة، ثم الأم، ولست أذهب إلى الفسطاط الآن فإنها أحفل بالكرات من أن يكون فيها ترويح عن النفس.

مقتطفات من مذكرات آدم[٤٨]

- ١ -

لم يكن ينقصنى هذه التى تسمى نفسها حواء، وتزعم أنها مخلوقة من أحد أضلاعى وإن كانت أضالعى سليمة، فقد تحسستها وعددتها وهى مشغولة عنى بثلاث قطط صغيرة عمياء لا تفتأ تحملها على ذراعيها، وتضمها إلى صدرها وتقبلها وتمسح لها شعرها فتخرج أصواتًا منكرة، ولا أدرى ما هذا الولوع بصغار الحيوان! وأقول الحق إنى بدأت أخشى على نفسى عاقبة ذلك، فقد جاءت إلى كوخى منذ بضعة أيام بزرافة صغيرة وحاولت أن تدخلها فيه فاحتججت واعترضت، وحاولت أن أفهمها أن رقبة الزرافة طويلة جداً، وأن سقف الكوخ واطئ جداً، فلم تعبأ بى وأصرت على إدخالها لتحميها من المطر المنهمر، فكانت النتيجة ما توقعت" ظلت الزرافة تدفع السقف برأسها حتى تفرق وسقط ما كنت قد رتبته وسويته من العيدان والقش والورق، فامتلأ الكوخ ماء، فغضبت وثرت بالزرافة ولم أزل أدفعها وأثنى رقبتها حتى أخرجتها، فبكت حواء وراحت تصفنى بما لا أفهم وتنعتنى بألفاظ جديدة لا عهد لى بها - فالحق أنها سريعة الابتكار - ثم تأبطت عنق الزرافة ومضت بها إلى كوخها - فلماذا لم تفعل هذا من قبل؟

***

(٤٨) نشرت فى جريدة "السياسة"، ١٠ يونيه ١٩٣٢، (ص١).

كنت أطوف أمس فى الجنة فقادتنى رجلاى إلى حيث شجرة الحياة وشجرة المعرفة فتنبهت وشرعت أنأى عنهما، مخافة أن يوسوس الشيطان فى صدرى فأفعل ما حرمه الله؛ وإذا بى أرى حواء مقبلة تعدو، فأردت أن أبعدها عن هذه المنطقة المحرمة. فأشرت إليها بكفى أصرفها وأردها ولم يحضرنى كلام - فإن لسانى أثقل من لسانها - فصحت بها "هش.. هش" فغضبت وجعلت تدير لسانها فى حلقها بسرعة مائة كلمة فى الثانية، ولم أفهم كل ما قالته فإنها دائمة الاختراع، وقد أضحكنى منها أن الذى ساءها أنى لم أدعها باسمها، وإنما أضحكنى هذا لأنها لا تكاد تفارقنى حتى أحتاج أن أناديها.

وقد كنت مرتاح البال وحدى، وكانت الجنة أمامى كلها أطوف فى بساتينها كما أشاء؛ وفى أى وقت أشاء، بلا تقية، ولكنى بعد أن جاءت حواء، دائم القلق، لا يقر لى قرار ولا يهدأ لى بال؛ ذلك أن الشجر المحرم فى وسط الجنة، وكل ميادين الجنة تفضى إليه، وقد لاحظت أن عين حواء يومض فيها نور غريب كلما وقعت على الثمار الممنوعة، وأخشى أن يلج بها الاشتهاء يومًا فلا تقوى على كبح نفسها وتمد يدها إلى الثمار ولئن فعلت لتكونن معذورة فإنها ناضجة مغرية الأرج، ومن أجل ذلك صرت كالشرطى المعين لحراسة هذه الأشجار وذود حواء عنها، فلا متحول لى عنها فى ليل أو نهار؛ وقد مللت ذلك وضجرت منه؛ وضاق صدرى جداً حتى لقد هممت منذ أيام أن أغرق نفسى فى "الكوثر" غير أن حواء ضحكت منى وذكرتنى بأن الموت لا سبيل إليه، فلم يبق إلا أن آكل من الشجرة المحرمة حتى يمكن أن أموت.

***

ركبت اليوم زورقًا وذهبت أتنزه فى الكوثر وكانت الأشجار على الجانبين تمس رأسى بأهدابها؛ وإذا بحواء تلقى بنفسها فى الماء وتسبح إلى الزورق كأنها سمكة،

فلما صارت معى اقترحت عليها أن نتبادل التجديف، وهذا عدل، فقالت ابدأ أنت، وجلست هى إلى الدفة، وكان اليوم حاراً، فشقيت ساعة، حتى صرت كأنى فى حمام من كثرة ما تصبب منى من العرق فأزحت المجدافين، على جانبى الزورق وتركته ينساب مع التيار حتى جف عرقى وانتظمت أنفاسى، ثم أهبت بها أن تجدف بدورها، فاتهمتنى بالمغالطة، وزعمت أن الاتفاق بيننا أن يدفع كل منا الزورق مسافة معينة، ولما كان الزورق قد سار وحده مسافة تعادل نصيبها من العمل، فقد جاء دورى الآن! ولم أستطع أن أقنعها بأنها هى التى تغالط، فإن الكلام لا يسعفنى كما يسعفها، فتناولت المجدافين وأسلمت أمرى لله ولسوء حظى، وبَيَّتُ العزم على التخلص منها بحيلة.

وأردنا نعود بالزورق، فزينت لها أن نستغنى عن التجديف، وأن يجر أحدنا الزورق بحبل من الشاطئ، على حين يجلس الآخر إلى الدفة، وكانت نيتى أن أغافلها وأترك الزورق وأفر إلى بعض الكهوف، ولكنها أصرت على أن أجر أنا الحبل؛ فحبط التدبير، ورأيت أن المكر السيئ يوشك أن يحيق بى أنا، فعدلت وعزيت نفسى بأن التجديف على الأقل أمتع من جر الزورق كأنى ثور.

***

لا أفهم معنى لإلحاح حواء على أن أدعوها باسمها، وقد قالت لى مرة: "إنه اسمى".

قلت: "فليكن! ولكن لماذا ينبغى أن يكون لك اسم كهذا؟"

قالت: "ألا يعجبك!"

فعجبت وقلت: "وما شأنى أنا؟"

قالت: "وأنت أيضاً لك اسم، آدم، ما أحلاه! آ..د..م".

فلم أطق صبراً وقلت: "لست أريده. خذيه لك".

وهممت بالانصراف عنها، فتعلقت بى وقالت: "كيف يمكن؟ إنك رجل وأنا امرأة"

فقلت: "امرأة؟ إنى أشك فى ذلك، فاذهبى عنى".

قالت ملحة: "بل أنا امرأة، ولسنا سيين، انظر!".

فنظرت، ولكنى لم أفهم مرادها، والحقيقة أنى لا أريد هذا الاسم الذى تطلقه على وتصدعنى به، ولست أرى مخلوقًا ينادينى به سواها، ثم أنى لا أشعر بالحاجة إليه، لأنى أعرف نفسى، وبحسبى هذا.

ومن غرائب حواء هذه، أنها ترضى عنى وتسخط علىّ بلا سبب مفهوم، وأغرب من هذا، أنها حين تغضب تختبئ – لا أدرى أين – وترسل الماء من ثقبين فى وجهها؛ تقول إنهما عيناها، وقد حاولت أن أقلدها: عصرتهما فكادا يخرجان ولم يخرج الماء، فدسست إصبعى فى إحداهما فانطبق الجفنان بسرعة وارتد رأسى بغير إرادتى، وبقيت يومى كله وليلتى أيضًا متألمًا مصدعًا، ولكن الماء نزل منها.. قطرة قطرة – كلا، لن أقلدها مرة أخرى، فإن له لألمًا، وحواء ترسل الماء مدراراً من عينيها، فلا شك أنها تتعذب كثيراً، وإن كنت لا أرى ما يدل على شعورها بالألم.

وقد لاحظت أنها – على الرغم من غضبها واختبائها – تنظر إلىّ من الشقوق والثقوب التى فى الكوخ، فقد أتفق أن أريتها تفرق العيدان بأصابعها لتوسع الثقب.

***

كنت – قبل أن تجئ حواء، استيقظ فى الفجر مع العصافير، فأقعد على باب الكوخ وأدير عينى حولى، وكثيراً ما تعدينى العصافير فأنطلق أغنى، فيسود الصمت وتنقطع الأصوات ولا أعود أسمع غير صوتى، أو أرى أحداً غيرى فيسرنى هذا.

ولكن حواء تقول لى الآن إن من واجبى أن أكف عن إطلاق هذه الصيحات المزعجة وهى تزعم أن الحيوانات تهرب، وأن الطيور تفر، وأن كل ما فى الجنة يضطرب؛ وأنه ليس من اللائق أن أبدأ اليوم بمثل هذا العواء، وأن استقبل جمال الفجر بالصراخ المنكر.

فلم أعبا بملاحظاتها، لأنها صادرة عن غيرة وهى تنفس علىّ حلاوة صوتى، وما يفوز به من حسن الاستماع، ولو وقفت عند حد الملاحظة لما اكترثت لها، ولكنها تجاوزت ذلك فى الأيام الأخيرة، ولجأت إلى وسائل شتى معيبة، لإسكاتى، وصدى عن الغناء، فجعلت تزعم أولاً – كذباً وبهتاناً – أن الملائكة ينقطع تسبيحها حين يصافح أسماعها غنائى، تريد بذلك أن تخوفنى، فلما لم يجدها هذا "التهويش" صارت تضع كفها على فمى، وتملأ الدنيا صراخًا، ولكنى أقوى منها، فكنت أنحى يدها وأمضى فى الغناء، عناداً ومكايدة؛ وأخيراً جعلت تغافلنى ثم تسد فمى بالتراب أو الطين، وتفر، فأشرق وأكاد أختنق، حتى إذا عالجت حلقى وفمى، كان استعداد النفس قد فسد، فلا أعود قادراً على الغناء أو راغباً فيه.

كلا، سأغرى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، فإن حياتى لا تطاق معها.

***

لم احتج إلى إغرائها لأن الحية تكفلت بذلك، ولكن البلهاء أكلت من شجرة المعرفة وأهملت شجرة الحياة!

***

أغرتنى حواء فأكلت من شجرة المعرفة كما أكلت، وأنا أكتب هذا وقد خرجنا من الجنة – أو طردنا منها على الأصح – وقد غيرت رأيى فى شجرة المعرفة، فلو عدنا إلى

الجنة ووكل الأمر إلى اختيارى لما اخترت غيرها فلا خير فى حياة بلا معرفة، وهذا عزاء كاف عن الموت الذى كتب علينا.

وعزاء آخر أكبر - هو حواء - فإنها تعدل الجنة التى كنت فيها من غير أن أقدرها فهى خير عوض عما فقدت، وإنى لأذكر الآن ما كان يحيرنى من حواء فأفهمه ولا أنكره، وأضحك من غباوتى السالفة.

وقد تغيرت هى أيضاً فصارت ترتاح إلى صوتى ولا تنفر منه أو تراه مزعجاً، بل تقول إنه أحلى فى مسمعيها من تغريد الطيور، بل من تسبيح الملائكة. الحق أن حواء فاتنة، وقد كانت فى الجنة درة مجهولة مخبأة.

صباح ومساء[٤٩]

"لم لا تستخدمين سائقًا؟".

"لا ثقة لى بسائق، ولماذا أضع حياتى ومالى فى يد مخلوق آخر؟".

ثم قالت: "أيضايقك أنى أتولى القيادة؟".

فلم أجب لأن السيارة فى يدها كانت تخطف وتطوى الأرض كأنها من جن سليمان وكان الهواء على وجهى يسرق أنفاسى فقد كانت سيارة مكشوفة ذات مقعدين اثنين وألهانى أيضًا عن الجواب أنّا مرقنا بين لورى مقبل علينا، وعربة تحمل الخضر إلى يميننا، فلما أفقت قلت:

"ما أحسب سائقًا يطول به العمر عندك".

قالت: "على العكس - إنهم يهرمون فى خدمتنا".

قلت: "إنى أصدق ذلك، فقد أدركنى الكبر مذ ركبت معك".

فرمت إلىّ نظرة وضيئة؛ ولم تقل شيئًا، وكنا على الطريق الزراعى وهو واسع عريض وكان السجناء - أو المذنبون كما يسمونهم - يرشونه ويسوونه فى مواضع، والإسراع على الثرى البليل غير مأمون؛ وكان أكبر ظنى كلما شارفنا - زحلوقة أننا لا محالة منحدرون إلى الترعة، غير أنها كانت حريصة؛ تنحرف عن البلل إلى الأرض

---

(٤٩) نشرت فى السياسة الأسبوعية، ١٧ ديسمبر ١٩٣٢، (ص٧).

الجافة حتى إذا جازت مسافته كرت إلى اليمين واستقامت على طريقها، وقالت وقد شاع الابتسام فى وجهها النضير:

"ميت من الخوف".

فقلت: "ليس إلى درجة الموت، فما زلت أحس بذراعى اليسرى - أظنها تستمد الحياة والإحساس منك".

وكنت أنا إلى يمينها، فألقت إليها نظرة عجلى ألم أدرك كنهها فآثرت أن أعدل بالكلام عن مجراه وقلت:

"الحقيقة أن أختى أعدت لغدائك "براماً" محشواً بالأرز والدجاج، وأنا أحب هذا اللون من الطعام الريفى ولا أريد أن أُحرمه فإن فيه لفتاً، وهو مظهر عناية".

قالت: "صحيح، ما أبدع هذا، إذن فلنسرع لندركه".

قلت: "إنه يستطيع أن ينتظر فلن يأكل نفسه".

قالت: "ولكنك تحبه جداً: أليس كذلك".

قلت: "هو الشىء الوحيد الذى أصرح بحبه وقد كنت فى صباى أجمعه وأحفظه كما يجمع بعضهم طوابع البريد؛ أم ترانا نتكلم عن نرجس العيون؟".

قالت: "بل عن بساط الريح يا جوعان".

وزادت السرعة، فاضطجعت وتنهدت وقد أسلمت أمرى لله، وانعطفنا فجأة ثم استوينا على الطريق، فإذا أمامنا قافلة من الجمال فتمهلت حتى جازتها، وليس أسرع من الجمال إلى النفرة والاضطراب حين تمر بها سيارة؛ وأحسب هذا لأن الجمل والسيارة رمزان لعصرين لا يجتمعان؛ ثم قالت:

"لست أخشى شيئاً كما أخشى الجِمال".

فقلت: "صدقت: وأرجو أن تتصورى أن الطريق غاص بهذه المخلوقات المخيفة".

فضحكت ولم تقل شيئًا.

وبلغنا جسرًا يسمى "الجسر الأبيض" وإن كان دهان حاجزيه أسود، والطريق بعده يذهب يمنة ويسرة فوقفت على آخر الجسر تسألنى "من أين؟".

فقلت كأنى أحدث نفسى:

"ومع ذلك تزعم أنها تستطيع أن تقطع الطريق معصوبة العينين؟"

فأحمر وجهها ودفعت السيارة إلى الطريق الأيسر، وبعد دقائق قالت بحدة:

"إنى لم أدع هذا، ثم أن النسيان مغتفر، وإنك لتعلم أنى ما سرت فيه إلا مرة واحدة من قبل، وكان السير ليلاً أيضًا".

فقلت وأنا شامت:

"لقد كنت أود على الرغم من خوفى أن تضلى؛ ولكنى أخاف أن يبرد "البرام" أو لا يُبقى منه زوج أختى شيئًا، فإنه كما تعلمين، شره".

غير أنها أصرت على الصمت حتى بلغنا الدار وأدركنا البرام.

وكان الصباح.

***

ثم كان مساء، وكنا حول المائدة فقال "سالم" زوج أختى:

"هل من إساءة الأدب أن يأمرك سيدك أن تناوليه هذه الخوخة، أم يجب أن ينهض السيد وينحنى على المائدة ويمد ذراعه إلى الطرف الآخر على مرأى من كل هؤلاء الطفيليين والطفيليات؟".

فتناولت زوجته الطبق وهمت بأن تدفع به إليه، ثم لمع فى عينيها بريق العبث فسلطت على الخوخة أسنانها:

"آسفة، لم يبق فى الطبق خوخ".

فاضطجع وأخرج سيجارة أشعلها على مهل ثم قال:

"يا امرأة، سيعاقبك الله بحرمانى، سيصلى جسمك البض ناراً حامية، وسأحمل أنا إليها الفحم والحطب على كتفى هذه... أم تراها توقد بالكهرباء؟"

فرشقته زوجته بالنواة، ولما انقطع الضحك قالت زوجته:

"أتشربون قهوة أم تخرجون إلى الحديقة؟".

فهز الرجال رؤوسهم - سالم وأخوه حامد وأنا - وتراجع السيدات - الزوجتان وسميحة التى حملتنى فى سيارتها - بكراسيهن.

وكانت السماء كالمخمل الأسود إلا أنها مثقوبة فى بضعة ملايين من المواضع ولمع من كل ثقب ضوء خفاق يبدو وفيما "تحس" العين كالبارد المقرور، لا عجب، فالبرد فى السماوات مرتعب؛ ولم تكن النجوم تنير أو تجلو ظلاماً، ولكنها كانت ترينا أين هى وتدلنا بالتماعها على مكانها، وكان الشجر نائماً لا توقظ أوراقه نسمة، وكأنما تعاون الليل والريف على اتراع كأس السكون.

والتفت سالم إلى وسألنى: "ماذا تصنع إذا أردت أن تتذكر شيئا أُنسيته؟"

قلت: "لا أصنع شيئًا - أترك الدر راسبًا فى قاع اليم، ولا أحاول أن أفض عنه غلاف الصدف المنطوى عليه".

فابتسم ساخراً وقال:

الدر؟ ألا تزال تجهل أن رأسك الذى بين كتفيك ليس خيراً من مزبلة؟ وثنى وجهه إلى زوجته وقال:

"يا امرأة - ماذا تصنعين إذا أردت أن تستحيى ذكرى تمعن فى الغمض؟ أليس هذا تعبيراً لبقًا؟".

فقالت أختى وهى تعبث بخاتمها: "أنقل خاتمى من يد إلى يد".

قال: "ما أبرعك؟!".

قالت بسذاجة: "إن هذا يشعرنى أنى ناسية شيئًا".

فقال متهكماً: "معلوم، معلوم، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا أن تتذكرى ما أنت ناسية؟؟ شىء سهل جداً".

فقال أخوه حامد: "أنا أدلك على ما هو خير من هذا وأجدى - لتلبس جوربك فوق الحذاء فتعرف أنك.. أنك أحمق".

وأضفت أنا: "أو تلبس الجاكتة على جلدك السميك - أعنى تحت القميص - وبذلك تنقلب ظهراً لبطن وتعرف ما غاب عنك من الدفائن التى فى جوفك".

فقال باحتقار: "اذهبا وغيرا وجهيكما - لا تنتظرا أن تنسيا شيئًا - وأذيعا نبأ التغيير فى الصحف لتتلقيا رسائل الشكر".

ولما هدأت الثورة ووسعه أن ينهض على رجليه مرة أخرى، وأن يصلح ثيابه ويسوى شعره ويتنفس بانتظام قالت سميحة بخبث: "هل تذكرت الآن ما كنت ناسياً؟"

فلم ينهزم، وأمر كفه جبينه وهو يقول:

"لقد غامت سماء هذا العقل السامى لحظة؛ ولكن الصفاء الطبيعى عاوده؛ أو بعبارة أخرى أقرب إلى مستوى أذهانكم الأرضية...".

فثرنا به مرة أخرى، ثم سكنت الضوضاء فقال:

"لو كان يشغلكم شيء عن بطونكم التى تحشونها بثمرات كدى وكدحى - لو كنتم تشكرون الله الذى منَّ عليكم بى، ....ولكن لا كرامة لنبى فى قومه... على كل حال...".

وسكت، فنظر بعضنا إلى بعض وهممنا بالكلام أو استئناف المناوشة، غير أنه رفع يدًا كابحة وقال:

"هس، لا تنطقوا بحرف، إن الحكيم يفكر هذا الرأس الكبير.. هذا البحر الطامى العميق الزاخر بالـ...

"بالجيف"

قالتها سميحة وأطلقت وراءها ضحكة فضية النبرات فأدار إليها وجهه وقال:

"انظروا كيف يكون كفران النعم! هذا الفم الدقيق الذى لا يزال يجتر طعامى هو الذى يشتمنى.."

فصاحت به النسوة محتجات، وقالت أختى: "ألا تقول ماذا؟ لقد اختنقنا".

فقال بتؤدة: "تمهلى، إن الله مع الصابرين لقد كنت أقول إنى أغوص فى بحر فكرى - فى عبابه المصطفق الأمواج - على ذخائر الحكمة وكنوزها..".

فأومأت إلىّ سميحة وقالت بضجر: "هيا بنا إلى الحديقة".

فصاح بنا ونحن خارجان: "نعم اذهب، وأغرق نفسك فى مستنقع، لا تترك عنوانك، كلا".

***

ولما بلغنا الباب الخشبى للحديقة نظرت سميحة إلىّ برقة وقالت:

"نتسلق الباب أم تكون ملاكا؟".

قلت: "بجناحين؟".

قالت: "افتح الباب".

قلت مقاطعًا: "نعم، ليدخل آدم وحواء الجنة بلا عائق".

قالت ضاحكة: "كيف عرفت؟".

قلت: "بذكائى النادر، هكذا أنا دائمًا بعد أن آكل برام الأرز والدجاج".

وسميحة قريبة لى؛ ولكن أباها - فى حياته - كان يكره سالمًا ولا يطيق أسلوب معشيته أو حديثه، ويعده أوقح مخلوق دب على ظهر هذه الكرة، فأبى على ابنته أن تزورنا وتتصل بنا ولم تكن أمها ترى رأيه ولكن علاجه أعياها فلما اختاره الله إلى جواره، تواصل الأهل بعد التقاطع وصارت سميحة تختلف إلينا وتقضى معنا أسابيع كل بضعة شهور؛ وأحببناها وأحبتنا فلما انتقلنا إلى الريف فى مقدمة الصيف، تخلفت أنا، حتى تجئ معى.

وتمشينا تحت أشجار المانجو والجوافة والخوخ، ثم التفت إليها فجأة وقلت: "سميحة".

فثنت إلىّ عينيها منتظرة فقلت: "ألم أقل لك".

قالت: "ماذا؟".

قلت: "أنى أحب".

قالت: "من السعيدة".

قلت: "أتظنينها تسعد بى؟".

قالت: "نعم".

قلت: "أواثقة أنت؟".

قالت: "بلا شك".

قلت: "كل الوثوق! لا ظل من الريب عندك".

فمدت يدها وقرصت إذنى فتوجعت فقالت: "لن أخلى سبيلها حتى تخبرنى".

فضممتها إلى صدرى وأهويت بالقبل على جبينها وخديها، وهممت أن ألثم فاها ولكنها دفعت وجهى بشىء من العنف وصاحت بى: "كيف تحبها وتقلبنى؟".

قلت: "لو كنت تلبسين بنطلونًا؟".

قالت: "لماذا؟".

قلت: "إذن لاقيتك فى هذه القناة".

قالت بضحك: "إنى مستعدة أن ألكمك مرة أخرى".

قلت: "والله إن فعلت لألقينك فى القناة بغض النظر عن البنطلونات".

فلكمتنى،

فحملتها على يدى وصرت أدنيها شيئًا فشيئًا من الماء وهى تصيح وترجو وتتوسل وأنا أظهر العناد والإصرار وأتكلف الجد والصرامة فاستحلفتنى بمن أحب فوضعتها على رجليها وقلت (يا خبيثة) ولثمت فمها فطوقتنى بذراعيها.

ولما رجعنا على البيت وصرنا مع سائر الأسرة حدجنا سالم بنظرة فاحصة وسأل: "هل أوصدتما الباب؟".

فقالت سميحة وهى تنظر إلىّ: "لقد نسينا".

فقال وهو يشير إلينا: "نسينا؟! أتسمعون؟!"

ثم التفت إلى أختى وقال:

"ألا ترين يا امرأة؟؟ أم ترى تنقصك التجربة؟ أم أنت تتباهين؟".

ونهض واقفًا، ولا أدرى لماذا، ولكنى أنا وسميحة وقفنا أيضًا فرفعت أختى عينها إلينا ثم صاحت وأقبلت على سميحة تقبلها وتعانقها - وتبعها الباقون.

وأخيرًا قال سالم:

"بصفتى سيد الأسرة؛ وتاج رأس العائلة كان ينبغى أن أكون أول من يقبلها كما كنت أول من قبض عليها متلبسة بالجريمة ولكن لا بأس، (والتفت إلىّ) هذه ثالث مرة يرتفع فيها شأن رجل من أسرتنا بالمصاهرة.

فقلت له: "صدقت".

فقبلتنى أختى.

العراك[٥٠]

قالت لى نفسى ذات ليلة:

"صدقنى يا صاحبى حين أقول لك إن الحياة لا يجوز فيها أن تجرى على سنة التعاون إلا إذا كانت لك مصلحة محققة من وراء ذلك، ولا يجوز فيها الخجل إلا إذا وثقت أنه أجدى عليك وأملأ ليديك من كل ما يسعك من التهجم ولا يجوز فيها الإصغاء إلى ما يسمى "الضمير" أو الاكتراث لما يسمونه "وخزه" فإن هذا الضمير يصيح بك إذا فعلت الشىء وإذا لم تفعله - على السواء - ويخزك إذا أطعت أو عصيت".

قلت مقاطعًا: "ولكن هذه مبادئ خطرة".

فصاحت بى: "مبادئ؟؟ أى مبادئ؟ إنها خلاصة التجارب وثمرة المعاناة لا أكثر ولا أقل وأنت حين تسميها مبادئ وتزعمها خطرة، لا تدل على أكثر من كسل العادة أو العجز عن التفكير الصحيح أو الإشفاق من مواجهة الحقائق أو إيثار المغالطة فيها لأن ذلك أهون وأقل كلفة وعناء - كلا؛ ليست مبادئ ولا شبهها، وعلى أنىّ لا أدرى هذه المبادئ ما معناها؟ وما مدلولها؟ وهى عندى كلمة استخفها الناس على ألسنتهم فكل امرئ يخوف بها سواه ويهول بها عليه، وإنى لأسألك: من الذى قعد فسعى له الناس، أو تأخر فقدموه، أو شاركهم وعاونهم فلم يظلموه ولم يغبنوه، أو استحيا فلم يتركوه ولم يهملوه، أو خول ضميره حق التحكم فيه فلم يشق به؟".

---

(٥٠) نشرت فى السياسة الأسبوعية، ١١ مارس ١٩٣٣، (ص٧).

فلم يرقنى أن تغلظ لى نفسى القول على هذا النحو، وأن تستسخفنى وترمينى بالعجز والجبن، فأظهرت لها الضجر ولم أكاتمها ما أشعر به لها من المقت فقلت محتداً:

"اسمعى يا هذه! إن صحبتنا قد سارت متعبة، وقد ثقلت على نفسى اللهجة التى نتخاطب بها - لا ذوق فيها ولا أدب - وعلى فرط تصبرى وتشددى فإنى لم أعد أطيقها، ولم أكن أحب أن تحوجينى إلى هذه المصارحة، ولكنك تماديت وتماديت، فلم يبق من ذلك مفر".

فأطلقتها ضحكة مجلجلة زلزلت كيانى وقالت:

"إنه لا يطيق!؟ هو يقول ذلك؟؟ يقوله لنفسه التى تعرفه!! ومع ذلك كم أطقت ما لا يطاق وصبرت على ما يعز الصبر عليه؟؟ احتملت الهضيمة، مئات من المرات؛ واستحملتها مئات أخرى، وصبرت على الأذى والسوء ولو شئت لدفعته كله بكلمة واحدة، لا بل بنظرة؛ ولكنك آثرت الضعف ورحت تزعمه حلماً وتدعى أن [خلقك] الطيب يحملك عليه؛ ورضيت ما يأباه الجاهل الغبى، وقبلت العنت وتركت الناس يتدللون عليك ويطمعون فيك ويبخسونك ويسخرون منك ولا يعبأون بك ولا يحسبون لك حساباً؛ وأين فى الناس من يحفل بمن يظل عمره متردداً موازناً بين ما ينبغى وما لا ينبغى؟ وبمن لا يزال يحاسب لسانه على الكلمة ألف حساب قبل أن ينطق بها؟ وبمن لا يجرؤ أن يمد يده إلى حقه مخافة أن تظن به اللهفة؟ وبمن ينتهى آخر الأمر إلى التزهد ويروض أعصابه على الحرمان لأنه يراه أرفق وأخف محملاً مما يخشى أن يصيبه إذا هم يقدم رجلاً أو يبسط كفاً أو يرفع طرفاً أو يشبع رغبة؟ لا يا صاحبى هذا أسلوب لا يجدى معى ولا يغنى عنك شيئاً، هو أسلوب العاجز المحرج، والمفحم الذى ضاقت به المذاهب ويظل مع ذلك يكابر - انظر إلىّ.. راعنى.. أأنا أخشاك؟ أمثلى يخشى الذى تصده كلمة ويرده وهم، ويحرمه التردد كل ما فى الحياة من طيب ومشتهى، وتقعد به عادة الإحجام؟ لقد هزُلت إذن!".

فلم يسعنى أن أظل أكابر؛ وشق علىّ أن أتحول دفعة واحدة إلى التسليم؛ فراوغت وقلت:

"ثم ماذا؟"

فلم تعبأ بمراوغتى وقالت:

"ثم أنك لا أمل فيك ولا رجاء لك إذا أبيت أن تفهم الدنيا التى تعيش فيها، وما دمت لا تريد أن تتعلم فلماذا تزعجنى كل ليلة بهذا الحوار العقيم!".

واعتدلت أمامى وحدقت فى عينى وقالت: "دعنى أسألك ولتكن فيما تجيب به صادقًا غير مراوغ".

قلت: "سلى ما بدا لك".

قالت: "هذا أحسن: ماذا تنشد من الحياة؟ هيه؟".

قلت: "أن أعيش كما ينبغى".

قالت: "كما ينبغى أو كما يمكن؟".

قلت: "كما يمكن؟؟ لا! لا أظن، إن "كما يمكن" لا تصلح أن تكون غاية أو أملاً منشوداً وكل مخلوق يعيش كما يمكن ومتى كان "كما يمكن" موجوداً فكيف نجعله مطلوبًا؟".

قالت: "ألم تخبرنى مرات أنك كنت تستطيع أن تجعل حياتك أحسن وأطيب وأكمل مما كانت – وذلك من أهون سبيل؟".

قلت: "نعم".

قالت: "فهذا بعض ما أعنى "بكما يمكن".

قلت: "على كل حال لا أرى "كما يمكن" هذه تليق بأن تكون غرضًا للحياة".

قالت: "كأنى بك تعرف حداً للإمكان فأنت تريد أن تتجاوزه؟".

قلت: "وكأنى بك تلعبين بالألفاظ، لأنه إذا كان الإمكان لا حدٌّ له يُعرف، فقد انطوى فيه ما ينبغى، فالتعبيران على هذا سيان".

قالت: "يسرنى أنك قد بدأت تفكر بعقلك!".

فقلت "ألا تكفين عن هذا السخر؟؟ إنى أؤكد لك...

قالت مقاطعة: "لا تؤكد شيئًا، ولكن ماذا أصنع إذا كنت لا تزال تخدعك الأوهام وتلعب بعقلك الألفاظ؟؟ كما ينبغى حقًا؟؟ كأنما من السهل الهين الميسر أن يحيا الإنسان كما يمكن".

قلت وقد ضاق صدرى: "دعى هذا وخذى فى سواه".

قالت وهى تتكلف الأسف: "ما أقل صبرك على نفسك يا من تصبر الحياة؟؟".

فنهضت مغضباً وصحت بها: "لقد قلت لك ألف مرة إن هذا الوخز لا يُطاق، ثم إنه تعبير لا يليق وليس من العدل فى شىء".

فلم يزجرها غضبى وقالت بلهجة المستخف: "اجلس، اجلس... حسن إنما أخزك لأوقظك، لأنبه ذهنك الذى فتّره الجرى على العادة، حتى فى التفكير، وخدره استسهال التقليد فيه؛ ما علينا، قل لى: هل يسوءك جداً أن تنال مأربك فى حياتك؟".

فقلت: "يسوءنى؟؟" وضحكت.

فقالت: "يسرنى أن أسمعك تضحك! هذه أول مرة فى هذه الليلة أرى أسارير وجهك تنبسط، وفى هذا إيذان بأن صحبتنا ليست ثقيلة جداً؛ على كل حال، أسألك هل تنال مأربك بالخجل منها، والقعود عن السعى لها، والإحجام عن المكافحة فى سبيلها؟".

- "كلا إلا إذا كان ذلك مصادفة لا فضل فيها ولا حساب لها".

- "جميل جداً، وانتهينا إذن".

قلت: "كلا، لم ننته؛ فإن ما تسمينه أنت خلاصة التجارب هو الأنانية الصارخة".

قالت: "والأنانية شيء حقير طبعًا! يعنى إذا ألح الجوع على اثنين وكان أمامهما طعام لا يكفى واحداً؛ فماذا يكون؟".

قلت: "يقتسمانه".

قالت: "هذا خير من أن يحرم أحدهما صاحبه بالقوة أو الخطف، ولكن عنصر الأنانية مع ذلك بارز يفقأ العين، لأن معنى الاقتسام أن كلا منهما لم يؤثر صاحبه على نفسه وأبت له الأنانية أن يشبع صاحبه وهو جوعان - لا يا صاحبى الأنانية التى تحاول إنكارها هى قوام هذه الحياة - حتى الحب الذى يخدع البسطاء بمظاهر التضحية فيه، والذى جعلته الطبيعة فى أصله أداة لبقاء النوع، قوامه الأنانية لأن فيه معنى انطواء المحب على المحبوب، فضلاً عن الاستيلاء - والغيرة التى يثيرها الحب ماذا هى؟؟ ثم أن الأنانية ليست عيباً فتفزع منها كل هذا الفزع".

قلت: "لست أفزع ولكن... أ.."

قالت: "نعم؟ ولكن ماذا؟"

قلت: "ولكنك ثقيلة! تصكين وجهى بحجر وتعتذرين بأن الذنب للحجر لأنه جامد.. صلب".

قالت وهى تبتسم: "عذر سديد، لأنى لو قذفتك بالقطن المندوف لما أوهاك".

قلت: "قد يكون ذلك؛ ولكنى أعنى أن طريقتك منفرة".

قالت: "لا شك أن فتحى أنا لعينيك أوجع لك من فتحك أنت لهما، فلماذا لا تفتحهما وتريحنى وتريح نفسك من هذا العناء".

قلت: "لو فعلت أيكون فى هذا راحة؟".

قالت: "لا شك".

قلت: "وأخسر هذه اللحظات التى أخلو بك فيها؟؟".

قالت: "أورضيت عنى؟".

قلت: "ألست نفسى؟".

قالت: "ولكنى أتعبك وأضنيك".

قلت: "ولكنك على الرغم من ذلك أحب ما فى الدنيا إلىّ وأعزه علىّ".

قالت: "الدنيا كلها؟".

قلت: "بلا شك".

قالت: "يا للأنانية الصارخة".

فضحكت وعانقتها راضيًا عنها مغتبطًا بها معترفًا لها، وماذا أنا بغيرها، ماذا أكون إذا فقدتها، لا شىء.. لا شىء على الإطلاق.

الفرصة الضائعة(٥١)

أفلتت الفرصة...!

وسيظل هذا الطاغية حيًا ليمضى عزمه على طردى وحرمانى من الرزق وتجويع أبنائى! وأين أجد عملاً لمثلى فى هذه الأيام؟ ولو أراد الله بى خيراً لألهم يدى أن تدفع هذا المفتاح إلى الوراء... قيراطًا واحداً.. لا أكثر... إذن لدارت الآلة وهو بين قطعها يدخل شريط الورق من هنا ويخرجه من ههنا.. وقد كانت رقبته تحت السكين لما هممت بأن أدفع المفتاح، ولو فعلت لحزتها السكين فى مثل لمح البصر، ثم لتمزقت أشلاؤه ونجوت، وإذن لعزيت ميتته إلى القضاء والقدر، فما سمعه أحد وهو ينذرنى بالطرد بعد هذه الليلة ويخبرنى أنى من الغد مفصول، ولماذا؟؟ لا لذنب جنيته، بل لأنه جشع شره لا يشبع، وليس يكفيه ما يخرج به من الربح فهو يريد أن يستغنى عنى ليصبح الأجر الذى أتقاضاه ربحًا آخر له، وإن أجرى لزهيد، وإنه لأقل من أن يكفينى أنا وأولادى، وإنهم لضامرو الأجسام عجاف معروقون وأنهم لمهلهلو الثياب فى هذا الشتاء القارس، ولكن هذا القليل الضئيل يمسكنا أن نموت جوعًا، فالآن... من الغد... سنفقد أيضًا هذا القليل، ولا يبقى شىء يقينا غائلة الجوع والموت... وستمضى الشهور وتكر واحداً فى أثر واحد، وهو ينعم بالزيادة التى أضافها إلى ربحه بطردى، وأنا أشقى وأتضور... أنا وأولادى... أطلب العمل فلا أجده... واشتهى الكدح والتعب فتبخل الدنيا بهما على، وتأبى المقادير التى تجرى بالنحس إلا أن أتبطل... وليت لى مدخراً.. ولكن ماذا عسى

---

(٥١) نشرت فى مجلة الهلال، أول نوفمبر ١٩٣٣، (ص٢٩ وما بعدها).

أن يدخر عامل لا ينيله أجره الكفاف؟ هذا ثوبى ما غيرته من عامين، وأبنائى دار عليهم العام وليس على أبدانهم - فى الصيف والشتاء - سوى هذه الخرق البالية، وأنه ليعرف هذا معرفته، ولكنه مع ذلك يطردنى ولا يدركه عطف على صغارى! فلو أنى قتلته لما ظلمته.. ولقد سنحت لى الفرصة.. وأى فرصة؟.."

ومسح العرق المتصبب، وكان صوت الآلة يغرق لغط العمال وهم واقفون حيث تخرج الجريدة مطوية... نسخة فى أثر نسخة - مائة وثلاثًا وثلاثين نسخة فى الدقيقة الواحدة - والعمال يتلقونها ويعدونها ويربطونها ويلقون بها إلى الصبيان، ليرتبوها ويهيئوا لكل منطقة ما هو لها - هذه الآلاف للقاهرة، وتلك للوجه البحرى والإسكندرية، وهذه الأخرى للوجه القبلى، وهكذا، والباعة من وراء الحاجز يصخبون ويتضاحكون، ولا يتكلمون وإنما يصرخون لأن الأصوات تضيع فى ضجة الآلة.

وإنه لغارق فى هذه الخواطر السوداء، وإذا بأصوات تصرخ وتصيح به :"وقف... وقف....".

فقد انقطع شريط الورق ولا بد من كف الآلة عن الدوران حتى يوصل ما انقطع، فجذب المفتاح فامتنع تيار الكهرباء وخفت الدورة وصار صوت الآلة خفيفًا ثم وقفت وصارت أصوات العمال عالية مستنكرة، فصاح بهم كبيرهم أن يسكتوا أو يخافتوا بها، ودخل فى جوف الآلة بين شقيها - لانتزاع الورق الممزق وتخليص العجلات والتروس منه، فانتعش الأمل وتجدد فى نفس صاحبنا وهو واقف إلى جانب المفتاح ينتظر الأمر بدفعه لتدور الآلة مرة أخرى، وحمد الله على أن أتاح له هذه الفرصة الثانية وإلى أن يغتنمها كائنة ما كانت العاقبة، وخيل إليه أن الأقدار تغريه بالقتل وتحمله عليه وتسوقه إليه، وبدا له كأن عدل الله يأبى أن يفلت هذا الظالم من العقاب الذى يستحقه.

ورفع كفه الكبيرة الخشنة الملطخة ليمسح العرق مرة أخرى، وفى هذه اللحظة أدار كبير العمال عينه فوقعت عليه، ورأى العرق الذى يقطر به جبينه، والكف التى تمسحه ولم تخف عليه آيات الوجوم والسهوم فى هذا الوجه الظامئ، فرق قلبه له وجاشت نفسه بالحدب والمرثية، فحول وجهه عنه ورد عينه إلى شريط الورق وشرع يلمحه بالنشا بعد أن مده إلى حيث ينبغى أن يكون، وفى نيته بعد أن ينتهى العمل أن يبلغ صاحبنا عدوله عن طرده.

ولكن صاحبنا لم يكن يعرف هذا، وأنَّى له أن يطلع على ما فى ضمير الفؤاد؟؟ ولقد لمح على وجه رئيسه ابتسامة خفيفة توهمها من السرور بما وفق إليه من اقتصاد أجره بعد طرده، فشاعت النقمة عليه فى نفسه، وامتلأ صدره حقداً وصديداً وأمحى من ضميره كل ما كان يبعثه على التردد والإحجام عن القتل، واستقرت نيته على الفتك، فوقف جامداً كالصخرة متربصاً كالنمر ناظراً إلى رئيسه نظرة الثعبان إلى العصفور ويده ترعش وتهم بأن ترتفع إلى المفتاح، ولكن الرئيس لا يزال على مسافة شبر من السكين وقد لا يعود - كما حدث فى المرة السابقة - إلى دس عنقه تحت حدها فتضيع الفرصة مرة أخرى... ولكن لا! لن تضيع هذه المرة، وإذا كان هذا الظالم لا يضع عنقه تحت مهبط السكين، فإن فى وسعه مع ذلك أن يطحن له جسمه ويفتته ويعجن لحمه بعظمه بين التروس والعجلات... كلا، لن ينجيه شىء فى هذه المرة ولن يخرج من هذا المكان حتى يراه - بعينيه هاتين - فطيرة معجونة بزيت العجلات، ولماذا يتركه يحيا وقد أنذره أن يقطع عيشه؟؟ أى حق له فى تجويع أولاده؟؟ ماذا جنى حتى ينزل به هذا البلاء العظيم؟؟ إنه ليقضى ليله - كل ليلة - فى أشق الأعمال.. فى حمل الصفحات الثقيلة إلى "المكبس" ثم ردها حارة حامية تكوى جسمه على الرغم مما يلفها به من اللباد السميك ثم فى كسر الأخشاب عن لفافات الورق، وفى دحرجة هذه اللفافات الضخمة إلى حيث تعلق على جانبى آلة الطباعة، ثم فى تنظيف الآلة وتزييتها، ثم يقضى

ساعتين واقفًا على قدميه إلى جانب هذا المحرك الكهربائى وهذا المفتاح الذى يدير الآلة ويوقفها... يفعل كل هذا بستة قروش ليس غير... ستة قروش له ولأولاده الثلاثة لا تكاد تكفى ثمنًا للخبز بغير إدام.. ومع ذلك يأبى هذا النذل إلا أن يستغنى عنه ليشرده ويجيعه ويجيع صغاره! أفمن كان مثله يستحق رحمة؟؟ وماذا عليه لو قتله؟؟ إن الآلة هى التى ستقتله وتمزق أوصاله لا هو، ولن يفعل هو شيئًا سوى أن يدفع المفتاح قبل الأوان بثانية واحدة... لا بل بثلاثة... ولن يتهمه أحد، لأنه ما من أحد يعرف سر نقمته عليه... ومتى مات فلن ينقطع رزقه هو... ولن يجوع أبناؤه، ولن يعرف هو ذل البطالة..

"دور! دور!"

وانتبه على صياح العمال به من كل مكان : "دور"!

أفلتت الفرصة مرة أخرى... وخرج الرجل من بين شقى الآلة وهو شارد يحدث نفسه حديث الانتقام ويسوغ لضميره ووجدانه ما يأبى له الله أن يجترحه!

وطفرت العبرة من عينه، وراحت الدموع تتسابق على خديه، أبكته مرارة الخيبة لغفلته بعد أن صح منه العزم، وأبكاه هول ما ينتظره فى غده بعد أن يؤوب إلى حجرته، وأبكاه الغيظ والألم والشعور بالضعف والتضعضع.

ولم يرفع يده ليدفع المفتاح فما بقيت فى ذراعه أعصاب، وخار جسمه كله حتى لكاد يقع، ودارت الأرض به وصارت الآلة الضخمة الرازحة تعلو وتهبط وتميل فيما يرى يمنة ويسرة كأنها على أرجوحة، وإذا بالآلة تدور وحدها فيما يعلم، وإذا بكف غليظة تلمس كتفه وصوت بعيد جدًا فيما يحس يقول له:

"هون عليك، لقد عدلت عن إخراجك رحمة بصغارك، فامض فى عملك"

***

وعاد الرجل إلى أبنائه فى البكرة المطلولة يحمد الله على ضياع الفرصتين.

ولدان: طيب وشرير[٥٢]

هما طفلان شقيقان إلا أنهما غير توأمين، جاء أكبرهما إلى الدنيا فى ساعة منحوسة، فى رأيه هو بعد أن كبر وشيخ، وانحدر الثانى بعده بعامين ولم يخطر له قط - إلى آخر عمره الطويل - أن يفكر فيما تدور به الأيام من النحوس أو السعود، وكان الأول كهمك - أو لا أدرى كهم من؟ - من ولد طيب لا يكذب، ولا يسرق، ولا يسئ إلى حيوان أو يؤذى طيراً، ولا يعصى أبويه أو معلميه، ولا يهمل أن يحفظ درساً، ولا يشارك أترابه فى عبثهم وألاعيبهم، ومع ذلك لا يلقى من الجزاء إلا أسوأه وأمره بالكيل الوافى، حدث مرة أن أخاه - وكان نقيضه فى صفاته ونزعاته - تسلل فى الليل إلى حيث تحفظ أمه المربى، وكانت من القراصيا، فأقبل عليها يلتهم منها بلا ملعقة - أعنى أنه جعل يصب منها على أصابعه ثم يثنى هذه على فمه ويذهب يلحس السلافة ويمضغ الثمر - وكانت تعجبه مزازتها - ولم يزل يفعل ذلك حتى ترك الوعاء نصفان، وكان من فرط الامتلاء يكاد ينصب، وأبى له سوء الطبع إلا أن يعمد إلى الفحم فيجئ بقطع منه وضعها فى وعاء المربى وأكمله بالماء وتركه حيث هو ولم يرده إلى مكانه، وذهب فنام، فلما كان الصباح سبق أخوه إلى القيام فلمح وعاء المربى على المائدة فوقف ينظر مستغرباً وجوده، وإذا بأمه تهوى على بدنه بقبضة المكنسة، وهو من دهشته يحملق فى وجهها متوجعاً باكياً ولا ينبس بكلمة.

---

(٥٢) نشرت فى مجلة الهلال، أول يناير ١٩٣٤، (ص٢٧٠-٢٧٢).

وكان للبيت حديقة فيها أشجار فاكهة وكان أبوهما يحظر عليهما دخولها مخافة العبث والفساد، ولم يكن الصغير الشرير يجعل باله إلى هذه النواهى أو يحفلها، فدخل مرة وتسلق شجرة وامتطى فرعًا وراح يأكل كالمنهوم، فبصر به أخوه الطيب، وشق عليه الأمر، فدخل ووقف تحت الشجرة ينهره ويزجره عن المضى، ويدعوه إلى النزول فالذهاب إلى أبيه والإقرار له بذنبه والتماس الصفح منه، فلم يعبأ به الشرير حتى إذا شبع، وثب إلى الأرض فإذا به ينحط على أخيه، ونجا الشرير ورضت أضالع الولد الطيب واحتاج إلى الرقاد على السرير أيامًا.

ومن الحوادث المأثورة، أن الأسرة ذهبت تصطاف فى القرية، على عادتها فى كل عام، فخرج الولد الشرير يلعب مع غلمان القرية، فالتقوا فى بعض الطريق بشيخ أعمى فدفعوا به إلى "الترعة" ووقفوا على حافتها يحولون بينه وبين الخروج كلما عالجه، وكانوا يتضاحكون ويصخبون، وكان الولد الطيب مارًا فراعته هذه الوحشية فصاح بهم من بعيد فظنوه رجلاً وتفرقوا هاربين، فدنا هو من الأعمى ليأخذ بيده ويعينه على الخروج، فما كان منه إلا أن أهوى بعكازه على رأسه وسائر بدنه ظنًا منه أنه أحد مغرقيه فى الماء جاء يزعم أنه ليس منهم!

حتى فى المدرسة، كان الولد الشرير يأكل الحصرم والولد الطيب يضرس - على المجاز لا على الحقيقة، فما كان فى المدرسة فى تلك الأيام شجرة حتى ولا رسم شجرة - وقد اتفق يومًا أن كان المدرس مارًا بين صفوف التلاميذ وهم يعالجون حل مسألة، وكان المدرس يلبس بذلة بيضاء، فتناول الولد الشرير قلم أخيه - وكان جالسًا إلى جانبه - وغمسه فى المداد، وقطر منه نقطًا على ثوبه ثم رمى بالقلم على الدرج فكان لذلك صوت، لفت المعلم، وجلس الشرير ساكنًا كأنه لم يصنع شيئًا، أما أخوه فتحرك يريد أن يمسك القلم قبل أن يقع على الأرض، فضحك التلاميذ، فمد المعلم يده بخيزرانة كان يخفيها فى كمه مخافة أن يراها معه الناظر - لأن الضرب ممنوع - ولبه

بها فى رفق فقد كان يجهل ما أصاب ثيابه البيضاء من تلويث الحبر، وفى اليوم التالى، كان أول ما فعله المعلم ساعة أقبل على هذه الفرقة فى موعد الدرس أن دعا إليه الولد الطيب وقنع رأسه بالخيزرانة وهزره بها على جنبه وظهره شديداً من غير أن يبين لذلك سبباً، والتلاميذ الملاعين يضحكون مسرورين كأن من بواعث الاغتباط أن يؤاخذ البرىء بذنب المسىء!

وكان الولد الطيب يحب السكون ويكره اللعب، على خلاف أخيه الذى لم يكن يهدأ قط أو يتعب، فكان الأول يجلس على كرسى أمام البيت، وأخوه يلاعب صبيان الحارة، وكانوا يتخذون نوى "الدوم"(٥٣) بدلاً من الكرة، ونواه كبير فى حجم التفاحة يابس كالحديد، ووطيس هذه اللعبة يكون أبداً حامياً لأن صلابة النواة وما فى تقاذفها من الاستهداف وشدة ما يصحب ذلك من ضجيج الصبية - كل ذلك يدير الرءوس ويطلق الحناجر بصيحات التحذير والوعيد فتعظم الحماسة، وكان الغلمان يتكدسون حول النواة فإذا تمكنت منها قدم واحد أسرع الباقون فارتدوا عن مجراها اتقاء لها، وصاحبنا قاعد ينظر وينكر ولا يأنس من نفسه قدرة على إقناعهم بالكف عن هذا اللعب الخشن، وكثيراً ما دعا الله فى سره أن يقيهم أذى الدوم، وشاءت الأقدار يوماً أن كان يلهج بالدعاء لأخيه، وإذا بأخيه يركل النواة ركلة قوية تطيرها كالقذيفة إلى ساق صاحبنا فتكسرها!

وكان أخوه يلاعب الكلاب والقطط ويضربها ويرفسها ويجرها من آذانها أو ذيولها أو يقذفها بالحجارة، وهى تلين للمسه ولا تهم بإيذائه ولا تتنكر له، ولا تكون معه إلا

---

(٥٣) الدوم شجر المقل وهو يعبل ويسمو وله خوص كخوص النخل ويخرج أقناء كأقناء النخل فيها الثمر الذى هو المقل، وكان كثيراً فى الصعيد ثم قل جداً وهو تافه، وكان يصنع من خوصه بعض الحصير الذى يفرشه حفارو القبور لزوارها الفقراء. (المازنى).

راضية بما يرضيه، فأحب الولد الطيب مرة أن يلاطف كلبًا أوسعه أخوه الشرير ضربًا بعصا خشنة غير منجورة، فلم يكد يلمسه ويربت عليه حتى هاج به ولم يترك من ثيابه قطعة سليمة إلا ما كان على صدره منها.

وكبر الأخوان، فأما الذى كان فى حداثته شريرًا، فصار غنيًا مبجلاً محببًا إلى النساء مهيبًا من الرجال، يتقيه الخصوم ويغتبط بصداقته الأصدقاء، وأما الذى كان ولدًا طيبًا فقد وقع فى نفسه من الدنيا ما حبب إليه العزلة وزين له الانقطاع، وقد تغير رأيه فى معانى الخير والشر والفضيلة والرذيلة وفى جزاء كل من ذلك، ولكنه لم يستطع أن يروض نفسه على سلوك جديد يوائم ما تحول إليه رأيه، وإعجابه بأخيه عظيم، وليس يخفى عليه أنه إعجاب الفاهم العاجز!

الحجرة الثالثة[٥٤]

قرأت فى بعض الكتب - أو لعلى سمعت، فما أدرى أو أذكر - أن النفس الإنسانية أشبه بمسكن فيه ثلاث حجرات: واحدة هى التى تطل على طريق الحياة والتى يراها الناس فى غدوهم ورواحهم، وليس لهذه شبابيك ولا على النوافذ ستائر فإنها مفتوحة مكشوفة لمن شاء أن يلقى عليها نظرة، وقَل أن تأخذ عينه فيها شيئًا لا تأخذ مثله فى نظائرها من الحجرات المعروضة، وتلى هذه حجرة أخرى يلتقى فيها الأصدقاء ويتحدثون ويتمازحون ويتفاهمون ويتذوقون ما يسمونه الحياة، ومن وراء هذه وتلك ثالثة مزوية عن العيون، يخلو فيها الإنسان بنفسه ولا يشاركه فيها سواه من الخلق، ويندر أن ينفذ لحظ أجنبى من بين الأستار الكثيفة المسدلة عليها.

ولست أرى هذا التشبيه يصدق فى كل حال، فإن من الناس من يمحو ما بين هذه الحجرات من الجدران الفاصلة ويجرى بعضها فى بعض ويعرضها جميعًا على من يحلو له أن ينظر من ذوى الفضول، ومنهم من يبالغ فى التكتم فيحجب حتى الحجرة الأولى التى يكشفها غيره لعابرى السبيل، وآخرون يموهون أو يزورون فيضعون فى الحجرة الأولى غير المألوف ليضللوا، ولا يبيحون أحدًا - ولو كان من بينهم - شبر أرض من الحجرة الثانية، ولا آخر لاختلاف الناس وتفاوتهم فى هذا الباب وهذا عيب التعميم.

---

(٥٤) نشرت فى جريدة البلاغ، ٢٨ يناير ١٩٣٤ (ص٣).

وتعنينى الحجرة الثالثة التى يقول صاحبنا إن المرء يواجه فيها نفسه ويخلو بها، فإن أمرها ملتاث غامض، ومن الناس كثيرون لا يأنسون بها أو يرتاحون إليها فقَل أن يدخلوها إلا مكرهين، وربما دخلها الداخل حتى إذا صار فيها ضل ولم يدر أين هو، وقد يضطرب فيزوغ بصره، ويخفى عليه حتى الذى تحت أنفه، وعسى أن تكون أشد سواداً من أن تنفذ فيها العين، فإذا رأى فكثيراً ما يختلط عليه الأمر فلا يعود يعرف هل ما فيها مما وجد أو هو مما زاد عليه وأضاف إليه ليزين الحجرة ويجعلها أشرح للصدر وآنس للنفس وأنفى لكرب الخلوة وثقل الوحدة.

ومن غريب أمر هذه الحجرة أنها لا تكون أبداً على حال واحد، فالفصول فيها تتوالى على غير ميعاد، والخريف فيها يطول والربيع يقصر، وقد يتعاقبان ويتخبطان الصيف والشتاء، وقد تشتد وقدة الصيف وتمتد إلى آخر العام ولا تخففها قطرة ولا يلطف حرارتها ظل، ويجئ الربيع أحياناً فى غير أوانه، ولكن لبثه يقل ولا تكاد الدنيا تندى على القلب وترف فيما يحس حتى يحل الشتاء ببرده ومطره وزوابعه، والجهات الأربع فى هذه الحجرة العجيبة غيرها فى الدنيا - فلا المشرق مشرق ولا المغرب مغرب، والشمس تطلع من حيث يبدو لها أن تظهر، وقد تشرق فى الليل الطخيان فإذا الظلمة قد انجابت، والوحشة قد ذهبت، وإذا النور يلمع ويرقص، ثم إذا كل هذا البشر قد أمحى فجأة، واكفهرت السماء وجلجل الرعد وانطلق البرق يثخن بسهام النار فى قلب السحب، وقد تبدو النجوم فى رابعة النهار لا فى ظلمة الليل، ويروح المرء يهتدى بواحد منها لا بالشمس كأنه هو الذى يضئ له الطريق وينير المحجة، وليس للنجوم ثبات، والتى تختفى أكثر من التى تظهر، والعين تتعزى بالموجود عن المفقود، وتتعلق بالظاهر وتتأسى به، وإن كان الذى يغيب ويستسر أبهر نوراً من الذى يبرز ويومض.

والبرد والحر لا يجيئان من الشتاء والصيف، فقد تكون الشمس طالعة والقيظ شديداً وتكون النفس فى زمهرير من هذه الحجرة، ويكون المطر منهمراً وعلى كل شىء

من الجليد طبقة رقيقة أو كثيفة - والنفس حرى كأنها من حجرتها هذه فى أتون مضطرم، وأنفاسها كلها خارجة من جوف بركان.

والمقاييس والمعايير فى هذه الحجرة غيرها فى الحجرات الأخرى، والأغلب أن تتفق مقاييس الأشياء فى الحجرات المعروضة، فإذا صار الناس إلى الحجرة الثالثة المحجوبة اختلفت الموازين وتفاوتت التفاوت الشديد، فلا الخير خير ولا الشر شر، ولا العمل الصالح مبعث ارتياح ولا السوء داعية السخط والنقمة، وكم من عمل طيب تلقى صاحبه الشكر عليه فى الحجرة الثانية، والتهنئة به، وكان مسروراً راضيًا ومنتفخًا مزهواً، فلما تراجع إلى خلوته ندم وأنحنى على نفسه باللوم، واتهمها بالغفلة أو الحماقة أو سوء التدبير أو الضعف أو غير ذلك، وكم من فعلة خجل منها وهو يستقبل الناس فى الحجرة الثانية أو يراهم ينظرون إليه وهم يمرون بحجرته الأولى، فلما آب إلى كهفه انقلب يباهى بما فعل.

وفى هذه الحجرة يتشابه الشك واليقين، ويختلط الإيمان بالكفر ويتنازع الرأى والإرادة ويحصل الاعتراف بما لا يكون الجهر إلا بإنكاره، وتبرز مخالب الوحش الذى فى الإنسان وتبدو الأنياب المتحفزة للافتراس، وتنطلق الشهوات تلح بلا كابح من الإرادة المدربة أو العقل المهذب، وتروح الغرائز تغرى بالمنى الفاضحة وتزين الأهواء المعيبة، ويأخذ الخيال يجسد اللذاذات العزيزة ويصور المتع المشتهاة، ويرسم الأجسام الفاتنة والقدود الساحرة ويجردها من أردية الاحتشام ويهبها من كرمه فوق ما لها من المرونة واللين ويصفها مؤاتية مطاوعة، ويخلق أوضاعًا لا تكون فى الدنيا، وحلاوات لا تذاق فى الحياة، ومتعًا لا تستفاد على هذه الأرض.

وهذه الحجرة مأوى الضمير المتعب الذى لا يعرفه الإنسان يرضى عن شىء، فكل ما يعمله المرء مستوجب للتأنيب، وهو يقرع صاحبه إذا فعل الشىء أو إذا تركه، لا يبالى فى ذلك تناقضًا ولا يحفل ما كان منه فى يوم سابق، والمحاورة بين المرء وضميره فى هذه الحجرة لا تقضى، والحساب أبدًا عسير، والميزان لا ينفك طول العمر منصوبًا،

وهم المرء أن يخفت هذا الصوت المنغص وأن يخنقه، وهم الضمير أن يضاعف علو لسانه وقوة بيانه، وأن يجعل السوط الذى فى يده أقطع، والسنان الذى يشك به الجنب آلم وخزًا، والحرب سجال، والغلبة آنًا لهذا وآونة لذاك، والمعول فى الظفر على قوة الدفاع لا على شكة الهجوم.

فمن وسعه أن يجعل جلده أكثف وأذنيه أشد صممًا فهو الرابح السعيد، وأخلق بضميره حينئذ أن يبح صوته عبثًا وأن يرتد سنان رمحه عن جلد صاحبه السميك دون أن يبلغ ما تحت ذاك من اللحم الحى.

وفى هذه الحجرة تطالع المرء أكاذيب الحياة - أكاذيب الشهرة والخلود والحب والبغض والنظم والعادات، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر، والإخلاص والوفاء، والغدر والخيانة، والأمانة، والنجاح والخيبة، ولكنها لا تخلو مع ذلك من الوسائل التى تيسر للمرء أن يزيف نفسه لنفسه وأن يموهها لعينه وأن يخادع قلبه ويغش روحه، فهى غرفة فيها ما يمحو الغشاوة عن العيون، ولكن فيها كذلك غشاوات أخرى يتناول منها المرء على هواه ويلبس على ناظريه من ضروبها ما يحلو له إذا كان من هذا الطراز، وأينا ليس منه؟؟.

ومن قول سليمان بن داود: إن العين لا تتعب من النظر والأذن لا تشبع من السمع، ولكن العين الناظرة تتعب فى هذه الحجرة، فإن أكثر ما فيها قذى، والأذن تمل وتألم فما يصافحها فى الأغلب إلا السوء، أو يسكها سوى المشنوء الثقيل، وما أكثر ما يدور الرأس ويدور، حتى يغيب الحس وينتفى الوعى، وإنه لمسكين مسكين من يكثر اختلافه إلى هذه الحجرة الثالثة، والسعيد السعيد من يوصد بابها ولا يفتحه أبدًا.

حديث فى الطريق[٥٥]

وقفت على رأس السلم متردداً، ويدى على الحاجز، أشاور نفسى: هل أنزل وأخرج إلى الدنيا؟؟ أم أرجع أدراجى وأخلع ثيابى وأنعم بالراحة والبلادة والنوم؟ وكان خيراً لو شاورت نفسى قبل أن أبرح مسكنى، فإن الوقوف والإطراق أو شرود الذهن فى طريق الصاعدين والهابطين فى مثل هذه العمارة الضخمة الغاصة بالسكان يلفتان النظر وقد يكونان مبعث ريبة، وقد يتوهم من يرانى أنى أتحين الفرصة للسطو على مسكن، فإذا أحسن الظن فقد يحسبنى على موعد غرامى، وربما شك فى عقلى فإن السلالم مصاعد أو مهابط وليست بمواقف "سقراطية" للتفكر والتدبر.

وارتقى إلىّ صديق زائر وأنا على هذا الحال، وسألنى لما دنا منى: "ما خطبك؟"

فزال التردد وقلت: "هيا بنا".

وانحدرت إليه وأدرت كتفه لينزل معى، فابتسم متغاضياً عن سوء استقبالى له، وكنت أعول على عقله وفهمه وسعة صدره، ولما صرنا فى الطريق ووجب أن نعرف إلى أين نتجه سألته: "بماذا تشير؟"

فقال: "لقد أطار سلوكك كل ما كان فى رأسى، كنت أريد أن أجالسك وأحادثك قليلاً ثم...".

---

(٥٥) نشرت فى جريدة البلاغ، ١١ فبراير ١٩٣٤ (ص١٠).

فقلت مقاطعًا: "ولكنى معك، والحديث ميسور هنا كما يكون ميسورًا فى حجرة، أم الجلوس هو الغاية من الزيارة والحديث؟".

فسألنى بحدة: "مالك؟".

قلت: "بى، إنى لا أدرى ماذا أصنع بنفسى! تعبت من القراءة، وأريد أن أتسلى وأتلهى قليلاً قبل النوم، ولكن بأى شىء؟؟ لقد صار كل شىء مملولاً فاترًا، ليس فيه أدنى متعة، لأن كل شىء ميسر رخيص مبذول لا يكلف مشقة ولا يجشم عناء ولا يقتضيك مالاً يستحق الذكر... السينما والرقص والراديو والنساء و...".

فقاطعنى ساخرًا: "نوبة فلسفة؟".

فصحت به: "أى فلسفة يا أحمق؟؟ أى شىء فى حياتنا الآن من الملاهى البريئة أو غير البريئة، ينقصه الابتذال؟ أتريد أن تسكر؟؟ الخمارات فى حيثما درت بعينك... هى أكثر من شعر رأسك، ولن يعيبك أو يلومك أحد إذا جلست تشرب الخمر على قارعة الطريق فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل، أم تنشد المرأة؟ فإنها تعرض نفسها عليك أينما تلفت؟ أم طلبتك السينما؟ فإن دورها مفتوحة من الضحى إلى نصف الليل، أم الرقص؟ فإن الناس يكادون يرقصون فى الشارع، والراديو يصدعك من كل دكان ومقهى وأنت فى الترام، ولا تحميك منه كل هذه الضوضاء الهائلة، حتى السيارات صارت تجهز بآلات الراديو لتسمع منه ما شئت ولو كنت فى الصحراء! فماذا بقى؟؟ هيه؟".

فقال: "صحيح كل هذا، ولكن...".

قلت: "لكن ماذا؟ إن الأمر بديهى جداً، حتى الأدب والعلوم كانت سبيلها وعرة فذللت الصحف مسالكها للجماهير ويسرت أسباب الطلب (فاذالتها) وغضت منها وصدت عن الجد والكد".

قال: "أتراك تؤمن بالتصعيب - كالأقدار؟".

قلت: "كلا، وما أراك إلا أحمق مما كنت أظن، إنما أؤمن بالجد الصارم فى هذا وبالسعى المصمم وإلا هانت على النفوس هذه المطالب وخف وزنها عندها وجنحت فيها إلى العبث، ومتى يسرت الأمور للمرء فقد عودته الكسل، وأخلق به بعد ذلك أن يؤثر الفراغ على مشقة التحصيل، وأى ثمرة طيبة ترجوها من وراء ذلك؟".

وكنا فى أثناء هذا الكلام نمشى على غير هدى، حتى صرنا إلى شارع "الملكة نازلى" وهو من بيتى قريب، فمشينا فيه، فأبصرنا شابًا وسيمًا عارى الرأس لامع الشعر أنيق الثياب، يصفر لفتاة فى شرفة عالية ليلفتها إليه، فلما انتبهت إلى وجوده دعاها إلى النزول، فلم نكد نبلغ الشاب حتى كانت الفتاة معه، فجعل ذراعه حولها ومضى بها وهى لاصقة به، وسارا يخطران فقلت لصاحبى: "وهذا هو الحب الجديد؟".

فقال بخبث: "أولا يعجبك حتى هذا؟".

قلت: "إنما عنيت يا لعين...".

قال: "دع الفلسفة، وقل لى: أيسوئك أن تكون مكان هذا الشاب؟".

قلت: "وما سؤالك هذا؟".

قال: "لقد سئمت أن أراك تغضى عن الجانب المشرق المعجب وتتلمس الجانب المظلم المعتم لتنغص على نفسك كأن فى هذا لذتك، كالذى حكوه عن شيللر من أنه كان يرتاح إلى رائحة التفاح العفن، على كل حال هذا شأنك، وأنت وما اخترت لنفسك، أما أنا فلى مزاج آخر ينكر هذا الانتكاس".

فقلت: "الانتكاس؟".

قال: "نعم وما أعد هذا إلا مسخًا، وقد يسوءك قولى ولكن لماذا لا ترى الأبيض أبيض؟".

قلت: "ومن أين علمك أنى لا أراه أبيض".

قال: "لا تجادل، كف عن هذا الأسلوب من التفكير واستشر طبيب عيون".

فقلت بمرارة: "أو طبيب مجانين؟".

قال جاداً: "لست أؤمن بهم وإلا لدفعت بك إليهم".

وكان فى لهجته من الجد الصادق ما جعل خوفى من أن يكون على حق أكبر من سخطى على ما انطوت عليه عبارته فسألته: "أتعتقد مخلصاً .... أنى....أنى..".

قال: "اسمع يا صاحبى، إنى لا أظن بك شيئًا، فإذا كان هذا يطمئنك فأطمئن، وليس يخفى علىّ ما فى نظرتك من الإخلاص والسداد أحيانًا، وإنى لأعرف أنك تحب أن تنفذ إلى ما وراء الظواهر، ولا أجهل شغفك بالتماس العلل الصحيحة، إلى آخر ذلك، ولست أزعمك موفقًا أو غير موفق، ولكنك تحاول والسلام وهذا حسبك، غير أنى لا أدرى لماذا تخلط حياتك كإنسان بحياة عقلك؟ إن هذا الخلط يسود عيشتك ففرق بينهما، وأجعل لعقلك حياته ولنفسك حياتها".

قلت: "أشكرك ولكن هلا دللتنى على وسيلة التفريق أو أداته؟ هل يستطيع الرجل المخلص لما يرى أن يحط رأيه على رف فى البيت، ويذهب فيحيى حياته بعيداً عنه آمنًا شره؟ ليت هذا يكون يا صاحبى! ومع ذلك وعلى الرغم من هذا الخلط الذى تعيبه وتستهجنه، لا أحس أنى أشقى أو أن عيشى أسوّد...".

فالتفت إلىّ وحدق فى وجهى وقال: "ماذا تعنى؟ هل تتكلم جاداً".

قلت: "جداً، وإنى لصادق، فهنئنى".

قال: "لست بفاهم".

قلت: "يا أحمق الحمقى من الذى قال لك إنى شقى لأنى لا أرى الدنيا مخلوقة على هواى أو سائرة وفق مرامى؟؟ ولماذا يكون التفكير فى أحوالها مدعاة للشقاء أو مجلبة للتنغيص أو مفسدة للمتع التى يستفيدها المرء فى حياته؟ كل ما فى الأمر أنى ألمح حالات يبدو لى أنها عوامل نقص أو غض أو تقتير، ولقد ألقيت علىّ سؤالاً حملته فى أول الأمر على غير محمله، فاسمح لى الآن أن أجيبك عنه، سألتنى هل يسوغنى أن أكون مكان ذلك الشاب؟ وشبيه بهذا أن تسألنى هل يسوغنى أن تكون لى خزانة غاصة من خزانات البنك الأهلى؟ كلا يا صاحبى لا يسوغنى أن تكون تلك الفتاة الصبيحة الوجه اللينة الأعطاف لصقى بل أدنى إلىّ من ذلك، ولكن هناك فرقًا بين اللذة الجنسية وبين لذة الحب، وهذا ما عبت حين قلت وأنا أشير إلى الفتى والفتاة إن هذا هو الحب الجديد، فهل فهمت؟".

قال: "كلا، إن رأسك كله تعاريج ومنعطفات ودروب وحارات وليس فيه طريق واحد مستقيم، وأصارحك أنى لا أحسدك عليه".

قلت: "دع لى رأسى فلن يضيره أو يجديك رأيك فيه، إن الذى أعنيه أن الروح الجديدة خالية من الشعور بالمقاومة وقد فتر الزجر - وهو عامل مقاومة، الزجر الذى يجئ من الدين، وضعف الزجر الذى يكون من العادات والتقاليد، زد على ذلك أن الجيل الجديد لا يربى على الضبط والكبح، فالمقاومة التى تجئ من جانب النفس معدومة أيضًا أو فى حكم المعدومة، والنتيجة أن الإحساس الجنسى يعيث بلا كابح، وفى التعبير بلفظ "يعيث" مبالغة ولا شك، ولكنك تغتفرها لى وتدرك المعنى الذى أقصد إليه - أريد أن أقول إن المقاومة - كائنًا ما كان مصدرها - وهى التى تقلب الإحساس الجنسى حبًا، ضعيفة، والحب، كما أظنك تعرف، هو ثمرة المقاومة، هل أضرب لك مثلاً! حسن، خذ الطيارة، إنها تطير لأن الهواء يقاوم دفع المحرك، ولو لم يكن هناك هواء - لو كان هناك

فراغ لما استطاعت الطيارة أن تتحرك فضلاً عن أن تطير، فالفضل فى الحب للمقاومة من ناحية الدين أو من ناحية العادات والتقاليد أو من ناحية النفس، كما أن الفضل للهواء فى تحليق الطيارة فى الجو، ولولا الشطئان، وهى سدود، وحواجز لانساح الماء ولم يعد هناك نهر أو بحيرة، أتريد أمثلة أخرى؟؟ يكفى هذا؟ حسن، وأشكرك فقد أرحتنى، ..وهذه العلاقات التى لا يصادف نشوءها مقاومة تفقد حتى القدرة على إفادة السلبية، ودع الحب فإنه لا سبيل إليه مع فرط التسهيل وانتفاء بواعث المقاومة، والشبان فى فورة الحياة يخدعهم العرض عن الجوهر، ولكن السآمة ستدركهم لا محالة، وسيحسون بالفراغ، وسيبدأون بأن يخلقوا أسباب المقاومة لعلها تفيدهم متع الحب المفتقدة، ولكن التكلف لا يغنى غناء الطبيعة، كما جرب ذلك "دى موسيه" و"ساند" وأنا أؤمن بقدرة الحياة على إصلاح ما يفسده الإنسان".

فضحك وقال: "الشبان يسأمون؟؟ والله ما أرى أحد أسئم غيرك؟ هل كنت تفكر فى مثل هذا وأنت شاب؟".

فأردت أن أجيبه ولكنه رفع كفه أمام فمى وقال:

"مهلا، وسأسألك عن شىء آخر، ولكن لا تجب.. فكر.. هل هذا الحب الذى تحدثنى عنه ضرورى؟؟ لماذا تقلب الباعث غاية، والأداة غرضًا؟؟ إن الحب فى مرد أمره ليس سوى وسيلة، فكل ما قلته فى خطبتك الطويلة فى هذا الشارع المزدحم ليس سوى فلسفة فطيرة على أنى لا أكتمك أنى سئمت كل هذا اللغط عن الحب كأنه يوازن كل ما فى الدنيا غيره بل يرجح عليه، فما من كتاب إلا وفيه عن هذا الحب كلام، وما من قصيدة إلا ومدارها هذا الوباء ويخيل إلىّ أن الناس متآمرون على أنفسهم فإنهم لا يكفون عن الإيحاء إليها بأن هناك لذة نادرة تستفاد إذا بذلوا جهدًا كافيًا – يوحون إلى أنفسهم هذا فيصيبهم ضرب من السبات المغناطيسى، ويخسرون كل ما فى الحياة...".

فسألته: "ولكن الجماعة ؟".

قال: "إن الجماعة تنظم نفسها دائمًا على صورة ما، فلا تخف عليها".

قلت: "إنى أريد أن أقول...".

فلم ينتظر، ومال إلى صيدلية فسمعته يقول لصاحبها - وكان روميًا هرمًا: "هل عندك دواء يثقل السمع ويصم الآذان؟".

فنهض الرجل متثاقلاً ويسراه مرفوعة إلى أذنه، فقال صاحبى كأنما سمع جوابًا لسؤاله:

"أو أسبرين؟".

ورمى إلىّ نظرة لها معناها.

طظ![٥٦]

لست متشائمًا، ولا أنا متفائل، أو أنا على الأقل لا أدرى كيف يكون المرء أحد هذين، فتصور أن أكونهما معا!؟! فقد لقيت "الدكتور يهودا" مرة، فكان مما ذهب إليه أن من نقائضى أنى أبدو متفائلاً من فرط التشاؤم، وكان يضحك وهو يقول ذلك، وكان بعض الجالسين يؤمنون على رأيه وينغضون رؤوسهم ويقولون: "صحيح، صحيح".

وكنت أنظر إليه وإليهم كالأبله، فما فهمت هذا الوصف، غير أنى رأيته مغتبطًا بتوفيقه فى حل العقدة فقلت له وأنا مغض حياءً:

"العفو يا دكتور، أستغفر الله! إنما هذا بعض ما عندكم".

وكان ظنى أن يسره شكرى له، ولكنه امتعض، فجعلت أضرب أخماسًا لأسداس – أم تراها أسداسًا لأخماس!؟ لا أدرى، على كل حال، لقد كنت أفعل ذلك فى سرى، فالخطأ غير ظاهر – وأقول "فضحت نفسك يا مازنى! مالك أنت ولهؤلاء الفلاسفة؟، أو ما كنت تستطيع أن تقول ضاحكًا "هئ هئ هئ! أما والله لقد كنت أجهل نفسى حتى لقيتك يا دكتور!" فيسر الرجل وتعلو بك عينه؟؟ وماذا كان عليك لو زدت فقلت إن وصفه لك غمر بالضوء شخصيتك الغامضة، كما ينسخ ظلام الليل نور المصباح الكشاف الذى أطمع أن أزين به سيارتى العتيقة التى دوختنى".

---

(٥٦) نشرت فى جريدة البلاغ، ١٣ مايو ١٩٣٤، (ص٣).

ولكنى غبى، كما تعلم، فضاق بى صدر الرجل، ولم أدر بعد ذلك كيف أفئ به إلى الرضى، فانصرفت عنه إلى زوجته وأقبلت عليها أحادثها فى الأدب والأدباء، والكلام فى هذا أسهل لأنه كلام، وما من لسان يأبى أن يجرى، وتركت الدكتور يهودا يتفلسف لمن يفهمون، ولما آن أن ينفض المجلس قال الدكتور يهودا وهو يصافحنا مسروراً - بفراقنا -:

"لقد ترى أن المجلس انقسم: أنت وزوجتى تتحدثان فى الأدب، والدكتور هيكل وأنا نتحدث فى الفلسفة".

فلولا زوجته لقلت: "بل كان الجهل فى ناحية والعلم فى ناحية"، ولكن هذا لم يكن يليق فاكتفيت بالقهقهة.

***

وهذه كلها مقدمة، ولم أفرغ منها، ولم أقل كل ما أريد أن أقوله فيها ولكن ماذا أصنع؟؟ إن الزوار لا ينقطعون، وكلما خرج واحد قمت وراءه لاستوثق من إيصاد الباب فيقول:

"العفو يا أستاذ... استرح بالله".

فأقول: "سأستريح يا سيدى، مع السلامة يا أخى!".

وأدفع الباب بعنف، وأدير المفتاح فى القفل، ولكنى لا أستريح، ولا أكاد أرتد إلى مكتبى حتى أسمع النقر، فاتصامم، فلا يجدينى هذا، فاضطر إلى القيام وفتح الباب والتأهيل والترحيب بالزائر الجديد، وأنا أقرض أسنانى من الغيظ، ويجلس فالتفت إليه وأقول بابتسام: "أفندم!"

فيقول وهو يفرك كفيه: "قد عزمت بأذن الله على السفر إلى الخارج".

فيقوم بنفسى أن أقول له: "وأنا مالى؟ أو "إلى حيث ألقت" ولكنى أكتفى بأن أقول:

"شيء لطيف! ومتى السفر إن شاء الله!".

فيضع رجلاً على رجل ويضطجع، ويشعل السيجارة التى قدمتها إليه ويقول:

"شف يا سيدى! المسألة هى...".

فأخشى أن يسرد علىّ تاريخ حياته مذ ولدته أمه إلى أن يموت قريبًا بإذن الله فأقاطعه وأقول: "على أى باخرة إن شاء الله".

فيقول: "هذه هى المسألة، لقد حرت بين شركات...".

فأرى أن هذا شر وأعود إلى مقاطعته فأقول: "لا تحير نفسك... أغمض عينك وأركب أول باخرة. كلها سواء.. السرعة حزم".

فلا يفهم ويقول: "لا. لا. المسألة غير ما تظن... المسألة هى...".

فأقول: "بالطبع! تمام! الحق معك".

فيقول: "ولكنى لم أخبرك بشىء؟".

فأقول: "ألا تثق بذكائى؟ لقد عرفت كل شىء حين رأيتك!".

فيدهشه هذا ويقول: "صحيح؟ وكيف ذلك؟".

فأقول: "ذكاء يا سيدى!".

فيضحك اللعين ويسألنى كمن يريد أن يختبر صدقى - أعنى ذكائى -: "ولكن ماذا عرفت؟".

فيطير عقلى وينفد صبرى وأقول: "عرفت أنك تريد تعطيلى عن الكتابة، فهل أخطأت؟".

ويخرج هذا ويجئ غيره فكأنى قهوة مفتوحة للجمهور، بل أنا خير من القهوة، لأن من يزورنى ويعطلنى يشرب القهوة ويدخن سيجارة أو اثنتين ولا يغرم ثمن ذلك، فهلموا عطلونى أيها الناس، ولا تخشوا أن يسودنى ذلك فما أحب العمل وليس أبغض إلىّ من كسب رزقى بعرق جبينى وإنى لأشتهى أن أكسبه بعرق جبين آخر، وأحدث نفسى كل ليلة وأنا أتهيأ للنوم بأن أفتح عينى فى الصباح على مليون ريال يهبنيها روكفلر أو روتشيلد أو مورجان.

***

والآن، وقد أوصيت الخادم - واستحلفته - أن يقول لمن يسأل عنى إنى مت وشبعت موتًا، وأن يتكلف الحزن ويتصنع الكآبة، ويبكى أيضًا ويلطم إذا احتاج الأمر، فإن فى وسعى أن أعود إلى ما استطردت عنه، لولا أنى أنسيت أكثره.

وقد بقى فى رأسى مما كنت أريد أن أقوله إنى لا أؤمن بالشهرة ولا بالخلود ولا بالمجد ولا أرى هذا كله إلا كلامًا فارغًا ولا أعده إلا ضحكًا على الذقون، وسبب ذلك - أعنى سبب أنى أريد أن أقول ذلك - إنى سمعت أديبًا يزعم أنه لا يبغى من إخراج كتبه ونشرها على الناس إلا الربح الأدبى.

فسألته عن الربح الأدبى ما هو، فقال إنه "التقدير" فقلت إنى رجل "حرفى" وإنى ضيق الذهن، ولعله يعنى ما يسمونه الشهرة، أو خلود الذكر.

قال: "نعم".

قلت: "ايه؟".

فأنكر منى هذه الصيحة، وكان لا بد من الاعتذار فقلت: "يا سيدى لك أن تطلب الشهرة وتنشد الخلود وتسعى للمجد، وتفعل ما شئت، فما أنا بوصى عليك، أما أنا فأطلب ثمن الكتب التى أنشرها، أو إن شئت فقل ثمن سواد وجهى بها، ولست أبالى الشهرة أو أعبأ شيئًا بهذا الخلود، لأنه وهم وأكذوبة، ومحال، وشىء لا يكون، وليس لى إلا حياة واحدة فى هذه الدنيا فهى همى يا صاحبى، ولى العذر، ومن الحماقة أن أشغل نفسى بأحلام الخلود وأن أصرفها بذلك عن الحياة التى أحياها".

فهم أن يجادل بالخلاف فقلت والله لأويسنه وقلت: "اسمع، كم مائة ألف مليون من الآدميين عاشوا فى هذه الدنيا، فوق هذه الأرض، وماتوا؟".

قال: "كثير".

قلت: "كثير فقط؟".

قال: "أعنى أن من المستحيل أن نعرف عددهم".

قلت: "وكم واحد بقيت أسماؤهم مذكورة من بين هؤلاء الآلاف المؤلفة من ملايين الآدميين الفانين؟".

قال: "قليلون جدًا".

قلت: "ويمكن أن نعدهم؟".

قال: "نعم".

قلت: "فما طمع مثلى أو مثلك أن ينجو بذكره من هذا الفناء الشامل الماحق؟ إنه إما أن يرقى المرء فى حياته إلى الذروة فيحشر فى المذكورين وإما أن يعجز فيطوى ذكره كما يطوى شخصه".

فابتسم وهو يقول: "ولكن لماذا لا نطمع فى إمكان التوصل إلى هذه الذروة؟".

قلت: "يا سيدى إنك ترى أن رجلى مهيضة، فسيرى بطىء، والعمر مهما طال قصير، ثم أن الحياة على جانبى الطريق تفتننى، فأميل عنه إليها طلبًا للتملى بها، والحق معى، فإن الأصل أنى خلقت لأحيا، ثم أن الذى لا يحيا لا يستطيع أن يصعد فى هذا الجبل، لأن المجد لا يكون إلا من طريق الحياة".

ثم سألته: "وعلى أنه ماذا يعنينى أنا إذا كتب لى الخلود بعد أن أموت وأدفن وأتحلل؟ وماذا يضيرنى حينئذ أن لا أكون خالدًا أو مشهورًا أو غير ذلك؟ إن ما لا ينال فى الحياة لا خير فيه بعدها، وإذا كنت فى شك فإنى مستعد أن أكتب لك صكًا أهبك فيه أو به كل خلودى ولا أستبقى لنفسى منه يومًا واحدًا، فما قولك؟".

فضحك – لا أدرى لماذا؟ – وقال: "وهل هذا معقول؟".

فقلت: "إذا كنت ترى أن من غير المعقول أن تسخو عليك نفسى بكل هذا الخلود، فخذ ألف سنة منه، ولأفرق الباقى على بغاته فإنهم كثر وأفضل الخير ما عم الناس".

فعاد إلى الضحك فغاظنى ذلك وقلت: "إذا كنت لا تصدق أن يجود مثلى بساعة من خلوده، فاحسبه بضاعة وأشتر منى بضع مئات من السنوات".

فأبى الخبيث أن يقع فى الفخ، وكنت أرجو أن أتغفله وأضحك عليه فأبيعه بعض ما ليس لى من الدهر بما يسد الخلة ويفرج الكرب ويعين على العيش فقلت ساخطًا:

"إذن ما هذا الخلود الذى لا يباع ولا يشترى، ولا يوهب، ولا ينتقل من يد إلى أخرى، ولا ينفع صاحبه؟؟".

فقال معترضًا: "يا أخى إن الخلود هو الخلود".

فصحت به: "طظ!".

فاقتنع.

البينة[٥٧]

.... والمنتظر أن تغص قاعة الجلسة بالحضور لطرافة موضوع القضية، وشهرة المدعى عليه، وعلو كعب الأساتذة المحامين الذين سيتولون الدفاع، وقد أعدت سكرتيرية المحكمة بطاقات للدخول، وضرب حول القاعة نطاق من الحبال الغليظة....".

ولم يستطع أن يمضى فى القراءة، فرمى الجريدة وهو ينفخ، ووثب إلى قدميه وراح يذرع فضاء الحجرة الوسيعة، بسرعة، ويقطع بضعة فراسخ فى جيئته وذهوبه، ويداه متشابكتان وراءه، وعينه إلى الأرض، وكانت ألوان السجادة ونقوشها، تشغله أحيانًا عما يدور فى نفسه، فيخطو على رسومها المختلفة بحساب، ولكن نفسه لم تهدأ، ولم يخف اضطرابه.

ولم يكن يخشى أن تقضى المحكمة للفتاة عليه، فقد طمأنه المحامون وأكدوا له أن الفتاة لا حق لها فى مليم واحد، فليس معها ورقة واحدة ولا عندها شاهد يعزز دعواها، وليس فى الدنيا محكمة تقضى لمدعٍ بلا بينة، وغير منكور أن الفتاة ظلت فى خدمته زمنًا مديدًا، وأنها تربت فى بيته حتى بلغت أشدها، وصحيح أنه عنى بأمرها وأحسن تأديبها، وعلمها وهذبها، وجرى معها على طبيعته السخية، ولكن هذا من العطف وكرم النفس ومروءة القلب، وما زعمت الفتاة أنه نال منها مأربًا، وإن كانت قد زعمت أنه كان يقبلها ويعانقها ويحيى بعض الليالى فى سمر حلو معها، وهو كلام لا يقبل على علاته.

---

(٥٧) نشرت فى جريدة البلاغ، ٢٧ مايو ١٩٣٤، (ص٣).

غير أن صاحبنا لم يكن يعبأ شيئًا بمنطق المحامين، أو يجعل باله إلى ما عسى أن تقضى به المحكمة، ولو قضت عليه بأضخم تعويض لما اكترث لذلك ولا بالاه، وإنما الذى كان يقيم قيامته هذه الفضيحة فى المحكمة وعلى صفحات الجرائد قبحها الله، فما يفوتها شىء، ولقد صارت تنشر الصور أيضًا ولا تقنع برواية الأخبار وإيراد الحوادث، وسيرى الناس جميعًا صورته وصورة الفتاة ويقرأون سيرته معها، ووصف علاقته بها، وكيف كان يرعاها ويسرها ويبرها، ويلبسها أرق الثياب وأغلاها، بل كيف يغازلها ويداعبها، فى حجرة المكتبة التى لم يكن يأذن لأحد فى الدخول عليه فيها غيرها، والبلاء، والمصيبة الدهياء أن هذا كله صحيح، وأن الفتاة لم تفتر عليه ولم تختلق، ولم تعد الحقيقة الحرفية فى كل ما قالت، فكيف يسعه أن ينكر ذلك؟؟ وماذا عسى أن يجديه دفاع ألف محام؟ وماذا عسى أن يدفعوا عن ضميره المعترف؟ وكيف يسعه أن يواجه الفتاة بأنه لم يحبها ولم يقبلها ولم يضمها إلى صدره، ولم يجلسها على ركبتيه، ولم يعبث بثدييها، ولم يجر كفه على جسمها الرخص ماسحًا متحسسًا، ولم يزل ليلة بعد ليلة، وشهرًا فى عقب شهر، وعامًا فى أثر عام، يعلمها الحب ويدعوها إليه ويوقظ جسمها وروحها حتى استجابت له، فأحبته، وشغفت به؟؟ وبعد ذلك يطرحها، ويلقيها كالعظمة للكلاب - كلاب البشر! ولماذا؟ لا لسبب سوى أنه شبع وروى، فمل وضجر! فالحق أن الفتاة معذورة! وإذا كان هذا انتقامها فإنه يستحقه، وأين ما صارت إليه من الهجر والإهمال والفاقة مما كانت موعودة به من الزواج ونعم الحب وحسن الحال؟؟ وستعجز عن إثبات شىء، ولكن الناس سيسمعون ويقرأون ويعرفون أنه نذل خسيس، وهذه الفضيحة تمنعه الآن أن يعود إليها، أو يعيدها إليه، إذا لم يمنعه الملل والسآمة.... فماذا يصنع؟؟

***

وكانت الفتاة - على نقيضه - مطمئنة واثقة، لا يخالجها شك فى أن المحكمة ستقضى لها بما تطلبه، وتنصفها من سيدها الذى هزئ بها ورماها، وظل يخادعها

زمنًا بعد إقصائها عن البيت، وكانت على الرغم مما تعلمت، ساذجة النفس، وكانت تؤمن بأن اقتناعها هى كاف لإقناع المحكمة، ولم يكن محاميها على رأيها، ولكن جمالها راعه، وسذاجتها وقعت من قلبه، ونكبتها حزت فى نفسه، وحيرته القضية، وأتعبه أن يحصل من الفتاة على أى دليل، حتى ثياب الحرير لم يبق عندها منها شيء، فقد باعتها جميعًا بيع الوكس لتأكل، وماذا يصنع بقصة قد تصلح لمجالس السمر، ولكنها لا تصلح ولا تنهض بمجردها فى ساحة القضاء؟! ولكن الفتاة مسكينة، ولها جمال، ولجمالها سحر، وقد ضربه هذا السحر، فلا معدى عن المضى فى القضية إلى نهايتها المقدورة.

وجاء يوم الجلسة، ودخلت الفتاة مع محاميها، ولم يستطع خصمها أن يتخلف، ولم يطق أن يلزم بيته، وأن يكل الأمر للمحامين، ولج به النزاع إلى سماع كل كلمة تقال، وكانت الجلسة حاشدة كما توقعت الصحف.

ثم وقف محامى الفتاة وقال بعد الديباجة المألوفة:

"وحسبى أن أقص الحكاية بلا مبالغة أو تزويق أو تهويل، فإن فيها وحدها الكفاية، وستسمعونها وتؤمنون بالصدق فيها، ولا تحتاجون بعدها إلى دليل، وليس معنى هذا أن الدليل ينقصنا، ولكن معناه أن القصة تحمل الدليل فى طياتها، وإنى لأشفق على هذا الرجل الذى كنت أجن له الإكبار وانطوى له على التبجيل، من الجهد الذى سيحتاج إليه الدفاع عنه حين يحاول أن ينقض أدلتنا... ولكن هذا شأنه، ولست مطالبًا بالعطف عليه وإنما أنا مطالب بنصرة الحق وإنصاف المظلوم... دخلت هذه الفتاة فى خدمته فى العاشرة من عمرها، وكانت يتيمة، لا أب لها ولا أم، فرعاها وتعهدها ببره، وعنى بتعليمها، ونشأها نشأة حسنة، ورفعها على الأيام عن منزلة الخدم، وصار يعلو بمقامها كلما علت بها السن، وكانت تنظر إليه نظرها إلى ولى أمرها وعائلها، ثم راحت تعده أبا لها، ولم تكن عينه عين الأب، بل عين البستانى الذى يتعهد زهرة جميلة ويرقب اليوم الذى تتفتح فيه، وكان يدعوها أن تقبله فتفعل - توقظه فى الصباح بقبلة بريئة... بريئة من ناحيتها، وتودعه ساعة النوم بقبلة... ثم بضمة... ولم يكن يخطر لها أن فى

هذا بأسًا، أو أنه لا ينبغى أن يكون، وكان إذا جلس وأقبلت عليه فتح لها ذراعيه وهش واهتز كيانه من السرور بها، ثم يجلسها على إحدى ركبتيه ويميل عليها باللثمات ويهمس فى أذنها بأعذب كلمات الحب والحنان، ويعبث بشعرها، ويلوى خصله الدجوجية على أصابعه المرتعشة.. وشبت الفتاة، ونهد لها ثديان، ونضج جسمها، فصار صاحبنا لا يكتفى بالقبلات والضمات، وامتدت يده إلى الثديين تمسحانهما وتجسانهما وتعبثان بالحلمتين...

فانفجر هنا المدعى عليه صائحًا: "ما هذا الكلام الوقح!".

فمضى الأستاذ فى كلامه وهو أتم ما يكون سكونًا:

"ليس بأوقح من الفعل الذى يصفه كلامى، وليس المهم أنه وقح أو غير وقح وإنما المهم أنه حقيقى لا كذب فيه ولا مبالغة... فهل يستطيع حضرته أن يرمينى بالكذب فيه، إنى منتظر رده!".

وسكت منتظرًا، ولكن المحامين ألجموا صاحبهم عن الكلام، وأشاروا إلى الأستاذ أن يمضى فى حديثه فقال:

"ولست أتخذ سكوته عن النفى دليلاً لى، فما بى حاجة إليه، وإذا كان يسوءه أن يسمع وصف ما كان يصنع، وكيف كان يغرى الفتاة بحبه، ويناجيها ويغازلها، فلست أرى ضيرًا من الإيجاز وتجاوز هذا الفصل ويكفى أن أقول إنه أطمعها فى زواجه، ولم يكن ثم ما يمنعه أن يتزوجها، فقد رباها واطمأن إلى حسن أدبها، ولم تكن له زوجة أو بنون، ولا كان يخشى أن يعترض عليه قريب أو صديق، ولكنه كان يطمعها ويعدها، ثم يسوف ويماطل، ... ثم جاء يوم دب فيه الملل، أو تطلعت عينه إلى سواها، فأشار عليها بأن تخرج من البيت، وأن تتخذ لها دارًا صغيرة تؤجرها باسمها ويؤدى هو لها نفقاتها وتكاليف تأثيثها، وفيها يزورها، وكان ما شاء، فما كانت المسكينة تملك خلافه، ولا كانت

تتوهم أن هذه بداية النهاية، وكان يذهب إليها بعد دخول الليل، فيمشى الهوينا على الإفريز ويناديها هكذا فإن صاحبنا عاشق غزل: "كوكو! كوكو!".

ولم يكن الأستاذ ينطق بها حروفًا، وإنما كان يرسله صوتًا يحاكى به الخصم فضحك الحاضرون، بل قهقهوا، وضرب القاضى بيده فقرت الضجة؛ فعاد الأستاذ يقول بسذاجة خالية من التفطن إلى ما فى تقليده هذا الصوت من فكاهة:

"إنى آسف يا سيدى إذا كان أدائى لهذا الصوت من السوء بحيث يحمل الحاضرين على الضحك، وسأحاول هذه المرة أن أؤديه على أدق من هذا النحو".

ورفع يمينه إلى جانب فمه وصاح: "كوكو... كوكو... كوكو..."

فكان الضحك فى هذه المرة أشد والصوت به أعلى، وقال الأستاذ لما عاد السكون:

"أظننى كنت هذه المرة أشد توفيقًا... وكانت الفتاة إذا سمعت هذا الصوت تسرع إلى الشرفة وتطل منها وتجيبه: "كى كى! كى.. كى...".

فانفجر الحاضرون يضحكون حتى القاضى نفسه لم يستطع أن يحتفظ بوقاره، وقال الأستاذ بعد هدوء العاصفة:

"قد أستطيع محاكاة الرجال، وتقليد أصواتهم، ولكن تقليد صوت الفتاة لا يدخل فى طوقى مع الأسف، ولى العذر إذا أخفقت، وكان إخفاقى سبب هذا المرح، فهل تسمح لى المحكمة أن أدعو الفتاة إلى تقليد نفسها وإسماعكم الصوت الذى كانت تجيبه به؟؟ أشكركم... تفضلى يا فتاتى...".

فنهضت الفتاة وهى تبتسم، وجعلت من راحتيها بوقًا وأرسلت الصوت مفردًا "كى كى... كى كى... كى كى...".

***

وكانت ضجة ما مثلها ضجة، وكان كل امرئ يضحك ويقهقه ويمسح الدموع من عينيه، إلا الأستاذ الذى لم يدرك ما فى الموقف من بواعث السرور ودواعى الضحك، ولو كان الخصم باقيًا فى ساحة المحكمة لكان ثانى اثنين لا يضحكان مما يضحك، ولكنه كان قد خرج حين دعيت الفتاة، لأنه عجز عن المكابرة، وتصور هول الفضيحة حين يمضى الناس يصيحون فى الطرق "كوكو... كوكو..." فتجاوبهم الفتيات مازحات "كى كى.. كى كى.." وتنشر الصحف هذا الذى جرى فى المحكمة، فيصبح غرضًا للسخرية والاستهزاء، ولا تبقى له فى البلاد كرامة، ولا يلقاه إنسان إلا ابتسم وصاح "كوكو".

واستأنف الأستاذ كلامه، فأخبر المحكمة أن الخصم كان يفرض على الفتاة أن لا يكون معها فى هذا البيت الذى أفرده لها، إلى حين، أحد، لا خادم ولا خادمة، وأنه جعل بعد ذلك يزورها غبًا، ويباعد بين أوقات الزيارة، فثقلت الوحدة على الفتاة، ورأت فى ذلك انصرافًا عنها، وأوجست خيفة ولم تعد تطمئن إلى وعود الزواج، فألحت عليه أن يفى فتكلف الغضب، وأظهر السخط والنفور وخرج إلى غير أوبة، وامتنع عن أداء النفقة المعتادة...".

وهنا جذبه محامى الخصم وأسر إليه أن لا داعى للاستمرار لأن الرجل مستعد أن يجيب الفتاة إلى ما تطلب، فأبلغ الأستاذ المحكمة ذلك ورجا منها أن ترفع الجلسة حتى ينظر فى الصلح المعروض.

***

وهكذا خرجت الفتاة بألفى جنيه، عداً ونقداً، وإن لم تكن ثم بينه سوى هذا الصوت المضحك الذى أطلقه محاميها فى المحكمة، بل خرجت بخير من المال، وظن أن القارئ لا ينقصه أن يعلم أن محاميها صار زوجها.... وحسنا صنع.

نصيحة(٥٨)

أنا – ولا فخر – أقدر الناس على إسداء المشورة السديدة، وأخيبهم مع ذلك وأضلهم رأيًا لنفسه، فما قصدنى حائر إلا هديته إلى الخير ودللته عليه، وما التمست لنفسى ذلك إلا اخترت أوعر السبل وأفشلها، والبلاء أنى أضل وأنا مدرك لذلك، غير غافل عما يتوقع، فكأنى مسوق أو مسلط على نفسى حتى ما أملك لها إلا الضر.

على أن هذا استطراد إلى ما لا يعنى الناس منه شىء، وكل ما أردت أن أقوله – متحسرًا – هو إنى كريم أبذل النصح ولا أقبض له ثمنًا، ولا أدرى ما الفرق بين استشارة طبيب – قد يخطئ فيقتل – واستشارة عاقل حكيم مجرب خبير بالحياة والدنيا مثلى إذا غلط فيما يشير به فلا خوف من أن يحدث أكثر من خراب بيت أو بيتين؟؟ وهل الطبيب الذى يقول لمريضه "اجتنب الأطعمة الثقيلة، وأكثر من المشى فى الهواء الطلق" ويكتب له ورقة بخط كآثار الدجاج أو القطط لا يحل طلاسمه أحد، حتى ولا الصيدلى – أولى بالتجزية منى على ما فعلت منذ بضعة أيام؟؟ وحكاية ذلك أنى كنت جالسًا إلى مكتبى فدعيت إلى التليفون فقلت – كما ينبغى –: "اللو... اللو".

فسمعت صوتًا ناعمًا ليس من أصوات أهلى، يسألنى: "أنت فلان؟".

فقلت لنفسى: "يا صباح الخير، هذا والله يوم مبارك، فعلى أى وجه يا ترى أصبحت؟؟".

---

(٥٨) نشرت فى جريدة البلاغ، ٦ أكتوبر ١٩٣٤، (ص٣).

وخفت أن يطول تفكيرى فإن الوجوه عندى كثيرة، والشك فى حسن صباحها غير قليل، فأسرعت أقول: "نعم هو بعينه وبطوله وعرضه، أعنى بعينيه ونظارته وقصره و...".

فقال الصوت الحلو: "صحيح أنت فلان؟".

قلت: "أى والله العظيم..."

فقالت الملائكة فى التليفون: "لا يا شيخ!".

قلت: "هل تريدين أن تخربى بيتى!".

فقالت صاحبة القلب العطوف: "أخرب بيتك؟ ليه بعد الشر".

قلت: "دعوتنى شيخًا، فإذا سمعتك زوجتى...".

ولما كفت عن الضحك مضيت فى كلامى فقلت: "وأنا كما ترينني بعيني رأسك، شاب، فباسم صباى النضير، احتج..."

فقاطعتنى بصوت غير ملائكى: "اسمع!".

فلم يخالجنى شك فى أنى أصبحت على وجه الخادمة العجوز وقلت: "أفندم!".

قالت: "صحيح أنت...؟".

قلت: "طولك الله يا روح! يا ستى ألا ترين أنى هو؟ ثم إنى حلفت!".

قالت، وقد عادت الرقة إلى صوتها فأيقنت أنى لم أر الخادمة منذ يومين: "طيب اسمع؟".

فقلت: "ألست ترين أنى هنا اليوم لأسمع؟".

فضحكت وقالت: "ولكنى أعطلك وأضيع وقتك".

فصحت بها: "تعطلينى؟ يا خبر أسود!".

وأقسمت - فى سرى - لأطردن هذه الخادمة المشئومة.

فقالت برقة: "طيب اسمع"

فعفوت عنها - أعنى عن الخادمة - وقلت: "نعم يا... يا ستى!".

قالت: "قرأت اليوم قصة لك فى.. فهل ما رويته فيها صحيح؟".

فسألتها: "هل تعرفين زوجتى؟".

قالت: "لم تسأل!".

قلت: "أخشى أن تكونى مدسوسة علىّ، فاهمة؟ على كل حال، الاحتياط أولى، كلا! كل ما قرأته فى القصة كذب فى كذب!".

فقهقهت ثم قالت: "أظن زوجتك لا تسأم الحياة معك أبداً".

قلت: "أشكرك بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عنها - أعنى زوجتى - وأرجو أن تبعدى عن هذا الموضوع.. الجو جميل فى هذا الصباح...".

فقاطعتنى: "ولكن لماذا لا تريد الكلام عن زوجتك؟ ألا تحبها؟".

فصح عزمى على قتل الخادمة اللعينة وقلت: "أحبها؟ أنا أعبدها! فى يقظتى ومنامى، فى سرى وجهرى فى...".

ولم يسعفنى محفوظى من اللغة، وأبت الخبيثة أن تقاطعنى فى هذا الموضع، ولم يجدنى التوقف عن الكلام فقلت: "اللو... اللو... أنت هنا؟".

قالت: "نعم.. إنى مصغية".

قلت: "ظننت أنك... لست هنا".

قالت: "تفضل...".

قلت: "ماذا؟".

قالت: "أتمم كلامك".

قلت "تم وانتهى بحمد الله فى آخر ذى الحجة سنة...".

قالت: "كنت تقول...".

قلت – مقاطعًا: "لا لا لا..لم أكن أقول شيئًا.. أعنى كنت أقول إنى أريد أن أسألك ما هى الحكاية؟".

قالت: "أى حكاية؟".

قلت: "هذه الحكاية!".

قالت مستفهمة: "هذه الحكاية؟".

قلت: "هل أنت ببغاء؟ ماذا تريدين منى؟؟".

قالت: "لا شىء!".

قلت: "طبيعى... مفهوم...".

وتنحنحت، فقلت استحثها: "نعم، إنى هنا".

قالت: "إذا سألتك سؤالاً... فهل تجيبى بصراحة؟".

قلت: "هاتى ما عندك".

قالت: "ما رأيك فى الحياة الزوجية؟".

قلت بلا تردد بصوت قوى: "بديعة، شىء جميل جداً".

قالت: "لا لا لا".

قلت: "لا لا لا يعنى ماذا؟".

قالت: "قل بصراحة".

قلت: "احلفى أنك لا تعرفين زوجتى ولا تنوين أن تعرفيها".

فضحكت وقالت: "سؤال آخر".

فسألتها: "ألا يحسن أن أعرف كم سؤالاً ستلقين علىّ فى هذا الامتحان؟؟ ليطمئن قلبى فقط".

قالت بأعذب صوت: "من فضلك!".

قلت: "خادمك السميع المطيع... هاتى يا ستى... أمرى لله!".

قالت: "هل أنت متزوج؟"

قلت: "رجعنا؟؟ نعم يا ستى، أربعة، أعنى أربعة أولاد، لا لا، أعنى أن لى أربعة أولاد".

فسمعت ضحكًا مكتومًا ثم قالت: "وما رأيك فى الملل الذى يدب...".

فسألتها: "الملل؟".

قالت: "نعم... الملل الذى تورثه الحياة الزوجية؟".

فصحت: "من قال إن الحياة الزوجية تورث مللاً؟؟ هذا تشنيع! هذا لا يليق... هذا...".

فقالت: "تكلم جاداً".

قلت: "وهل أنا أهزل؟".

قالت: "قلبى يحدثنى أنك تمزح".

قلت: "قلبك؟ هممم.. إذا كانت المسألة حكاية عن القلب، فلسنا نستطيع تكذيبه".

قالت: "لماذا هذا الحذر فى كلامك؟".

قلت: "ولماذا تريدين أن تخربى بيتى؟".

فلم تجب عن هذا وقالت: "إنى أريد أن أستشيرك".

قلت: "ضرورى!".

قالت: "بس اسمع".

قلت: "اعذرينى فإنى أسمع بأذن واحدة".

قالت: "مسكين! وأذنك الثانية؟".

قلت وأنا مغيظ: "يا بلهاء إن التليفون له سماعة واحدة توضع على أذن واحدة فأنا أسمع بأذن واحدة!".

قالت: "آه، صحيح، معذرة!".

قلت: "آه صحيح! شىء غريب!".

قالت: "لا بأس، الله يسامحك! نهايته، أريد أن أنتحر!".

فصحت: "يا حفيظ! اللهم حوالينا لا علينا! تنتحرين؟".

قالت: "نعم، مصممة على ذلك! لا فائدة! لا تحاول أن تقنعنى!".

قلت: "حسن، إذن أعطنى البيانات الضرورية... اسمك وعنوانك وسبب الانتحار... وهل أنت متزوجة أو... أو... وعمرك.. لا. لا داعى لهذا.. يكفى أن تبعثى إلىّ بصورتك قبيل الانتحار".

فسألت: "لماذا تريد هذا كله؟".

قلت: "الجواب سهل.. لنشر هذا الخبر فى البلاغ".

فصاحت بى وقد انزعجت: "لا لا لا.. احذر أن تنشر شيئًا".

فصحت بها كما صاحت :"إذن لماذا بالله تخبريننى؟".

قالت: "لأستشيرك".

قلت: "آه! فهمت! حسن.. توجد مائة طريقة وطريقة للانتحار... أسهلها وأقلها ألما أن تقطعى شريانًا... أليس لزوجك لحية يحلقها؟".

قالت: "أوه! اسمع يا أخى.. إنى لا أسألك عن هذا".

فسألتها: "عن أى شىء إذن تسألين؟ ألست تريدين أن تنتحرى؟"

قالت: "لا.. ولكنى أطلب رأيك".

قلت: "مفهوم.. يعنى".

قالت: "يعنى أن بينى وبين زوجى خلافًا منذ ثلاثة أيام، وقد خاصمنى فهو لا يكلمنى.. يأكل ولا يكترث لى.. ولا يبالى هل أكلت أو لم آكل.. شىء يجن..".

قلت: "لا شك.. ولكن لماذا لا تأكلين أنت أيضًا ولا تسألين عنه؟".

قالت: "كيف أستطيع، وهو لا يكلمنى ولا ينظر إلىّ، كأنى غير موجودة فى البيت؟".

قلت: "آه! ولهذا تكلمينى أنا فى التليفون...! مفهوم... إذن اصنعى كما يصنع... كلى ولا تنظرى إليه ولا تكلميه ولا تفرضى أنه موجود فى البيت.. ولا تغسلى ثيابه ولا تعنى بكيها وتعليقها وإعدادها له على رفوفها أو مشاجبها، وابتسمى دائمًا، وغنى أيضًا، وإذا ثقل عليك هذا الحال وشق الأمر وشعرت بأن صدرك سيضيق فقفى أمام المرآة وانظرى إلى صورتك الجميلة فيها، وابتسمى فيبتسم لك خيالك، ثم اضحكى، واضحكى، وأنا أراهنك على أنك لن تستطيعى أن تكفى عن الضحك... والبسى أبرع ثيابك وأفتنها وأقدرها على إبراز محاسنك... وهذا إذا كانت لك محاسن، وإلا فلا تفعلى شيئًا من هذا، واكتفى بالتقطيب والتجهم والبكاء...".

فقالت: "صحيح؟ هل هذه فائدة مجربة؟".

قلت: "أيهما؟ فإنهما اثنتان".

قالت: "اثنتان؟؟".

قلت: "إنهما، أنت أولاً جميلة أو دميمة؟"

قالت: "أنا عارفة؟".

قلت: "بالطبع جميلة... هذا الصوت الحلو الرخيم لا...".

قالت: "على مهلك".

قلت: "أقصرنا يا ستى!".

قالت: "والانتحار؟".

قلت: "يا عبيطة، ليس لك إلا حياة واحدة فى هذه الدنيا فاحرصى عليها وأشيعى السرور فيها".

قالت: "يخيل إليّ أنك لا تعرف الملل ولا الحزن ولا...".

قلت: "نعم صدقت، ولكن شيئًا واحدًا هو الذي يحزنني ويؤلمني ويسود نور الضحى في عيني".

قالت: "ما هو؟".

قلت: "إن التليفون الذي يرى فيه كل متكلم صورة من يخاطبه لا يزال اخترعا...".

فضحكت وقالت: "صحيح".

قلت: "أليس عندك غير "صحيح!"، طبعًا صحيح ثم أنه من حقي أن أعرف...[٥٩]

***

(٥٩) ذكرت الصحيفة أن البقية على الصفحة الحادية عشر، ولكن هذه الصفحة مفقودة مع الأسف ومن بقية الحوار (المحرر).

كيف كنت حلاقًا؟[٦٠]

هل وجهى وجه حلاق ؟؟

هذا ما ظللت أسأل المرآة عنه بعد أن وقع لى ما سأقصه اليوم، والمرآة لا تجيب، وإن كنت لا أضن عليها بالإلحاح وطول التحديق، أو لعلها أجابت وأبيت أنا أن أسمع أو أصدق، وقد كففت عن مشاورة المرايا وأسلمت أمرى إلى الله، وأمر وجهى إلى حسن أدب الذين يرونه.

وصحيح أنى كنت - ومازلت أحيانًا - أحلق ذقنى بيدى، لأنى كنت فى عنفوان الاضطرام السياسى أخاف أن يوقعنى سوء الحظ فى يد حلاق سياسى لا يشايعنى على رأيى، فيذبحنى ويروح يدعى أن قتلى كان خطأ لا عن عمد وسبق إصرار، ولكنى بلوت من متاعب الحلاقة ما زهدنى فيها، فرددت نفسى على مكروهها ولم أعد أبالى ما عسى أن يصنع برقبتى الحلاقون السياسيون، ولَلذبح أهون من تهمة الجنون، أى نعم، فقد شرعت مرة أحلق ذقنى، ولكن حد الموس كان كليلاً جداً، فجعلت أحك به وأكحت حتى صار وجهى - أو خدى - الأصفر كالطماطم الناضج، ولم أعد أحتمل هذا الألم، وفرغ ما فى صدرى من الهواء من طول النفخ ومن كثرة قول "أووففففف!" فطويت الموسى، وقلت إن هذا سلخ لا حلاقة، ولست بشاةٍ، ثم إنى ما زلت حيًا، ولم أصنع قبيحًا أستحق عليه أن أسلخ وجهى بيدى.

---

(٦٠) نشرت فى مجلة "الرسالة"، ٥ نوفمبر ١٩٣٤، (ص١٨١٢-١٨١٤).

وارتديت ثيابى ووضعت منديلاً على جانب وجهى الذى سلخته وخرجت ألتمس دكان حلاق - أقرب دكان - وسرت على بركة الله، وفى أملى أن يظن من يرانى أن أضراسى تَوْجَعُنيِ، واهتديت إلى دكان على كثب من البيت، ولكن الحلاق كان مشغولاً، فقعدت أنتظر، وكفى على المنديل فوق خدى، وفرغ الحلاق فدعانى فأسرعت إلى الكرسى، ورفعت المنديل عن وجهى، وجاء بالفوطة[٦١] ولف طرفها على عنقى ثم ارتد بغتة ووقف يتأملنى وقد قطب وذوى ما بين عينيه، فقلت:

"ماذا؟؟ قل ولا تخف!".

قال وهو يهز رأسه: "كلا، لا شىء!".

قلت ملحاً: "بل تكلم.. فإنى مستعد للإصغاء..".

فتكلف الابتسام - أعنى أنه ابتسم بشفتيه دون عينيه - وراح يجمع أدوات الحلاقة ويعدها ويرصها، وكان فى أثناء ذلك يخالسنى النظر، فلم يبق عندى ريب فى أن الشك خالجه فى صحة عقلى، وما أحسبه رأى قبلى رجلاً يدخل عليه ونصف وجهه محلوق والنصف الآخر يطلب الموسى، وكأنما حار، ماذا يصنع بالنصف الحليق؟ أيجرى عليه الموسى؟ أم يدعه ويُعنى بالنصف الثانى؟ فقد وضع عليه حد الموس ثم رفعه ووقف متردداً فقلت لأستحثه:

"تفضل. تفضل... إن هذا أيضاً يحتاج إلى الموسى".

فألقى إلىّ نظرة سريعة، وأكب على العمل بلا كلام، والحلاقون كما يعرف القراء، ثرثارون، ولكن منظر وجهى كان له وقع عميق فى نفس هذا الرجل، فنشف ريقه، وعصب

---

(٦١) الفوطة عربية فصيحة وجمعها فوط (المازنى).

لسانه، وانقطع أيضاً، ولم يسؤنى هذا، ولكنى فزعت إذ رأيت يده ترعش، فجعلت أدعو الله فى سرى أن يلطف بى ويرأف بعيالى، ويرحم شبابى.

واستجاب الله دعائى لأول مرة.. ولآخر مرة فيما أذكر.. وعلى أنه من يدرى؟ لعل الرحمة كانت أن يذبحنى الحلاق - عفواً أو عمداً - فما تكون للمذبوح عناية بهذه الفروق.

***

واتفق يوماً أنى نزلت فندقاً، وكان فيه غيرى كثيرون كما لا حاجة بى أن أقول، وبينهم أجنبى هرم له بنت جميلة، وكان هذا الشيخ أحمق حاد الطبع، وبنته على خلافه لينة العريكة سلسة الطباع، ولو أنها كانت حمقاء مثله لشفع لها جمالها، فكيف وهى تجمع إلى حسن الوجه دماثة الخلق ورقة الحاشية؟ وعرفتها لأنى اصطدمت بها فأوسعتها اعتذراً فلم يضق بى عفوها، وصرنا بعد ذلك كلما التقينا نتبادل التحية - بالرأس - وكنت ألقاها فى اليوم الواحد خمسين مرة، فلا أدرى أينا الذى كان يتعقب صاحبه؟ وفى المرة التاسعة والأربعين من اليوم الأول استطعت أن أفتح فمى وأحرك شفتى فقالت مستفسرة: "نعم؟".

قلت: "لا شىء، أعنى أنى أردت أن أقول نهارك سعيد".

قالت: "آه! صحيح! نهارك سعيد!".

قلت: "إ... إ... الجو اليوم جميل..".

قالت وهى تضحك بلا داع: "إ... نعم.. جـ.. جميل...".

قلت: "لا خوف من المطر"، وعضضت لسانى.

قالت - وكفت عن الضحك -: "مطر؟ فى أغسطس؟ فى الإسكندرية؟".

فاضطربت وقلت: "إ... أعنى... أعنى أن الجو جميل".

فابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت: "لقد قلت هذا من قبل...".

فحقدت عليها - فى سرى - وقلت: "صحيح! لقد نسيت! فيا للغباوة! لقد كنت أظنها جملة مبتكرة!".

ولو كنا بقينا خمس دقائق بعد ذلك لحلت عقدة لسانى، فقد عاودتنى الثقة بنفسى، وأيقنت أن العقدة ستحل بعد أن نطقت بآخر كلمة، ولكن أباها - لعنة الله عليه - أبى إلا أن يقبل فى هذه اللحظة، وكان وجهها إليه، وظهرى له، فرأته قبلى وقالت:

"هذا أبى"، وأشارت إليه.

فدرت على عقبى بسرعة، ولم أكد أبصر وجهه حتى استولى علىّ الرعب، فهربت بلا كلام ولا استئذان، ولم يكن ثم باب آخر فى هذه الناحية أخرج منه، ولم أجد أمامى غير "صالون الحلاقة"، فدخلته وكان - كما شاء الحظ - خاليًا، وشعرت أن بى حاجة إلى منعش بعد الذى أصابنى من منظر هذا الشيخ الشرس، فتناولت قطرات من "الكولونيا" وشممتها ومسحت بها وجهى، وإذا بالرجل يصيح بى:

"ماذا تعنى بهذا التلكؤ؟ لقد بعثت إليك منذ نصف ساعة لتوافينى فى غرفتى وتحلق لى ذقنى! عَجل يا بليد!".

وكان من الواجب أن أذهل، أو أبهت، أو أحتج، ولكن كرهى له أيقظ حواسى جميعًا، فقلت هذه فرصة سنحت للانتقام منه، وأسرعت فقلت:

"حالاً.. حالاً.. كم رقم الغرفة من فضلك؟".

قال: "١٥ ...".

ومضى عنى، فجمعت أدوات الحلاقة ووضعتها فى حقيبة صغيرة رأيتها هناك فى ركن، وخرجت، فإذا بالفتاة تدنو منى وتقول: "ماذا تنوى أن تصنع؟".

فقلت: "أحلق ذقن أبيك".

قالت: "حاذر... هذه مجازفة".

قلت: "أعرف ذلك وأشكرك، ولكن ألا تثقين بى؟".

قالت: "إنك لا تعرف أبى".

قلت: "ثقى أنك أنت أيضًا لن تعودى تعرفينه!".

قالت: "دع المزاح... لم أكن أظن أنك طائش إلى هذا الحد".

قلت: "تعالى... وانظرى".

وتركتها وقصدت إلى السلم، وهى ورائى.

***

ولم تكن الفتاة مبالغة حين حذرتنى وأنذرتنى، فإن أباها شىء فظيع، وقد أسمعنى فى خمس دقائق من ألفاظ التعنيف والشتم والقذف والطعن والقدح ما لم أكن أظن أنه يوجد فى لغات العالم مجتمعة بل له فى لغتنا العامية التى يعرف أقلها ويجهل أكثرها، ولكنى أيضًا لم أكن مبالغًا حين أكدت للفتاة أنها لن تعرف أباها بعد أن أفرغ من حلاقة ذقنه، فقد أرقت نصف رطل على الأقل من دمه الثقيل، ولم أكد أضع الموسى على خده حتى صرخ وصاح بى:

"أنت جزار... لا حلاق".

فقلت: "عفوًا سيدى، إن حد الموسى لم يلمس جلدك".

قال: "لم يلمس جلدى! تقول لم يلمس جلدى يا أعمى! لقد قطع لحمى!".

فطمأنته، فنهرنى، وزجرنى عن الكلام، فأجريت الموسى، وخرجت بقطعة ثانية من لحمه القديم، وماذا أصنع إذا كان جلد وجهه عميق الأخاديد؟ أهذا ذنبى أو ذنبه؟ وقلت له:

"يحسن بك يا سيدى أن تجئ فى كل صباح بأربع بيضات أو خمس فتكسرها وتصبها فى وعاء وتمزجها بمسحوق الثلج يعنى بودرة الثلج - وتعجن هذا بذلك، وتدهن به وجهك، وتظل نصف ساعة لا تفتح فمك بكلام ما، ثم تغسل وجهك، فإذا واظبت على ذلك شهراً كاملاً عادت إلى وجهك نعومته بإذن الله.

فصاح بى: "اخرس، أقول لك اخرس".

فقلت: "طيب خرست"، وواصلت انتقامى، وكنت قد بلغت عنقه، فجعلت أنظر إلى الفتاة نظرة لا تخفى دلالتها، نظرة طيها الحقد والتصميم على القتل عمداً ومع سبق الإصرار، ورفعت يدى بالموسى نحو ذراع، وهممت أن أهوى بها على رقبته، وإذا بالفتاة تصرخ، فارتددت مذهولاً، ووثب هو عن الكرسى وذهب يعدو إليها، وسألها، "مالك؟".

فلم تجبه، وجعلت تشير إلىّ وتهيب بى أن "اخرج، اخرج...".

فهززت رأسى آسفاً، فقد ذهبت الفرصة إلى حيث لا يمكن أن تعود، فسألها هو:

"يخرج؟ يخرج كيف؟ ويدعنى هكذا" وأشار إلى جلده الآخر الذى لم يحلق،

فقالت: "إنه ليس بحلاق!".

قال: "إنه؟ ليس بحلاق!".

ودار فالتفت إلىّ، فرآنى أضحك، فطار عقله، وتحرك يريد أن يهجم علىّ، فتذكرت ما يفعل الذين يقاتلون الثيران فى أسبانيا، فخطفت الفوطة وألقيتها على وجهه، وفررت.

***

وقالت لى الفتاة بعد ذلك: "لم أكن أعلم أنك شرير".

قلت: "شرير؟؟".

قالت: "نعم.. كدت تقتله وتقتل نفسك".

قلت: "أينا كنت تبكين عليه؟".

قالت: "لا تكن خبيثًا.. إنه أبى".

قلت: "لا أصدق...".

قالت: "من فضلك... لا تذكره بسوء أمامى".

قلت: "اعترفى إذًا أنه...".

قالت: "لو كنت أعتقد أنك ستقتصر على جرح أو جرحين...".

قلت: "وهل كنت تتوهمين أنى يمكن أن أذبحه؟".

قالت: "لقد خفت والله...".

قلت: "يا بلهاء.. لأجل عين تكرم ألف...".

وصرنا صديقين، ولكن أباها لا يرانى - إلى اليوم - إلا ارتد راجعًا، وحسنًا يفعل...

بين عاطفتين(٦٢)

كانت الثورة المصرية فى عنفوانها والمواصلات مقطوعة، ولا علم لمن فى بلد بما يجرى فى بلد غيره، والمظاهرات لا تفتر، والأقدام تحفى ولا ترتاح، والأصوات تبح ولا تسكن، والطرق زاخرة مائجة بمن لا يدرون من أين يجيئون وإلى أين هم ذاهبون، وقد زالت الفوارق وارتفعت الحواجز، فكل لكل أخ ونصير، ومحيت تقاليد المجتمع، فلا حجاب على المرأة، ولا حرج من خطاب من لا تعرف أو طلب النجدة منه، ولا باب يوصد فى وجه لاجئ، وكل بيت صالح لأن يعقد فيه من يشاءون اجتماعهم، ولو كانوا غرباء لا يعرفهم صاحبه ولا يعرفونه، ولا خوف من وشاية أو خيانة ولا إحجام من رجل أو امرأة عن ركوب الأخطار والتعرض للمهالك، ولا حذر ولا تقية ولا سوء ظن، ولا نوم إلا غراراً، ولا عناية بطعام أو راحة، ولا صبوة إلى حبيب، ولا بال يجعله إنسان إلى منظر حسن، أو متعة من متع الغرور، ولا حديث إلا الثورة وأخبارها، ومن قتلوا فيها أو نكبوا بها، وماذا كان من أمر المعتقلين، وماذا جرى للمتظاهرين، وماذا ينتظر أن يفعله الشعب، وأى الأحياء حاصرها الجنود الإنجليز، ومتى تشيع جنازة هذا الشهيد أو ذاك، وهل ينوى السيدات أن يخرجن مرة أخرى مترجلات أم يطفن بالسيارات.

ثم كان يوم المظاهرة الكبرى التى اشتركت فيها طبقات الأمة قاطبة، وسار فيها رجال القضاء بأوشحتهم المختلفة والمحامون بأرديتهم والأطباء والمعلمون والموظفون والصحفيون والصناع والطلبة والتجار، والحوذية والعاطلون والنشالون واللصوص،

---

(٦٢) نشرت فى جريدة البلاغ، ١٠ نوفمبر ١٩٣٤، (ص٣).

وكان هؤلاء – أعنى النشالين – قد أذاعوا فى الصحف بلاغًا طمأنوا فيه الناس على ما عسى أن يكون معهم من مال، وناشدوا زملاءهم اللصوص أن يضربوا فى يومهم هذا عن التسلل إلى البيوت أو المخازن، والسطو عليها والسرقة منها، فكانت لهذا ضجة دهشة، ولغط به الناس، واحتشد الخلق فى ميادين المحطة، ثم سار الموكب جماعات جماعات، فبلغ أول عابدين، وما زالت القاهرة فى المحطة، ومن عجز عن المشاركة فى السير، لمرض أو شيخوخة أو ضعف، وقف ينظر، أو يطل من نافذة، فلو أن واحدًا جاب القاهرة فى ذلك اليوم لما بصر فى أحيائها برجل أو طفل أو امرأة، إلا على طريق المظاهرة.

وكان بعض الجنود الإنجليز ينظرون من وراء سور الحديقة – حديقة الأزبكية – وإذا بطلقتين تخرجان من وراء السور وتصبيان اثنين من المتظاهرين، فخرا صريعين، ومضى الموكب فى طريقه يتخطاهما، وقد صارت الأعصاب كالأوتار المشدودة وتصلبت العضلات، وصار الخطو دبًا آليًا، والأجسام كأنها تماثيل تتحرك، والصدور كأنها براكين جياشة تريد أن تنفجر.

وبلغنا ميدان عابدين، فانتشر فيه الناس وغص بهم وضاق، فلو ألقيت فوقهم إبرة لما وجدت منفذًا إلى الأرض من فرط التلاصق، وكان الخلق كالموج يقبل ويرتد ويتدفق إلى أبواب القصر فتصده جدرانه وأسواره، والعرق يتصبب من الحر والزحام ولا تملك الأيدى مع ذلك أن ترتفع لمسحه، وجئ بجثتى الشهيدين فشق لهما طريق إلى باب القصر.

ثم أخذ الحشد يتفرق وينفض، فسالت الجماعات فى كل طريق، وكانت فتاة إنجليزية فى نحو العشرين من عمرها سائرة فى بعض الطريق، وهى غافلة عما كان، فلم يرعها الأصوات كالرعد المجلجل يهتف باسم مصر واستقلالها، فتلفتت فإذا موجة من المتظاهرين مقبلة من ورائها، ولم يفت عينتها ما على الوجوه من دلائل الكمد المكظوم، ففزعت، فقد كان عهدها بالمتظاهرين أن وجوههم مشرقة الديباجة لا تشى

بغضب أو غيظ، على الرغم من حرارة الشعور وقوة الهتاف، وكانت إذا مرت بها مظاهرة، تقف مطمئنة وتنتظر باسمة، أما هؤلاء فإن فى نبرات أصواتهم وعلى معارف وجوههم حنقًا شديدًا ونقمة بادية، ولم يكن ثم لها مهرب وعز عليها أن تظهر الجزع فتشددت، ووقفت على عتبة، وكان الباب مفتوحًا، ولكنها استحيت أن تدخل وخجلت أن تلوذ بمصراعيه، وإذا بيد تتناول ذراعها من خلفها وتجرها، فتدخلها، ثم توصد الباب.

وقال الشاب الذى فعل ذلك: "لا تخافى... تعالى انظرى من النافذة...".

وتقدمها إلى السلم فقالت: "لست خائفة.. أنا كنت أنتظر حتى تمر المظاهرة".

قال الشاب وهو يصعد ولا يثنى بصره إليها: "بل ينبغى أن تخافى وتحذرى فى هذا اليوم".

وقص عليها ما كان من إرداء اثنين فى المظاهرة، اثنين لم يكونا فى حرب ولم يكن معهما أو مع سواهما سلاح، ومضت المظاهرة وعاد السكون، فقال وهو يرتد عن النافذة ويشير إليها أن تجلس:

"إن المظاهرات السلمية سخافة وبلاهة.. نحن نطلب الاستقلال: والاستقلال يؤخذ بالسلاح ولا يطلب بالهتاف، ولو كان هؤلاء المتظاهرون يحملون سلاحًا مهما قل غناؤه فى حرب: لما قتل هذان الرجلان...".

قالت: "إنك تتكلم بمرارة...".

قال: "أليس لى حق؟؟".

فجادلته، وجاءت القهوة فى خلال ذلك فشرباها، وناولها سيجارة وأشعلها لها، وجلسا يدخنان ويتحاوران، ولم تكتمه أنها تستغرب منه أن ينقم على قومها ويكرمها، فبين لها، أنه لا يكره الإنجليز وإنما يكره أن يكونوا سادته وحكامه، وأنه لا يعرف من هم أولى بصداقة مصر وأحق بودها لو أنهم ألقوا إليها بمقاليدها وتركوها وشأنها.

ثم حملها فى سيارة إلى بيتها فى الزمالك وأبى أن يدخل معها ليتلقى شكر والديها، فكان مما حدث بعد ذلك بيومين أن زارته الفتاة - مع والديها - فشكروا له مروءته وأثنوا على شهامته، واتصلت بينهم وبينه الأسباب، فكان يلقاهم هنا وهناك غير أنه كان يأبى كل الإباء أن يزورهم فى بيتهم، فكان هذا من دواعى عجبهم فإن مصريين غيره لا يتحرجون أن يزوروهم، أما هذا الشاب فكان يصارحهم بأن الذى بينه وبينهم من العداء فى سبيل بلاده لا يبيح له أن يعدهم أصدقاء وإن كان يكبرهم ويصغوا إليهم بالود.

وأفرج عن المنفيين من زعماء الوفد فصفا الجو وانشرحت الصدور، فأمكن أن يزورهم صاحبنا من غير أن يخزه ضميره، وأن يتقبل زيارة الفتاة وحدها حيناً ومع والدتها حيناً آخر من غير أن يشعر بما كان يشعر به من الضيق والامتعاض.

وتوثقت الصلات فكان إذا ذهب إليهم، يستبقونه للعشاء، وكانت الفتاة تدق له على البيانو وتغنيه، وكان هو يرتاح إلى هذه الجلسات البريئة التى كانت تمتد أحياناً إلى الساعة الحادية عشرة، ويحتدم فيها الجدل السياسى تارة، وتارة يقتصر الحديث على الأدب والفنون وما هو من ذلك بسبيل.

وفى إحدى الليالى دعته إلى المكتبة وسبقته إليها، وكان أبواها مع الضيوف فلحق بها بعد برهة، وجلسا يتحدثان، وهما غافلان عن الوقت، وخرج الضيفان، فأخرج الشاب ساعته، فإذا هى العاشرة فهم بالنهوض، فأبت أن تدعه ينصرف فأعرب لها عن خوفه من أن يسوء أباها طول جلوسه معها هنا، فسخرت من خوفه ورجته أن يبسط لها قضية بلاده، فشرع يشرحها لها وراح يتدفق وهو ذاهل، حتى نشف ريقه، وسعل، فضحكت، فتنبه، ونظر فى الساعة فوثب إلى قدميه فقد صارت الحادية عشرة! وأقبل عليها يعتذر من هذه الخطبة الطويلة المملة فنهضت وفى عينيها وميض، ووضعت راحتها على كتفه وقالت وهى تبتسم:

"لا تعتذر.. لقد استمتعت بهذا البيان، النارى.. والآن أريد أن أدهشك".

"تدهشنى؟".

"نعم. ألا يدهشك أن تسمع منى أنى أحبك... أحببتك مذ وقعت عينى عليك...".

فصاح مذهولاً: "أيه؟ أنت تحبيننى".

قالت: "نعم.. أحببتك مذ جذبت ذراعى - قبل أن أراك - ألا تصدق".

فتراجع مقدار خطوة وقال: "ولكنى مصرى - وطنى مصرى - وأنت... أنت... إنجليزية.. من قوم يستعبدون بلادى... يذلون قومى...".

قالت: "يا صاحبى إن الحب لا يعرف هذه الأشياء... ليس لعالمه حدود ولا فى دنياه أجناس، وهو لا يعترف بهذه الحوائل.. خذنى بين ذراعيك... قبلنى...".

فتراجع مرة أخرى حتى صار ظهره إلى الحائط وقال: "كلا... هذا مستحيل..لا ينبغى أن تحبيننى... إن أمتك عدو لأمتى... لا لا لا... هذا لا يجوز أن يكون...".

فطوقت هى عنقه بذراعيها، فجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة ويتلفت حائراً مضطرباً، ولكن يديه امتدتا برغمه كأنما لا سلطان لإرادته عليهما، وأحاطتا بخصرها وانثنى وجهه على محياها، وتلاقت الشفاه فى قبلة طويلة مستغرقة، ثم رفع رأسه وقال:

"كلا.. لا ينبغى أن أقبلك.. إنى مصرى وطنى، وأنت إنجليزية... كلا...".

وأهوى على فمها فقبلها مرة أخرى وضمها ضماً قوياً، ولبثا فى عناقهما دقيقة أو ساعة أو دهراً.. فما كان لهما بالزمن شعور، ثم تخلص من عناقها بلطف، وتحاجزا.

وقـال: "أرجـو.. أرجـو.. أن تنسى هذا.. اخنقى هذا الحب.. إنه لا يجـوز بينى وبينك".

فعادت إليه تطوقه وتقبله وتهمس فى أذنه:

"يا حبيبى وعدوى، بل أنا أحبك.. إن قومى وقومك سخفاء... وأنت وأنا وحدنا عاقلان.. قبلنى يا عدوى.. يا حبيبى.. هل تمقت قومى جدًا؟ أمقتهم كما تشاء... ولكن أحبنى أنا وحدى..".

وبعد لأى ما استطاع أن ينصرف وفى عزمه ألا يعود...

***

وبر فلم يعد، ومضت أيام، ساورته فيها الهواجس، وكان موزعًا بين العاطفة والواجب فيما يرى، وإنه لجالس عصر يوم إلى مكتبه يقرأ كتابًا وإذا بها تدخل عليه بلا استئذان، وتقول:

"لست لائمة، فإنى أعرف ما يدور فى نفسك، ولا أكتمك أن هذا يعلى قدرك عندى، ويزيدنى بك تعلقًا، ولست ألح عليك أن تحمل على نفسك أو أن تكلفها شططًا، وإنى لأعلم أنك تحبنى كما أحبك وإن كنت تأبى أن تعترف أو تدع لسانك يبوح بما فى صدرك..".

فقاطعها قائلاً: "اسمعى.. ألا يمكن أن نكون أصدقاء.. أصدقاء فقط؟".

قالت: "أجبنى أولاً، ..هل تحبنى؟".

قال: "نعم... مع الأسف".

قالت: "أشكرك.. إذن لماذا تصد عنى؟".

قال: "هو واجبى.. لا تستطيعين أن تعيشى سعيدة بين قومى.. وأنا لا أستطيع أن أكون على وفاق مع قومك.. ما دام هذا النزاع...".

قالت: "إن النزاع يسوى، وأرى الأمور سائرة فى طريق الوفاق".

قال: "هذا شىء لا أعلمه... ولا أمل لى فيه... ثم إنى من أمة يراها قومك دونها وينظرون إليها باستخفاف وازدراء، فكيف تكونين زوجة لمن تعتقدين فى أعمق أعماق قلبك أنه دونك...؟".

فأنكرت عليه أسلوب تفكيره، وزجرته عن هذه الخواطر، ونهته أن يعود إليها، وأكدت له حبها القوى العميق، وضاحكته ورفهت عنه وتعانقا وجلسا يتطارحان ما فى فؤادهما، ثم افترقا، على أن يمضيا فى حبهما أو يحتفظا به حتى يريا ما تجئ به الأيام.

ومضى زمن، فقال لها يومًا:

"اسمعى، ألم تضيقى ذرعًا بهذا الحب العقيم؟؟ لقد صبرت زمنًا ولكنك قد لا تقوين على الصبر زمنًا آخر، وما أرى الأمور صائرة إلا إلى ما أكره، ولا أستطيع أن أقنع نفسى بأن من الخير أن أتزوج منك، فإنها إحدى اثنتين: أن أغير نفسى، وأخلع جلدى، وأنسى أنى مصرى، ولا قبل لى بذلك، أو أن أظل كما أنا فأنغص عيشك وأعذبك وأحيل حياتك معى جحيمًا... لا يا فتاتى لست لى، ولا أنا لك، وإنى لأحبك وأجلك وأكبر روحك الواسعة ولكن روحى أنا ضيقة مع الأسف، وأنت يسعك أن تتسامحى وتغضى، لأنك من القوم الأعلين الذين يملكون أكثر مما يريدون، أو يحتاجون إليه، فالسماحة منك مقبولة معقولة، أو هى على الأصح ميسورة أما أنا فمن القوم المستضعفين المهضومين وليس فى مقدورى أن أنسى أو أغتفر، أو أتسامح، أنت كالغنى الذى لا يضيره الجود وأنا الفقير الذى يشتهى ويطلب ولا يجد، فأولى ألا يستطيع أن يعطى، وفى قومك آلاف هم أحق بك وأقدر على إسعادك، وفى قومى آلاف

قد لا أجد بينهن من تسعدنى، ولكنهن جميعًا أحق بى، وواجبى أن أكون لهن ولو شقيت بهن.. وسأسافر بعد أيام إلى الإسكندرية فقد نقلت إليها عملى شيئًا فشيئًا، وسأبدأ فيها حياتى من جديد...".

قالت: "بل أنت تكذب.. لن تسافر.. ولا يمكن أن يكون لك عمل فى الإسكندرية".

فقال: "صدقت... إنما كنت أخدعك فاغفريها لى".

قالت: "وتحبنى؟".

قال: "ولكن لا أستطيع أن أتزوجك".

قالت: "بل ستفعل يومًا ما".

وظل زمنًا يقاوم نفسه ويغالب حبه ويعالج أن يقهر هذه العاطفة، ولكن حبه وجد مددًا من كل شىء، فانهزم، وذهب إلى أبيها وأفضى إليه بما يجن، وكشف له عما دار فى نفسه من المعارك، فقال له:

"أعرف ذلك كله.. أخبرتنى به أديل... أديل! أديل!"

فأقبلت عليهما وجعلت تنظر من هذا إلى ذاك، وأشار أبوها بعينه إلى الشاب وخرج، فصاحت الفتاة وهى ترتمى على صدر صاحبها:

"أخيرًا...

فصل فى الكتب والفيران والفيلة والسيارات[63]

سأبيع كتبى وأقتنى فيلاً، إلا إذا هدى الله "جريدة السياسة" فأنقدتنى ما عليها لى، فيكون ذلك حسبى ثمناً لفيل عظيم! وعسى من يسأل: لماذا تبيع الكتب؟؟ وما حاجتك إلى فيل؟ فأقول أما الكتب فهى أول ما يباع وأول ما خلا منه بيت فيه نسوة وأطفال، ولست أستطيع أن استغنى عن المراتب والوسائد، والسجاجيد، والخزانات والثياب، وما إلى ذلك مما يكون فى البيوت للمنفعة والزينة، ولو رضيت أنا بالنزول عن هذه الأشياء وقنعت من لذات الدنيا ونعيم الحياة بالنوم على الأرض فى سبيل التحفظ بالكتب، لما رضى الذين معى ممن سخرتنى المقادير - أو قلة العقل على الحقيقة - لخدمتهم، ولست أنوى أن أوقظ فى البيت ثورة من أجل بضعة كتب يقول لى أهل بيتى إنها لا خير فيها إلا أنها تجلب الفيران وتغريها بالسكنى معنا وتتعبنا فى مطاردتها واصطيادها، وقاتلها الله - أعنى الفيران والكتب معًا - ما أشقانا بها! هذه تلعب بعقولنا وتعبث بأحلامنا وتلك تعبث فى طعامنا وفرشنا وأثاثنا ولا تتقى أن تلعب على أجسامنا، وقد كنت أغط منذ بضعة أسابيع فى النوم فإذا بزوجتى توقظنى بصرخة مزعجة؛ فسألتها: مالك؟.

قالت: "أدركنى أدركنى! عجل!".

قلت: "حريق؟".

---

(٦٣) نشرت فى جريدة البلاغ، ٢٤ نوفمبر ١٩٣٤، (ص٣).

قالت: "لا".

قلت: "زلزال؟".

قالت: "لا".

قلت: "ماذا إذن؟".

قالت: "فار".

قلت: "أين؟".

قالت: "كان هنا يجرى على اللحاف وأخشى أن يعضنى أو يعض البنت".

والبنت هذه وليدة جديدة رزقنا بها الله - فهنئونا - لتتم بها القبيلة، ففكرت فيما يحسن أن أصنع لأقص الفأر عن زوجتى وابنتى، وأشعلت سيجارة وجلست أُنضج الرأى فقالت تستحثنى: "هيه؟".

قلت: "ارمى له اللحاف على الأرض ليتلهى به إلى الصباح".

قالت: "وأنام بلا غطاء".

قلت: "خذى لحافى".

قالت: "وأنت؟".

قلت "أنا ؟ أه! أجلس هكذا رشيقًا، أهش وأنش حتى يخرج الخلق من البيوت وتفتح الدكاكين فنشترى مصيدة".

قالت: "واحدة ؟".

قلت: "كم فأرًا عندنا؟".

قالت: "أهو هوه! أكثر منا!".

قلت: "والكثرة تغلب الشجاعة؟ أليس كذلك؟ فيظهر أن الهزيمة مكتوبة علينا ولا مفر منها".

قالت: "لماذا لا نخرج هذه الكتب من البيت؟ إنها هى التى تجلب الفيران!".

قلت: "صدقت، سأبيعها، أعنى الكتب لا الفيران".

ففرحت وقالت: "صحيح؟".

قلت: "نعم، بإذن الله، وعسى من يشتريها أن يأخذ الفيران معها، فإذا لم يفعل فلا ذنب لى، مفهوم؟".

قالت: "ونشترى بثمنها ثياباً، فإن الشتاء قد دنا و....".

قلت: "مـهـلاً يا نور عـينـى – على فكرة، اضـغطى الزر وافـتـحى النور فـإنى لا أستطيع أن أرى الفيران فى الظلام".

فسألتنى: "إذن ماذا نشترى؟".

قلت: "نشترى فيلاً".

فوثبت عن السرير بخفة لم أعهدها فيها ووقفت أمام سريرى وصاحت: "إيه؟".

قلت: "حاذرى الجيران! قد يسمعون فيسبقوننا".

فعادت تصيح: "إيه؟".

قلت وقـد ضـاق صـدرى: "ألا تـحـسنين أن تـقولى غـيـر "إيه" أقول لك سنشـتـرى فيلاً".

قالت: "فيل؟".

قلت "نعم. فيل. فـ.ى.ل....فيل".

قالت: "هل جننت؟".

فأردت أن أبعدها عنى فقلت: "ارجعى إلى سريرك، فإنى أخشى أن يعض الفأر رجلك".

فخافت، ووثبت إلى سريرى أنا، وجلست إلى جانبى، فتنهدت، فسألتنى لماذا أتنهد فقلت: "أخشى!".

قالت: "ماذا؟".

قلت: "أن يعض الفأر ابنتنا الراقدة وحدها هناك!".

فألقت إلى جانبها نظرة عَجلى ثم قالت: "لا. إنى أراها من هنا فلا خوف".

فأسلمت أمرى إلى الله وقلت: "طيب نرجع إلى الفيران، كم مصيدة تكفيك.. أعنى تكفيها؟".

قالت: "بل نرجع إلى الفيل... هل تتكلم جاداً؟".

قلت: "هل ترين على وجهى مزاحاً".

قالت: "إنى فى حياتى ما عرفت لك مزاح من جد - ولكن من أين تشتريه؟".

قلت: "هل نسيت أنى كنت معتزماً أن أسافر إلى الهند؟".

قالت: "آه! لهذا؟؟ وكنت أسألك فتقول "شغل... شغل..." إذن الشغل هو الفيل؟".

***

هذا ما كان من أمر الفيل، وسر تفكيرى فى اقتنائه، وما أرى إلا أنى على صواب، فإن الكتب تحفظ لتكون زينة، وصاحبها يسره أن يراها ضيوفه على رفوفها من وراء الزجاج، لأن كثرتها وجمال منظرها دليل على الثراء ورغد العيش لا على سعة الاطلاع،

وعظم الإحاطة والتبحر، وقل من يحتاج أن يرجع إلى كل كتاب عنده فى خزائنه، وأندر ممن يرجع إلى الكتب من يقرأ كل ما يقتنى، ولكنه لا يوجد واحد يحاول أن يخفى كتبه ويحجبها عن عيون الزائرين إلا إذا كان يخشى أن يستعيروها ولا يردوها، وقد قيل فى الأمثال - فى أمثالى أنا - إنه ليس أشد بلاهة ممن يعير صاحبه كتابًا، أو يقرضه مالاً إلا الذى يرد ما استعار أو اقترض، فاقتناء الكتب مظهر رخاء والإنسان يدرك بطبيعته أن الناس يتوددون إلى الغنى وينفرون من الفقير وأغنى الغنى أن تقتنى ما يفقد قيمته فى السوق بمجرد حصول الشراء، وهذا بلاء الكتب فإنك تشترى الكتاب بجنيه أو أكثر فإذا أردت أن تبيعه لم تجد له شاريًا بقروش وقد جربت هذا مرات فصدقونى ولا تكابروا بخلاف.

وما دامت الحياة مظاهر وكل فائدة اقتناء الكتب أنها زينة ورمز على حسن الحال وكثرة الرزق فلماذا لا أشترى فيلاً ومظهره أوقع فى النفوس بلا أدنى ريب؟؟ وقد سألت صاحب الفيل فى حديقة الحيوان عن طعامه فقال إنه - أى الفيل لا صاحبه - نباتى، فحمدت الله على أن بلدنا زراعى، فلا خوف عليه أن يجوع عندى، والفيل حيوان فيه عقل وذكاء، ففى وسعى أن أخرجه كل صباح من الدكان - حيث كنت أضع السيارة - وأمسح له خرطومه فيبتسم لى ويطوقنى بها ويرفعنى إلى ظهره، وتكون معى صحف الصباح أو ما أشاء غيرها من كتاب أو مجلة، فافتحها وأذهب أقرأ، وهو يمشى بى فى الطريق إلى "البلاغ" ولا يدوس طفلاً ولا يصدم مركبة أو سيارة أو تراما، ولا يخالف نظام المرور ولا يتعب الجنود الموكلين به عند مفترق الطرق، ومتى عرف أصحابى فإنه خليق أن يريحنى من تحيتهم كلما لقيت منهم واحداً، فيؤديها لهم عنى بخرطومه، ويدعنى لخواطرى لا يشغلنى عنها شاغل، فأستطيع حتى أن أكتب مقالاتى وأنا على ظهره.

ورب قائل يزعم أنه بطئ، وأنا فى عصر السرعة، وهذا وهم، فإن اكتظاظ الطريق بالسيارات والمركبات والترام، يجعل السير كأبطأ ما يمكن أن يكون، وأخلق بفيلى أن

يسبق السيارات فى هذه المواكب الوئيدة، وما أشك فى أن عقله أكبر من عقول سائقيها، وحكمته أعظم وعينه أهدى وأبصر، والسيارة تُسرق ولكن الفيل لا يُسرق، وهو يغنى عن شركات التأمين، وقد سرقت سيارتى مرة، وكان ذلك فى الليل، فلما خرجت - كعادتى - من جريدة السياسة، وكنت أعمل يومئذ فيها لم أجدها أمام الباب حيث تركتها، فسرت حتى لقيت شرطيًا فقلت له: "يا شاويش!".

قال: "هممه!".

قلت: "سرقوا سيارتى".

قال: "من هم؟".

قلت: "لو عرفتهم لما احتجت إليك!".

قال: "بلغ القسم".

قلت: "أصدقنى وأرحنى واحتقب شكرى، هل من فائدة!".

قال: "لا والله يا أفندم".

قلت: "أشكرك".

ومضيت عنه، وأسلمت أمرى لله، فما كان يخفى علىّ أن اللصوص يستطيعون أن يأخذوا السيارة إلى مكان أحدهم، وهناك يفككونها، ليبيعوها قطعًا بأى ثمن، وكل ثمن مهما قل ربح لهم، ولا شك أن سرقة السيارات عمل رابح مأمون ودليل ذلك أنى أنذر الشرطة من الآن أنى سأنشىء شركة - بلا رأس مال - لسرقة السيارات وسأضع على بابها لوحًا عريضًا أكتب عليه اسم الشركة بالخط الثلث هكذا "الشركة الوطيدة لسرقة السيارات الجديدة" فليرنا الشرطة همتهم!.

وبلغت دار البريد قرب العتبة الخضراء وأنا أندب فى سرى سوء حظى، وإذا بسيارتى هناك واقفة وليس بها إنسان، فلما تثبت وأيقنت أنها هى، أقبلت عليها أعانقها

وأقبلها وأمسح لها صدرها وجنبها، ودموع الفرح بها تسيل على خدى، وركبتها جذلان مسروراً، وأركضتها فى طريق الهرم، وعدت بها إلى مصر الجديدة، وانثنيت فطفت بها المدينة من فرط الفرح، وكنت أنزل فى بعض الطريق وأدور بها وأتحسسها وأشكر لها وفاءها وعودتها لى من تلقاء نفسها، وإغنائى عن الشرطة الذين يثبتون فى الورق أنباء السرقات ويدعون اللصوص يفعلون ما يشاءون وهم آمنون ولا يتحركون لمطاردتهم إلا بعد أن يفرغوا - أعنى اللصوص لا الشرطة - من شأنهم، ولا يعنون - أعنى الشرطة فى هذه المرة لا اللصوص - بأن يقولوا كلمة طيبة للمنكوب أو يبدوا - ولو أمامه - عناية واكتراثاً، وإن المرء ليكون سعيداً إذا لم يسمع منهم تأنيباً لأنه لم يتخذ لسيارته حارساً يقيها شر اللصوص ويريح حراس الأمن وحفظته من عناء السهر عليه.

وللفيل حارس من نفسه فلا خوف عليه أن يسرق بل الخوف على من يحاول ذلك، ثم أنه يصلح أن يلاعب الأطفال ويداعبهم، ويحملهم على ظهره الرحيب ويخرج بهم إلى الهواء الطلق، ويمد خرطومه وهو سائر، على دكاكين الحلوى واللعب "فيشترى" لهم ما يعرف بفطرته الذكية أنهم يحبونه ويؤثرونه، ثم يعود بهم آمنين مسرورين ضاحكين وفى جيوبهم الحلوى وفى أيديهم اللعب.

والشهرة إعلان وطبول يدقها المرء لنفسه، وما زلت أدق طبولها كلها منذ ربع قرن، ولو أنى كنت اشتريت فيلاً واحداً ولو صغيراً، لأغنانى عن هذه الضجة الطويلة التى لم أجن منها إلا العناء، وماذا عسى أن تكون حاجة ذى الفيل إلى إعلان أو طبل وزمر، واقتناؤه، بمجرده، يجعل الشهرة تملأ السماء والأرض وتسير فى الشرق والغرب؟

والكتب يقرؤها الأقلون ويجهلها الأكثرون، فشهرة صاحبها بها محدودة، وهو عند الأكثرين ممن يسمعون به، اسم ليس إلا، ولكن الفيل شهرة ليس لها حدود، وهى مادية حقيقية جداً لا وهم فيها وخيال، والكتب تجر عداوة وحسداً ومنافسة وبلاء عظيماً وكرباً شديداً، أما الفيل فلا يثير إلا الإعجاب به والإكبار له، ولا يكسب صاحبه إلا الإجلال، ومن ذا الذى يعرف المازنى صاحب هذه الكتب التى لا يجنى منها خيراً ولا يفيد مالاً؟

ولكن من ذا الذى يمكن أن يجهل المازنى صاحب الفيل وراكبه فى مدينة المعز؟ بل من ذا الذى لا يشتاق أن يراه مطمئنًا على ظهره الفسيح؟ وأية فتاة جميلة لا يغريها ذلك بالتحبب إليه وتملقه؟؟ وما قيمة السيارات الفخمة التى تفتن النساء وتردهن إلى المياسرة بعد المعاسرة، إلى جانب الفيل؟! إنه هو الفتنة يا رفاق! وما أحلى الغزل والعناق على ميدان ظهره فى الليالى القمرية؟ بلى! وتالله ما أذكاه وأفطنه حين يقف بوحى من خاطره اللهم ليتيح لراكبيه أن ينعموا بالحب والليل والقمر!.

والفيل يعود الناس الوقار، ويعظهم بمشيته وحدها، ويزجرهم عن الخفة المزرية، ويفيض على الحياة معانى الجلال التى ضيعها النزق ويرد إلى الدنيا اللين والمرونة والسكينة، ويعلم الناس الأدب والاحتشام، ويدربهم على حسن السير فى الطريق، ويلزمهم إخلاء ما ينبغى أن يخلوه منه، والاقتصار على ما جعل لمشيهم، ويريح الآذان والرءوس والأعصاب من ضجات الأبواق والأجراس، ويغنى حتى الحكومة عن الشرطة ويعفيها من الحاجة إلى تنظيم المرور وإحصاء المخالفات إلى آخر هذه المنافع والمزايا التى لا تحصى.

ثم أنى مع استمرار ارتفاع السن سيجىء يوم أعجز فيه عن الكتابة، فمن أين آكل؟ فلو اشتريت فيلاً لأمكن عند الحاجة، أن أقيم له ملعبًا فيكون هو مورد رزقى، ويكثر فى يدى المال فأشترى له فيلة فينعم بحبها وتنعم بحبه، وتلد لنا فيَلة صغاراً ما أحلاها وأظرفها وأجمل خراطيمها الصغيرة، وما أعظم حب أطفالى لها وتعلقهم بها، حتى لكأنهم إخوانها ومن فصيلتها!

نعم سأشترى الفيل، فهيا اشتروا الكتب! وإلا عدلت والذنب لكم!

فـى يوم مـاطـر[٦٤]

كانت السـمـاء مُطبِقـةً على الأرض، والمطر يسح حـثيثًا مـتداركًا يكاد من شدته يقـشـر القطران، والماء يسـيل على جـانبى الطريق ويتـدافع ويرتفع له مـثلُ الموج، وكـان أمام نافذتى بوابة عريضة وقفت على عتبتها فتاة تتقى المطر فى ظُلتها، وكانت ترتدى ثوبًا مُشرقًا بين الحمرة والبياض كأنما استعارت صبغته المزدوجة من الشمس الغاربة والقمـر الطالع، وكـانت فيه كـأنها مِقطَعٌ أو مـثال فـصل الثوب على قده لعرضـه على العيون، فمحاسنها كلها مجلوّة، وخطوط قوامها اللين مرسومة، وقد اجتمع طرفان منه على سرتها وانعقدا على صفة وردة كبيرة، وتدلت على مدار خصرها الهضيم ذلاذل تكاد تمس قـدميها الدقـيقتين، أمـا صـدرها فـأطاف به شـىء لا أدرى مـا صـفـتـه كـان ثدياها الناهدان يبدوان من تحته كأنهما فى كأسين، أو كـأنهمـا موجتان مـتناوحـتان حجزتا وحيل بينهما وبين التسرب والانسياب.

ولم يكن أفتن من منظرها وهـى واقـفـة ترقب انقطا ع المطر، وكـان مـعـى فى البـيت صـاحب يحمل مظلة جـمـيلة غـالية، لا تـفـارق يده فى صـيف وشـتـاء، ولا ليل ولا نـهـار، فكأنها قطعة منه، أو امتداد لذراعه، فـغـافلتـه وحملتـهـا، ومـضيت بـهـا إلى هـذه الفتـاة ووضعتها فى يمينها، وارتددت عنها بلا كلام، فلما أفاقت من دهشتها كنت قد غبت عن عينها.

---

(٦٤) نشرت فى مجلة الرسالة، ٣ ديسمبر ١٩٣٤ (ص١٩٧٤-١٩٧٦).

وأن لصاحبى أن يخرج، فنظر فلم يجد المظلة، فتلفت هنا وههنا ثم سأل فقلت:

"أترى هذه البوابة؟ كانت هنا فتاة جميلة تخشى على نفسها وعلى ثيابها من المطر فلم يسعنى إلا أنجدها....".

فسأل: "أعيتها الـ....".

قلت: "ألم أقل لك إنك ذكى؟ بل أنت أيضًا ذو مروءة ونجدة وشهامة".

قال: "ولكن مظلتى؟ كيف أخرج الآن.... وفى هذا المطر أيضًا؟".

قلت: "إنها بلا شك تشكر لك هذا الصنيع الجميل، فأنت سعيد بذلك، فليتنى كنت صاحبها - أعنى المظلة؟".

قال: "ولكن ماذا أصنع؟ كيف أخرج؟ إن هذا شىء...".

قلت: "يا صاحبى، إن الإيثار حميد، والأثرة ذميمة".

فقال: "تعطى مظلتى لفتاة؟ أما إن هذا لغريب!".

قلت: "يا صاحبى، لو رأيتها لما قلت "فتاة" بهذه اللهجة التى أنكرها ولا أرضى عنها، إنها فتاة رائعة، وإنى لرجل متزن الأعصاب فى العادة، ولكنى أرجو أن تثق أنها فتنتنى، وإنى لآسف على حرمانك هذه المظلة الثمينة - أو التى كانت ثمينة منذ أربع سنوات - ولكن عليك أن تتعزى بأن التى تحملها الآن أجمل فتاة على ظهر هذه الأرض، وأنك أنت سبب سعادتها فى هذه اللحظة، وأن اسمك سيخلد فى التاريخ، وأنى لو كنت شاعرًا لقلت أبياتًا أخلد فيها صنيعك الحسن هذا، وإن أبنائى سيحفون بى كل ليلة ويطلبون أن أقص عليهم كيف فقد صاحبى مظلته الغالية...".

ولم أتم خطبتى لأنه خرج مغضباً، فأمسكت وحمدت الله!

***

وحمل إلىّ البريد رسالة غريبة هذا نصها بعد الديباجة المألوفة:

"إن ما أقرأه لك يحملنى على الثقة بأنك لن تخيب رجائى فيك، فهل لك أن تقابلنى أمام باب "جروبى" الساعة السابعة من مساء اليوم؟ ولا أجرؤ أن أبدو لك حتى تبدو لى، فإذا صدق ظنى فيك فلعلك تتفضل بأن تضع فى عروتك زهرة من زهور "الأرواله" البيضاء، لأعرفك بها، وزيادة فى الحيطة أرجو أن تقول لى "لا مطر غداً" فأقول لك "لم ولماذا وكيف يكون ذلك"، فلا تنس".

ولم يكن على الرسالة توقيع، فلم أشك فى أنها فتاة مصرية لم تألف أن تدخل "جروبى" وتجلس فى حديقته، ولكنها تسمع باسمه فهى تقف عند بابه، فما يعقل أن يكون كل هذا الحرص والحذر من رجل، واطمأنت نفسى بعد أن خلصت إلى هذه النتيجة، وشكرت الحظ الذى أبعد عنى صاحبى قبل أن تردنى هذه الرسالة، بدقائق، ولو أنه كان معى لأطلعته عليها بلا أدنى ريب، ولكان المحقق أن يسبقنى إلى باب "جروبى" فيطردنى بوجوده، عنه.

واشتريت الزهرة المطلوبة، ووضعتها فى العروة، وأخرجت منديلاً وظللت أرفع يدى به وهو منشور إلى أنفى لأحجب هذه الزهرة عن العيون، فقد كانت كبيرة وأنا أخجل أن أضع على صدرى زهراً ولو كان فى حجم الحمصة، ووقفت بباب جروبى أتأمل الداخلين والداخلات، والخارجين والخارجات، وأشاور نفسى وأسائلها كيف أقدم على خطاب من لا أعرف؟

ولم يكن ثم بد من الإقدام، فما اشتريت الزهرة البيضاء الكبيرة وغرستها فوق حبة قلبى لأعرض نفسى على الأنظار، فتوكلت على الله، على أنى - كما لا أحتاج أن أقول - أهملت العجائز وتركتهن يرحن ويجئن كما يشأن دون أن أكلف نفسى حتى النظر إليهن، وأقبلت فتاة رشيقة تتلفت كالمترددة فتمنيت أن تكون هى ودنوت منها وقلت:

"معذرة. واغتفرى لى تطفلى، لا مطر غداً!".

فنظرت إلى باسمة وقالت: "باردون؟".

فقلت لنفسى: "ليست بها، وقد غلطت والله يا ولد، فاخرج من هذا المأزق بسر
فتبالهت وسألتها بغير العربية: "إنما كنت أسأل هل هذا جروبى؟".

فقالت وهى تبتسم: "طبعاً... الاسم مكتوب...".

فبلعت ريقى وشكرتها وارتددت عنها.

وأقبلت أخرى أعذب منها - بلا شك - وأظرف على التحقيق، وأولى بأن ترؤف
إذا غلطت فيها، وكانت تتأمل إعلانات وصوراً لشركة بواخر هناك، فدعوت الله
يجعلها من نصيبى، وأقبلت عليها أقول بلا تمهيد: "لا مطر غداً".

فقالت بعربية محطمة، أستحى أن أثبتها بنصها: "شىء غريب! متأكد؟".

قلت: "ثقى بى، إنى نشرة جوية متنقلة... مرصد إنسانى متجول...".

قالت: "ظاهر.. أشكرك...".

قلت: "هذا واجبى... فلا أستحق شكراً".

قالت: "إنك تؤديه بذمة.. لقد رأيتك الآن تخاطب سيدة هناك... وهذه أخرى آت
فاسمح لى ألا أحول بينك وبين عملك".

قلت: "لم يكذب ظنى".

قالت: "كيف؟".

قلت: "كنت موقناً أنك أظرف من تلك التى هزئت بى وأخجلتنى".

فسألتنى: "هل أنت على موعد مع مجهولة؟".

قلت: "أصبت...".

قالت: "مسكين!.. لعلها هذه" وأشارت فالتفت فإذا فتاتى - أعنى الفتاة التى تفضلت عليها بمظلة صاحبى، فقلت:

"اخفينى عنها لحظة حتى تمر... تظاهرى بأنك صديقتى دقيقة واحدة... أرجو".

فضحكت وقالت: "لماذا تخشاها؟ هل خنت لها عهداً؟ لا بأس، تعال".

ووضعت ذراعها فى ذراعى وهممنا بأن نسير، وإذا بفتاتى تصيح ورائى:

"من فضلك... من فضلك... ألا تذكرنى... إنى مدينة لك بالشكر، لقد تركتنى فجأة كما ظهرت لى فجأة، فلم أدر أين اختفيت، فهل تسمح لى باسمك وعنوانك لأعيد إليك المظلة؟".

فقلت: "هذا شىء تافه... لا تفكرى فيه".

قالت: "ولكنى لا أستطيع أن أبقيها عندى وأحرمك".

قلت: "ثقى أنك لا تحرمينى شيئاً فإنها ليست لى، بل لصاحب".

قالت: "ما أرقه!".

قلت: "إنه على نقيض ذلك.. أبعد ما يكون عن الرقة".

قالت: "هذا أدعى لردها إليه".

قلت: "لقد انتهى الأمر، سرقت مظلته وأعطيتك إياها، وعرف ما كان، وغضب وشال نفسه وحطها، ولم يبق هناك شىء آخر يمكنه أن يصنعه، فلا تكترثى له ولا تفكرى فيه".

قالت بعطف: "مسكين!".

قلت: "لقد كنتُ أنا المسكين، وكانت هذه المظلة تفقأ عينى كلما رأيتها، فالآن أمنت، وفى وسعى أن ألقاه وأنا مطمئن، من غير أن يؤذى بصرى منظر المظلة".

قالت وهى تضحك: "على كل حال لا بد من ردها إليه ولك وله الشكر".

فكتبت لها الاسم والعنوان، ولم يفتنى أن أحذرها من مقابلته، ولم يبق بعد ذلك ما يقال، فهممت بتوديعها وإذا برجل همٍّ هرم يدنو منى وينظر إلى الزهرة التى على صدرى ثم يقول وهو يفرك كفيه: "هل سمعتك تقول لا مطر غداً؟".

فحدقت فيه متردداً، ثم رفعت يدى إلى الزهرة فأخرجتها من العروة ورميتها على الأرض، فلم ينهزم وقال: "لم ولماذا وكيف يكون ذلك؟".

فكاد عقلى يطير، فتناولت ذراعى الفتاتين وأوليت الرجل ظهرى ومضيت بهما عنه، وهما ذاهلتان تنظران إلىّ ولا تفهمان، غير أن هذا لم يمنع الرجل أن يمشى ورائى وهو يصيح: "لم ولماذا وكيف يكون ذلك؟".

فقلت لفتاتىّ: "لم يبق إلا أن نجرى، فهل تقدران على ذلك؟".

وجرينا مسافة ونحن نضحك، فلما أمنا أن يدركنا وقفنا وقصصت عليهما الخبر، فسألتنى فتاة المظلة: "ولكن ماذا يريد منك؟".

قلت: "لا أعرف، ولا أحب أن أعرف..".

قالت: "ألا يحسن أن تتبين؟".

قلت: "أتبين؟ أليس حسبى ما منيت به من خيبة الأمل ومع ذلك لقد عوضنى الله خيراً... هيا بنا لنستريح...".

من صور الحياة(٦٥)

"النزول فى هذه المحطة ممنوع".

وكان هو يهم بأن يركب الترام، وكانت، هى، واقفة فى مدخل الدرجة الأولى تريد أن تنزل، فرمى إلى إخوان كانوا واقفين معه، نظرة أسف وحسرة، ورفع عينه إلى هذه الفتاة البارعة التكوين، أو أجلاها - على الأصح - فى قوامها اللين، ثم لم يمهلها أن تفكر، فصعد إليها، فردت قدمها وانثنت فأفسحت له الطريق.

وجلس قبالتها وشرع يشعل سيجارة، واضطجع ووضع رجلاً على رجل وراح يدخن كأنما كان التدخين كل همه من الحياة، وكانت هى تنظر إليه مستغربة متحفزة، فقد ذهبت عنها دهشة المفاجأة وأدركت أنه كذب عليها ليصرفها عن النزول، وكان ظنها - بل يقينها - أنه سيحاول بعد ذلك أن يحادثها ويغازلها كما حاول مائة شاب وشاب من قبله، فأذهلها صمته، وأحنقها أنه نسيها - إذا صدقت الظواهر - فكأنها غير موجودة، وخاب أملها فيه وظنها به، وضاعت عليها متعة قصيرة، كانت ترجو أن تفوز بها، فما تكره المرأة الثناء والغزل وإن كانت العادة والخوف أو غير ذلك يمنعها أن تتقبلهما.

وكان هو لا يخفى عليه - وهو معرض عنها - ما يجول بخاطرها ويدور فى نفسها، بل هو ما أعرض إلا عن معرفة وخبرة واطمئنان - وقد جرأه عليها - أول الأمر

(٦٥) نشرت فى جريدة البلاغ، ٨ ديسمبر ١٩٣٤، (ص٣).

- أنه رآها وحدها فى الدرجة الأولى، وإنها لم تشأ أن تعتصم بالمكان المفرد للسيدات، فهى إذن تعرض نفسها على العيون، وتتصدى لنظراتها فعليها أن تحتمل بعض ما يؤدى إليه ذلك، وعلى أنها لن تحتمل إلا ما ترضى وما تسعى له عامدة، وإذا كانت تجد فى مجالسة الرجال لذة تخطئها حين تلزم مكان السيدات، فإن الرجال فى هذا أشباهها.

وضاق صدرها - كما كان يتوقع - وحيرها صمته فكبحت نفسها، وقالت بصوت هادئ: "لماذا فعلت هذا؟"

فنحى السيجارة عن فمه وسألها: "نعم؟ هل تكلمت؟".

وكان بادى الذهول، ظاهر الجد، فزادها ذلك حيرة فقالت:

"سألتك لماذا فعلت هذا؟ لماذا رددتنى عن محطتى؟".

فقال: "محطتك؟".

قالت: "نعم".

قال: "أين هى؟" وتلفت.

فقالت: "لا فائدة.. فاتت، وأريد أن أعرف لماذا كذبت علىّ وقلت إن النزول ممنوع فيها؟".

فترك جواب سؤالها وسألها هو: "هل كنت تريدين النزول هناك".

فقالت بصوت فيه بعض الحدة: "بالطبع.. كيف تسأل؟".

فهز كتفيه وقال: "أوه لا بأس.. لا بأس.. لا تغضبى.. لا تجيبى إذا لم تشائى.. أهملينى كل الإهمال.. لا تفكرى فى أمرى..".

فدبت برجلها وقالت: "ولكن لماذا قلت ذلك وضيعت علىّ المحطة؟".

فأظهر الضجر وهو يقول: "اسمعى، هذا الكلام غير معقول.. كيف يمكن أن تضيع المحطة؟".

وابتسم ابتسامة المنكر أن يسمع أن محطة يمكن أن تضيع، وكانت محطة أخرى قد "ضاعت" وأوشكت ثالثة أن تلحق بأختها، ولكن الفتاة لم تعد تبالى ماذا يفوتها ونازعتها نفسها أن تقف على سر هذا الرجل، فقالت:

"بل ضاعت محطتان.. وكلها بسبب كذبك، شىء باردا!".

فضحك وقال: "هبينى كذبت، فلماذا صدقتنى ؟؟ كونى على الأقل منصفة، واقسمى اللوم بينى وبينك".

فقالت: "بل أنت الملوم وحدك.. لقد فاجأتنى فدهشت، وتحرك الترام".

فقال: "لا بأس.. فلأكن أنا الملوم وحدى.. هاتى عقابك..".

وعرض لها خده وهو يبتسم فتنهدت وقالت: "ما الفائدة..؟".

فقال: "إن الترام دوار.. وسيعود إلى المحطة.. بلا شك".

فنهضت وهى تصيح: "يعنى ألف الدنيا كلها لأن حضرتك..".

وحبست الكلمة التى كانت على طرف اللسان، واكتفت بأن تقول وهى تنزل: "شىء بارد.. صحيح".

***

ومضى صاحبنا إلى البيت، ونسيها كما نسى كثيرات غيرها ممن يلقاهن ويتاح له أو لا يتاح أن يحادثهن، ولم يكن مطلبه منهن إلا الحديث والنظر، فقد كان رب أسرة طويلة عريضة، وكان سعيداً بزوجته وأبنائه، ولكنه كان يرى من تمام السعادة ومن

موجبات الرضا بحظه من الحياة أن لا يحصر نفسه فى دائرة البيت حتى لا يطفى به الضجر والملل،وكان يقول لأصحابه "إن المرء يجب أن يستكثر من ألوان الطعام وقد لا يأكل منها لونًا أو لونين،وأشد ما يكون المرء رغبة فى هذه الكثرة وطلبًا لها وسرورًا بها،حين يكون صائمًا فإذا غربت الشمس،وصار الطعام مباحًا زهد فى ذلك كله وعزفت نفسه عنه واكتفى بلقم قليلة يقنع بها ويحمد الله عليها،ويسأله أن يديم نعمتها، ولن ترى أشد تبرمًا من المحروم ولا أعظم منه شرها، كذلك أنا، أطلب المرأة لأصرف عنى سوءها ولأتداوى منها بها"؛ ثم يضحك ويقول "لو عرفن منى ذلك لضربننى بالأحذية".

وكان ربما قرأ إعلانًا فى صحيفة، بأن آنسة أو سيدة مستعدة لإعطاء دروس فى لغة من اللغات الأجنبية أو فى الموسيقى أو فى التصوير أو غير ذلك، فيقطع الإعلان ويحتفظ به،ويقول "عسى أن تكون له يومًا ما، فائدة" ويشتاق أن يجلس إلى امرأة غريبة، فيخرج ما ادخر من الإعلانات ويضعها أمامه، ويسأل نفسه بمن يبدأ؟ ويحاول أن يستخلص من عبارة الإعلان شخصية صاحبته،وهل هى ظريفة وديعة أو ثقيلة متعجرفة ويستقر رأيه على البدء بإحداهن فيذهب إليها ويقابلها، فإذا ألقاها جميلة واستراح إلى حديثها، تتلمذ،وأخذ عنها،وما به حاجة إلى تعليم منهن، فما يعرفن شيئًا لا يعرفه إلا أن يكون ذلك لغة لا افتقار به إليها، ولكن حاجته إلى التسلية، وإلى اللهو البرىء، وقضاء ساعة فى نظر وحديث يذهلانه عن البيت والأولاد والعمل والكدح وهموم الدنيا ومتاعب الحياة، ثم يرتد إلى بيته راضيًا شاكرًا مغتبطًا منشرح الصدر مستعدًا أن يلاعب أبناءه ويداعبهم، وأن يسر زوجته ويبرها.

***

وفى يوم من الأيام بسط ما جمع من هذه الإعلانات أمامه وأدار فيها عينه، وحار كيف يختار، ثم أغمض عينيه وأطبق يده ومد منها إصبعًا وضعه حيثما اتفق، ونظر

فإذا هو إعلان من آنسة تعطى دروسًا فى البيانو فضحك، فما فى بيته "بيانو" ولكنه قال "ننتظر، فلعل لها مواهب أخرى".

ومضى إلى بيت المعلمة، فسأل عنها فأدخل حجرة نظيفة، وجلس ينتظر، ويدخن، وبعد دقائق دخلت عليه الفتاة التى ضيّع عليها المحطة ولم تكد عينها تقع عليه حتى وقفت ورفعت راحتها إلى فمها وندت عنها صرخة خافتة "أوه!".

فنهض وانحنى وقال: "لقد شاء الحظ - حسن الحظ كما ينبغى أن أقول - أن نجتمع مرة أخرى".

فقالت، وهى فى مكانها: "ماذا تصنع هنا؟".

فأغضى عن هذا وقال: "يظهر أن المحطة لم تضع.. أو لم تكن هى المحطة التى يكترث المرء لضياعها".

فأعادت سؤالها: "ماذا تصنع هنا!".

فقال: "هذا استقبال لطيف!"

فسألته: "كيف جئت؟ لماذا جئت إلى هنا؟".

فابتسم لها وهو يقول: "أنت التى دعوتنى يا سيدتى، هل نسيت؟".

فصاحت ودبت برجلها: "أنا؟، كيف تجرؤ؟ إنى لا أعرفك، ولا أريد أن أعرفك.. يظهر أن لك ولعًا بالكذب يا سيدى".

فلم يغضب ولم يقل شيئًا ودس يده فى جيبه وأخرج قصاصة صغيرة مد بها أصابعه إليها، ولكن اضطرابها منعها أن تتبين أو تفهم فهزت رأسها فقال:

"جاءتنى منك هذه الدعوة فلم يسعنى إلا أن أبادر فألبى".

ففهمت، وأخذت القصاصة وألقت عليها النظرة ثم سألته:

"ولكن كيف عرفت أنى أنا صاحبة هذا الإعلان؟".

وكان سؤالها ساذجًا وواشيًا بسوء ظنها به - أو حسنه - فقال:

"آه! كيف عرفت؟؟ هذا سرى! ولا تنتظرى أن أبوح لك به".

قالت: "ولكنى أريد أن أعرف... إن هذا لا يليق... هذه مطاردة".

قال: "ألا يحسن أن نتكلم ونحن جلوس... إن الوقوف متعب... ثم أنى ضيفك".

قالت: "تفضل، ولكن خبرنى أولاً".

قال: "مستحيل.. أعنى أن أتفضل وأن أخبرك أولاً... فاختارى أحد الأمرين".

قالت: "لا تمزح... قل لى...".

فجلس وهو يقول: "قرأت الإعلان فحضرت، فإذا بك هى بعينها... وكان هذا من حسن حظى".

فسألته: "صحيح؟.." وجلست.

فقال: "بالطبع صحيح... اتفاق بحت... حسن الطالع... ألم أقل لك إن حظى حسن؟".

فسألته: "ولماذا تريد أن تتعلم "البيانو"؟".

فقال: "أما أن هذا السؤال؟ لأنك ستعلميننى".

فقالت: "ولكنى أعلّم الفتيات والبنات الصغيرات... أما أنت...".

قال: "فرجل، ومن أجل أنى رجل يجب أن أظل جاهلاً.. هه؟".

قالت: "لا، ولكنى أفضل...".

فقاطعها: "أن أكون بنتًا صغيرة؟".

قالت: "لا لا لا... أعوذ بالله!".

قال: "أشكرك!".

قالت: "لا أعنى هذا... إنما أعنى... تعرف ما أعنى".

فقال: "مفهوم... تعصب جنسى...".

قالت: "لا لا لا ... ولكنى...".

قال: "ظاهر... بغض للرجال".

قالت: "لا لا لا... إنما...".

فقال: "أنا أيضاً أبغضهم... أمقتهم.. أتمنى لو استطعت أن أمحوهم جميعاً من الدنيا، فلا يبقى إلا أنا.. وحدى وأنتن بالطبع...".

فضحكت وقالت: "لا تمزح من فضلك".

فقال: "سأعبس إذن... هكذا؟".

وقطب جداً، ولكن عينه بقيت تلمع، فضحكت، وقالت: "أوه، من فضلك!".

فقال: "فى الخدمة... مرينى بما تشائين!".

فتكلفت الجد وسألته: "ثم ماذا؟".

قال: "ثم نتفق".

قالت: "على أى شىء؟".

قال: "على كل شىء... أولاً، لا تطردينى حين أحضر لأنى تلميذ مجتهد، وثانياً لا تقولى "أوه!" حين ترينى هنا، لأن منظرى لا يفزع إلى هذا الحد، وثالثاً لا تسألينى مرة أخرى كيف ولماذا حضرت لأن هذا سر قلبى، وقلبى ليس معى ورابعاً...".

فقالت: "كفاية... لم يخطئ ظنى".

فسألها: "كيف؟".

قالت: "كنت واثقة أنك لم تجئ لتتعلم...".

فقال: "هذا يوشك أن يكون مشكلاً.. إذن لماذا جئت؟".

فقالت: "وهل أنا أعرف؟ أسأل نفسك؟".

فقال: "أسأل نفسى! حسن.. لماذا جئت يا نفسى؟ هيه! مفهوم! تمام! صحيح... (والتفت إليها) تقول نفسى إنك على حق، وإنك أجمل من تصلحى أن تكونى معلمة، وأنا أشر من أن أصلح تلميذاً لك... فما العمل؟ هذا مشكل... خذى سيجارة لتستعينى بها

***

ولا يزال صاحبنا يتعلم البيانو، أو لا يتعلمه على الأصح، وله معلمات أخريات - فى لغات شتى، من فرنسية وإنجليزية وألمانية وإيطالية ... إلخ - وفى فنون مختلفة من موسيقا وتصوير ورقص، وساعات الفراغ موزعة بينهن، وقد حدث إخوانه أنه ينوى أن يقيم لهن مأدبة يجمعهن فيها، ولكنه لا يعدو أن ينوى، اتقاء لسوء العاقبة، فإن المرأة هى المرأة، وليس بينه وبين إحداهن ما يدعو إلى الغيرة، ولكن المرأة لا تكون امرأة إذا لم تعذب نفسها بالغيرة، فهو لهذا قانع بالدروس التى لا يتعلمها، مجتزئ بالحديث الذى يستطيبه والجلسات البريئة التى تسكن إليها نفسه، والتى يرضى بعدها ويفضلها عن الحياة.

الفلوس[٦٦]

جُن الرجل أو كاد، فقد مرت به عشرة أيام سوداء، ما دخل فيها بيته إلا تعلق به أولاده وزوجته وخدمه - وأقرباؤه أيضًا وإن كانوا لا يعايشونه ولا يساكنونه - فهذا يسأله عن الطربوش الجديد أين هو؟ ولماذا لم يشتره له؟ ومتى تراه يفعل؟ وثان يمد له قدمه الصغيرة فى حذائها الذى تغضن ولم يعد يليق بالعيد، وثالث يجيئه ببذلة لم يمض على تفصيلها شهر ويعرضها عليه عرض الزراية والاستنكاف ويقول:

"هل يرضيك يا بابا أن ألبس هذا فى العيد؟".

فينظر "البابا" إلى "هذا" فيلقيه ثوبًا جديداً لم يذله الاستعمال ولم يخلقه اللبس! وينظر - بعين خياله - فى خزانة ثيابه هو فلا يرى شيئًا جد عليها منذ عامين، ولكنه يكتم ذلك ويقول:

"كلا. لا يليق، ولكن الله مع الصابرين".

فتلقى الزوجة ما بيديها وترفع إليه وجهها وتقول بعنف:

"صابرين إيه؟؟ هذا شىء يطير العقل! لم يبق على العيد إلا ثلاثة أيام...".

فيقاطعها مصححًا: "خمسة!".

---

(٦٦) نشرت فى جريدة البلاغ، ٥ يناير ١٩٣٥، (ص٣، ١١).

فتتقبل التصحيح بشيء من الضجر وتقول: "خمسة يا سيدى، خلنا معك! ولا يزال أمامنا أن نشترى للأولاد أشياءهم وللخدم كسوتهم، ثم أن علينا أن نفصل الكسوة ونخيطها، فمتى يمكن أن نفعل ذلك، وكلما طالبناك بالثمن قلت "غداً" ويجئ الغد ويمضى ويلحق بالأمس ولا نرى شيئًا.. وفلوس الزكاة؟ غداً أيضًا! وما يلزم لطلعة القرافة؟ غداً أيضًا! فمتى يجئ هذا الغد؟ ألا تريحنا بكلمة واحدة؟ إذا كنت لا تنوى أن تعطينا شيئًا فقلها بصراحة وأمرنا إلى الله!".

فيسكت، وبماذا يجيب، وكل جواب خليق أن يفتح عليه بابًا من العنت، وكل كلام عبث، ولا سبيل إلى إخماد هذه الثورة إلا بالفلوس، ولم يكن قليل الكسب، ولكنه كان قليل العقل سيئ التدبير، وكان يأبى أن يلقى بزمام بيته إلى زوجته، ولو فعل لأراح واستراح وكفى نفسه هذه المتاعب التى لا قبل له بها، والمنغصات التى لا صبر له عليها، والنساء بهذه الأمور أعرف، وعلى حسن التصرف فيها أقدر، ولكن صاحبنا كان شاذاً فى رأيه وسيرته، فكان يستثقل أن يظل يكد ويكدح ثم يدفع إلى زوجته آخر الشهر ثمرة هذا الكدح جملة، فكأنه مسخر لخدمتها أو أجير عندها، وكان لا يخفى عليه أنه لا فرق - فى النهاية - بين أن ينقد زوجته فى أول كل شهر جملة ما تحتاج إليه، وأن يعطيها ما تبغى مفرقًا، وكان يعرف أنه لا يكره شيئًا مكروها، وإنما يجيئه رزقه مقطعًا، فهو يدفعه إليها كما يجئ، وقد جاهد أن ينظم حياته وأن يدخر من كسبه المفرق قدراً يكفى نفقة شهر، فأعياه ذلك، لإسرافه، وطال صمته فقالت زوجته:

"والآن ما الرأى؟ ألا تجيب؟ أم نحن كلاب لا نستحق رداً؟".

فقال وهو يتكلف الابتسام: "يا ستى فى الأمثال أن قومًا عيروا رجلاً بأن أباه مات جوعًا فقال وهل وجد طعامًا وأصر أن يموت؟".

فقالت: "بالله دعنا من فلسفتك هذه فلن تشترى بها رباط حذاء أو خيطًا من ثوب".

فضحك وقال: "احترت والله! إذا سكت قلتم لماذا لا تتكلم؟ وإذا تكلمت لم يرضكم كلامى، فماذا أصنع؟ أشيروا علىّ؟".

فقالت: "إنما نطلب فلوساً لا كلاماً فهات الفلوس، وتكلم أو اسكت - كما تشاء!".

فقال: "حالاً" ونهض.

فسألته: "إلى أين؟".

قال: "اذهب لأجئ بالفلوس فإنها ليست تحت السجادة فى البيت".

قالت: "وتعود نصف الليل ثملاً مترنحاً، وتتطرح إلى فراشك..."

فلوح بيده وقال وقد ضاق صدره:

"أوه! يا ستى أرجوك... ألح عليك أن تكفِّى عن هذا الكلام، إن كل جدواه أنه يقصينى عن البيت ويطردنى إلى المقاهى والخمارات فيضيع فيها القليل الذى يكون معى، ونصبح وليس عندنا ما يلزم حتى لطعامنا، وليس لى حيلة إذا لم يكن معى "فلوس"، وكثرة الكلام والأخذ والرد والشد والجذب لن تفتح لى فى جيبى الفارغ كنزاً، فأريحى نفسك واعلمى - وثقى - أنى جاد فى طلب الفلوس، ومتى صارت فى جيبى أفرغتها فى كفك.. والآن هاتى المعطف..".

ويهم بالخروج، فيدخل لفيف من ذوى قرابته، فينحط على الكرسى ويسلم أمره لله، ويذهب يفكر على وجه من، أصبح فى يومه هذا؟ فيقول أحدهم:

"علام عولت فى أمر القرافة؟"

فيقول: "لا شىء!"

فيقول ثان: "ولكن هذا لا يليق.. الجدار منقض، وحجارة القبر مفككة ولا بد من الترميم".

فيقول: "حاضر! إن شاء الله!".

فيقول ثالث: "الحقيقة إن هذا إهمال لا يجوز".

فيقول: "صحيح".

فيعود الأول إلى الكلام: "هل أدعو البنّاء واتفق معه؟".

فيقول: "لا... اصبر قليلاً".

فيقول الثانى: "كيف يمكن أن نصبر؟".

فيصيح به: "ومالك أنت؟".

فيقول محتجًا: "مالى؟ مالى يعنى ماذا؟".

فيصيح به مرة أخرى: " نعم مالك أنت؟؟ أهو قبرك؟".

فيقول مشمئزًا: "قبرى؟".

فيلح عليه صاحبنا: "هل أنت الميت المدفون فيه؟ أهو أبوك المدرج تحت هذه الحجارة المفككة؟ أما أن هذا لشيء بارد!".

فيغضب الأقارب وينهضون ساخطين ناقمين، وينصرفون، وتعاتبه زوجته فيقول لها:

"ما شأنهم بالله! القبر قبر أبى فما دخلهم هم فيه؟ ثم أن كونهم أقاربى لا يخولهم أن يحشروا أنفسهم فيما لا يعنيهم، ومع ذلك أنا أكره أنهم أقاربى".

فتقول مستغربة: "تكرههم؟! أعوذ بالله".

فيقول مصححًا: "لست أكرههم، وإنما أكره أنهم أقاربى".

ويرى أن إقناعها بفرق ما بين الأمرين عسير، فيمسك، ويتناول منها المعطف ويخرج وهو يقول لنفسه إن كونهم أقاربه مسألة مرجعها إلى الاتفاق المحض، وأنه لم يكن له رأى فى ذلك، وهو يختار أصدقاءه ويصطفى الموافق منهم، ولكنه لا يختار أقرباءه، فإذا كان فيهم الثقيل أو الفضولى، أو الحقود، أو من هو شر من ذلك، فإن القرابة لا تمحو ذلك ولا تقلبه خيراً، ومن العنت أن يطالب المرء بالإغضاء عن المعايب الثقيلة، وباحتمال مكارهها، من أجل صلة وهمية كصلة القرابة كل الفضل فيها للمصادفة.

***

وأقبل الليل، والفلوس تنفق فى الليل ولا تكسب، فمضى إلى إخوان له، وقضى معهم ساعة فى سمر شهى، ولكن همومه كانت تجثم على صدره وهو يضحك ويمزح، وكان يتكلف التبسط ويسرف فى الكلام والضحك ليهرب من نفسه، ولكن ذلك لم يجده شيئًا، فكانت وجوه أولاده وزوجته وأقربائه وصور القبر المتداعى والجدار المتهدم، تطالعه وتكاد تحجب عن عينه وجوه إخوانه فيقطع الكلام ويشرد هنيهة، ثم يرد نفسه بجهد على ما هو فيه، وقد نسى ما كان يقول، أو فاته ما كان يقال، ثم قام يتمشى وحده، وجعل وهو تمشى يعذب نفسه باللوم والتأنيب، ويناجيها بأنه أحمق مغفل، وأنه جدير بأن يحجر عليه، ويقول "لقد كان معى أمس جنيهان فلو رميت إليهم بواحد، واستبقيت واحداً للهوى وعبثى، لاستبشروا وارتحت، وإن معى اليوم لمائة وخمسين قرشًا غير جنيهى الأمس، فما ضرنى لو أنى كنت أعطيتهم جنيهًا آخر؟ ولو فعلت هذا كلما جاءنى رزق، لما بقيت لهم شكاة ولا سمعت ما أكره، ولكنى سفيه - أستقل ما يكون معى وأحتفظ به وأخفيه عنهم، حتى أضيف إليه غيره فأدفعه إليهم جملة، فتكون النتيجة أن الموجود يذهب وأنهم لا يأخذون شيئًا! فأين العقل هنا أو التدبير؟؟ والآن

ماذا أصنع؟ إن ما معى أقل جداً جداً من المطلوب، ولو أنى عدت إليهم وناولتهم هذا القليل لقذفوه فى وجهى وثاروا بى، فما يمكن أن يقبلوا منى بعد طول الانتظار هذا القدر الضئيل!! لا لا فائدة! لا فائدة؟ وأكبر الظن أنى سأظل سفيهاً ضال الرأى".

ومال إلى حانة وقعد يشرب، ولم يكن الشراب يطيب له وهو مستفرد ولا كان همه من الشراب حين يشرب، السكر، بل الحديث والسمر واللهو، ولكنه كان مترع النفس وكان يكره أن يظهر الشكوى أو التذمر مما جره على نفسه بسوء تدبيره، وجعل يكرع ولا يحسب، فقد انتابته نوبة فتور فوهت إرادته وضعف سلطان عقله، ولولا ذلك لبقى مع إخوانه أو لكر على البيت، فما كان يجهل أن الشراب لا جدوى منه ولا طائل وراءه، وأنه سيذهب بالبقية الباقية من أصالة الرأى وضبط النفس.

ثم نهض، فأحس كأنما صار رأسه فى حذائه، من الثقل، وفقدت الأشياء فيما يرى ثباتها واستقرارها، فالأرض تميد، والأعمدة تنثنى، والبنى تنطبق وتستوى، ورفع رجله ليخطو فكأنما حمل فيها أو ربط بها قنطاراً من الحديد، ووضعها وهو يرى الأرض بعيدة غائرة فدبت كأنما صك البلاط بحجر، وكاد من قوة الدبة المباغتة يقع على وجهه، فتطرح حتى صده عمود، فطوقه بذراعيه ومال بصدره عليه، وأسند رأسه - أو طربوشه على الأصح - إليه، وخيل إليه أنه سينام، ولكنه عالج عينيه حتى فتحهما وتلفت، وأحس بتخاذل جسمه وبدوران الدنيا من حوله، فقال لنفسه: إن أنا مشيت لم آمن أن أقع على الأرض فلا أنهض، فالرأى أن أجعل ظهرى إلى هذا العمود وعينى على هذه الشجرة ثم أقذف نفسى عليها فتتلقانى وتقينى.

وتلقته الشجرة بما تتلقى به أمثاله من التخديش والتجريح والإدماء والتمزيق، فبقى عليها لاصقاً بها حتى أفاق من الصدمة، ولم نزل يتطرح من عمود إلى شجرة، ومن شجرة إلى عمود حتى سقط فى حفرة حول جذع شجرة، فظل مرمياً فيها حتى

تنبه قليلاً، ومرت به فى تلك اللحظة سيارة فأومأ إليها فوقفت، وحمله سائقها فوضعه فيها.

***

وصار فى بيته واصطدم بكل ما فى الردهة حتى بلغ غرفته الخاصة وكان السرير فى أخرها، ومفتاح النور عند الباب، فاسند ظهره إلى الحائط وقال لنفسه: يجب أن أطفئ النور، ولكن كيف أبلغ السرير فى الظلام؟؟ وإذا تركت النور لم يؤاتنى النوم، فما العمل؟

وخطر له أن يقيس المسافة بين الباب والسرير، فى النور، ثم يعود إلى الباب فيطفئ النور، ويخطو، ففعل، وكانت المسافة سبع خطوات ولكنه عدها ستًا وارتد إلى الباب وأدار مفتاح الكهرباء وتوكل على الله وراح يخطو ويعد الخطى بصوت عال "واحد.. اثنين.. ثلاثة.. خمسة.. ستة". وأيقن أنه وصل إلى السرير فترك جسمه يرتمى، ونام – نام قبل أن يضرب رأسه الأرض.

وسمعت زوجته الصوت، فهبت مذعورة ودخلت عليه، فكاد قلبها يتمزق من الألم والحزن والعطف، وهمت أن تدعو الخادمة لترفعه معها إلى سريره، ولكنها أبت أن تدع عينا غير عينها ترى ما حل به، فوضعت يديها تحت أبطيه وجرته ثم رفعته شيئًا فشيئًا حتى أرقدته على سريره وقضت الليل إلى جانبه قاعدة على كرسى ترعاه، حتى إذا طلع الصبح وتحرك النائم، ورأته يوشك أن يستيقظ، تسلك راجعة إلى مخدعها.

***

ولا يزال يعتقد أن حسابه كان مضبوطًا، وأنه وفق فيما دبر وتخيل، ورأت زوجته من الحزامة أن لا تخجله فطوت الحقيقة وأمسكت على ما رأت وسلمت، فتوهم أنها لم

تعرف ما فعل السكر به، فحمد الله، وخاف أن يتكرر ذلك، فوكن النفس على القصد - على الأقل حتى يمر العيد ويفرح العيال ويكتسى الخدم وترضى الزوجة، أما القبر فقد أبى أن يرممه عناداً منه، وتعمداً لمساءة أقربائه.

وقالت الزوجة وقد رضيت: "الآن لم يبق موجب للفرار من البيت...".

قال: "صحيح!".

قالت: "وتبقى معنا فى العيد ولا تفارقنا...".

قال: "نعم".

قالت: "ويسرك هذا؟".

قال: "بالطبع يا بلهاء! إنما كنت أهرب من نفسى لا منكم".

فنظرت إليه بعين يومض فيها السرور، فقام إليها وقبلها، وقال وهو يعتدل:

"اسمعى... بعد أن أنام كل ليلة، تدسين يدك فى جيبى وتسطين على كل ما فيه من الفلوس... لا تدعى لى مليماً واحداً... فاهمة! هذه هى الطريقة الوحيدة لعلاج ضعفى وإصلاح حالى...".

قالت: "فتغضب وتصخب وتقيم القيامة؟!".

قال: "فلأغضب! ولأضرب الحائط برأسى! وماذا يعنيك من ذلك؟ إنى آمرك فأطيعى...".

قالت: "إنى أنذرك إذا غضبت وثرت، أن أجمع عليك العيال والخدم ليروك..".

فصاح بها: "لا لا لا.. إلا هذا!".

فقالت: "إذن اتق أن تغضب!".

كيف لم أسمع قصتها؟[٦٧]

زارتنى فى بيتى سيدة على وجهها مسحة من جمال، وتحت الثياب، الغضاضة والبضاضة لا الترهل على الرغم من الكهولة التى بيضت شعرها وأطفأت لمعة عينيها، وعزمت علىّ إلا ما كتبت لها قصتها، فإنها لا يحسن أن تكتب وإن كانت على زعمها تحسن أن تقرأ، وانطلقت تروى وتحكى، كالماء المحبوس تداعت أمامه السدود، وأنا أصيح بها كل بضع دقائق - لمناسبة أو لغير مناسبة - "يُخرب بيتك!" "يُقصف عمرك!" بضم الياء فى يخرب، ويقصف، فتمسك هنيهة وتنظر إلىّ وتسألنى فى كل مرة: "هل أنت سورى؟".

فأقول لها - فى كل مرة أيضًا -: "أنا أبو قلمون".

فتسأل وهى مقطبة: "أبو قلمون؟ ولكنك... المازنى؟".

فأقول: "هذا وذاك، اطمئنى... ولكنى أفضل أن أكون أبا قلمون، ألا تعرفينه؟".

فتقول وهى حائرة: "كلا، لم أتشرف بمعرفته".

فأقول: "مسكينة... ضاع نصف عمرك؟".

فتسأل: "ولكن من يكون، أبو قلمون هذا؟".

فأقول: "من كل لون يكون!".

---

(٦٧) نشرت فى جريدة البلاغ، ١٩ يناير ١٩٣٥، (ص٣).

فتدير عينها فينا وكأنها لم تعد قادرة على الفهم والإدراك، وتدركها زوجتى، أعنى يدركها العطف عليها، ولم أقل هذا من أول الأمر لأنى خفت أن أقول "يدرك زوجتى العطف عليها - أو يدرك العطف زوجتى عليها - أو يدرك عليها العطف زوجتى - أو شيئا كهذا" فتجئ الجملة بايخة، فمعذرة!

وأقطع هذا الحشو وأرجع إلى ما كنت فيه فأقول إن زوجتى تدركها - وأكرر أنى أعنى أن العطف هو الذى يدركها عليها فإنها طيبة القلب رحيمة - كما سترى - وتقول:

"يا ستى استمرى، ولا تلتفتى إليه، وإلا بلبل خواطرك - إنه متعب".

فالتفت أنا إلى زوجتى وأقول: "يعنى ماذا بالله؟؟ هل يليق أن تقولى هذا عن سيدك وتاج رأسك وزينة حياتك؟ يا للجحود! وأنا الذى أطعمها وأكسوها وأملأ لها البيت أطفالاً شباناً، وخدماً عجائز مع الأسف، ولكن هذا ليس ذنبى واجعل لها الجدران تتجاوب بأصداء الضحكات المجلجلة المقرقعة!! لا بأس! لا بأس! ألم يقل الأقدمون أنه لا كرامة لنبى فى قومه؟ فكيف بمن ليس نبى ولا حتى ولى من أولياء الله الصالحين؟ لا بأس! عند الله ثوابى...".

فتقول زوجتى: "هل انتهت الخطبة؟".

فأعود إلى الزائرة وأسألها: "اشهدى بالحق يا ستى!".

فترتبك - ولها العذر - وتسأل: "على أى شىء؟".

فأقول: "ألست ترييننى ظريفاً لطيفاً خفيفاً....".

فتقاطعنى زوجتى: "يا أخى اسكت... خلها تتكلم!".

فأقول غير منهزم: "إنى ألح عليها أن تتكلم.. قولى يا ستى.. بالحق.. اشهدى بما يرضى الله، هذا أنا أمامك بطولى وعرضى، أعنى بقصرى وهزالى، فهل ترييننى إلا...".

فتعود زوجتى إلى المقاطعة وتقول: "وبعد؟".

فأقول: "وبعد، تتركينها تتكلم؟ خلها تتكلم!".

فتقول زوجتى: "طيب!".

فأقول: "لماذا لا تريدين أن تسمعى شهادتها لى بالظرف واللطف والخفة - خفة الدم على الخصوص؟".

***

وتستأنف السيدة حديثها، أعنى أنها تعود فتبدأ من البداية، أيام كانت فتاة مقدودة قد السيف، وبها مثل ظمئه إلى دم القلب، فأقاطعها وأسألها:

"عفوك يا سيدتى، سؤال فى الموضوع".

فترمى زوجتى إلىّ، نظرة أدرك معناها وأتجاهله، وتقول السيدة: "تفضل!".

فأقول: "ألم تقرئى قصيدتى التى لم أنشرها؟".

فتقول: "لا، مع الأسف".

وتصيح بى زوجتى: "ألا تنوى أن تكف عن هذه المعابثة! كيف يمكن أن تقرأها وأنت لم تنشرها؟".

فأقول موافقًا: "صحيح، كيف يمكن؟ يا امرأة إنك ذكية، والشهادة لله!".

فتقول زوجتى: "طيب أشكرك.. والآن اسكت!".

ولكنى لا أسكت، لأن الحق حق وكتمانه حرام، فأقول:

"والغريب أنى لم أتمها - أعنى القصيدة - فهى كالبناء الذى وضعت أساسه ورفع بعض قواعده، ولكنه لا يزال مفتحًا للرياح وللشمس، فلا سقوف ولا أبواب ولا نوافذ، ولا طلاء ولا دهان، ولا أثاث ولا رياش، ولا ناس.. أعنى ولا حياة".

فتصيح بى زوجتى: "يا سيدى فى عرضك!".

فأقول بسرعة: "الحمد لله! أخيراً...".

فتسأل: "أخيراً ماذا؟".

فأقول: "اعترفت".

فتسأل: "بماذا؟".

فأقول: "بأنى سيدك! الله! وبقى أن تعترفى بأنى تاج رأسك و...".

فتقاطعنى: "معترفة... معترفة... بس اسكت، وخلها تتكلم!".

***

وتتكلم السيدة، أو على الأصح تحاول أن تتكلم، وأن تصل ما انقطع مائة مرة من حديثها، فاستوقفها وأقول: "من البداية... حينما كنت فتاة رشيقة، غضة بضة، حلوة، تأكلها العيون باللحاظ المنهومة...".

فتبتسم السيدة ابتسامة يمتزج فيها السرور والحزن، وتشير بيدها التى لا تزال طرية، وتقول: "كان زمان...".

فأقول: "ولكن الحديث - أعنى الإطالة فى الحديث - عن هذا أحلى... قولى يا ستى قولى... وأنا أساعدك... كان شعرك ذهبيًا... طبعًا".

فتحمر وجنتاها - تتقدان على الأصح - وتغضى حياء، فأقول:

"وكان طرفك ساجيًا... أين كنت أنا فى زمانك يا سيدتى العزيزة؟".

فتقاطعنى زوجتى: "وبعد؟ ألا تريد...".

فأقاطعها كما تقاطعنى وأقول بشىء من الحدة: "يا ستى دعينى أسمع القصة وأفهمها؟ سبحان الله العظيم!".

فتقول بمثل حدتى: "وهل هذه الأسئلة من القصة؟".

فأقول: "طبعًا! كيف تريدين أن أكتب لها القصة وأنا لا أعرف كيف كانت صاحبتها؟ إنى أحاول أن أرسم لها صورة فى ذهنى، وأن أتمثلها كما كانت... ولكنك تفسدين على الأمر وتقطعين رزقى ورزقك - أعنى رزق شيكوريل وسمعان إلخ... قولى يا ستى... أين كنت ساكنة؟".

فتقول: "فى باب الشعرية".

فأقول: "آه! وأنا كنت فى البغالة! شىء بارد!".

فتسألنى زوجتى: "شىء بارد؟ ماذا جرى الآن؟".

فأقول بلهجة المغيظ: "جرى؟ ألا تسمعين يا امرأة؟ جرى أنى كنت ساكنًا فى البغالة وهى فى باب الشعرية! هذا هو الذى جرى! ماذا تريدين أكثر من هذا فى باب البرود؟".

فتسألنى زوجتى وهى تضحك - لا أدرى لماذا -: "ولكن ما شأنك أنت؟".

فأصيح بها: "شأنى؟ تسألين عن شأنى، يا امرأة؟".

فتقول متهكمة: "نعم يا سيدى وتاج رأسى".

فابتسم مسرورًا وأقول: "لو كنت أنا أيضًا ساكنًا فى باب الشعرية، أو كانت هى ساكنة مثلى فى حى البغالة، لرأيت القصة رأى العين بدلاً من أن أسمعها الآن -

بعد أن قدمت - بأذني!! وما خير الأذنين؟ ما غناؤهما؟ ألم تسمعي قول ابن الرومي:

"هل العين بعد السمع تكفي مكانه

أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟"

فأنا الآن تنقصني هداية العين المبصرة!".

فتقول زوجتي: "مفهوم! والآن مضت ساعة، والسيدة تحاول أن تقص علينا قصتها وأنت لا تدعها تفعل...".

فأقول: "أنا كلي آذان - مع الأسف! - كنت ستقولين أن شعرك كان ذهبيًا، وطرفك كان ساجيًا، وكنت حبية خفرة، وكانت تلك خطرة الطاووس.. يا عيني!".

فتصيح زوجتي: "أووه! إن هذا لا يطاق!".

فأصيح مثل صياحها: "ما هو هذا الذي لا يطاق؟ إنها لا تتكلم، فأنا أتكلم بدلاً منها، أم تريدين أن نجلس كالبوم خرسًا بكمًا!".

فتقول زوجتي: "إن هذا والله شيء بارد!".

فأقول: "يا امرأة! ستصلين في جهنم نارًا حامية، وستسقين المهل وتطعمين الزقوم، جزاءً وفاقًا بما تأثمين في حق سيدك وتاج رأسك! وستوحوحين من حرارة الجحيم، وتشتهين يومئذ أن أنطف عليك قطرة من برودي! فأخرج لك لساني - رطبًا طريًا - من الجنة التي وعدها المتقون أمثالي! نعم، وأذهب أنا أرود ساحات الفردوس وأتمنى على الله أن يرد على هذه السيدة صباها ويضفي عليها جمالها الذي فتن الناس في زمانها كما كانت تنوي أن تحكي لي لولا مقاطعاتك المستمرة... وحينئذ أعرفها كما كانت، وأستطيع أن أكتب لها قصة كما ينبغي أن تكتب... فانتظري يا امرأة! انتظري فإني منتظر!".

فتقول زوجتى: "ثم ماذا؟".

فأقول: "ثم أنى منتظر أن أسمع القصة!".

فتقول: "وهل أنت تسكت؟".

وأرى عينها تومض، وأبصرها تنهض وتشير إلى الأولاد أن يتبعوها، وتخرج ويخرجون وراءها، فأتوجس، ويهبط قلبى إلى حذائى - الأيسر - ثم يعود فيصعد إلى حلقى، فأفهق، فيكر إلى الحذاء، ثم يرتد صاعداً إلى الحلق، فألعن الذى ابتكر فى هذا الزمان لعبة "اليويو".

وأسمع السيدة تقول: "يظهر أنى أضجرتكم... إنى متأسفة..".

فأقول وأنا ذاهل: "كلا والله يا ستى، ما ضجرنا، وإنى وحياتك لأشتهى أن أسمع قصتك، وإن كنت لا أستطيع أن أعدك بكتابتها، لأنى لا أكتب إلا ما يمر بى أنا من التجارب، أو ما أشهد من تجارب غيرى، ولكنى أخشى زوجتى فإن لها لمكراً سيئاً".

فتهم بالنهوض وتقول: "إذن اسمح لى أن أنصرف الآن؟".

فأقول: "لا لا لا... إن وجودك حماية لى، فابقى حيث أنت، فإنها ستستحى أن تنتقم منى أمامك".

ولكن أكثر الظن خطأ، فما كدت أنطق بالكاف فى "أمامك" حتى هجم علىّ الأطفال الملاعين بالدبابيس السوداء الطويلة فى أيديهم الصغيرة، وأقبلوا على يخزوننى بها فى كل مكان من جسمى بلا رفق أو تقية، وماذا يتقى الأطفال؟ أنى لعبة تتحرك وتتلوى وتصيح، فيزيدهم هذا سروراً ويغريهم بمعاودة الكرة والإغراق فى الوخز والبلاء، أنى لا أستطيع أن أدفع هذه الحملة بيدى، لأن الدبابيس مشروعة كالرماح، فما دفعت يدى فى ناحية إلا انغرس فيها دبوس من هنا أو ههنا، والكثرة تغلب

الشجاعة، والذى يحاذر لا قبل له بمن لا يحاذر أو يبالى ماذا يصيب من خصمه، لذلك انهزمت ورفعت يدى - إلى فوق - إعلانًا للتسليم.

فقالت الزوجة - من ورائى -: "ولا تعود إلى هذا؟".

قلت: "نعم - أعنى كلا - لا أعود".

قالت: "وتقسم؟".

قلت: "يا امرأة أخشى أن أقسم فأنسى، فأحنث!".

قالت: "عليكم به يا أولاد!".

فصحت: "لا لا لا... أقسم... أقسم...".

قالت: "افعل".

فقلت: "لقد فعلت".

قالت: "لا... بل تقسم مرة أخرى".

قلت: "خذى... إنى أقسم بنور عينيك الجميلتين، وبرقة قلبك معى وحنوك علىّ و...".

قالت: "أتتهكم؟ يا أولاد...".

قلت: "لا لا لا... ومع ذلك هل تريدين أن أقسم أن كبدك غليظة؟ إن هذا يكون كذبًا...".

ولما سكنت الضجة وانصرفت السيدة، سألتنى زوجتى: "لماذا لم تصغ إلى قصتها".

قلت: "كنت أوثر أن أشهد فصولها".

قلت: "هل أدعو الأولاد؟".

قلت: "يا امرأة..." وأمسكت.

قالت: "لماذا قطعت الكلام؟".

قلت: "ألست سيدك وتاج رأسك؟".

قالت: "لم تسأل؟".

قلت: "أجيبي... من فضلك!".

قالت: "نعم".

قلت: "إذن غفرت لك سلفًا، فادعى الأولاد إذا شئت... ستدخلى الجنة على طيارة، وأكون أنا قائدها....".

السيارة الملعونة![68]

كان لى– فى وقت من الأوقات – سيارة من طراز لا أُعينه "تسَعُ السبعةَ الأقاليم طرًا" ولم تكن بى حاجة إلى كل هذه السعة، فإنى، كما يقول ابن الرومى:

أنا من خف واستدق فما يُثـ ــقل أرضًا ولا يسد فضاءَ

وكنتُ إذا اتخذت مجلسى فيها لا أملأ إلا إصبعين منها، وكانت زنتها نحو طنين، أو بضعة قناطير، وأدع للقارئ حساب ذلك، فمالى قِبَل بالحساب أو صبرٌ عليه؛ وما حاجة مثلى إلى الحساب والبراعة فيه وكل أشيائى تعد بالآحاد، فإن كثرت جداً فبالعشرات؟؟ فأنا أكسب المال قرشًا قرشًا، وأنفق ما أكسب حتى قبل أن يصير فى كفى، فما يستقر منه فى جيبى شىء، فكأنى ساعى بريد، لغيره لا له ما يتعب فى حمله ويحفى قدميه وهو يدور به على البيوت! وما رأيت فى حياتى ورقة بمائة جنيه! وللبنك الأهلى غرف منحدرة فى الأرض، ولها نوافذ عليها شُبّاكة من السلك المنسوج، وحديد متعارض، فهى تؤدى الضوء ولا تنفذ منها اليدُ مع الأسف! وفى هذه الغرف تجلس فتيات إلى مكاتب صغيرة عليها حزم مكدسة من أوراق النقد المختلفة يختمنها بختم المدير أو لا أدرى ماذا يطبعن عليها، وكثيراً ما أقف بهذه النوافذ وأنظر إلى الفتيات، أو على الأصح إلى الأوراق – أعنى إلى الثروات – التى فى أيديهن، فأتنهد وأتحسر! وماذا تخسر الدنيا – أو البنك فإنه هو الدنيا فى تلك الساعات – إذا انتقلت إلى يدى

---

(68) نشرت فى مجلة الرسالة، 21 يناير 1935، (ص88–90).

بقدرة ربك - أو بعطف إحدى الفتيات - حزمة واحدة من هذه الأوراق الكبيرة؟؟ أيفلس البنك؟ كلا! أيقل الورق المتداول؟ كلا أيضًا! فإنى بارع فى إتلاف المال، فإذا صار فى يدى كثر التداول ولم ينقص، ولقد فتننى منظر الورق مرة فطال وقوفى ونفد صبرى، وخرج الرشد من أصابع كفى، فصحت بالفتاة الجميلة:" هش....هش...!".

فرفعت رأسها لى النفاذة ونظرت ثم ابتسمت وعادت إلى ما بين يديها، فعدت أصيح بها: "هش.... هش...!".

فصعدت عينيها مرة أخرى فأسرعت أقول: "يا بنت الحلال! إن مُنى النفس جميعاً فى حزمة من هذه الحزم الكثيرة - وفيك أيضًا لو تجودين! - فهلا أعطيتنى مما أعطاك الله؟".

ولا أدرى ماذا كان جوابها، فقد شعرت بيد غليظة على كتفى، فالتفت، فإذا شرطى ضخم، فقلت لأطمئنه:

"منظر جميل جداً، إن البنات يعملن بسرعة عجيبة، وأقول لك الحق، إنهن جميلات! من أين يا ترى يجمعنهم؟ ألا تعرف؟ لشد ما أتمنى أن يكون عندى ولو عشرين حزمة - أعنى بنتًا - من أمثالهن!".

فضحك، وسرنى ضحكه جداً، فحييته بأدب جم ولطف كثير، وتواضع جميل، وقلت وأنا أودعه:

"اجعل بالك إلى... إليهن، ولا تدعهن يغبن عن عينك! فإن لى فيهن والله لمآرب! إيه ما أحلى أيديهن الرخصة البضة! ليتنى أستطيع أن أضع كفى على كف واحدة منهن! ألا تتمنى ذلك يا صاحبى؟ متع عينك بالنظر يا أخى! متعها، متعها! وهل أقل من النظر؟".

***

ولكن سيارتى، تلك على جمالها وضخامتها وسعتها، أرتنى النجوم فى الظهر الأحمر، ذلك أنها كانت تستنفد من البنزين والزيت كل ما هو معروض فى دكاكينهما على طريقها، ثم لا تشبع، حتى لقد فكرت فى أن أصل خزانها بآبار الموصل! وكثيراً ما هممت بأن أغالطها وأدور من وراء خديعتها، وأملأ لها خزانها ماء بدلاً من البنزين، وأنا أقول لنفسى: "ومن أدراها أن هذا ماء لا بنزين؟" ثم إن خزان الماء كان يغلى كالمرجل بعد دقائق قليلة من السير، فتبدو لى علامة الخطر الحمراء، فأقف وأغير لها الماء، ثم أستأنف السير، وهكذا، وهذا فى الشتاء فكيف بها فى الصيف؟ ولهذا صرت أشترى الثلج، وأفتته، وأحشو به خزانها بدلاً من الماء، ولا أركبها إلا ومعى ذخيرة كافية من ألواح الثلج على المقاعد الخلفية.

ولو اقتصر الأمر على هذا لهان الخطب، ولأمكن احتمال المصاب، ولكن محاور العجلتين الخلفيتين كانت مبرية المساليط والأسنان التى تنبش فى العجلة وتعلق بها تدعها تفلت، ولم أكن أعلم هذا؟ وأنى لى أن أعرفه وهو شىء محجوب لا يبدو لعين الناظر؟ وكان فساد هذه الأسنان لا يُحدث أثره إلا وأنا فى أرض خلاء، لا أنيس فيها ولا ديار بها، فأكون سائراً مغتبطاً راضى النفس، منشرح الصدر، وفى يمينى سيجارة أنعم بتدخينها، وفى عينى ابتسامة عذبة، وعلى لسانى – أو شفتى، لا أدرى – ألحان أغنية جميلة، وأكون قد خرجتُ من العمران، وأطلقت لها العنان لتنهب فضاء الصحراء – حيث كنت أسكن – وإذا بصوتٍ يقول "كركركركركركر..." وإذا بإحدى العجلتين الخلفيتين قد خرجت من محورها وذهبت تجرى وحدها فى الطريق وإذا أنا مائلٌ على جنبى! فلا حضور ذهنى، وسرعة خاطرى، وثبات جنانى، لانقلبت بى السيارة، ولانتقل المازنى – بعد أن يجدوه – إلى رحمة الله، أو على الأقل إلى المستشفى!.

وأفتح الباب، وأترجل، وأدور بها لأنظر ماذا حدث، ثم أقول:

"شىء جميل! ولكن هل كان من الضرورى جداً أن تصنعى هذا هنا على الخصوص؟ ألم يكن من الممكن أن يحدث هذا فى شارع محمد على، أو القلعة، أو

غيرها، حيث الناس يروحون ويجيئون بلا انقطاع؟ أو أمام البيت على الأقل؟ سبحان الله العظيم! ما هذه الطباع الصبيانية؟!".

وأذهب أبحث عن العجلة الطائرة، ثم أدحرجها عائدًا بها، وأخلع المعطف والسترة، وأرفع الأكمام، وألبس ثوب "العمل" الأزرق، فقد احتجت إليه فحرصت عليه، وأخرج الآلة الرافعة، وعلبة الرزّات(٦٩)، وأحمد الله على أن المحور سليم لم ينكسر، وأرد العجلة إلى مكانها، ثم أتوكل على الله وأستأنف السير.

ولكن ما كل كرة تسلم الجرة، فكنت كلما ازددتُ احتياطًا لهذه المفاجآت، زادتني هي افتتانًا فى الحيل والمكر السيئ، وقد اضطررت أن أتخذ لى خادمًا يصحبنى فى السيارة ليعيننى على بلائها، فحدث مرة وأنا عائد إلى البيت، وكان الوقت منتصف الليل، أن كركرت العجلة - على عادتها - وطارت فى ميدان الأوبرا، فوقفت فى وسط الميدان، وأمرت الخادم أن يصلح ما فسد، ورحت أنا أتمشى على الإفريز وأدخن سيجارة حتى يفرغ من هذا الأمر، فجاءنى يقول إن المحور قد انكسر!.

قلت: "هممم! شيء جميل! خبر سار جداً، الثلج حملناه، والبنزين هذه ذخيرته وراءنا كأنا على سفر إلى القطب الشمالى، فلم يبق إلا أن نحمل معنا دكانًا كاملاً من أدوات السيارات والقطع اللازمة لها! لا بأس! غداً إن شاء الله نفعل ذلك، أما الليلة فعليك يا صاحبى أن تدخل فى السيارة وتغلقها عليك - أبوابها ونوافذها فإن البرد شديد - وتحضن العجلة المتمردة وتنام إلى الصباح، وإنه ليؤسفنى أن لا أنيس لك فى هذا الميدان الموحش سوى تمثال إبراهيم باشا، ولكنه كان بطلاً، فأحلم بوقائعه إلى الصباح... عم مساء وإلى الملتقى!".

***

(٦٩) الرزة حديدة تدخل فى القفل أو نحوه، وقد استعملتها هنا لما يسمونه "التيلة" [المازنى].

وأقسمت لأبيعنها، فما بقى لى على ألاعيبها صبر، ومضيتُ بها - بعد إصلاح محورها - إلى الدكان الذى اشتريتها من صاحبه، وقلت له: "بعها بأى ثمن! فما يعنينى إلا أن أتخلص منها".

وكان بينى وبينه ود، فسألنى: "هل تبيعها بنصف ثمنها؟".

قلت: "وبثلثه - بل بربعه!".

قال: "لا لا، حرام، إنها سيارة فخمة! ولو عرضتها بهذا الثمن الزهيد لظن الناس الظنون، ولتوهموا أن فيها عيباً لا يداوى! وأخلق بهم حينئذ أن ينصرفوا عنها ويزهدوا فيها".

فسألته: "بكم تنوى إذن أن تعرضها؟".

قال: "بمائة جنيه".

فصحت: "يا خبر اسود! بمائة؟ إن هذه سرقة!".

قال: "لا تكن أبله.... مالك أنت؟".

وبقيتْ عنده أسابيع، لا يشتريها أحد، فمررتُ به يوماً فألقيته خارجاً، فرجا منى أن أنتظره حتى يعود... دقائق لا أكثر... وأخبرنى أن سيدة ستحضر، فإذا جاءت قبله، فعلىّ أن أستقبلها وأحييها حتى يرجع.

وذهب، وجاءت السيدة، فلم يسعنى إلا أن أنهض لاستقبالها، لا لأن صاحب الدكان كلفنى ذلك، بل لأنها كانت أجمل من أن يستطيع امرؤ أن يجرؤ على إهمالها، فقالت:

"هل أنت المسيو....؟".

قلت: "ليتنى كنته! إذن لربحت فى العام ثلاثة آلاف من الجنيهات! كلا ! لقد خرج وسيعود بعد قليل جداً... تفضلى!".

فأجالت عينها حتى وقعت على سيارتى فقالت: "هل هذه معروضة للبيع؟".

قلت: "أظن ذلك! أعنى نعم!".

قالت: "إنها جميلة.. ضخمة... فخمة...(وفتحت بابها) وثيرة المقاعد... بديعة.. كم ثمنها؟".

فتنحنحت وقلت: "إ...أ... ثمنها! إ... مائة جنية!".

قالت: "ثمن معقول.. ليست بغالية".

قلت: "ولكنها لا تصلح لك..أعنى أن عيوبها فظيعة!".

قالت: "عيوبها؟ إنه لا عيب فيها!".

قلت: "الماء يغلى بعد دقائق".

قالت: "طبيعى....".

قلت: "تحرق وقوداً كثيراً.. تحتاج إلى جالون من البنزين كل أربعة أمتار".

قالت: "لا تبالغ... إنها كبيرة ضخمة، فمن المعقول أن تحتاج إلى وقود كثير".

قلت: "والعجل يطير أثناء السير".

قالت: "أوه! هذا الإسراف فى الطعن؟ هل أستطيع أن أجربها؟".

فخرجت بها، ودرنا بها دورات، ولم أرحمها - أعنى السيارة - لأبرز لها - أعنى للسيدة - عيوبها - أعنى السيارة هذه المرة - فما كان فى (السيارة) هنة، ولكنها كانت

كأنها مسحورة، فلا البنزين القليل الذى وضعته فيها نفد، ولا الماء غلا، ولا العجلة طارت.

وقالت السيدة: "أترى كيف كنت تبالغ؟ إن ماءها بارد كالثلج! ولا يزال أكثر البنزين باقيًا، والعجلة فى مكانها ثابتة، لو كان كل تاجر يصد الزبائن كما تفعل، لخرب!".

فلم تبق لى حيلة، وجاء صاحب المحل فتمت الصفقة، وحسب لى نصيبى من الثمن، مقدمة لثمن سيارة أخرى...

ولا أدرى ماذا كان من أمر السيارة مع هذه السيدة المسكينة ولكنها لا ذنب لى، فقد حذرتها وأنذرتها، وأبرأت ذمتى.

وجه فقر....؟[٧٠]

يزعم أخى أنى لا أزوره، ويشكونى إلى الناس والحجارة، فإما الناس فيفتحون له أبواب الكلام فىّ، ويساعدونه على استهجان هذه الطباع منى، ويقولون له: "شىء غريب! فكيف لو أنه لم يكن أخاك؟ وهو شقيق، أليس كذلك؟".

فيقول: "نعم، شقيق".

فيقولون: "لو كان أخاك من أبيك فقط، ومع ذلك يقولون فى الأمثال: رب أخ لك لم تلده أمك".

فيقول: "لقد ولدته أمى بلا شك.. أعنى أنى لم أره حين جاء، فإنه أكبر منى، ولكنه لا شك فى الأمر... كلا... لا شك!".

وأما الحجارة فتسمع منه ولا تقول شيئًا، لأنها عاقلة رزينة لا تحب أن تدخل بين البصلة وقشرتها، وقد قلت له يومًا بعد أن أطال فى العتاب:

"يا أخى، اسمع، إنك أخى، أليس كذلك؟".

فقال: "أظن".

قلت: "أنا واثق يا سيدى، واثق.. لقد رأيتك بعينى، وكدت أفقأ لك عينك بإصبعى هذا... وأنت أخى على التحقيق، وإن كنت تزعم أنى أخوك على الترجيح، على كل حال أنت معذور، فما راء كمن سمعا".

---

(٧٠) نشرت فى جريدة البلاغ، ٢٦ يناير ١٩٣٥، (ص٣).

فقال: "نسلم جدلاً أن الأمر كذلك، وبعد؟".

فقلت: "لا تكن مكابراً، لقد أنصفتك، وظلمت نفسى، فتركت لك مزية الشك، وحرمت نفسى، فماذا تبغى أكثر من ذلك؟".

فقال: "حسن، اتفقنا، وبعد؟".

فقلت: "بعد، إنى أراك وترانى، فما قيمة أن تكون الرؤية فى بيتك أو فى بيتى أو فى الطريق أو فى القهوة؟؟".

فقال: "الفرق كبير بين...".

فقلت: "هذه ثرثرة فارغة، إن كل ما تبغيه هو أن تفوز بنعمة لقائى وتتمتع بجمال منظرى وأنس مجلسى وعذوبة حديثى، وهذا كله مبذول لك فى حيثما يكون اللقاء، فإنى كالشمس لا أبخل بالنور والحرارة على حيوان أو جماد، حتى ولا عليك".

ولكنه لم يقتنع بهذه الحجج الدامغة، وأصر على أن أزوره، وتوعدنى إذا لم أفعل أن يقطع العلاقات ويبت الصلات فأذعنت لأن الدم هو الدم، ويظهر أن دمنا غليظ جداً - أعنى ثـ... ولكنى لا أدرى ماذا أعنى، فيحسن أن لا أتكلف الشرح، واتفقنا على يوم الزيارة وساعتها ودقيقتها، وكم يوماً تكون - عوضاً عما فات! - وصحت فى البيت: "يا أولاد!".

فاحتشد أبنائى حولى وجعلوا يهتفون: "نعم يا بابا!".

قلت: "تجهزوا للرحيل... هاتوا الحقائب.. وأنت يا امرأة ما لك لا تجيبين؟".

قالت بابتسام خبيث: "وهل أنا ولد؟".

قلت: "يا نور عينى، أنت والله خير من ألف ولد.. قومى أصلحك الله إلى حاجاتنا فاجمعيها واحشى بها هذه الحقائب!".

قالت: "ولكن لماذا كل هذا؟ أترانا ذاهبين إلى بلد غريب؟".

قلت: "سـبـحـان الله العظيم! إنا ذاهبـون إلى أبعـد من كل بلد... إلى الإمـام الشافعى وقانا الله السوء... وسنقيم هناك أيامًا، فأنا أحب أن نكون كأنا فى بيتنا... قومى... قومى ولا تكسلى!".

فقامت تجمع الأشياء، وترتبها فى الحقائب، وكلما أغلقناها، عدنا فتذكرنا أنّا نسينا شيئًا آخر لا غنى عنه، فنفتحها، ونخرج ما فيها، ثم نرتبها من جديد، وتحاول أن تغلقها، فتصيح بى: "تعال هنا...".

فأقول: "ماذا تريدين منى؟ لقد ذكرتك بكل ما كنت ناسية، فأديت واجبى، والباقى عليك".

فتقول: "كلا، بل ساعدنى على إغلاق الحقيبة، فإنها منتفخة جدًا، وغطاؤها لا ينطبق عليها".

فأقول: "اسمعى يا امرأة، إنى رجل تفكير، وميدانى الأعمال الذهنية لا الجسمية، كلى رأس، وقد أديت واجبى، وجعلت هذا العقل الجبار فى خدمتك ثلاث ساعات، فقومى أنت أيضًا بواجبك يا امرأة، فإن الكسل معيب، معيب جدًا".

فنهضت عن الحقيبة وكانت راكعة عليها لتضغطها وتطبق غطائها، وجرتنى من يدى وهى تقول: "تعال هنا...".

فصحت وأنا أتعثر وراءها: "وما فائدة الخدم بالله؟ لماذا لا تنادينهم؟ إنى أنقدهم فى أول كل شهر – أول يوم منه قبل أن أقوم من النوم، قبل أن أفتح عينى – أكثر مما يستحقون، ولا أراك مع ذلك تستخدمينهم فى شىء، فهل أنا أعمل وأكد وأضنى نفسى لأجمع رزقهم وهم قعود؟؟ هل أنا خادمهم الذى يسعى لهم أم هم خدمى؟".

فقالت، وهى لا تزال قابضة علىّ: "لا تتفلسف من فضلك، فلن تجديك هذه الفلسفة.. ثم أن الخدم مساكين، لا يكفون عن العمل فى بيتك هذا... إن غرفة الكتب وحدها تشغلهم طول النهار ولا تدع لهم راحة يرتاحونها.. فما أعرفك تدخلها خمس دقائق إلا صارت بعدها كالسوق.. كتب مبعثرة.. وأوراق منثورة.. بعضها سليم، والبعض ممزق.. وجرائد ومجلات،وأعقاب سجاير.. ومناديل مرمية فى الأرض، ألا يمكن أن تتعلم النظام مرة فى العمر؟".

فقلت: "آه دعينى، لقد أذكرتنى.. ألا يمكن أن تتعلمى أنت أن تدعى مكتبتى وشأنها؟ إنى أترك الكتاب فى موضع، فإذا عدت لم أجده فيه، فاقضى ساعة فى البحث عنه. فما شأنكم بالله إذا كانت كتبى مبعثرة أو غير مبعثرة؟ أهى كتبى أنا أم كتب هؤلاء الخدم؟؟".

فقالت: "يكفى هذا.. أبق شيئًا للغد.. والآن، يجب أن نغلق هذه الحقيبة... فتفضل وساعدنى".

***

وأخيراً، فرغنا من الحقائب، وتشهدت،وجلست على كرسى ووضعت ساقًا على ساق وأخرجت سيجارة، وقلت: "اصنعوا معروفًا وهاتوا لى قهوة!".

فصاحت زوجتى: "قهوة؟ بعد أن رتبنا كل شىء فى مكانه؟ أتريد أن نقلب نظام البيت رأسا على عقب؟".

فقلت بغضب: "ولكن رأسى مصدع! ثم أنى لا أفهم كيف يمكن أن يقلب نظام البيت رأسًا على عقب! أين رأسه وأين عقبه؟ هذا كلام فارغ! أرينى الرف وأنا أجئ بالإبريق والفناجين والبن والسكر، ولك علىّ أن أغسل كل ذلك - أعنى الإبريق والفناجين فقط، لا السكر والبن والماء بالطبع - وأردها إلى مكانها".

فأبت أن تمس شيئًا من أدوات البيت بعد أن رتبتها، فقلت: "أمرى إلى الله... إذن قفوا بى على مقهى فى الطريق لأشرب فنجانًا".

فقالت: "شىء لطيف جداً... معقول أن نقف بالسيارة على مقهى وتدخل حضرتك وتجلس وتضطجع وتشرب قهوتك على مهل، ..السيجارة فى يد، والفنجان فى يد، ونحن فى الشارع ننتظر، والناس يروحون ويجيئون حولنا وينظرون إلينا ويتفرجون علينا... والباعة يخايلون الأولاد باللعب والحلوى.. وهم يصرخون... هاتى لى يا ماما لعبة.. هاتى لى يا ماما... شىء لطيف جداً والله!".

فاقصرت، ودعونا بسيارة، جاءت ووقفت تنتظر، حتى أنزلت الحقائب، ورصت وركبنا، وأدار السائق المحرك، وأنزل راية "العداد" وهم بالسير، وإذا بزوجتى تقول: "انتظر! انتظر...".

قلت: "ماذا إن شاء الله؟".

قالت: "هات الحقيبة الصغيرة.. لا... الأخرى... افتحها... هل فيها الإسفنج؟ لا؟ لقد نسيناه! اصعد وهاته".

فصعدت فألقيت الإسفنج فى طشت فيه ماء، فعصرته وغسلته، وعصرته مرة أخرى ولففته فى جريدة قديمة، وحملته إلى السيارة وقلت: "أين أضعه؟".

قالت: "ليس له مكان فى الحقيبة... ابقه فى جيبك!".

فصحت "إيه؟ فى جيبى؟ أمجنونة أنت؟".

قالت: "وأى ضرر؟".

قلت: "ضرر؟ إن ثيابى جديدة، ولم أدفع ثمنها وهذا الإسفنج مبتل".

قالت: "اعصره يخرج منه الماء".

قلت: "يا ستى عصرته مائة مرة، ولكنه يخزن الماء لا أدرى أين".

قالت: "لا تبالغ... إذا كنت قد عصرته فإن...".

قلت: "هو على الأقل مبتل ومع ذلك انظرى".

وعصرت الإسفنج أمام الناس – على أعينهم – فى الطريق، فخرج منه ملء كوز

فقلت: "هل صدقت الآن أن الإسفنج خبيث لا أمان له ولا ثقة به؟".

قالت: "صدقت، فضعه فى جيبك وأركب".

***

وصرنا فى بيت الأخ العزيز، وفرح بنا جداً وغالى فى إكرامنا، حتى لآبى أن يتركنى وحدى دقيقة واحدة مخافة أن أسأم أو أمل، ومضى اليوم الأول – أعنى الليلة الأولى – بسلام، وفى اليوم الثانى، زارتنا خادمة قديمة، وسلمت علىّ وقالت: "مبروك!".

قلت: "بارك الله فيك! أى شىء هو المبروك؟".

قالت: "أربعة الآف من الجنيهات!".

فصحت: "إيه، أربعة آلاف من الجنيهات؟ ماذا تقولين؟".

قالت: "أليس صحيحاً؟".

قلت: "ما هو؟ عن أى شىء تتكلمين؟".

قالت: "ألم تكسب أربعة آلاف من الجنيهات من ورقة يانصيب؟".

قلت ورفعت يدى: "سمع الله منك يا شيخة! اللهم اجعله حقًا يا رب!".

فمضت المسكينة عنى وهى حزينة، فقد خاب أملها، وذهب ما كانت ترجوه لو صح الخبر، وصدق الحلم، على أن للخبر بقية هو أنى ربحت أربعة آلاف من الجنيهات وأنى نويت أن أتجر بها فى البن اليمنى، فقلت لزوجتى:

"يا امرأة، لقد صار رأى الناس فى زوجك أنه رجل عاقل حكيم".

قالت: "كيف، قل وطمئنى!".

قلت: "لو أشاعوا عنى أنى سأنشىء جريدة، أو أطبع كتبًا أو أفتح مكتبة لكان هذا دليلاً على أنهم ما زالوا يستحمقوننى ويظنون أنى مجنون، أما وقد أذاعوا أنى سأشتغل بتجارة البن، فمعنى هذا أنى رشدت فيما يعتقدون".

***

ورجعت فى الليل، فلما نزلت من الترام، سرت خطوات ثم وقفت، فقد كان على أن أقطع إلى البيت طريقًا مظلمًا موحشًا، لا أنيس فيه ولا أمن، ولم أكن أخاف هذه الطرق، ولا كنت أبالى فى أية ساعة من ساعات الليل أسير فيها، وما لقيت فيها أحدًا، ولا أزعجنى حتى ولا قط، ولكنى كنت يومئذ يعرفنى الناس لا أملك إلا ما أكسبه بعرق جبينى أما الليلة فأنا فيما ذاع عنى أملك أربعة آلاف من الجنيهات عدًا ونقدًا ربحتها من ورقة يانصيب، واعتزمت أن أستغلها فى التجارة، ولا يبعد أن يصدق بعضهم هذه الإشاعة فيتعرض لى فى الطريق عسى أن يكون معى من هذه الآلاف ولو مائة! ولا سلاح معى، وعلى أنه لو كان معى سلاح لما عرفت كيف استعمله، فما العمل؟ كيف اجتاز هذه القفار إلى البيت؟؟ وسخطت على أخى، وقلت لنفسى هذا ما تجره زيارة الأقارب؟ وأقسمت لا أعود ولو شنقونى، وعزمت أن أكر راجعًا إلى بيتى من الغد ولو حملت الحقائب كلها على رأسى، وعلقت كل ما فى البحار من الإسفنج حول عنقى!.

ولمحت رجلاً يمشى أمامى بخطى ثقيلة فهرولت إليه ونظرت فعرفته فقلت:

"السلام عليكم!"

قال: "وعليكم السلام... ورحمة الله وبركاته! أهلا وسهلا!".

قلت: "أهلا بك! من أين وإلى أين؟".

قال: "إلى البيت".

قلت: "من هنا بيتك؟" وأشرت إلى الطريق المخوف".

قال: "أى والله.. هذا الطريق أقرب وأخصر".

قلت: "إنك خواض ليل... سأرافقك".

قال: "كلا لا تتعب نفسك".

قلت: "استغفر الله.. لا تعب.. لماذا لا تزورنا؟".

قال: "وهل عدت إلى السكنى هنا؟".

قلت: "لا، ولكنى أزور أخى... لى ثلاثة أيام وأنا أزوره... كل يوم أزوره.. حتى يشبع، تعال معى لنسقيك قهوة".

قال: "الوقت ليل، والقهوة تطير النوم".

قلت: "إذن اشرب شايًا.. أو سحلبًا.. اشرب أى شىء ولو كان ماء".

قال: "ألف شكر يا سيدى... عامر إن شاء الله!".

قلت: ""تعنى بيت أخى؟؟ لقد كنت أسخط عليه الآن – على أخى لا على البيت".

قال: "لماذا؟ إنه رجل طيب".

قلت: "من بعض ما عندكم، ولكنه يا أخى جرنى إلى هنا بلا مناسبة وأنا مشغول كما تعرف، عملى كثير... أفكر طول النهار... طول النهار... وفى الليل أيضًا، وأنا نائم أحلم، هل جربت التفكير؟".

فقال: "التفكير؟ لا والله! خير إن شاء الله!"

قلت "شىء يفتت الرأس.. احذر أن تفكر يا صاحبى".

قال: "صحيح، وجع رأس بلا فائدة كله بيد الله، على فكرة، مبروك!".

فوقفت وصحت: "إيه؟ مبروك؟ تقول مبروك؟".

قال: "الورقة التى ربحتها؟".

قلت: "يا خبر أسود! وهل استفاضت الإشاعة إلى هذا الحد؟".

قال: "وما له؟ زادك الله يا سيدى من نعمه الجزيلة!".

قلت: "أعوذ بالله من هؤلاء الناس!".

قال: "صحيح لا يمكن أن يبقى السر سرًا فى الإمام!".

قلت: "أى سر يا شيخ؟ إنه كذب... كذب محض.. ليس له أصل!".

قال: "اتق الله، ومع ذلك هذا شىء يعنيك وحدك".

قلت: "اتق الله أنت".

ورجعت عن عزمى أن أمشى معه، ولكن هل أبيت فى الطريق؟ أم أرجع أدراجى إلى بيتى - بيتى أنا لا بيت أخى العزيز الذى قد لا أبلغه إلا محمولاً على الأعناق ودمى الذكى يسيل منى؟".

وقال الرجل: "لماذا وقفت؟".

قلت: "أفكر فى سخافة هذه الإشاعة لا أدرى أى كذاب سخيف أذاعها! إنها كذب محض، افتراء لا يليق!".

فقال: "لا بأس! وماذا يضرك من كذبها؟ الصيت ولا الغنى يا صاحبى!".

قلت: "أى صيت؟ سيذاع أنى اغتنيت بعد الفقر، وكثر معى المال، فيقبل الدائنون جماعات جماعات فماذا أصنع؟ كيف أتقيهم أو أردهم عنى؟ ومن أين أجيئهم بما يطلبون ولا مال عندى؟".

فوافق الرجل على أنى مسكين، وجعل يخفف عنى ويدعو لى الله أن يلطف بى، وبقى معى حتى بلغت البيت فودعنى.

وقلت لزوجتى: "من الفجر..."

قالت: "ما هو؟".

قلت: "الرحيل.. من الفجر.. إنى ما زلت شاباً، ولست أنوى أن أقتل قبل الأوان فى هذه الفلوات".

قالت: "شاب؟".

قلت: "يا امرأة، إياك والبطر، فإنه غى وضلال! نعم شاب على الرغم من هذه الشعرات البيض".

قالت" "شعرات فقط؟".

قلت: "لقد ولدت هكذا.. بأسنانى وشعرى الأبيض.. شبت فى بطن أمى.. على أن العبرة ليست بالشيب، بل بإحساس المرء، وأنا فيما أحس طفل صغير لا يزال عمره كله أمامه، لم يمض منه شىء، ثم إنى لن أهرم يا امرأة، وأنت معى..".

قالت: "أشكرك...".

قلت: "ونرحل غداً.. من الفجر".

قالت: "كما تشاء..".

قلت: "الحقيقة أنى لا أطيق هذه الإشاعة.. فكيف لو أنها كانت حقيقة".

قالت: "وجه فقر!".

قلت: "أى والله يا امرأة!".

قالت: "لا والله، فما تصلح إلا للغنى".

قلت: "يا امرأة إن قلبى وربى راضيان عنك، ونعم العوض أنت عما فاتنى من الغنى!".

كيف صرف الله عنى السوء؟(٧١)

اشتهيتُ أن أقول الشعرَ فى الأسبوع الماضى، بعد أن فطمتُ قلبى عنه سنوات وسنوات، فدخلت مكتبتى - أعنى غرفتها لا وقوف الكتب فيها - وأغلقت الباب، وقلت لنفسى: "الآن، أمنت أن يزعجنى هؤلاء الأطفال الملاعين ويُطيروا عقلى - أو ما بقى لى منه، وهو قليل - بضجاتهم وكراتهم وزماراتهم وأسئلتهم التى لا تنتهى، ومشاكلهم العويصة التى لا تحل، واستبدادهم الذى لا يُطاق، إنهم أطفال جديدون وأنا رجل قد شيّخت، وهم حركة دائمة، وأنا فتور يزداد على الأيام، وسينتهى عاجلاً أو آجلاً، بل آجلاً إن شاء الله - إلى الركود، وهم استعداد مطلق، وأنا نطاق محدود، وكيف بالله أطيق أن أظل ألاعبهم الكرة، أو أجاريهم فى الزمر والوثب والصياح؟؟ وما صبرى على هذه الأسئلة التى ليس لها عندى جواب؟؟ سألنى أحدهم - أصغرهم -:

"بابا...".

قلت: "نعم".

قال: "هل أنت بابا؟".

قلت: "نعم، وأمرى إلى الله يا بنى".

قال: "صحيح؟".

(٧١) نشرت فى مجلة الرسالة، ٢٨ يناير ١٩٣٥، (ص١٣٤-١٣٧).

قلتك "أو يخامرك شك يا ملعون؟؟ أم لا يعجبك أبوك؟؟".

فجعل يردد كلمة "بابا" مستغربًا ثم سأل: "يعنى إيه؟".

فلم أجد عندى جوابًا حاضرًا لسؤاله، وعالجته، وحاورته وداورته حتى انصرف عن هذا الموضوع، ولكنه لم ينسه، فهو يكر علىّ به كل بضعة أيام، فمن كان يعرف لسؤاله هذا جوابًا مقبولاً فليسعفنى به، وله الثواب من الله.

وسألنى مرة، ونحن على السفينة الذاهبة بنا إلى بيروت: "هذا هو البحر؟".

قلت: "هو بعينه – أعنى بموجه".

قال: "هل للبحر حنفية؟".

قلت: "لا".

قال: "لماذا؟".

فهربت من الجواب لأنه طويل، وكان بى كسل فى تلك الساعة، فماذا يسأل:

"ماذا يحدث إذا وقعتُ فيه؟".

قلت: "تغرق فتموت".

قال: "يعنى أكون كالسمك الذى فيه؟".

قلت: "كلا، إن السمك الذى فيه حى، أما أنت وأنا فإنّا نموت إذا وقعنا فيه، لأنّا لا نعرف السباحة، ولم نخلق لنعيش فى الماء كالسمك".

قال: "نموت كيف؟".

قلت: "نموت يا أخى! سبحان الله العظيم!".

قال: "ولكنى أريد أن أعرف".

قلت: "أنا لم أمت، فكيف أعرف؟".

قال: "بابا".

قلت: "يا ساتر استر، نعم يا سيدى!".

قال: "أريد منك شيئًا".

قلت: "على العين والرأس يا حبيبى، قل يا سيدى، تفضل يا روحى!".

قال: "لماذا تتكلم هكذا؟".

قلت: "لأنى أعرف أنك ملعون خبيث".

قال: "لا..." وضحك "إنما أريد أن أراك".

قلت: "وهل عميتَ؟ ألست ترانى أمامك؟".

قال بسرعة: "لا لا لا... إنما أريد أن أراك، فى... فى الماء!".

قلت: "تعال إلى الحمام، فإن فيه حوضاً عظيماً".

قال: "لا" ممطوطة، بازدراء، "فى البحر...".

قلت: "يعنى تريد أن أغرق، وأموت؟".

قال: "آه! لأجل خاطرى، ألست تحبنى؟".

فلولا أن أدركتنى أمه، لوجب علىّ أن أغرق تحت عينه، وهكذا إلى آخر ذلك إن كان لما يتقاضانى آخر يعرف.

فقالت لى نفسى: "اسمع يا مازنى، إنك قليل العقل، ما فى هذا شك".

قلت: "أشكرك، فهل تسمحين أن تبينى السبب؟".

قالت: "نعم، هذا أنت تخلو بى، لتنظم شعرًا، فبدلاً من أن تتناول القلم وتكتب، تذهب تتمثل ما يدور بينك وبين أولادك، فتضيع الوقت فى غير طائل ولا تصنع شيئًا. فإذا لم تكن هذه قلة عقل فإنه يسرنى أن أعرف ماذا هى؟".

قلت وأنا مغيظ: "استدراك! إنى لا أخلو بك لأقول الشعر، أعنى أنك – ولا مؤاخذة – لست الباعث على قول الشعر".

قالت: "لا تكن قليل الذوق أيضًا!".

قلت: "إنها الصراحة والحق، لا قلة الذوق، ثم إنك مخطئة، فإنى لم أدخل هذه الغرفة لأنظم شعرًا، بل إنى اشتهيت هذا، فأنا أريد أن أهتدى إلى الوسيلة التى تعيننى عليه".

قالت: "الوسيلة؟ أية وسيلة؟ تناول القلم واكتب!".

قلت: "يا سلام؟ ما أذكاك! لو كان هذا كل ما يتطلبه قول الشعر لما عجز أحد عنه".

قالت :"إذن ماذا تبغى؟".

قلت: "اسمعى أقل لك... إنى أصفيتُ، أو على الأصح انقطعتُ عن النظم لأنك خلية، فأنا أريد الآن أن أشجوك، أعنى أن أملأكِ".

قالت: "كيف؟ فإنى غير فاهمة؟".

قلت: "لك العذر، فقد صرت كالصحراء، التى نسيت الماء من طول ما أنحبس عنها".

قالت: "ألا تقول وتوجز؟".

قلت: "إذن أقول إنى أريد أن يعمُر قلبى الخَرِب، وبعبارة أخرى أقرب إلى فهمك الكليل، أريد أن أحب".

قالت: "تريد؟ هه؟".

قلت: "آه أريد! وأى غرابة فى ذلك؟".

قالت: "لا فائدة من الخلاف فإنك مكابر، وماذا تنوى أن نصنع؟".

قلت: "أنوى؟ ليس أسهل من ذلك! أدور بعينى حتى تقع على واحدة تستحق أن أحبها - هذا ما أنوى أن أصنع".

فمطت شفتيها - مجازًا - وأشاحت عنى وجهها، فقلت فى سرى، والله لأغيظنّها! وخرجت ألتمس الحبّ، وأدور بقلبى على النساء، وأفتحه لمن شاءت أن تقع منهن فيه، وكنتُ مستعداً - لأكيد لنفسى - أن أحب عشرين امرأة دفعة واحدة، ولم لا؟ إن كل ما يعنينى، وما أبغيه، هو الحب، لا المرأة، وأثره لا وسيلته وأداته، فكلما كانت النار أقوى، واللهب أعلى كان لك خيرًا لى، ثم إنى أريد أن أجرب كل حب، أعنى الحب من كل صنف، ولون، حتى الذى يعقب الخبل ويورث الجنون، والذى يحرق الثياب، ويترك القلب عاريًا، وصرت كلما رأيت سربًا من الفتيات، أقول لهن: "ادخلن يا فتيات!".

فيقلن: "أين؟".

فأقول: "هنا فى قلبى، إنه عظيم! شىء مهول جداً، يسعكن جميعًا ويسع مائة من أمثالكن، البدار البدار، فإنها فرصة لا تعوض".

فيتضاحكن ويمضين عنى - لا أدرى لماذا؟ كأنما لهن طلبة فى الحياة غير الحى، أو سبيل إلى طلبتهن غيره؟، وألاقى غيرهن، فأدق الناقوس، وأستوقفهن وأسألهن:

"ما قولكن؟".

فيقلن: "فى أى شىء؟".

فأقول: "فى أن أحبكن جملة؟".

فيقلن: "مجنون؟".

فأقول: "أطعننى، فإنى أعرف ما لا تعرفن! هذا قلبى قد فتحته لكن على آخره، فأدخلن فيه، أنتن ومن تخترن غيركن من صواحباتكن، فلن يضيق بكن، فإنه أعمق وأرحب من البحر الأعظم... أزخرنه لى، وغصن فى أعماقه، وامددن لى أيديكن بالدر المكنون الذى لا تبلغه يداى؟".

فيمضين عنى ولا يعبأن بى، فيهبط قلبى، وتفتر دقاته، وتهى نبضاته، وألمح النفس تبتسم ابتسامة الشماتة، فيستفزنى ذلك، فأكر إلى البحث، ولا أطيل.. لقيتُ آخر الأمر فتاة قالت لى: "هل تريد أن أحبك؟".

قلت: "لا.. إنما أريد أن أحبك أنا".

قالت: "وماذا يمنعك؟".

قلت: "صحيح! أما والله إنى لمغفل! وماذا منعنى أن أحب نساء الدنيا كلهن؟؟ أم ترانى كنت أحسب أن الأمر يحتاج إلى استئذانهن؟".

فقالت وهى تضحك: "أنت تحبنى - هذا حسن..".

فقاطعتها قائلاً: "لا تغلطى يا فتاتى، إنى "أريد" أن أحبك".

قالت: "لا بأس، أنت تريد أن تحبنى، هذا حسن، وأنا ماذا أصنع بنفسى؟".

قلت: "لا شىء، أو إذا شئت، فإن فى وسعك أنت أيضًا أن تحبينى".

فضحكت وقالت: "أهو شىء بالإرادة؟".

قلت: "إنك سخيفة كنفسى، ولا مؤاخذة!".

فقالت: "ولماذا تريد أن تحب؟".

قلت: "لأنى أريد أن أقول شعراً، وعلى أن هذا شىء لا يعنيك، فدعينى وما أريد، والباقى علىّ، فلن يكلفك شيئاً".

***

فتركتنى لرأيى، وجعلت وكدى بعد ذلك أن أحبها، وذهبت أقنع قلبى بأنه قد أصبح عامراً - ولكن نفسى - قبحها الله، أو زادها قبحاً - كانت تخرج لى لسانها هازئة، فيهيجنى هذا منها، ويسخطنى عليها، فأغافلها أحياناً وأتحسس قلبى بيدى لأستوثق، وأضع راحتى على بطنى لعلى أشعر بالنار التى يجب أن تكون مضطرمة فيها، فلا أحس أن النبض أسرع أو أقوى، ولا ترتد راحتى إلا باردة كما كانت، فأقول لفتاتى:

"اسمعى، هاتى أذنك، فإنى أخشى أن تسمعنى نفسى فتشمت بى".

وأسر إليها أنى لا أحس شيئًا من مظاهر الحب، وعلاماته، فأنا آكل كالمنهوم، وأنام كأنى حقنت بالمورفين، ولا أرانى أفكر فى شىء غير ما يتفق أن أكون فيه، -لا خفقان فى القلب، ولا اضطراب فى الصدر، ولا شوق، ولا شىء مما يصفه المحبون غيرى، بل أنا أنسى اسمك، وأسميك كل يوم، كما تعرفين، اسماً جديداً، فأى حب هذا؟ خبرينى!.

فقالت: "لا أدرى - هو حبك، على طريقتك، إذا كان صحيحاً أنك تحب".

فأسألها: "ولكن هل تظنين أنى أحب؟".

فتقول: "وكيف أعرف أنا؟".

فسألها مستغرباً: "ألم يقولوا أن بين القلب والقلب رسولاً؟ فكيف ضل الرسول يا ترى؟".

فتقول: "لم يأن أن تحب يا صاحبى، ولست بفتاتك على ما أرى؟".

فأقول: "ولكنك الفتاة الوحيدة التى وافقتنى على ما اقترحت؟".

فقالت – وأدهشتنى –: "نعم، وافقت ورضيت، بأن تحبنى إذا شئت، فبقيت أنت لا تحب، ووقعتُ أنا".

فصحت بها: "إيه؟ ماذا تقولين؟".

قالت – بهدوء –: "لقد سمعت...".

قلت: "أعيديه على مسمعى..".

قالت: "كلا.... هكذا أحلى!".

فكاد الفرح يذهب بلبى، فما عرفت أن أحدًا أحبنى فى هذه الدنيا مذ جئت إليها، ولا ذقت فى حياتى هذه اللذة، ولم يكن ذنبى أنى حرمتها، ولا ذنب النساء أيضًا، وأحسب أن عيونهن تتخطانى – لقصرى – فلا يريننى، ولو رأيننى لأحببننى بلا شك – كما فعلت هذه الفتاة الكريمة، بعد أن جلست!.

وعدت إلى بيتى، وخلوت بنفسى فى المكتبة، وقلت لها وأنا أكاد أرقص: "والآن يا نفسى، يمكنك أن تطقى من الغيظ وتنفلقى من الكمد".

وأحسست بالشعرِ يجيش فى صدرى، وشعرت كأنه ليس علىّ إلا أن أدهور لسانى فى شدقى، أو أن أرفع سن القلم على الورقة، فإذا به يجرى وحده بالكلام الموفق المعجب، وجئت بورقة، وبريت القلم، ووضعت تلك على رجلى، وهذا بين أصابعى، وتوكلت على الله، وأقمت القلم على الورقة، وإذا بنقر على الباب، فكدت أجن، ونهضت ففتحته بكرهى فدخل صاحب لى فلما رأى تجهم وجهى قال:

"هل أنت مشغول؟".

قلت: "تسأل البحر هل فيه ماء؟".

قال: "معذرة، على كل حال لن آخذ من وقتك إلا دقائق، إنك تعرف...".

وذكر اسم الفتاة – فتاتى التى تحبنى بارك الله فيها – فصحت به: "إيه؟".

فقال: "إنى أتكلم بلغة عربية فيما أظن؟".

قلت: "ألا توجز؟ مالها؟".

قال: "حسن، سأوجز، إنى سعيد".

قلت: "وأنا مالى!".

قال: "هنئنى!".

قلت: "بماذا؟".

قال: "لقد قابلتها – للمرة الثالثة – ولم أخبرك لأنه لم يكن هناك ما يستحق أن يقال، ولكنها اليوم قابلتنى – أعنى استقبلتنى بعد أن خرجت أنت من عندها، فكان مما قالته لى: "إنك شاب، وأنا شابة، وأنا أصبو إليك كما تصبو إلىّ، صحيح أنى أقول لبعض معارفى من الكهول إنى أحبهم، ولكنى مضطرة إلى هذا لأحتفظ بودهم، أما أنت فشىء آخر – أنت شاب مثلى!"، فما قولك فى هذا؟".

قلت: "قولى؟ أنا؟".

قال: "نعم، ما رأيك؟".

قلت: "صدّقها!".

فسألني: "هل كذبت عليك يا ترى كما كذبت على غيرك؟".

قلت: "عليّ أنا؟ لا! وهل يستطيع أن يخدعني أحد؟" والآن اذهب....".

قال: "بسرعة؟ هكذا!".

قلت: "نعم فإني أريد أن أمزق دواوين الشعراء التي عندي".

قال: "ألا يكفيك أن تكف أنت عن الشعر؟".

قلت: "كلا... وسأحرقها أيضاً بعد تمزيقها؟ الشعر! يا للسخافة!...".

قال: "أعطنيها ولا تمزقها".

قلت: "كلا... إنك شاب، وحرام عليّ أن أسئ إليك وأن أضلك... أخرج... أخرج... مع السلامة...".

كيف كتمت اسمي؟[٧٢]

- "أين رأيتك قبل اليوم؟".

- "أين رأيتني؟؟ انتظري، أقل لك يا ستي.. هل تقول إنك رأيتني في أحلامك.. كلا... لا يمكن... فإن أحلامك لا تكون إلا جميلة، ومثل وجهي لا يجوز أن يبدو فيها ويفسدها... إذن أين يا ترى رأيتني؟".

وكنا جالسين إلى مائدة طويلة مع غيرنا من النزلاء في الفندق، وكانت حياة تخالسني النظر، ولا تحجم أحيانًا عن التحديق الصريح في وجهي فسألتها وأنا أبتسم:

"أصدقيني من فضلك... هل أنني أعوج... أو على ثيابي حبر... أم تراني لبست القميص ونسيت ربطة الرقبة؟".

فنفت ذلك كله وطمأنتني على هندامي وتلطفت]فأثنت [على ذوقي أيضًا، فقلت:

"أشكرك، ولكني لم أكن أعلم أن لي ذوقًا... على كل حال هذا فضل الخياط، وسأحول إليه ثناءك، وأكتب إليه الليلة بذلك لأسره، ولي مأرب آخر غير السرور أدخله على نفسه".

فسألتني: "ما هو؟ إذ لم يكن هذا فضولاً قبيحًا".

---

(٧٢) نشرت في جريدة البلاغ، ٢ مارس ١٩٣٥، (ص٣).

قلت: "كلا... لا فضول... إن مأربى أن يمهلنى فإنى مدين له بأكثر ما أستطيع الوفاء به...".

فضحكت وقالت: "أظننى عرفتك... ألست المازنى؟".

فاحمر وجهى... خجلاً... وقلت: "يا سيدتى كيف تظنين بى هذا السوء؟".

فقالت وهى مستغربة: "ألست المازنى؟ صحيح؟".

فقلت وأنا أحاورها: "أترين أنى أشبهه!".

قالت: "جداً... عيناك...".

فقاطعتها قائلاً: "وهل عينا المازنى جميلتان أيضاً!".

قالت: "وكلامك شبيه، أقرأ له".

قلت: "أهذا ثناء أم طعن؟".

قالت: "لا تحاورنى... قل الحق... من أنت؟".

قلت: "من أنا؟ كيف تسألين؟ ألم تقولى إنى المازنى؟".

قالت: "لا...؟ صحيح...؟".

قلت: "أنا من شئت إلا هذا المازنى".

قالت: "لماذا تكره أن تكونه؟".

قلت: "ألا تكرهينه أنت؟".

قالت: "إن شأنى غير شأنك".

قلت: "إنما أريد أن أقول إنى معذور إذا كنت أكرهه".

قالت: "هل تتكلم جاداً؟".

قلت: "بلا شك...".

قالت: "لقد كنت أخشى...".

قلت: "ماذا؟".

قالت: "أن تكونه... إنه على ما يبدو لى خطر".

قلت: "والعياذ بالله! اللهم حوالينا ولا علينا يا رب!".

قالت: "يخيل إلىّ إنه سكير... عربيد... مستهتك... مستهتر... ولكن من يدرى؟".

قلت: "آه.. من يدرى؟ لقد أنصفته يا سيدتى فقد يكون أو لا يكون كما تتخيلينه على كل حال لا شأن لنا به، والحمد لله، وعلى ذكر ذلك أسألك هل تريدين أن أظل أدعوك "يا سيدتى؟" نعم أنت سيدتى.. لا شك فى ذلك، ولكن لا بد أن يكون لسيدتى اسم، ألا توافقين على هذا الرأى؟".

فابتسمت وقال: "فاطمة...".

قلت: "اسم حلو.. فاطمة.. يا سلام.. إنى أحبه.. أعنى.. أحبها.. يعنى فاطمة".

فالتفتت إلى محدقة وقالت بجد: "لا بد أن تكون أنت المازنى... إن كلامك يشبهه – يشبه كلامه".

فضربت كفًا بكف وقلت: "ماذا دهانى اليوم حتى أشبهت هذا الرجل المزعج؟".

فزال عنها الروع، وقالت: "وأنت! ألا تخبرنى ما اسمك؟".

قلت: "صحيح.. واجب... لقد أربكتنى والله وأنسيتنى أن لى اسمًا... والآن أخشى أن أذكره لك فلا يعجبك، ولو كان خاطرى يسعفنى لانتحلت اسمًا من الأسماء الجميلة،... ألا يمكن – مثلاً – أن تقترحى علىّ اسمًا حسنًا؟ ماذا يهم الاسم؟ هو

عنوان... رمز ليس إلا... وأنا مستعد أن أعرف أى الأسماء أحب إليك، فأحمله... من أجلك... هى نصيحة... ولكن فى سبيلك يهون كل شىء".

وكان أكثر الجلوس قد نهضوا عن المائدة، فأدارت وجهها إلى اليمين حيث لا أحد، ولا شىء سوى كرسى ارتفع عنه حمله وقالت كأنها تخاطب موجوداً:

"هل سمعت يا صديقى! ألا توافقنى على أنه فصيح؟ لقد كانوا يقولون عنه فى المدرسة إنه خطيب مفوه، أما فى المجالس فإن حديثه السحر الحلال".

فلم يعجبنى هذا التهكم، وقلت:

"إنك تحرجيننى جداً وتستثيرين غضبى عليك... وأخشى أن يتطاير الشرر من عينى فيحرق هذا الحرير الثمين الذى تلبسينه وكأنك منه فى قالب محبوك".

فمضت فى تهكمها وقالت لى:

"ألم تسمع ما قلت لصاحبى الجالس إلى يمينى؟ لقد كنت أعنى ما أقول".

فقلت: "أليس فى قلبك هذا ذرة من العطف؟ لو أمهلتنى دقيقة واحدة لأسمعتك أعلى بيان وأبلغ كلام، ولكنك صببت على ماءً بارداً ففترت الحرارة، وطار الوحى بعد أن كان يهبط على قلبى... وا أسفاه؟!.. لا بأس... فلنتكلم فى شىء آخر... فى هذا المازنى مثلاً..".

فقالت: "لا لا لا... فيك أنت... مثلاً... ما اسمك؟".

فقلت: "آه! رجعنا؟ ألم أقل لك اختارى لى اسماً جميلاً واخلعيه علىّ؟".

فسألتنى: "ولكن لماذا تكتمنى اسمك؟".

فقلت: "أخشى أن لا يعجبك... فماذا يكون العمل حينئذ؟".

قالت: "لا بد أن تكون المازنى".

قلت: "أووروه! إذن اقطع الشك باليقين وأقول إن اسمى إبراهيم".

فضحكت وقالت: "غريب! وهو أيضًا اسمه إبراهيم! إبراهيم ماذا؟".

قلت: "إبراهيم فقط.. يكفينى هذا.. فإنى صغير الجسم فلا أحتاج إلى اسم طويل... ثم أنى أخشى أن يشاركنى فى بقية الاسم فتكون المصيبة".

قالت: "لا بأس، وما عملك؟".

قلت: "عمل؟ كله إلا هذا...".

قالت: "أليس لك عمل؟ ألا تشتغل بشيء؟".

قلت: "نعم.... وكيف لا أشتغل بشيء؟ إنى لا أزال أحلم بأن أعيش كما يعيش الذين يسمونهم فى قصص العجائز "تنابلة السلطان"،،،،،،،،، ألم تسمعى بهم؟ إن عيشهم رغد جداً ... لا عمل ولا سعى ولا جهد ولا عناء ولا تفكير فى شيء ولا هم ولا...".

فسألتنى: "ولكن كيف يمكن أن يحيا إنسان هذه الحياة؟".

فقلت: "وما المانع؟ أجلس رشيقًا على كرسى، وإحدى رجلىّ على الأخرى، وفى فمى سيجارة أدخنها، فيجئ روشيلد أو روكفلر أو نظام حيدر آباد ويطلب مقابلتى، فأقول للخدم إن بى كسلاً عن مقابلته، فينتظر قليلاً حتى أنشط... حياة لذيذة لا ينقصها إلا شيء واحد... دفتر شيكات... وهذه هى المسألة، كما يقول هملت".

فقالت: "هل أنت فقير؟".

قلت: "دقة! وأقول لك فوق هذا إنى عزمت على الكف عن طلب المال، لقد تبينت أنى أجرى وراء وهم وأطلب مستحيلاً، وأن مثلى فى هذا كمثل الحمار الجائع الذى [ركبوا] له على رأسه شيئًا يتدلى منه حزمة برسيم، فهو لا ينفك يجرى وراءها ولا يبلغها فمه المتحلب... كلا يا فاطمة، أسلوب "تنابلة السلطان" فى الحياة أولى بالاتباع، وهم أحمق بأن يكونوا لمثلى قدوه... نعم، هؤلاء أعرف بالحياة وأفطن إلى حقائقها".

فقالت: "كلا.. إن هذا لا يليق! ولست أستطيع أن أتصور كيف يفكر شاب مثلك...".

فصحت بها وقد كدت أثب إلى قدمي: "شاب؟ هل سمعتك تقولين إنى شاب؟".

فدهشت فى أول الأمر ثم ضحكت وقالت - على سبيل المكابرة ولا شك! -:

"أوه! آه! لا... لست أعنى ذلك, هى زلة لسان، فلا تؤاخذنى... معذرة!".

فتهافت على الكرسى، وهوى ذراعاى إلى جانبى، ورميت إليها نظرة عتب مر، وقلت:

"خيبت أملى فيك يا فاطمة!".

فسألتنى: "لماذا؟ ماذا فعلت؟".

قلت: "كنت أظنك صادقة الفراسة... أو على الأقل سليمة النظر".

فضحكت وعادت تطمئننى، على نفسى، أعنى على شبابى، فانشرح صدرى، وابتسمت لها ابتسامة الرضا، وإذا بصوت يقول: "أهلاً... أهلاً...".

فحولت وجهى إلى مصدر الصوت فإذا صديق لى واقف، ويده ممدودة إلىّ - لتحيتى، فكدت أجن، ولو كان معى سكين لقطعت يده، ولكنى اكتفيت بأن أرد وجهى عنه إلى "فاطمة" كأنى لم أره فقال اللعين محتجًا:

"الله! أستاذ مازنى... ماذا جرى؟".

فتصاممت، وغالبت نفسى حتى استطعت أن أقول لفاطمة بضع كلمات قبل أن التفت إليه، وأقول:

"يظهر أنك مخطئ يا سيدى، فإن اسمى... لست أعرف هذا الرجل على كل حال".

فذهل صديقى وقال - وهو ينظر منى إلى الفتاة، ومن الفتاة إلىّ -:

"ولكن هذا مستحيل...".

فدخلت الفتاة بيننا وقالت: "هل أنت واثق أنك لم تخطئ؟".

فصاح وقد ثابت إليه نفسه: "واثق؟ واثق كيف؟ ماذا جرى يا أستاذ؟ ما هذا المزاح؟ أما أن أمرك لغريب".

ثم ضحك ضحكة مقرقعة مزقت أذنى - أذنىّ الاثنتين - ولما قرت الضجة قالت فاطمة: "يظهر أن الشبه عظيم! يخلق من الشبه أربعين... حصل خير... حصل خير...".

فعاد صديقى يصيح: "أى شبه يا ستى؟؟ أتراه كذب عليك وغير اسمه؟".

فنهضت، وفى عزمى أن أمضى عنهما وأدعهما، فقد فسد الأمر كله وصرت جديراً بأن تنقم منى الفتاة أنى المازنى، وأنى كتمت هذا لما شعرت بسخطها على، ولكن فاطمة تناولت ذراعى وجذبتنى فحططت نفسى على الكرسى كأنى حجر لا إرادة له.

وقالت فاطمة تخاطب صديقى: "أتسمح أن تتركنا دقيقة".

وقلت أنا لما سمعت هذا منها: "نعم، اذهب... اذهب.. بسرعة ولا تعد... ولا تترك عنوانك".

والتفت إلىّ فاطمة وقالت: "مالك؟ لقد كنت أعرف أنك المازنى، ولكنى أردت أن أداعبك...".

فصحت: "كنت تعرفيننى؟ وخدعتنى؟".

قالت: "نعم... ولست أعرف أنك سكير أو عربيد، ولكنى تعمدت هذا القول لأربكك وأرى ما يكون منك؟".

فسألتها: "وكيف عرفتنى؟".

قالت: "يا له من سؤال! قم بنا...".

قلت: "صحيح، سؤال سخيف! وهل يخفى القمر؟ هيه؟".

فقالت مستنكرة: "قمر؟!" وقهقهت "ما اسم صاحبك؟".

قلت: "دعيه، فإنه شيطان".

قالت: "لا... لقد بهت لإنكارك... تعال إليه".

ولكنا لم نذهب إليه لأنه عاد وهو يقول: "لقت قلت دقيقة... وقد مضت ثلاث دقائق".

فصحت به: "يا أخى ما هذه الدقة الثقيلة؟ اذهب عنا واخف وجهك".

غير أنه لا أمر لمن لا طاعة له.

الانتحار[٧٣]

"نعم، لا بد مما ليس منه بد، وستنتهى الحياة على كل حال، طال العمر أم قصر، فلم لا أختمها بيدى وأستريح من هذا العذاب؟".

كذلك كان يحدث نفسه وهو جالس إلى مكتبه، وأمامه عدة رسائل كتبها ووضعها فى ظروفها، وعنونها، ونشفها، وألصق عليها طوابع البريد، ولو أنك فى هذه الساعة سألته عن الباعث أو البواعث له على هذا العزم، لقال لك إنها ليست مسألة بواعث، وإنما هى مسألة آلام فى معدته لم يبق له صبر عليها، وعجز طب الأطباء عن تخفيفها، وما بقى فى البلد طبيب إلا استشاره، وما قرأ إعلانًا فى صحيفة عن دواء يلطف هذه الأوجاع إلا اشتراه وجربه، فذهب كل ذلك مع الريح، وكانت معدته توسعه إيلامًا كلما أوسعها تطبيبًا، فكأنه لا يضع فيها أشفية، وإنما يضع فيها إبرًا أو أظافر ومخالب وأنيابًا! وما أكل شيئًا إلا نفخه وتخمر فى جوفه وفارت منه غازات ترتقى إلى الصدر والقلب وتثقل عليهما وتخزه هنا وهناك فيروح يبلع الفحم قرصًا وراء قرص، والغازات كما هى، لا يمتصها أو يطلقها أو يخفف ضغطها وشكّها شىء، فتلفت أعصابه ويئس من الشفاء، وعزم آخر الأمر على الانتحار.

وكانت له زوجة وبنون، وبيت طويل عريض فيه خدم وحشم، ولكن آلامه سوّدت عيشه ونغصت حياته، وحرمته ما كان خليقًا أن يفوز به من المتع، فالموت لا يفقده لذة

(٧٣) نشرت فى مجلة الرسالة، ١٨ مارس ١٩٣٥، (ص٤١٠-٤١١).

موجودة، ولعله يريح آله مما يحملهم معه من المتاعب والغصص، ويتيح لهم أن ينعموا بماله، وأن يخلو صفو حياتهم من كدر حياته.

أما الرسائل التى أسلفنا الإشارة إليها فكتبها إلى الصحف ينعى نفسه فيها، ويحذر قراءها من الإعلانات المغوية وما تزعمه من قدرة الأدوية على الشفاء السريع، وأخرى كتبها إلى "النيابة" حتى لا تزعج أهل بيته بالسؤال والتحقيق، فإن "للنيابة" ولعًا بتقصى أسباب الانتحار كأنما حياة المرء هبةٌ من هذه "النيابة" أو عارية، فهو مسئول عنها قِبَلها!

ولما صح عزمه على الانتحار قعد يفكر فى وسائله وأدواته، ولكنه استقبحها جميعًا، ولم يرض عن واحدة منها، وبدا له أن من السخافة وقلة العقل أن يلقى بنفسه من فوق السطح مثلاً، فقد يتحطم جسمه ولا يموت! أو أن يغرق نفسه فى النيل، فقد يراه أحمق فيدركه وينقذه، أو قد تعلق جثته بشىء فتظل راسبة ولا يهتدى إليها أحد! ولم ير أنه يطيق أن يسدد إلى رأسه مسدسًا، أو إلى قلبه، ولا أن يغمد فى صدره سكينًا أو يبقر به بطنه، كلا! هذه الميتات جميعًا قبيحة، وفى صورها هوان وحماقة؛ إنما الميتى الحسنة أن يستلقى على سريره ويضع إلى جانبه طشتًا على كرسى، ثم يقطع شريانًا فيلح عليه النزف حتى يموت، فى سكون وبلا ألم.

واستغرب لما انتهى إلى هذا الرأى، أن يرى نفسه منشرح الصدر، وأنه لم يعد يشعر حتى بتلك الآلام التى أغرته بالتماس الموت وحرضته على نشدانه! فهز رأسه متعجبًا وقال: "إذا كانت هذه هى البداية فلا شك أن الخاتمة أحسن"، وتمنى لو تيسر له أن يرى نفسه مسجى فى أكفانه والناس حوله يبكون ويندبون ويثنون عليه بالذى "كان" أهله! وتصور نفسه محمولاً على الأعناق وخلفه حشد عظيم من الأصدقاء والكبراء، وكبر الأمر فى وهمه حتى لخيل إليه أنه الآن راقد فى النعش، فتحرك حركة من يريد أن يطل على مشيعيه! ثم أفاق من هذا الحلم وابتسم! ولم تكن هذه ابتسامة السرور، وإنما كانت ابتسامة الأسف على أنه سيحرم لذة هذا المنظر.

ودق الجرس فجاءت الخادمة، وكانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها، ولم تكن جميلة ولكنها لم تكن دميمة، وكان يحنو عليها لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم، ولا أهل فيما يعرف، فلما أقبلت عليه رق لها قلبه من العطف، وقال لها:

"اسمعى! خذى هذه الرسائل وضعيها فى صندوق البريد، فاهمة؟ وخذى هذا لك".

ونهض وهو يناولها ورقة بجنيه، فدهشت المسكينة، فما لها عهد بمثل هذا الجود، وما وهبها أحد أكثر من قرش وقالت: "لى أنا؟".

فوضع راحته على كتفها وقال: "نعم لك أنت، ولم لا؟ إنك فتاة طيبة، وأنا راض عنك".

فقالت المسكينة: "ولكن ماذا تقول ستى؟ إنها إذا رأته معى ستظننى سرقته".

فقال: "كلا، لا تخافى، اطمئنى!".

وأدناها منه وقبلها على خد، ثم أدار وجهها ليقبل خدها الآخر، فلمحت الفتاة أوسط أبنائه، وخشيت أن يثرثر لأمه بما رأى، فارتدت عن سيدها محتجة وقالت بصوت عال:

"عيب يا سيدى، عيب! أنا بنت يتيمة، وأنت رجل كبير... تؤ.. تؤ.. عيب!".

فبهت الرجل، فقد كانت قبلته عن عطف أبوى، ومن كرم النفس ومروءة القلب، وساءه جحودها وسوء ظنها، وأغضبه هذا التأويل، فقال: "ولكن يا بنتى ماذا حصل؟ أى عيب؟".

فقالت بصوت أعلى: "أقول لك عيب يا سيدى، لا لا لا.. أنا فى أمانتك.. حرام عليك يا سيدى! وأنت رجل كبير".

ولم يكن يرى ابنه فلم يفطن إلى الباعث على هذا الاستهجان؛ أما ابنه فرأى وسمع، وأسرع إلى أمه ينبئها ويقص عليها الحكاية فنهضت الأم كالمجنونة إلى هذا الزوج الذى يتغفلها ويزعم نفسه مريضًا مدنفًا ويروح يقبل الخادمات! ومن يدرى ماذا يصنع غير ذلك؟ ومن الذى يمكن أن يثق به أو يصدقه بعد هذا؟".

وكان الرجل قد طرد الخادمة من حضرته، لما رآها تلج فى الاستنكار وتأبى إلا أن تسىء تأويل الحادثة، فخرجت، ولم تكد تفعل حتى دخلت الزوجة كاللبوءة الهائجة:

"معلوم! معلوم! تدعى المرض، وتقول ابعدوا عنى وخلونى أستريح، لتخلو بالخادمة فتقبلها وتحضنها! ما شاء الله! هل المريض يعانق الخادمة؟".

فطار عقل الرجل، وله العذر، وخطر له أن الخادمة هى التى ذهبت تشكو إلى زوجته، وتذكر فى هذه اللحظة أنه أعطاها الرسائل، وأن فيها نعيه إلى الصحف والنيابة، ولكن الغضب صرفه عن الموت، وفتر الرغبة فيه، وأحس أنه لا يريد أن يموت، بل أن يميت – يقتل هذه الخادمة اللعينة التى يحسن إليها فتسيئ إليه، وتشنع عليه، وتحيل البيت قطعة من جهنم، فترك زوجته تتكلم وخرج يقول: "أين هى؟ أين هى؟".

وعرف أنها خرجت، فانطلق وراءها، ليسترد الرسائل منها، ويرى له بعد ذلك رأيًا فيها – نعنى فى الفتاة، وبصرت به الخادمة مقبلاً، ورأسه عار، ووجهه مضطرم، وكانت تحس فى قرارة نفسها أنها ظلمته وتجنت عليه، فأيقن أنه خرج وراءها هائجًا، وأنه يطلبها ليضربها، فراحت تعدو، فلم يسعه إلا أن يجرى وراءها، ولكنها فى الثامنة عشرة من عمرها، وهو فى الخامسة والأربعين، فما عسى قدرة مثله على إدراك مثلها؟ فأخذ يصيح ويجعلوها أن تقف ويناشد الناس أن يمنعوها، وهى كلما حاول أحد أن يصدها تتفلت منه، وتزعم له أن سيدها يهم بقتلها وتستحلفهم أن يردوه عنها، وتبعهما أطياف الحارة وأهل الفضول من الرجال والنساء، وأخيرًا لحق بها الرجل، لأن الناس استوقفوها، فقبض على يدها وانتزع منها الرسائل وهو يلهث.

وكان من السهل بعد ذلك أن يطلع زوجته على الرسائل، وأن يقنعها بأن من يروم الانتحار لا يتبع الخادمة عينه.

ونام صاحبنا فى ليلته تلك نومًا عميقًا هادئًا لا حلم فيه، ولم يشعر بمعدته حتى ولا فى الصباح، فتعجب وهو يتمطى ويتثاءب فما نام قط هذا النوم المريح فى السنوات الأخيرة، وأقبل على الطعام فالتهم منه شيئًا غير قليل، ولم يكن يفطر قبل اليوم، وكان يدخن على ريق النفس، ويستغنى بالقهوة عن الطعام، فقال لزوجته:

"يظهر أن الجرى نفعنى أمس.. والغضب أيضًا! لقد حرك دمى فى عروقى فزايلنى الفتور، ونشطت... نعم إن حاجتى هى إلى ما ينشط جسمى، فليت لى كل يوم خادمة أقبلها فيسوء بى ظنك، فتثور نفسى!".

فضحكت الزوجة وقالت: "لقد كنت مجنونًا! وهل ينتحر إلا مجنون؟".

فقال: "نعم،ولكن الأطباء هم الذين أجنونى، والغريب أنى لم أجد واحدًا من بينهم يشير علىّ بالرياضة - ليس عندهم إلا وصفاتهم التى لا تنفع... أقول لك! سأكتب هذا إلى الصحف،وأفضح طب الأطباء".

ولكنه لم يكتب، لأنه شغل بالرياضة فى ناد قريب من بيته، فتولينا نحن عنه ذلك، فهل بلّغنا؟.

مقتل عمر بن الخطاب

نقلها عن جرائد ذلك العهد

الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى[٧٤]

اختلف المؤرخون فى مقتل عمر رضى الله عنه، فمنهم من قال إن أبا لؤلؤة حقد عليه لأنه لم يخفف عنه الخراج الذى ضربه عليه سيده المغيرة بن شعبة؛ وقال آخرون بل ائتمر به الهرمزان وهو قائد فارسى أظهر الإسلام وأضمر الغدر، وجفينةُ وهو من نصارى نجران الذين أجلاهم عمر عن جزيرة العرب، وقد فاتنى - لسوء حظى - أن أشهد هذه الحادثة الضخمة وتأخرت عنها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ولو حضرتها لعرفتُ كيف أقول! ولكنه لا يجدى الأسف على شىء فات؛ وما لا يدرك كله لا يترك كله؛ وقد وقعت لى "أعداد" من "صحف" ذلك الزمن، مثل جريدة "يثرب"، وجريدة "دار الهجرة"، وجريدة "العذراء"، وغيرها من الصحف الأولى التى كانت تصدر - صباحًا أو مساءً - فى صدر الإسلام، وأكبرها جميعًا "يثرب"، وكانت تظهر فى الفجر، فيتخطفها الناس وهم خارجون من صلاتهم بالمسجد، وكان لها مكاتبون فى الأمصار قاصيها ودانيها، يوافونها بأخبارها وأحوالها، وسيرة ولاتها وعمّالها، وجلهم - أى المكاتبون - ممن دخلوا مع رسول الله مكة، واشتركوا فى حروب الردة، وقاتلوا مع سعد بن أبى

---

(٧٤) نشرت فى مجلة الرسالة، ١٥ أبريل ١٩٣٥، (ص٥٩٧-٦٠١).

وقاص، وأبى عبيدة، وخالد بن الوليد، فى فتوح العراق وفارس والشام، ومن أجل هذا كانت الثقة بأنبائهم عظيمة، والاطمئنان إلى صدقهم فى الرواية تامًا؛ ولا عجب بعد ذلك إذا كانت "يثرب" كبرى الصحف فى ذلك العهد وأوسعها انتشاراً، وأوثقها حالاً، ومما ينبغى أن يذكر من مفاخر هذه الجريدة أن العرب إلى عهد عمر رضى الله عنه كانت تتعامل بالنقود الفارسية والرومية فدعت "يثرب" إلى ضرب نقود عربية وألحت فى ذلك؛ ورأى عمر رضى الله عنه أنها على حق، فأمر فضربت الدراهم على شكل النقود الفارسية، فلم تقنع "يثرب" بهذا، وطلبت أن ينقش اسم الله تعالى واسم رسوله تمييزاً لها عن نقود الفرس، فاستحسن الخليفة رأيها، فأمر فكتب على الدراهم :"الحمد لله" على وجه، و "محمد رسول الله" على الوجه الآخر، وقد زعم حاسدوها وشانئوها – من الفرس المغلوبين على أمرهم – أنها ما دعت إلى ذلك إلا ليسهل بيعها، فينتشر أمرها ويعظم ربحها، وقالوا: ألا تراها قد أشارت بضرب الدراهم ولم تذكر الدنانير قط؟ فذاك لأن الدراهم خسيسة، ولأن النسخة من جريدة "يثرب" تباع بدرهم! ولكن هذا طعن الفرس الموتورين فلا يُسمع فى العرب.

على أن من المحقق أن حاجة "يثرب" إلى سنة تؤرخ بها، هى التى أملت عليها الدعوة إلى وجوب الاتفاق إلى سنة معينة للتأريخ منها، غير عام الفيل وعام الفجار وما أشبه ذلك مما لا آخر له، فكان أن استشار الخليفة أصحابه فى ذلك فأشار عليه علىّ كرم الله وجهه – على رواية "يثرب" – باتخاذ السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة مبدأ للتاريخ الإسلامى.

بعد هذا الاستطراد الذى لم نر منه بدًا للتعريف "بيثرب" ورفعة مقامها وعلو منزلتها، نقول إنّا وجدنا فيما عندنا من أعدادها وصفًا مفصلاً لجريمة مولى المغيرة، فرأينا أن ننقله بحروفه حسمًا للخلاف، وإحقاقًا للحق.

***

قالت فى ملحق أصدرته ضحى الأربعاء ٢٦ من ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية تحت العنوانات الآتية المكتوبة بالخط الجليل على سبعة أعمدة: "علج فارسى يطعن أمير المؤمنين وهو يقيم الصلاة - ويصيب ١٣ رجلاً ثم ينتحر - أهى مؤامرة فارسية نصرانية؟ - تحريات مندوبى يثرب الخصوصيين".

ثم قالت الجريدة:

"لم نكد نفرغ من طبع العدد الأخير من "يثرب" وندفع به إلى الباعة، ونذهب إلى المسجد للصلاة، حتى فوجئنا باعتداء أثيم مروّع من علج من علوج فارس على حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الفاروق عمر بن الخطاب وهو يسوّى الصفوف فى المسجد ويهم بإقامة الصلاة، وهو اغتيال دنىء وغدر تنكره الشهامة ولا تعرفه العرب، ولو أن مائة من أمثال هذا العلج الزنيم تصدوا لجلالته، وهو يراهم لخلط عظمهم بلحمهم وأكلهم وتأدم بآبائهم وأجدادهم إلى قابيل، ولكن هذا العلج جاءه من وراء ظهره، وأخذه غدراً غيلة، وهو رافع يديه يكبر للصلاة.

وقد سبق لنا أن حذرنا الحكومة من هؤلاء الفرس والنصارى الذين يفدون على مدينة الرسول؛ فإنها - على وفرة الماء فيها بالقياس إلى غيرها من بلاد العرب - يابسة الضرع، وغيرها من الأمصار التى فتحناها أخصب، والعيش فيها أرغد، فمجىء هؤلاء الأغراب الموتورين إلى المدينة وإقامتهم فيها أمر مريب، فما يعقل أن يطيب لأمثالهم فيها عيش، وهم الذين نشأوا فى ظلال الدعة وألفوا حياة اللين والترف، وهذا ما جناه السماح لهم بالإقامة بين ظهرانينا.

ودعونا مراراً إلى اتخاذ الشرطة والحراس، والعسس بالليل، ومراقبة الأجانب، وقلنا إن خروج الخليفة وليس معه حارس، ولا فى يده هو سلاح، ونومه فى الأحيان الكثيرة فى ظل شجرة أو جدار لا يخلو من خطر، وأنه تعرض لا تؤمن مغبته، ولو أنه

ليس بالمدينة إلا العرب لما أشفقنا، ولكن الأغراب كثروا بيننا، وهم من بلاد داستها جيوشنا، ودوخت أممها، وثلت عروشها، فهم حاقدون مضطغنون، لا يؤمن غدرهم ولا يتقى شرهم إلا بالحيطة والتحرز منهم، وقد صدق ظننا مع الأسف، وليته خاب ألف خيبة، نسأل الله اللطف فيما وقع".

***

ثم فصلت الجريدة الحادث كما وقع فقالت:

"دخل جلالته المسجد ليصلى بالناس على عادته، وكانت فى يده الدرة التى لا تفارقه، فاخترق الصفوف والناس يفسحون له، ويحيونه بأحسن من تحيته، حتى صار إلى الصدر فاستقبل الناس ليقوّم صفوفهم، وذاك دأبه، فإن جلالته يكره الفوضى ويحب النظام، ثم ألقى الدرة من يمينه – وكان يسوى بها الصف ويشير للمتقدم أن يتأخر، وللمتأخر أن يحاذى الذى بجانبه، ثم اتجه إلى القبلة ورفع يديه وكبر، ولم يكد صوته الجهورى يرتفع بالتكبير حتى هجم عليه رجل – ظهر فيما بعد أنه غلام المغيرة – وفى يده خنجر وضربه به فى كتفه، فانحنى أمير المؤمنين قليلاً من عنف الصدمة وقوة الضربة على غير توقع منه، فمال معه المجرم وكاد يسقط، غير أنه اعتمد بيسراه على ظهر جلالته ونزع الخنجر الذى أصاب عظمة الكتف، وكان جلالته قد تمالك، وذهبت عنه دهشة المفاجأة فدار ليواجه المعتدى عليه، فعاجله الجانى بطعنة فى خاصرته، وأسرع فنزع، وتشدد جلالته فضربه بجمع يده فى صدره وهو يقول: "تريد قتلى يا ابن الفاعلة؟" فارتد المجرم خطوات، ثم كر عليه بالخنجر يطعنه طعنًا سريعًا فسقط أمير المؤمنين على الأرض.

وكان الناس قد أذهلتهم هذه المباغتة، وأصابهم منها لأول وهلة كالرعب، فتراجعوا والتَوت صفوفهم، ثم أفاقوا، فصاح بعضهم يطلب الشرطى – وأين هو حتى يلبى

النداء؟ - وهجم منهم عليه رهط، فأعمل فيهم خنجره يضرب يمينًا وشمالاً كالمجنون، فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلاً، وألهم الله بعضهم فألقى عليه برنسًا - كما تلقى على الجواد الجامح ثوبًا - فأعماه وشل حركته، ثم تكاثروا عليه، وأيقن هو أنه هالك لا محالة فطعن نفسه فمات!.

وأقبل الناس بعد ذلك على أمير المؤمنين واجمين محزونين - حتى الجرحى منهم - فردهم جلالته عنه بإشارة وسأل: "هل فيكم عبد الرحمن بن عوف؟".

فتلفت الناس ينظرون، فإذا ابن عوف يفرقهم ويقول: "نعم يا أمير المؤمنين".

فقال جلالته: "تقدم، فصلِ بالناس".

فكانت دهشة، ولكن عمر هو عمر، لا يشغله خطب عن دينه وواجبه، ولا يجرؤ أحد على خلافه من هيبته، فصلى ابن عوف بالناس صلاة خفيفة، وعيونهم على جلالته، وهو ساكن وادع معتمد على الأرض بمرفقه، يصلى معهم بشفتيه، ثم أقبلوا عليه فحملوه، ويريدون أن يذهبوا به إلى داره، فقال: "مهلاً، ناولنى درتى يا هذا".

فناولوه إياها، أخذها وهو يقول وعلى فمه ابتسامة: "أرأيتم ماريشالاً بلا عصاه؟".

فابتسموا لابتسامه، ولكن دموعهم كانت تساقط على لحاهم وأيديهم التى خضبها دمه الذكى، فنظر إليهم وهم يبكون وقال يزجرهم: "بل الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد مسلم".

أما الجانى فهو أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة، وأصله فارسى من نهاوند، وقد كتب إلينا مندوبنا القضائى يقول:

"منذ بضعة أيام جاء فيروز هذا إلى أمير المؤمنين يشكو إليه أن مولاه المغيرة بن شعبة يشتط فى الخراج الذى ضربه عليه ويرهقه بما يتقاضاه منه، وسأله التخفيف عنه، فسأله جلالته: "كم خراجك؟".

فقال: "درهمان فى كل يوم".

فسأله: "أو كثير هذا عليك؟".

قال: "نعم، وحقك".

قال جلالته: "دع هذا، وقل ما صناعتك؟".

قال الغلام: "نحاس ونقاش وحداد".

فقال جلالته: "ثلاث صناعات فى يديك، وتشكو رقة الحال وتستكثر درهمين؟ كلا ليس خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال"، وأعرض عنه.

وقد يؤخذ من هذا أن فيروز حقدها على جلالته، وأسرها فى نفسه، وأضمر أن ينتقم، ولكنا لا نعرف أن الناس يقتل بعضهم بعضًا من أجل درهمين، فكيف باغتيال خليفة؟ ثم إن تحرياتى تدل على أن الأمر كان مبيتًا بليل، فقد حدثنى عبد الرحمن بن أبى بكر - وهو ثقة - أنه رأى عشية أمس الهرمزان الفارسى وجفينة النصرانى وأبا لؤلؤة هذا، وهم يتناجون، فلما رأوه اضطربوا، وسقط من أحدهم خنجر له شعبتان، يقول ابن أبى بكر إنه هو نفس الخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة أمير المؤمنين، فبماذا كانوا يتناجون فى غلس الليل، وهذا فارس أعجمى، وذاك نصرانى عربى وثالثهم مملوك للمغيرة؟ وماذا جمع العربى النصرانى، والفارس المجوسى وإن تظاهرا بالإسلام؟.

ومعروف أن الهرمزان هذا كان من قواد الفرس الذين هزمهم سعد بن أبى وقاص، وقد أظهر الإسلام لينجو بجلده، وخان المسلمين مراراً ثم زعم أنه تاب، ومثله خليق أن يبطن العداوة للعرب وألا يغفر لهم أنهم مزقوا عرش الأكاسرة وغلبوهم على بلادهم ومجوسيتهم، وسووا بين الناس فلا سيد ولا مسود، ولا شريف ولا وضيع.

أما جفينة فأمره مشهور، وهو نصرانى من نجران، أتى به سعد بن أبى وقاص ليعلم الناس الكتابة - فيا سوء ما أتى به سعد من هذا! وقد كان أمير المؤمنين خاف انتفاض النصارى فى نجران عليه، وهو فى حرب الفرس والروم، فأجلاهم عن جزيرة العرب ثم عوضهم وأوسع لهم من الأرض فى الشام والعراق، وأعطاهم خيراً مما تركوا، ثم هزم المسلمون جيوش هرقل وهو حامى النصرانية، فجفينة لا ريب مضطغن لذلك؟ وقد وجد فى الهرمزان حليفاً ونصيراً، وفى فيروز وهو فارسى كالهرمزان، أداة لارتكاب الجريمة المدبرة.

وهذا هو الذى عليه الرأى العام، ولو تُرك الناس لرأيهم وخُلِّىَ بينهم وبين ما يريدون لفتكوا بالفرس والنصارى وشربوا دماءهم، فإن النفوس فائرة، والصدور مضطرمة، ولكنهم يكبحون أنفسهم ويحملون عليها ويردونها على مكروهها احتراماً لأمير المؤمنين وانتظاراً لما يفعل، شفاه الله وعافاه.

بل هذا هو رأى أمير المؤمنين نفسه، فقد اجتمع إلى جلالته فى داره بعد أن حُمل إليها، المهاجرون والأنصار، فقال لابن عباس وكان معه:

"أخرج إليهم فاسألهم أعن ملأ منهم ومشورة كان هذا الذى أصابنى؟".

فعاد إليه ابن عباس يقول إن القوم يقولون: "لا والله، ولوددنا أن زاد الله فى عمرك من أعمارنا".

فقال جلالته: "إذن أبرق إلى العراق وفارس وأنبئ العمال بما كان، وحذرهم أن ينتقض الناس على غرة منهم، فما يدرينى ويدريك، لعله تدبير من هناك".

وقد أرسلت البرقيات اللاسلكية إلى عمال الأمصار بالاستعداد لكل طارئ فلا خوف من هذه الناحية فإن قواتنا كافية لقمع ما عسى أن ينجم من الفتن".

وعند مثول هذا الملحق للطبع أبلغنا مندوبنا ما يأتى تليفونياً: عرفتم أن المجرم أبا لؤلؤة عليه لعنة الله وملائكته، أصاب ثلاثة عشر من المصلين بخنجره، كانوا يحاولون

القبض عليه وانتزاع الخنجر منه، فالآن أقول إن سبعة منهم كانت جراحهم خطيرة، فتوفوا من النزف، وسيجهزون للدفن وتشيع جنازتهم بعد صلاة العصر باحتفال كبير يمشى فيه المهاجرون والأنصار والبدريون، وقد أمر جلالة الخليفة بأن ينوب عنه فى تشييع الجنازة، صهيب.

أما الستة الآخرون فجراحهم خفيفة، وقد بعث إليهم جلالة الخليفة بابنه عبد الله بن عمر ليعودهم ويستفسر عن حالهم، فشكروا له هذا العطف السامى ودعوا الله أن يعجل بشفائه.

هذا وقد فحص الطبيب الشرعى الخنجر فتبين أنه مسموم فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأذيعت نشرة طبية موجزة جاء فيها أن الإصابات ست فى الكتف والخاصرة والظهر، وإن النزف منها شديد، وقد سُقى جلالته لبنًا فخرج من إحدى الطعنات أبيض كما هو، فنصح الطبيب لجلالته بأن يعهد، تولانا الله برحمته.

***

صدر العدد التالى من "يثرب" مجللاً بالسواد، وفيه نعى أمير المؤمنين إلى العالم الإسلامى، ورثته رثاء طويلاً، ولخصت سيرته فى الجاهلية والإسلام، ولا يحتاج أن ننقل من هذا شيئًا فإنه معروف، ووصفت تجهيزه للدفن، وتشييع جنازته والصلاة عليه بالمسجد، وحمله على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفنه معه إلى جانب أبى بكر الصديق، وسردت أسماء المشيعين من الأنصار والمهاجرين وغيرهم، وروت فيما روت أن عليًا وعثمان تقدما للصلاة عليه فردهما ابنه عبد الرحمن وقال منكرًا عليهما ذلك: "لا إله إلا الله! ما أحرصكما على الأمرة؟ أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب؟" وأثبتت تصريحاته قبل موته، ابن عباس، ووصيته لمن يخلفه، وقالت إنه

دفع بها إلى ابنه عبد الله وقال له: "إذا اجتمع الناس على رجل - أى أمير المؤمنين - فادفع إليه هذا الكتاب وأقرئه منى السلام" وما أُمر به فى اختيار خليفته، وما أوصى به أبا طلحة الأنصارى والمقداد بن الأسود، وكل هذا مشهور فلا داعى لنقله.

ولكن حادثًا وقع بعد ذلك، تعد "يثرب" مسئولة عنه، فقد ذهبت إلى أن قتل عمر كان عن تآمر من جفينة النصرانى والهرمزان الفارسى، وأنهما هما اللذان أغريا أبا لؤلؤة بقتله، وروت ما شهد به عبد الرحمن بن أبى بكر وغيره فى ذلك، وأيدت ذلك بالدليل العقلى، فهاج عبد الله بن عمر، ومضى إلى ابنة أبى لؤلؤة فقتلها، ثم إلى جفينة والهرمزان فألحقهما بها، انتقامًا لأبيه؛ ولم يكفه هذا، فهم بأن يقتل رجالاً من الأنصار والمهاجرين ظنهم شركاء فى دم أبيه، وشاع عزمه على ذلك حتى بلغ صهيبًا، ولم يكن الذين وُكل إليهم التشاور فى أمر الخلافة قد فرغوا، فبعث صهيب عمرو بن العاص إلى عبد الله، وكان عمرو داهية فلم يزل يحاوره ويداوره ويمسح منه فى الذروة والغارب حتى سكنت نفسه، فأخذ منه سيفه، ثم جاء سعد بن أبى وقاص فقبض عليه وحبسه فى داره.

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة، استشار أصحابه فى أمر عبد الله بن عمر، فأشار بعضهم بقتله فيمن قتل، ولكن آخرين استنكروا أن يقتل الأب أمس ويقتل الابن اليوم، ووجد عمرو بن العاص مخرجًا من هذه الورطة، فقال لعثمان:

"يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان، ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك".

أى قبل أن تكون خليفة، فمال عثمان إلى الرأفة، ورفض رأى علىّ بن أبى طالب، وكان يذهب إلى قتل عبد الله بن عمر، وقال عثمان: "أنا وليّهم، وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى".

وقد أثنت "يثرب" على مشورة ابن العاص، ومروءة عثمان بن عفان، وقالت إن هذا درس عسى أن ينفع العجم والنصارى فيصرفهم عن التآمر مرة أخرى، ولكن فريقًا من الأنصار كتبوا إليها يُفَنّدون رأيها، ويقولون إن الواجب كان أن يقتل ابن عمر؛ فكان هذا أول خلاف فى عهد عثمان.

ولم ننقل هذا إلا لأن الفريق الذى طالب بقتل ابن عمر كذب ما روته "يثرب" فى ملحقها من أن أبا لؤلؤة قاتل عمر انتحر لما كثر عليه الناس وأيقن من الهلاك، وأكد أنه لم ينتحر، وإنما ثار رجل من المصلين فقتله وأخذ منه الخنجر.

وكذب أيضًا أن الخنجر كان مسمومًا، ولم يحفل ما قاله الطبيب الشرعى فى ذلك، وقال إن ستة ممن طعنهم أبو لؤلؤة بخنجره هذا شفوا ونجوا، ولو كان الخنجر مسمومًا لماتوا، وإنما مات من مات لإصابته فى مقتل، أو من شدة النزف.

وطال الحوار والأخذ والرد بين "يثرب" ومخالفيها فى الرأى حتى لأنكروا عليها أن الحدث كان عن تآمر، واستهجنوا منها أن تحض على اضطهاد العجم والنصارى، وقالوا إن هذا التحريض من سوء الرأى، وإنه خليق أن يفسد أمور الدولة ويخلق لها متاعب هى فى غنى عنها فى عهد التأسيس، وأنه توجد عصبيات لا يؤمن شرها فى المستقبل، وتفاقم الخلاف بين الفريقين حتى لدعا علىّ كرم الله وجهه، الخليفة إلى إغلاق يثرب، أو على الأقل تعطيلها حتى تقر الفورة وتهدأ النفوس، ولكن الخليفة شق عليه أن يصيب حرية الرأى فى عهده أى سوء، فاكتفى بالنصح لجريدة "يثرب" ألا تسرف فى دعايتها، وأن تتقى اللجاجة وما قد تجر إليه من الفتنة.

وقد آثرنا التلخيص، لأن النقل يطول، والقارئ أدرى بالصحف وكيف تبدئ وتعيد حتى تعكر الجو وتضجر وتغثّى، وقد بلغ من تفرق الرأى فى ذلك الوقت أن الناس كانوا يجلسون فى المسجد حلقات وفى أيديهم أعداد "يثرب"، فهذا يؤيد، وذاك يعارض ويكذب، حتى خيفت الفتنة وحسبنا هذا القدر.

كيف كفرونى؟[٧٥]

كنت - كما يعرف القراء - مغروراً، أنظم الشعر وأزعم أنى شاعر، وأخرج الدواوين، واحداً فى أثر واحد، وكنت يومئذ معلمًا، لا أعرف لى مرتزقًا غير ذلك، ولكنى كنت أسهر الليل لا فى إعداد الدروس بل فى معالجة النظم، فكان أهلى يرون عجبًا - رجلاً جالسًا بينهم وليس معهم، إذا خاطبوه لم يسمع، وإذا جسوه لم يشعر، وعينه ثابتة الحملاق، لا تطرف، ثم إذا به بعد طول الجمود ينهض ويتمشى كأنما يخطو على دق طبلة فى أذنيه، ويدهور فى شدقيه كلاماً مغمغماً حتى إذا أعجبه جرسه هرول إلى المكتب كأنما يخشى أن يطير عنه عصفور، أو يطير الذى فى رأسه - هو لا العصفور - من زقزقته، وأكب على الورق يكتب.

فتقول لى أمى، وقد اطمأنت: "يا بنى مالك؟".

فأقول: "مالى؟ ليس بى شىء، ألا ترييننى سليمًا معافى؟".

فتقول، وترفع يدها بالسبحة عن حجرها: "سليم؟ إنى أراك كالمسحور!".

فأقول: "أعوذ بالله يا شيخة!".

فتقول: "والله يا بنى إنى لأخاف عليك حين أراك هكذا".

فأطمئنها ولا أجرؤ أن أقول إنى كنت أنظم شعراً، مخافة أن تظن بى الجنون، فتحزن، فترقينى وتدعو لى، وتمسح لى رأسى، وتمضى عنى لتنام، وتلحق بها زوجتى،

---

(٧٥) نشرت فى جريدة البلاغ، ٢٠ أبريل ١٩٢٥، (ص٣).

وأبقى أنا مسهداً لأن بيتًا يدور فى نفسى ويطن فى أذنى، ويريد أن يجرى على لسانى، وأعانى من ذلك شبه ما تعانى الحامل حين يضربها المخاض، وتتعسر الولادة، فإذا سهل المخرج استرحت ونمت ولم أحلم، وإلا بقيت مرارة الخيبة على لسانى، وحسرتها فى قلبى، وإنى لأجدها والله إلى اليوم!.

ولست أكتب هذا لأقول إنى كنت شاعراً أو طمعت يوماً أن أكونه، فقد فرعت وفرغ الناس من الحديث، وعرفوا، كما عرفت، إنى أخيب الخياب وأفشل الفشلة، ولكن الشعر جنى علىّ ما لم يجنه على معاصر لى، وإن لم يكن هذا ما صرفنى عنه، وقد كتمته إلى اليوم استحياءً أو استنكافًا، أو لا أدرى لماذا، فلم يعلم به - غيرى - سوى أخ كان أسن منى، وزوجتى يومئذ، وأمى، وقد ماتوا جميعًا.

ذلك أن رجلاً لا أعرفه ولا يعرفنى، طلب من المحكمة الشرعية أن تطلق زوجتى، فلما تلقيت إعلان الدعوى، دخلت على زوجتى فقلت بلا سلام:

"يا امرأة، هل تعرفين من يدعى لا أدرى ماذا فإن اسمه غير واضح، وخط الكاتب ردىء، وأنا لا أحسن حل الطلاسم".

قالت: "من هو؟".

قلت: "لا أعرف - رجل والسلام!".

قالت وضحكت: "وكيف تسألنى عنه إذن؟".

قلت: "لا تضحكى يا امرأة، فإنه يريد تطليقك!".

فوثبت إلى قدميها وصاحت - ويدها على صدرها -: "يا خبر أسود!".

فسررت جداً وانشرح صدرى، وأيقنت أنى إليها حبيب، وتعلقت بى تسألنى عن هذا الذى يريد أن يخرب بيتنا ويهدمه على رأسينا، فقلت: "والله ما أعرفه، ولا سمعت قط به، حتى اسمه فى هذه الورقة غير واضح".

وكانت أمى حاضرة تسمع وتنظر ولا تتكلم، فأشارت إلىّ، أن "تعال هنا" فدنوت منها فقالت: "اقرأ علىّ هذه الورقة".

قلت: "لا أحسن أن أقرأها فإن خطها ملتاث كأنما كتبتها قطة بأرجلها لا يد إنسان".

قالت: "لا تمزح – هذا جد – حاول أن تقرأ".

فأطعت، وكيف لى بعصيانها وهى أمى وأبى، وأخى وصديقى؟ وبعد لأى ما استطعت أن أعرف أن الورقة تزعمنى كفرت، وأنى قلت شعراً يخرجنى من الإسلام، ويوجب تطليق زوجتى، فقالت أمى تسألنى منكرة: "شعر؟".

فقلت فى سرى: "قد صار الكفر كفرين – أنى شاعر، وأنى ما يزعمنى هذا الماجن الكذاب". ثم قلت لها: "لا تراعى، فإنه جاهل!".

قالت: "ما هذا الشعر الذى قلته فكنت به كافراً؟".

قلت: "سبحان الله العظيم، وهل صدقت هذا الحيوان؟".

قالت: "لا تشتم، واسمعنى كلامك".

قلت: "إنه لا يذكره هنا، ولكنه يقول إنه قدم إلى المحكمة ديوانى ووضع علامة على الأبيات الكافرة".

فأمرتنى أن أذهب إلى أخى الكبير، وكان محامياً، وأن أكل إليه الأمر، فقلت معترضاً: "ولكن أخى لا يعرف عن الشعر شيئاً، ولم يفتح فى حياته كتاب أدب".

قالت: "بل تذهب إليه، فإن هذا أمر لا يجوز أن يتولاه غريب!".

قلت: "كيف أذهب إلى رجل يعتقد أن الألمان (وكانت الحرب الكبرى مستعرة يومئذ) اخترعوا رصاصة - كسهم أبى حية النميرى - تجرى وراء المقذوف بها حتى تصيبه؟".

ولا أطيل - لم يجدنى الاعتراض، فأطلعت أخى على الأمر، فبهت وشق عليه الخبر، وكان يؤمن حتى بالخرافات فكيف بغيرها؟ وكان إذا حلق رأسه فى دكان حلاق، جمع ما يقص من شعره، وحمله معه فى ورقة، اتقاء السحر، وما عرفته فاتته صلاة، أو صلى فرضاً منها قضاء، أو أفطر يوماً فى رمضان، ولو كان مريضاً، وكان يعتز بأن أبانا عالم وجدنا عالم، وأن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾ جدنا، وكنت أجادله فى ذلك وأقول له حين أنبسط معه، وما كان أندر ذلك:

"كيف تكون شريفاً ومن نسل الرسول وأنت مازنى!".

فكان يقول: "إن جدتنا لأبينا هى التى يجيئنا منها شرف هذا النسب".

فأقول: "ومن أين علمى أن هذا صحيح".

فيقول: "لا ترتب! أو لسنا نقبض كل عام حصتنا من مال الأشراف؟".

فأقول: "وهل ينهض هذا دليلاً على صحة النسب؟".

فيقول: "لو لم تثبت صحة النسب لما كتبنا فى الأشراف".

فأقول: "كيف يعقل أن يكون كل هؤلاء الآلاف من نسل الرسول وفيهم التركى والعجمى؟ إن أكثر هذا دعوى لم يخل إثباتها من التلفيق".

فينكر قولى هذا، ويمتعض منه، فأقصر عنه، فلما كانت هذه القضية تذكر شكى فى صحة النسب، وعده دليلاً على تزعزع العقيدة فى قلبى، وراح يسألنى كأنى متهم عنده بالزيغ، فكبر علىّ ذلك وغضبت، فكان الغضب وحده هو الدليل عنده على صحة إيمانى وسلامة عقيدتى.

وبعد أيام دعانى إليه فوجدت عنده مكفرى، فسألته: "لماذا كفرتنى يا هذا؟".

قال: "لأبيات قلتها هى الكفر الصراح".

قلت: "وما هى بالله!".

قال: إنك تقول:

"هـذا نبى ولم يبعـث وليـس له

إلاّ الجمال وآى الحسن، فرقـان

آمنت بالعين عن طوعٍ، وفى سعةٍ

وآمنت من نفـوس الناس آذان"

وتقول أيضاً:

"آمنت بالحب فاجز المؤمنين كما

يجزى على طاعة المخلوق ديان"

وتقول أيضاً:

يا معرضاً، أنت نجمى غبت عن نظرى

وما ضللت ولكن شيمة الملل

وأنت فـى العـين أنـوارٌ ملمعة

وأنت فى القلب برد العارض الهطل

وأنت فى الليـل حلم غير منقطـع

وأنت فى الصبح عزم غير متصل

وأنت تاج خلـود لـى أتيـه به

وقد غنيت عن النسرين والنفل

وأنت جبريل توحى لى فأنظم ما

توحيه من غرر الآيات والجمل

وأنت فينا نبى الحسن لا كذبا

وللهوى، مرسل من أفصح الرسل

فلم يبق لى صبر وثرت به العنه وبودى لو أمزقه بأظافرى وأشرب دمه، فخشى أخى عاقبة حماقتى، وإن كان هياجى قد سره ولاطفنى حتى زال عنى الغضب، وآمن أن يضطغن علىّ خصمى، ثم صرفنى وبقى وحده معه.

وبعد أيام قال لى: "هات لى اثنى عشر جنيهًا!".

قلت: "من أين لى بها؟ ولماذا؟".

قال: "دفعتها عنك إلى الرجل، وانتهى الأمر".

قلت: "اشتريت إيمانى منه ورددته علىّ باثنى عشر جنيهًا؟".

قال: "نعم، أو قل اشتريت لك بقاء امرأتك معك".

قلت: "كلا، فما كفرت، ولكنه جاهل أو نصاب".

قال: "دع هذا الآن، وهات الجنيهات".

قلت: "اطرحها من حقى عندك".

قال: "أى حق؟".

قلت: "مال أبينا الذى تركه وضيعته".

قال: "ألم تغفر هذا؟".

قلت: "غفرت ولا فضل، وهل أملك إلا أن أغفر؟".

الطفولة(٧٦)

قلت لنفسى ليلة، وأنا أنظر إلى بنىّ - وفيهم الراضى والناقم، والذى يكظم غيظه والذى يجاهر بسروره -: "الحق أن هؤلاء البنين نعمة ونقمة، وزينة وفرحة، وبلاء شديد وكرب عظيم لا دافع له".

وكان مثار هذه الخواطر أن أحدهم - أصغرهم - حلا له أن يطل من الشرفة ثم عاد يقول: "بابا".

قلت: "نعم يا سيدى".

قال: "اشتر لى تراماً".

قلت: "ترام؟ شىء لطيف! ولم لا؟ إنه ليس عليك إلا أن تتمنى علىّ، فإذا بيدك على ما تشتهى! ألستُ إلهًا قادراً على كل شىء؟ فالعجب أن الناس لا يعرفون ما معى ولا يفطنون إلى حقيقتى التى يدركها هؤلاء الأطفال الصغار بالغريزة الذكية، هل قلت يا حبيبى تراماً؟".

فقال: "نعم، وله سائق فى بدلة صفراء لها أزرار لامعة، وفيه ركابه و..".

فقاطعته وقلت: "تمهل يا مولاى ومالك رقى؛ فإن الناس لا يباعون ويشرون".

فقال: "لم لا؟ لقد بعت أنا "هانم" - خادمة صغيرة - بقرشين لعمى، وأخذت

---

(٧٦) نشرت فى مجلة "الحديث"، أول مايو ١٩٣٥، (ص٢٩٦-٣٠٣).

القرشين واشتريت بهما شكولاته و"بختًا" وجدت فى بعضه أزرارًا وفى البعض زمارة".

وكان هذا صحيحًا - أعنى أن عمه مازحه يومًا وساومه على الخادمة ونقده قرشين ثمنًا لها قبضهما الغلام ملاليم عشرين صفرًا لامعة وخرج بها ومعه هذه الخادمة التى باعها فى سوق بيتنا؛ فاشترى ما ذكر، ثم جاء الليلة يجادلنى بذلك ويورده حجة على أن الناس سلعة تعرض فى الأسواق ويجرى عليها حكم التجارة.

فقلت لنفسى إن هذا موقف ينقصه التكافؤ الذى يقتضيه العدل - هو يباح له ويقبل منه أن يخلط الجد بالهزل، ويسوق هذا مساق ذاك وأنا لا يجوز لى مثل ذلك، إلا مع القصد واجتناب الشطط، وتحرى الفائدة له من وراء هذا كله.

وألح الغلام علىّ فى المسألة، فوعدته أن اشترى له الترام المطلوب وكان ظنى أن مرضاته يسيرة لا تكلفنى عناءً كثيرًا، فلما كان اليوم الثانى، وفرغت من عملى، طفت بالدكاكين التى تبيع لعب الأطفال، فوجدت قطرًا تجرى على خطوط حديدية، وبواخر عائمة فى أحواض، وألف لعبة أخرى إلا الترام فقد أعيانى التماسه، فاستخرت الله واشتريت له قطارًا بمركباته وقضبانه، ولأخيه - وهو أسن منه قليلاً - زورقًا بخاريًا، فما كنت أستطيع أن أدخل عليهما بلعبة واحدة فيقتل أحدهما الآخر، أو يتألب الخصمان علىّ، وقد كلفتنى هاتان اللعبتان]من[المال ما لا أحب أن أفكر فيه، وليس أحد أذكى من هؤلاء الأطفال ولا أشد يقظة ولا أعظم مكرًا، فما أذكر أنى وضعت المفتاح فى القفل مرة إلا رأيتهم وراء الباب ينتظرون دخولى وما رأونى من نافذة، ولا نظروا فى ساعة، ولا سمعوا لى دبة رجل - فإن مشيتى خفيفة كمشية اللص لا صوت لها - ومع ذلك يحسون أن وقت قدومى قد جاء، فتصير عيونهم على الباب، وآذانهم مرهفة لحركة المفتاح فى القفل، وقد أنسى المفتاح أحيانًا أو يتعذر استعماله لامتلاء يدى بما يكون معى، فأدق الجرس - أضغطه بكوعى - فأسمعهم يصيحون "بابا أهه - بابا أهه!" ويتسابقون إلى الباب ليفتحوا لى.

ودخلت فى ذلك اليوم، وعلى ساعدى حمل بعير من تلك اللعب، فذهب الصغير يتوثب وجعل يصفق ويصيح: "بابا اشترى لى الترام" ويردد ذلك بأنغام مختلفة وأصوات متفاوتة، أما الذى هو أكبر منه فرزين ساكن الطائر، وخبيث ماكر مشى إلى جانبى صامتًا لا يقول شيئًا ولا يزيد على نظرات يثنى عنقه ويلقيها على ما معى.

ووضعت الأثقال وجلسنا فقال الصغير: "هات الترام!".

قلت: "لم أجد ترامًا يا صاحبى، فجئتك بما هو خير".

قال: "ولكننى لا أريد إلا الترام".

قلت: "ألا تنتظر حتى ترى بعينيك..؟".

فهز كتفه الصغيرة وصوب عينه إلى الأرض، ثم مضى إلى كرسى فقعد عليه وجعل يتأمل حذاءه ويحك واحداً بواحد، فكشفت عن القطار وأخرجت قطع القضبان، ووصلت بعضها إلى بعض على الأرض، وأخرجت القطار، وربطت إليه مركباته، ثم أجريته على خطه، فمضى يجرى ويصفر، والغلام العنيد يخالسه النظر، ولا يرفع مع ذلك عينه عن حذائه، وأخرجت الزورق والحوض، ثم ملأت هذا ماء وأوقدت شمعة صغيرة ركبتها فى الزورق فدارت الدواليب وانطلق الزورق يمخر هذا المحيط الأعظم، ويرسل الدخان وينفخ ويصفر.

ولما انتهت التجربة قلت: "والآن من يأخذ الزورق البخارى؟ ومن يأخذ القطار".

ونهضت إلى الصغير فحملته على ذراعى وأشرفت به على اللعبتين وقلت له:

"أترانى كنت أبخل عليك بالترام لو أنى وجدته؟ ومع ذلك سأعيد الكرّة وأبحث مرة أخرى، فخذ هذا القطار فإنه منظر! ودع الزورق لأخيك فإنه أسن منك وأقدر على الانتفاع به، قل إنك قبلت، وعانقنى، وبُسنى".

فقال: "فرغت البوسات".

قلت: "كيف يمكن أن تفرغ؟".

قال: "أخذتها "ماما" كلها".

قلت: "وبابا؟ أليس له شيء؟".

قال – وهو يهز كتفيه –: "بابا لا يسمع الكلام؟".

قلت: "المسألة بسيطة – اطلب تراماً من "ماما" وانظر من أين تجيئك به".

فقال: "أهه!".

قلت: "أين؟".

قال: "في الشارع!".

قلت: "هذا ترام حقيقي".

قال: "وأنا مالي؟".

فضاق صدري، فما للرجل مثل صبر النساء على الأطفال، وقلت: "عليك بماما! اطلب منها الترام، وهات لي نصيبي من البوسات".

فتدخلت ماما وقالت: "لماذا تغريه بي وأنت تعلم أن ما يطلب عسير؟".

قلت: "أكفني هذا العناء، فقد نفذ صبري".

قالت: "إني أحمله عنك اليوم كله، وأنت تضجر بعد دقيقتين!".

قلت: "إنه عملكن وأنتن فيه أنفذ وعليه أقدر".

فقالت: "إن الرجال لا يصلحون لشيء".

وتولت الأمر عني، فتركتها معهما لحظة، عدت بعدها فإذا كل طفل ذاهل بلعبته عن الدنيا! ونمت ساعة دخل من بعدها الطفلان – هذا يشكو لي أن القطار خرب فهو

لا يجرى ولا يكاد ينهض على القضبان، وذاك يذكر لى أن الزورق غرق وأنه كلما أقامه على الماء، مال وانقلب فيه، وزاد الصغير فقال:

"خذ القطار - لو كنت اشتريت الترام لكان أحسن".

فقلت، وأنا أقرك عينى: "لا بأس عليكما إنما البأس كله علىّ أنا الذى خسر المال، والذى يخسره دائمًا وسيخسره فى كل وقت، فاذهبا الآن عنىّ بسلام، ولا تنسيا أن تدعوا الله أن ينقل إلى بيتى خزانة البنك الأهلى، فإنى أحوج ما أكون إلى ما فيها".

فسألنى الصغير: "وماذا تصنع بها؟".

قلت: "أشترى لك بها لعبًا يا سيدى!".

فقالت ماما: "لا تتهكم على الأطفال!".

قلت: "إنما أسخر من حالى يا صاحبتى".

قالت: "الذنب ذنبك، لماذا تشترى هذه اللعب السريعة التلف".

قلت: "هل تظنين مصانع اللعب مغفلة حتى تخرج لك لعبًا لا يسرع إليها العطب".

قالت: "دع هذا الكلام، وقم أصلح لهما ما فسد".

قلت: "وهل أنا ميكانيكى؟".

قالت: "إنه لا خير فيك".

قلت: "البركة فيك!".

فخرجت بالأطفال، فجلست وحدى مطمئنًا أشرب القهوة وأدخن سيجارة وأشكر الله هذه الخلوة التى أتاحها لى، وإذا بالطفلين جميعًا يهجمان علىّ!.

الحقيقة أن الأطفال تطير العقل، وقد حرت معهم، فأنا أخشى أن أسرف فى الملاطفة والملاينة فأدللهم وأفسدهم، وأخاف أن أجد معهم فأفقدهم معنى الطفولة

وأحرمهم مزيتها، وأتقى أن أسىء المزج، لذلك ادع الأمر كله للزوجة فإنها أعرف وأمهر، ولكنى لا أنجو بنفسى فى كل وقت، فترانى إذا وقعت معهم أسير كأنى أمشى حافيًا على مسامير محماة.

وليس لما يطلبون آخر يعرف، ولا لكلامهم وأسئلتهم نهاية، فإذا أجيبوا إلى كل ما يشتهون اعتادوا هذا التدليل القبيح، وإذا حرموا]نشأوا [على الحرمان، فذلت نفوسهم وضعفت، لأنهم حينئذ خليقون أن يفقدوا الجرأة على الاشتهاء والطلب، فتمتلئ صدورهم مرارة ويخبت ما ينطوون عليه، وليس من العدل أن تقطع عليهم الثرثرة وتلزمهم الصمت والجمود، فما يحسنون خيرًا من الهذر، وهم فى دور التطلع والتحصيل فمن حقهم علينا أن نشجعهم ونعينهم، ولكن هذا يثقل على الكبار أحيانًا حتى ينقلب كربًا شديدًا؟ وكثيرًا ما يشق على الكبير أن يستطيع النزول إلى حيث يفهم عنه الصغير ويأنس إليه ويطيب له معه الكلام، فالأمر مشكل عويص كما ترى، وأتعب خلق الله من يكثر أبناؤه وتتفاوت أسنانهم فهو محتاج أن يدارج كلا منهم ويجعل من شخصه عدة أشخاص ولا أدرى كيف يتيسر هذا ولكن الذى أدريه أنه عذاب وإن كان لا شك فى أنه أحلى شىء وألذه إذا وفق المرء فيه.

بحر من الهموم[٧٧]

أنا فى بحر من الهموم – لا بحيرة صغيرة – بل بحر خضم طامى العباب مشرئب الموج متتابع الأواذى، لا سكون له، ولا استقرار، ولا ساحل ولا قرار، وقد كنت – وما زلت – من نفسى فى هذا البحر، مذ خلقنى الله، أو على الصحيح مذ عرفت نفسى، وعلى الأصح مذ شعرت بالبلل وأدركت أنى لا محالة غارق، ولكن البحر اتسع وعمق على الأيام، وصار محيطًا أعظم، وأقيانوسًا مهولاً أنا أبدًا محمول على متنه ومقذوف بى هنا وهنا، وإذا فتحت عينى دخل الماء فيها فأعمانى – أعنى أعماها – وإذا فتحت فمى لأتنفس تدفق الماء منه إلى جوفى فملأه ونفخ كرشى وصنع لى منها قربة عظيمة، والأسماك – كبيرها وصغيرها – سابحة ورائى، وحافة بى، وأسنانها مسنونة لعضى وقضمى، ولا]دلفين [هناك أركب ظهره اللين وأستريح من عناء الخبط والضرب فى اللجة، وأبنائى على ظهرى، ويدا الزوجة على عنقى، فالكرب عظيم والبلاء طويل، كان الله فى عونى فإنى أخشى أن أكل وأفتر، وإذا غرقت فمن ذا يبلغ هؤلاء تلك الصخرة التى يدفعنى إليها الموج ليعود فيردنى عنها، ويدنينى منها ليقصينى، وأنا خشبتهم التى تحملهم وتقيهم الغرق؟؟.

وما ذنبى أنا حتى يلقى بى فى لجة هذه الهموم؟ افتح عينى فى الصباح على صوت ابنى الصغير ينادينى: "بابا!".

فأقول: "يا فتاح يا عليم! خيرًا إن شاء الله؟".

---

(٧٧) نشرت فى جريدة البلاغ، ٢٥ مايو ١٩٣٥، (ص٣).

فيقول: "صباح الخير".

فأقول: "صباح الخير يا سيدى، أهلا وسهلاً".

فيقول: "أنا حلمت أنك اشتريت لى أوتوموبيل".

فأقول: "همم! حقق الله الأحلام!".

فيسأل: "ألا تنوى أن تشتريه لى؟".

فأقول: "الحق أن هذا لم يكن فى حسابى".

فيقول: "ولكنه فى حسابى أنا".

فأقول: "أظن هذا يكفى، ويغنى عن حسابى أنا كله!".

فيقول: "آه.. وهات لى معك الفستق - وإلا خاصمتك".

فأقول: "صرنا إلى التهديد! سمعًا وطاعة يا سيدى، اذهب الآن ودعنى قليلاً فإن بى حاجة إلى النوم".

فيسأل: "ألم تشبع نومًا".

فأؤكد أنى لم أشبع، فيلومنى لأنى أسهر، ثم يشكو لى أخاه - وهو أسن منه قليلاً - لأنه شد أذنه أو طرف جلبابه، أو زاحمه على منفعة، أو ادخر - دونه - قطعة من الحلوى، يأكلها على مرأى منه، ولا يشركه معه فيها، أو لأن لعبته سلمت من العطب إلى الآن، على حين تلفت لعبة هذا، ويدعونى أن أنصفه منه، فألاطفه وأداعبه حتى يعود الإشراق إلى محياه الصغير.

ولا أكاد أغمض عينى حتى يدخل هذا الأخ صارخًا صاخبًا فأنهض مذعوراً وأسأله عن الخبر فيقص علىّ أنه واجد على أخيه الأكبر وأنه لا يريد أن يكلمه بعد اليوم، ويروى لى أنه علق بذلته الجديدة على كرسى لأخيه الأكبر، فدخل هذا الأخ

الأكبر، وبصر بالبدلة معلقة على ظهر الكرسى، فرفعها عنه وألقاها على مقعد آخر، وبدا لصاحب البدلة أن إلقاءه لها على هذه الصورة فيه استهانة بجدتها وحط من مقامها عنده، وكان يجب أن يتناولها بعناية ورفق وأن يستأذن فى نقلها وتعليقها فى مكان آخر، أما رميها هكذا فاحتقار لا يطاق، واستخفاف غير جائز ببدلة جديدة.

فأسأله: "وماذا صنعت لما رأيت هذا؟".

فيخبرنى أنه جمع البدلة الجديدة والثياب القديمة ونقلها كلها من غرفة أخيه – حيث كانت توضع – ورتبها فى خزانة ثيابى أنا.

فأسأله: "ولماذا لم تستأذننى أنا كما تريد أن يستأذنك أخوك قبل أن يرمى لك البدلة؟".

فيقول: "أنت بابا".

كأن كونى أنا "بابا" يبيح له أن يقضى على حقوقى، وينتهى الأمر بأن أدعو الأم أن تصلح بين الأخوين.

ويذهب الأمل فى النوم فأطلب الطعام، ولا أكاد أجلس إلى المائدة حتى تدنو منى الخادمة العجوز – وأنا أكره أن أصبح على وجهها، فإنه كمنظر المدينة حين تراها من طيارة محلقة فوقها – وتفرك كفيها الغليظتين وتقول: "سيدى!".

فأقول، وعينى على الطعام مخافة أن تقع على وجهها: "نعم يا ستى".

فتقول: "ابن ابنى...".

فلا أرى مفراً من النظر إليها على كرهى لذلك، وأصيح بها: "إيه؟".

فتقول: "ابن ابنى...".

فأقول: "ما شاء الله! يعنى حفيدك؟".

فتقول: "لا لا... ابن ابنى".

فأقول: "لا مؤاخذة يا ستى أنا المخطئ - نعم!".

فتقول: "متهم بمخالفة".

فأقول: "حسن جداً ثم ماذا؟".

فتقول: "كتب إلىّ يطلب جنيهًا لأنه سيحكم به عليه".

فأقول: "شيء جميل! حفيدك - أعنى ابن ابنك - أدرى من المحكمة بما ستحكم به.. حسن، وأنا مالى؟".

فتقول: "أعطنى الجنيه وإلا حبسوه".

فأقول: "معقول، ولكن ما ذنبى أنا حتى أطالب بأن أدفع لك جنيهًا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أسود طويل لا يريد أن ينتهى؟".

فتقول: "ربنا يخليك لنا يا سيدى!".

فأقول: "لكم؟ مفهوم! ولكن لماذا لا يخلينى لنفسى؟ هذا ما أريد أن أعرفه؟".

فتقول: "ربنا يطيل عمرك ويغنيك ولا يحوجك إلى أحد!".

فأقول: "إنه سميع مجيب!".

***

ويدخل علىّ ابنى الأكبر، بكتاب مفتوح فى يده، فأنظر إليه واجفًا، فيبتسم ويقول: "ساعدنى على حل هذه المسألة".

فأقول: "مسألة؟ يا خبر أسود!".

فيضحك ويقول: "مسألة حساب - بسيطة".

فأغالط كما يغالط وأسأله: "وما يمنعك أن تحلها ما دامت بسيطة؟ الحق أن هذا تراخ لا يجوز، وتكاسل لا يليق، فانشط قليلاً للعمل يا شيخ، فقد شببت عن الطوق جداً".

فيصر على الابتسام وعلى حل المسألة، وأتوكل على الله الذى خلقنى واستودعه نفسى وعقلى، وأتناول الكتاب وأقرأ المسألة فلا أفهم شيئًا لأنى فى حياتى ما وسعنى شىء فى هذا الحساب، ولا أدرى كيف أمكن أن أنجح فى الامتحانات المدرسية والعامة، ولا شك عندى أن المصحح كان يضع الدرجة لورقتى وهو ذاهل فتجئ عالية وهو يريدها واطية أو صفراً.

وأقرأ وأعيد القراءة مرة وثانية وثالثة، ورابعة، حتى أحس من فرط الكد أن رأسى قد تحطم، فأنهض وأقول له: "انتظر دقيقة" وأغافله وألبس ثيابى وأخرج هارباً!.

وهل أحتاج أن أذكر كيف يحملنى كل من فى البيت كل تبعة عن كل ما يسخطهم؟ فأنا المسئول عن رداءة الصابون كأنى أنا صانعه، وإذا اشتدت وقدة الحر جاءنى أهل البيت واحداً واحداً يشكون ويتذمرون ويتأففون وينفخون، كأنى أنا الذى أوعزت إلى الشمس أن تصليهم هذه النار الحامية، وإذا ذاب الثلج بسرعة سألونى عنه كيف حدث هذا؟ وإذا أتلفت الطباخة طعاماً، تلقونى أنا بالسخط، وسألونى مستنكرين "ما هذا الأكل؟" وإذا حرق الكواء قميصاً أو ثوباً صاحوا بى "انظر! أيرضيك هذا؟ ألا تصنع شيئًا لهذا الكواء؟".

فأسأل عما يسعنى أن أصنعه معه؟ أأشنقه؟ أم أخنقه؟ أم أحرقه؟ أم ماذا؟ وتكون نتيجة الحوار أن أطالب بثمن ما تلف فأؤديه راضيًا أو كارهاً - سيان! وهكذا فى كل شىء، فليقس القارئ على ما ذكرت، وليدع الله لى أن يكون فى عونى.

شم النسيم فى مركز بوليس![٧٨]

اشتهيت مرة أن أخرج إلى الظل، ورقاقٍ مغيضةٍ معشابٍ، وأن أجلس تحت شجرة عظيمة تميل علىّ أفنانها من الرى واللين، فقلت لصاحب لى:

"إنى فى أرض واسعة سهلة، ولكنى كرهت مقامى بها، وأضجرنى منها أنى لا أرى فى فضائها الرحيب عوداً نابتًا، ولا أسمع إلا صوت الرمال وهى تجرى على رمالها وتوقع بعضه على بعض، وغداً شم النسيم، فتعال بنا إلى ناحية من الريف قريبة من بعض أرياض المدينة، وعسى أن أحمد بقعة فى طريقنا، فأنزل بها وأسكنها، فقد اجتويت الصحراء كما قلت لك، وما أظن بى إلا أن الحنين إليها سيعاودنى، ولكن البعد عنها سنة أو سنتين، يكون كالاستجمام، فما قولك؟".

قال: "وتخرج فى شم النسيم؟".

قلت: "ومالى لا أفعل؟ أهو حرام - علىّ وحدى؟".

قال: "لا، ولكنه يوم تكثر فيه العربدة، وأولى بك أن تلزم دارك - كعادتك".

قلت: "يا أخى، الله يوسع لى فى الأرض، وأضيق على نفسى! كلا، ولن نعدم مكانًا ننأى فيه عن ضجات السكارى والمعربدين، فاختر لنا مكانًا، وتوكل معى على الله".

فاختار: "المرج".

***

---

(٧٨) نشرت فى الرسالة، ٢٠ مايو ١٩٣٥، (ص٨٠٧-٨٠٩).

وحملنا معنا كفايتنا من الطعام والشراب، وكنا أربعة - أو خمسة، لا أذكر - وركبنا قطار الزيتون وكان كالحمار النهّاق البليد، يمضى ويتوقف، ويميل هنا وههنا، ولا يزال يصلصل، كأنما يقطع أرضًا أو يصنع شيئًا يستحق هذه الضوضاء، وأنا امرؤ خلقنى الله أكره التثاقل والاسترخاء، وأحب أن أفرغ مما أكون فيه بأسرع ما أستطيع، فمشىّ قفز، وأكلىّ لقم، وكلامى لغط، وخطى أشبه بما تتركه أرجل الدجاج على الرمل، من فرط العجلة؛ ولا صبر لى على دلال امرأة، ولا أعرف التمهيد لشىء، فإنه لف أو تطويل لا موجب له؛ وما أكثر ما أحببت، وما أسرع ما سلوت، وكم قلت لامرأة: "يا صاحبتى لقد أحببتك، ولكنى لم أحبك ليَوْجَعَنى رأسى وقلبى، فإن كنت لا تحسنين إلا تصديعى وتنشيف ريقى، وإلا هذا الذى تسمينه دلالاً، فَلا يا ستى ويفتح الله عليك بغيرى". وأدعها وأمضى، ولا أعود بعدها إلى ذكرها، وما أكثر ما قلت لنفسى: "ما هذا يا مازنى؟ إنى أرى حبك قد طال ساعاتٍ، وهذا شىء يُمل ويُسئم، وليس معقولاً أن تحب غائبًا كأنه حاضر معك! نعم معقول أن تحبه ساعة يكون إلى جانبك، ولكن بعد أن يمضى عنك أو تمضى أنت عنه، لا يُقبل منك أن يظل قلبك يتلفت إليك ويُشغل به عن سواه"، فتقول نفسى: "أى والله، صحيح". وأستلقى على سريرى وأغمض عينى، وأنام، ثم أقوم وقد نسيت حتى اسم من أحببتُ، لهذا قلت لأصحابى:

"يا رفاق! ما قولكم؟".

قالوا: "ماذا؟".

قلت: "ننزل من هذا القطار ونذهب نعدو إلى جانبه".

فضحكوا ولم يسمعوا منى، ولكنى كنت واثقًا أنى أستطيع أن أسبقه على الرغم من عرجى؛ ونزلنا فى "المرج" فلم نجد شجرة نجلس فى ظلها، ولا جداراً يقينا وقدة

الشمس، ولم نلمح فى الأفق البعيد شيئًا يغرى بالأمل، فقلت: "أرجع إلى صحرائى فهى بى أرفق من هذا المرج فإن لى فيها على الأقل بيتًا آوى إليه، والذى لا يرضى بالخوخ يرضى بشرابه".

وإنّا لكذلك وإذا بضابط يقبل علينا ويحيى واحدًا منا، ويسأله عما جاء به، فيخبره أنه جاء معنا، ليشم النسيم، ولكنا لا نجد مكانًا ظليلاً نميل إليه، فيقول الضابط الكريم:

"تعالوا عندى".

فنسأله: "عندك أين؟ فإنّا لا نرى بيتًا ولا كوخًا".

فيقول: "فى مركز البوليس، فإنى ملاحظ النقطة!".

فينظر بعضنا إلى بعض وأقول: "نشم النسيم فى مركز البوليس! هذا جديد!"،

وترددنا، ولكنه ضابط بوليس، وتحت أمره قوة كافية لإرغامنا، فقلنا:

"لا بأس! هى تجربة جديدة فلننظر ماذا عسى أن تفيدنا من المتعة؟ وما يدرينا؟ لعل مركز البوليس خير مكان نقضى فيه يومنا! وما نظن أن أحدًا جرب ذلك من قبل، فهى ميزة ننفرد بها ونستبد".

ودخلنا المركز، فدبت أقدام الجنود، وارتفعت أيديهم إلى رءوسهم بالتحية، وتحركت عيونهم دون وجوههم، وجعلت تنظر إلينا وتتبعنا ونحن داخلون ومعنا السلة فيها الطعام والشراب، وصعدنا إلى غرفة فيها مائدة من خشب غير منجور، وحولها كراسى ثقيلة، وأنا نحيف هزيل، يقول أحد الأطباء فى وصف جسمى إنه شبكة من الأعصاب تحملها طائفة من العظام، وتكسو هذه وتلك طبقة رقيقة من الجلد، ولا لحم لى ولا شحم فأحتمل الجلوس على هذه الكراسى الناشفة، ولكن ما حيلتى؟، وجاءونا بأطباق وملاعق وسكاكين وأشواك وفوط، فسألت الضابط:

"من أين لكم هذا!".

قال: "ماذا تظن؟".

قلت: "أظنكم أخذتموها من اللصوص الذين وقعوا فى قبضتكم".

قال: "أو لعلنا سرقناها؟ هيه؟".

قلت: "كل شىء جائز فى هذه الدنيا! ومتى صار جائزًا أن نشم النسيم فى مركز البوليس، فكل شىء بعد ذلك هين ومقبول ومعقول".

وكان الجنود كلما دخلوا علينا بصحن أو قلة، أو كوب أو فنجان، يدبون بأحذيتهم الضخمة الثقيلة، ويحيون، ويضعون ما فى أيديهم الأخرى، ثم يعودون على التحية والدب بالأرجل، ويخرجون، وتكرر ذلك منهم ألف مرة، فقلت للضابط:

"ألا تعفيهم من هذا التكليف؟".

قال: "إنهم جنود وقد ألفوا ذلك فليس فى وسعهم إلا أن يفعلوه".

قلت: "لو لم تكن معنا لما تكلفوه".

قال: "ولكنى معكم".

قلت: "إذن فأعفنا نحن، فإنه إزعاج".

فسأل: "كيف أصنع؟".

قلت: "والله لا أدرى! هل تستطيع أن تختبئ تحت المائدة حين يدخل منهم واحد؟".

وأكلنا هنيئًا، وشربنا مريئًا، ولم تمنعنا هذه التحيات والدبات أن نضحك ونمزح، ولم يَحِل شعورنا بوجودنا فى "مركز البوليس" دون التبسط والمرح، واحتجت بعد ذلك

أن أنام دقائق، والنوم من عاداتى بعد الغذاء، فإذا حرمته حرمت الراحة، وتفتر جسمى، وغاض معين نشاطى، وساء خلقى، وانقلبت مخلوقًا شرسًا ومشاكسًا، وشريرًا مجرمًا، تقذف عيناه بالشرر، ومن أجل هذا تتخذنى زوجتى هولة تخوف بى الأطفال والخدم، فإذا رأت أنى لم أنم بعد الظهر، أقبلت تقول: "تعال!".

فأقول :"إلى أين؟".

فتقول :"تعال خوّف الأطفال، فإنهم لا يريدون أن يسكنوا!".

فأقول :"يا سيدتى، إن التخويف شر أساليب التربية".

فتقول: "دع هذه الفلسفة وقم، فقد كاد رأسى يطير من ضجتهم؛ ثم إن عند الجيران أطفالاً كثارًا يصيحون، فأخرج لهم وجهك من النافذة يخرسوا، وفى الشارع رجال يتشاجرون فأذهب إليهم وأطردهم إلى شارع آخر".

فأهز رأسى وأقول: "تالله ما اشتهى إلا أن أخوفك أنت!".

ثم أنهض آسفًا، وأصدع بما أُمرت، فيهدأ البيت ويسكن الشارع، ويخفت كل صوت حتى صوت الترام، فينشرح صدرها وتقر عينها، وتتنهد مسرورة، وتقول:

"ليت أنك لا تنام بعد الظهر أبدًا!".

فأسألها: "أتكرهين لى الراحة؟".

فتسألنى مغالطة: "أتكره لى أنت الراحة؟".

فلا أجد جوابًا حسنًا، وأسألها: "هل أستطيع أن أنام الآن؟".

فتقول: "وإذا قامت ضجة جديدة؟".

فأقول: "اطمئنى... وفى وسعك دائمًا أن توقظينى لهم".

فتذهب تصف وجهى معجبة بما يكون مرتسمًا عليه من مظاهر الإفزاع وبواعث الرعب، مباهية به وجوه القتلة والسفاحين وقطاع الطريق؛ ولكن هذا استطراد، فلنرجع إلى ما كنا فيه من شم النسيم.

كان لا بد أن أنام، فنمت على كرسيين، حططت نفسى على واحد، ومددت ساقى على الآخر، ولم يكن هذا فراشًا وثيرًا بالمعنى الصحيح، ولكن النسيم كان عليلاً فى مركز البوليس، فأغفيت دقائق زعمها أصحابى ثلاثين، وقالت لى عظامى المهيضة إنها كانت رقدة أهل الكهف.

ولم تكن لى يومئذ زوجة، فلما عدت إلى البيت لاحظت أمى أنى أشكو وجعًا فى ظهرى وتكسيرًا فى عظامى، فسألتنى:

"أين كنت؟".

قلت: "فى مركز البوليس بالمرج".

فصاحت بى: "مركز البوليس؟ لماذا؟ ماذا صنعت؟".

قلت: "شممت النسيم!".

قالت: "أكنت تشم النسيم أم تضرب علقة؟".

وظلت إلى أن ماتت، وهى فى شك من هذا الأمر.

فى الجبانة[79]

قالت لى أمى – رحمها الله – مرة: "ألا تنوى أن تزور أباك فى هذا الموسم؟".

وكنا قد أوشكنا أن ندخل فى رجب، وكانت حريصة على زيارة موتاها فى كل موسم، بل فى كل خميس وجمعة، لا تهمل منهم أحداً، فتطوف بهم جميعًا وتقرأ لهم الفواتح، ولا تأكل فاكهة جديدة حتى "تفرق" منها على قبورهم، وكان ذلك يثقل علىّ، ولكنى كنت أكِلها إلى رأيها فيه، إيثاراً لمرضاتها.

فقلت – بلهجة من ضاق صدره –: "كيف أزوره وهو ميت وأنا حىٌّ، وهو تحت الأرض وأنا فوقها، فلا يسمع منى ولا يرانى ولا يحسنى؟".

فقالت: "إنى أراك مغتراً بالحياة ومعتزاً بها، ولا أستحسن لك هذا".

ولم تزد، فأقصرتُ أنا أيضًا وقد شعرت أنى آلمتها بسخافتى وحماقتى، وكرت الأيام، فما يقف الدهر، وماتت – كما يموت كل حى – فكان أوجع لى من موتها أنها ذهبت وهى موقنة أنى لن أزور قبرها، وكأنما أردت أن أغالط نفسى فيما تحسه من الوخز والندم، فجعلت أزورها من حين إلى حين، ولكنى كنت أتسلل كاللص، وأتخير أوقاتًا غير أوقات الزيارة المألوفة، فلا يعلم بذلك أحد، ولا يرانى مخلوق، ثم كففت لأنى أنكرت هذا كله من نفسى، وكبر علىّ أن أذهب إلى المقابر على رجلىّ، وقلت لنفسى:

---

(٧٩) نشرت فى الرسالة، ١٠ يونيه ١٩٣٥، (ص٩٢٥-٩٢٦).

"إذا كان المراد بالزيارة الذكر، فإنها به أبدًا بين العين والقلب، وإذا كان صحيحًا ما يقال من إن الميت يموت مرة أخرى كلما نسيه واحد من الأحياء، فإنى لن أجنى ميتة جديدة على أمى ما دمت حيًا".

ولم يفتر ندمى مع ذلك، فظل دائرًا فى نفسى، فتشددت، وحملت نفسى على مكروهها، ومضيت إلى قبرها فى ليلة سوداء - أعنى مظلمة - وفتحت الباب ودخلت المقبرة وقلت: "السلام عليكم" كأنما أردت أن أونس نفسى بصوتى فى هذه الوحشة، فما راعنى إلا صوت يقول: "وعليكم السلام! من تراك تكون؟".

فذعرت، وهممت بالجرى، ولكنى استحييت، فما يمكن أن يرد السلامَ غيرُ حىٍّ، ولعله مسكين أوى إلى هذا المكان الموحش من الفاقة، وما أكثر من رأيتهم يفعلون ذلك! فما خوفى من رجل يقول: "وعليكم السلام"؟؟ ولو كان أمرًا سوء لاستخفى، فتشجعت وأدرت عينى فى المكان فلم تأخذ شيئًا فى هذا السواد فقلت: "من عساك تكون أنت يا صاحبى؟".

فقال الصوت: "وما سؤالك هذا؟ لن تعرفنى على كل حال، فإنى قديم - قديم، ولكن تعال ساعدنى واحتقب شكرى".

فدنوت منه - أعنى من مصدر الصوت - وسألت: "على أى شىء تريد أن أساعدك؟".

قال: "على حمل هذا الحجر - فقد وهن عظمى جداً".

قلت: "ولماذا تريد أن تحمله؟ دعه حيث هو، فإنه من حجارة المقبرة وليس لأحد أن يزحزحها عن مكانها أو ينقلها".

قال: "إنك معذور".

قلت: "كيف؟ ماذا تعنى؟".

قال: "هذا قبرى، وهذا من صُواه - عليه اسمى مكتوباً... تستطيع أن تقرأه إذا شئت".

فكان من دواعى عجبى بعد ذلك أنى لم أذعر ولم أولّ هارباً، بل أقبلت عليه أسأله وأستخبره فقال:

"لقد هجرنا جميعًا هذه المقبرة المهملة - لم يبق لنا فيها مقام، وكيف المقام فى قبور متهدمة؟؟ لقد كانت جديدة حسنة البناء يوم جئنا، كان أهلنا - الباقون منا على قيد الحياة - يعنون بها ويرشون أرضها بالماء ويحملون إليها الزهر والرياحين، فكان يفوح ويتضوع، فإذا جن الليل خرجنا من القبور مسرورين وأقبلنا عليها نشمها وننعم بشذاها، وكان القراء يتلون على أجداثنا القرآن فيندى على قلوبنا وترف له نفوسنا وتحس أن عظامنا قد طريت، أما الآن...!؟ لا يا صاحبى، لم تعد هذه المقبرة صالحة للإقامة! وقد هجرناها، وجمع كل منا كفنه وحمل من له حجر حجره، ورحلنا، وكيف كان يسعنا غير ذلك؟ إنها لم تعد جبانة... هذه هى مساكن الأحياء أراها من مكانى هنا... فهل هذه مقبرة؟ لقد زحف الناس ببناهم وغزوا أرضنا وجاروا علينا، وجاورونا، فبالله كيف نطيق جوارهم؟ كيف نحتمل لغطهم وضجاتهم التى لا تنتهى؟ ما عسى صبرنا على حركاتهم التى لا يعقبها سكون؟؟ لكأنا ما متنا ولا استرحنا إذن!؟ وأقول لك الحق لقد بدأنا نأسف على أنَّا متنا... لا يا صاحبى، لم تبق هذه الأرض للموتى، ولم يعد ثم مفر من الرحيل عنها... لقد تعبنا جداً هنا واضطررنا إلى ما لم يكن لنا فى حساب، ومن لطف الله بنا أن هذه البلاد قليلة المطر، ومع ذلك كنا إذا أمطرت ينفذ إلينا الماء من سوء حال القبور، وتبتل أكفاننا فنضطر إلى الخروج وننشرها بين أيدينا أو على هذا السور حتى تجف وتعود صالحة للبس، وعلى ذكر ذلك أقول إنى لا أدرى ماذا جرى للدنيا؟ لقد كانت حفيدة لى مدفونة هنا، وكان عليها كفن من الحرير الغالى، فسرقه

لص! تصور هذا؟ ولا أعلم هل سرقه واحد من الأحياء، أو تغفلتها ميتة أخرى وسرقته؟ فإن كان السارق من الموتى فلا بد أن يكون من جيراننا فما في أسرتنا هذا السوء، وقد شكت إليّ ما صارت إليه من العرى، فلم أدر أول الأمر ماذا أصنع؟ وكيف أكسوها؟ وخطر لى أن أنتظر حتى يجيئنا ميت جديد، أو يموت ابنها فآخذ من كفنه لها، فإن الميت الجديد يلف فى أكثر مما يحتاج إليه، ولكنه لم يمت مع الأسف، فلم أجد حيلة إلا أن أجعلها دقة بدقة، والبادى أظلم، فذهبت أرتاد هذه الجبانة حتى رأيت كفنًا من الحرير لا أشك فى أنه الكفن المسروق، فجئتها بشق منه وتركت شقًا".

وضحك - أعنى أنه أخرج صوتًا سألته عنه لأنى حسبته كلامًا فقال إنه كان يضحك، فسرت فى بدنى رعدة، واستأذنته فى الانصراف.

فقال: "ألا تعيننى؟ إن الحجر ثقيل، وأنا هرم، وقد فتر نشاطى من طول الرقاد".

فتناولت الحجر من ناحية، وتناوله من طرفه الآخر، ووضعناه معًا على ظهره، وذهب يخطو، وكانت عظامه تقرقع وهو يمشى، فلما بلغ الباب سألته: "ألم يبق هنا أحد منكم؟".

قال: "لا... ماذا نصنع هنا؟ كلا، ليبن فوقها الأحياء إذا شاءوا".

قلت: "وأين ذهبتم، فقد نحب أن نزوركم".

قال: "أين ذهبنا؟ وأين تنتظر أن نذهب؟ انتشرنا فى فضاء الله، فإن أرضه ما زالت واسعة، ولن نعدم فيها منأى عن مساكن الأحياء... وعلى ذكر ذلك أسألك: "ألستم تموتون فى هذه الأيام؟".

قلت: "يا له من سؤال؟ كيف لا نموت؟".

قال: "لماذا إذن هذا الزحف علينا كأن الدنيا تضيق بكم وكأنكم تزيدون ولا تنقصون؟ لماذا لا يكفيكم ما كان يكفينا؟ كل الجبانات المشهورة صارت أحياء عامرة بالسكان فكيف هذا؟".

فسألته: "وجلا عنها الموتى؟".

قال: "بالطبع! وهل يمكن أن يحتملوا الناس؟ إذن لماذا ماتوا؟".

قلت: "هل تفزعكم الحياة إلى هذا الحد؟".

قال: "كما يفزعكم الموت - كلا، لا يطيق الحياة من نجا منها... والآن عم مساء يا صاحبى! هل لك فى مرافقتى؟ لا؟ لا بأس! كل شىء مرهون بوقته...".

فلم أطق أكثر من ذلك، وخرجت من الجبانة أعدو...

مَوْلِدُ الرّسُولِ(٨٠)

كانت الشمس قد انحدرت وراء الأفق الغربى وانتشرت على الأرض غيابات الطفل، فأقبل الناس من كل فج على ساحة "عبد المطلب" وهم من كل سن وزىّ، ففيهم الشيخ الوقور، والشاب الخفيف، والتاجر، والراعى، وكانت ثيابهم مثلهم شكولاً وألواناً فمن دراعة إلى مئزر ومن عباية إلى لبادة، ومن عمامة، إلى لاذة، وبعض هذا أبيض والبعض أخضر، أو أحمر، أو أزرق، أو أصفر، وكان فى رحبة البيت نار عظيمة عالية اللهب شديدة الوهج، وكان الضيوف يقبلون جماعات ووحدانا، ويجلسون فى حلقات حول جفان مثقلة بما تحمل من اللحم السليق، والمصلى والمشوى، والمضهب، وغير ذلك من ألوان العصيد والثريد، فقد نحر "عبد المطلب" جزوراً ودعا أهل مكة فلبوا، وكان سيد مكة وقد ناهز السبعين ولكنه كان على ارتفاع سنه، مديد القامة، عريض الألواح، واسع الجبهة واضحها، حاد النظر جليل الصورة، له هيبة وسمت، ولكنه كان فى تلك الليلة مشرق المحيا بسام الثغر، وكان يطوف بضيوفه يحييهم ويحضهم على الطعام والشراب، ويلاطفهم ويضاحكهم ويقول لمن يسأله عن الطفل الذى رزقه قبل أسبوع، ما اسمه؟:

"أسميته محمداً".

فيقول له بعضهم: "ولم رغبت عن أسماء أبائك؟".

---

(٨٠) نشرت فى مجلة شهرزاد، ١١ يونيه ١٩٣٥، (ص٤-٥).

فيقول: "أردت أن يكون محموداً فى السماء لله، وفى الأرض لخلقه".

وكان عبد ضخم يحمل الغلام على ذراعيه ويدور به وراء سيده عبد المطلب، وسيده لا ينفك ينثنى إليه ويربت على خده الصغير النضير بأطراف أصابعه، كأنما يذكر به أباه الذى خطفه الموت فى الرابعة والعشرين من عمره، وكان لعبد المطلب أبناء كثيرون، ولكن عبدالله كان آثرهم عنده وأحبهم إليه، وأنداهم على قلبه، حتى لقد هم بأن ينحره لله عند الكعبة كما هم إبراهيم أن يذبح إسماعيل عليهما السلام، لولا أن وثبت إليه قريش تمنعه أن يفعل، وذهبوا به إلى عرافة فأشارت بالدية، فجعلوا يضربون القداح على الإبل وعلى عبد الله حتى بلغت الإبل مائة فخرجت القداح عليها فنحرت وكانت فداءه.

***

وظل الضيفان يطعمون ويضحكون، ويسمرون حتى كاد الليل يتهور، وآمنة راقدة تراعى النجوم الزهر، وتذكر بليلتها هذه ليلة أخرى ليست بعيدة العهد، حين بنى بها عبدالله فى بيت أهلها، وأقام معها عندهم ثلاثًا، ثم انتقل بها إلى أهله، وقد جرت المقادير بألا يعايشها إلا شهوراً، ثم انتزعه الموت وحرمها جواره، فهى تكر طيب عهده الذى كان قصيراً كالحلم، وتنظر إلى الطفل الراقد بجانبها وتسأل نفسها: ترى هل يملأ هذا الطفل الفراغ الذى تركه فى حياتها زوجها الوسيم القسيم، القوى الوديع، وكل طفل حبيب إلى أمه، ولكن أحب الأبناء ما كان ثمرة الحب، ولعل آمنة لو استطاعت أن تمد بصرها إلى المستقبل المحجوب، وترى بعينها من خلال أستار الغيب، المحل الذى سيرتقى إليه محمد، والذروة التى سيتوقل إليها ويستأثر بجلال النبوة عليها، لطاب قلبها وحسن عزاؤها، ولكن أنى لها أن تعرف ذلك؟؟ أتعرفه مما أصاب أبرهة وجيشه فى عام الفيل الذى ولد فيه طفلها؟ ولكنه ليس بالطفل الوحيد الذى ولد فى هذا العام،

فى مكة. فإذا كان وباء الجدرى قد فتك بالجيش ورده عن الكعبة ونثر جسم أبرهة فليس لهذا دلالة عند آمنة، ولا عند سراها، أم تعرفه مما تناقل الناس خبره بعد ذلك من أن الزلزال رج قصور كسرى وكاد يدكها، وأن نجمًا عظيمًا خفاق اللمعان أضاء الصحراء، وأن نار المجوس التى ظلت موقدة ألف عام، انطفأت تلك الليلة لغير سبب معروف؟؟ ومن أدراها إذا صحت هذه الآيات، إنها إيذان بمولد هذا الغلام الذى سيخرج من العرب المتنافرة أقوى أمة، ويؤدى إلى الدنيا أسمى رسالة إلهية؟.

وإن محمداً بين ذراعى آمنة لقرة عينها، ولكنه لا ينسيها عبدالله فهو سلوة تهيج شجنًا، وعزاء يثير حزنًا، وبرد على القلب يؤجج نارًا، وفرحة تريق دمعًا، فالعجب لأم محمد، لا تقنع بمحمد، وهو ملء الدنيا!!.

مكتبتى[81]

مكتبتى شىء عظيم جدًا - ولست أعنى أنها كبيرة ضخمة، وأن فى خزاناتى آلافًا مؤلفة من المطبوع والمخطوط، فما عندى مخطوط واحد، ولا ولوع لى بجمع هذا الضرب من الكتب، وما يمكن أن تبلغ كتبى الآلاف بعد أن احتجت أن أبيع منها مرات، وإنى لمجنون بالكتب، ولكن جنونى بما فيها لا بأشكالها وألوانها على رفوفها، وقد اعتدت ألا أبالى أن يبقى الكتاب عندى بعد أن أقرأه أو أن يذهب، ولم أكن كذلك، ولكن المرء مما تعود، وعلى أنه سيان أن أتحفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريته، أو أهبه، فما إلى الوصول إليه سبيل فى هذه الخزانات، ولأهون علىّ أن أشترى منه نسخة أخرى من أن أهتدى إلى موضعه وأعرف أين اختبأ، ومتى كان هذا هكذا، فما حرصى على كتاب يحاورنى ويهرب منى وأنا أدور بعينى على الرفوف؟؟.

وليس أثقل علىّ، ولا أشق على نفسى من الإقامة فى بيت واحد زمنًا طويلاً، ولو وكل الأمر لاختيارى لاتخذت كل يوم بيتًا، ولكن الكتب راضتنى على السكون وردتنى على مكروهى، فأنا الآن كالمُقعد لا أكاد أتحول، إلا أن أُحمل على الانتقال حملاً؛ ذلك أنى كلما سكنت بيتًا، أروح أتخير للكتب أوسع الحجرات وأكثرها شمسًا وهواء، ثم أقول دعوا الصناديق والغرارات حتى أفتحها وأخرج ما فيها وأرتبه بنفسى، فتترك شهورًا، تنقلب الحجرة فى خلالها مزبلة، فيتبرم أهلى ويلحون علىّ أن أفرغ الصناديق.

(81) نشرت فى مجلة الرسالة، ٢٤ يونيه سنة ١٩٣٥، (ص١٠١٤-١٠١٥).

فأقول: "لا بأس، موافق".

فتسألنى زوجتى: "متى تفعل؟".

فأعدها خيراً، فتلح علىّ، فأؤكد لها أنى فاعل ذلك غداً إن شاء الله.

فتقول: "إن شاء الله معناها عندك إنك لن تفعل أبداً".

فأقول: "استغفرى الله يا امرأة! إن شاء الله يعنى إن شاء الله، أليس كذلك؟".

فتقول: "ولكنى أريد تنظيف الغرفة! ألا ترى هذا التراب؟".

فأقول: "صحيح! كثير".

لأنى أحب أن أقر بالحق وأكره المكابرة، فتهمل الثناء على ذلك وتقول:

"وهذه الصراصير؟ والفيران؟ لا.. لم يعد هذا بيتاً يُسكن".

فأقول: "ألا أقول لك وأريحك؟".

فتقبل علىّ مسرورة وتسألنى: "ماذا؟".

فأقول: "أفرغى أنت الصناديق، ورصى الكتب على الرفوف - على أى ترتيب - وارفعى التراب، واقتلى الصراصير، وطاردى الفيران - وعلى الجملة، نظفى الغرفة - هيه؟ ما قولك؟".

فتوافق، وأعود من عملى فألقى المكان نظيفاً، فلا فيران ولا صراصير ولا تراب، ولا صناديق، ولكنى أحتاج أن أرجع إلى كتاب فأفتح خزانة بعد أخرى وأنظر إلى ما تكدس على رفوفها فأرتد يائساً وأصيح بزوجتى:

"يا امرأة! أين وضعت ابن الرومى؟" مثلاً!.

فتقول: "عندك بالطبع".

فأسألها: "أواثقة أنت أنك لم تضعيه فى المطبخ؟".

فتقول محتجة: "المطبخ؟ كيف تقول هذا؟ أهذا جزائى على تعبى؟".

فأقول: "معذرة، ولكنى لا أراه هنا".

فتقول: "ابحث عنه".

فأبحث - أعنى أروح أخرج من الخزانة صفًا بعد صف، وأضع ما أخرج على الأرض هنا وههنا، حتى تخور قواى، وينفد صبرى، ويهى جلدى، وأنظر إلى ما فرشت به الأرض فأجزع، وأغافلها - أعنى زوجتى - وأتسلل خارجًا، وأرد الباب ورائى حتى لا ترى شيئًا.

وأعود فى الليل، وفى ظنى أنها نائمة، وفى عزمى أن أعيد الكتب إلى الرفوف، فأفتح الباب برفق، فإذا الكتب قد وثبت بقدرة ربك، وصفت نفسها على الرفوف، وتزاحمت، ودخل بعضها فى بعض - خوفًا من الفيران ولا شك! فأتنفس الصعداء وأفرك كفىّ، وأقول:

"الحمد لله! يا ما أكرمك يا رب!".

وإذا بزوجتى تقول: "وآخرتها معك! ألا يمكن أن تعيد كتابًا إلى موضعه بعد إخراجه؟ ألا بد أن ينشف ريقى كل يوم بسبب هذه الكتب؟ شىء غريب والله! كيف ومتى يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة همًا لا ينقضى؟".

وأحب مرة أخرى أن أقرأ فى كتاب، فأدخل الغرفة، فتدخل ورائى تجرى، وتتناول ذراعى وتشدنى فأستغرب وأسالها: "ماذا؟".

فتقول بحدة: "ماذا أنت؟".

فيزيد عجبى وأقول: "ماذا أنا؟ ألا تعرفين ماذا أنا؟ سيدك يا سِتى!".

فتقول وهى تجاهد أن تعبس، والضحك يغالبها: "دع المزاح الآن! ماذا تريد أن تصنع؟".

فأقول: "شىء جميل! وكيف يعنيك هذا يا امرأة؟".

فتقول: "يعنينى مصير الغرفة - هذا ما يعنينى يا سيدى - ولست أنوى أن أدعك تقلبها مزبلة فقد ورمت كفاى من العمل فيها".

فأقول: "وماذا تصنع هذه العجوز؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر؛ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئًا غير اللعب مع الأولاد؟ وتلك الثالثة.. أهو بيت أم دكان مخدم؟ أريد أن أعرف هذا أولاً".

فتقول: "لا تحاور، إن الكتب لا يمسها غيرى، فإنى أخاف عليها التمزيق..".

فأشكرها، فتقول: "العفو! ولكنى أخاف منك على الغرفة، فأصنع معروفًا وأرجع عنها".

فأسألها: "ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتابًا؟".

فتقول: "لا تتعبنى... من فضلك... أرجوك".

فأشعر لها برقة وأقول: "يا امرأة! هل استطعت قط أن أرفض لك رجاء!؟".

واتبعها، وأنصرف عن الكتب والقراءة، وأعزى نفسى بأنى كنت سأنصرف لا محالة عن ذلك مرغمًا، فما أطمع أن أجد كتابًا أطلبه.

من هنا صار المعقول أنى إذا اشتهيت أن أقرأ كتابًا أو أردت أن أراجعه، أن أشتريه، وقد أشتريه، وأضعه على المكتب إلى المساء، فتراه زوجتى فتفتح خزانة وتدسه فى صف، وأعرف ما صنعت به، فأشترى نسخة أخرى، ومن أجل هذا أيضًا صار عندى من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر.

وقال لى أخى مرة: "يحسن أن ترتب هذه الكتب".

قلت: "يا أخى، كيف أصنع؟".

قال: "أجيئك ببطاقات، تكتب فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم، فإذا طلبت كتابًا، راجعت البطاقات، فسهل عليك إخراجه".

قلت: "رأى سديد - هات البطاقات".

فجاءنى ببضع مئات منها، ودفع بها إلىّ، فنظرت إليها وشكرته ثم قلت له:

"أما البطاقات فجاءت، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضى أن أخرج الكتب واحداً واحداً، وأقيد أسماءها، ثم...".

فصاحت زوجتى: "لا لا لا! أرجو... أرجو ألا تفعل...".

فالتفت إليها وقلت: "يا امرأة! كيف ترضين عن هذه الفوضى؟ بل لا بد من الترتيب".

فقالت: "أنا واثقة أن الكتب لن ترتب، وكل ما يحصل هو أن تخرجها وتكومها على الأرض وتتركها، فيغطيها التراب، وتجتمع عليها الصراصير، فأعود إلى نفض التراب وطرد الصراصير... لا يا سيدى! لن أسمح بهذا أبدًا!".

فنظرت إلى أخى وقلت: "أتسمع؟ إنها لا تسمح! فما رأيك؟".

قال: "الحق معها، ولو كنت أنا مكانها...".

فلم أدعه يتم الجملة وصحت به: "أعوذ بالله!".

فشكرنى، وقال: "إنما أعنى...".

فعدت إلى مقاطعته وقلت: "دع ما تعنيه، من فضلك، وحسبك أنك نغصت علىّ حياتى!".

فدهش وقال: "كيف؟".

قلت: "سأرى وجهك بعد الآن كلما نظرت إلى امرأتى... أعوذ بالله... يا ساتر يا رب، لطفك اللهم!".

وقد حرصت على البطاقات، لأقيد فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم، فما من هذا مفر، ولكن العقدة أن زوجتى تؤثر الترتيب الحالى، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد، أنها أخفت مفاتيح الخزانات لا أدرى أين؟ بارك الله فيها - أعنى زوجتى لا الخزانات.

الرقص[٨٢]

كانت ساعة منحوسة تلك التى استقر فيها عزمى على تعلم الرقص! ولكنى كنت أرى صاحبتى تشتهيه، ويخيل إلىّ أن جسمها الرخص، يحن إليه، فتروض نفسها على الحرمان رياضة قاسية، وأعزو إلى ذلك - أعنى إلى الصراع بين الرغبة الملحة والكبت والقمع العنيف - ما يبدو عليها من الفتور والكلال فى الأحيان الكثيرة، فقد كان صمتها يطول ونظرتها تشرد، ويغشى سماء محياها الطلق، مثل السحابة من فرط السهوم ونحن جالسان - على عادتنا فى أكثر الليالى - متقابلين، ويعدينى صمتها فأطبق شفتى، واذهب أدخن سيجارة فى أثر سيجارة، ثم أمل فأنهض وأتمشى فى الحجرة، ويضيق صدرى بهذا الحال فأقف قبالتها أو وراءها وأقول:

"ألا نخرج؟ إن الهواء الطلق خير من الجلسة المتعبة".

فلا تحول وجهها إلىّ، ولا يطرف لها جفن، ولا يفتر لها ثغر، وتقول:

"كما تشاء! سيان عندى!".

سيان عندها!؟ سيان أن نظل جالسين كأنا تمثالا لا حياة فيهما وأن نتحرك ونرى الدنيا ونضرب فى زحمتها مع الأحياء!؟ فأزوم أو أهمهم أو أتمتم، وأرتد إلى الكرسى فأطرح جسمى عليه، وأمد ساقى وأسكت.

ولم نكن حبيبين؛ وإنما كنا صديقين فما أؤمن بالحب - ولا أنا أكفر به أيضًا - والحقيقة فى ذلك أنى لم أجربه، فلست أستطيع أن أقول كيف يكون وكثيراً ما سألتها:

---

(٨٢) نشرت فى جريدة "الوادى"، ٢ يوليه ١٩٣٥، (ص٨).

"هذا الحب أى شىء هو؟".

فتهز كتفيها وتقول: "وكيف أعلم أنا".

فأقول: "ألا تحسين أحيانًا أنها تجربة حرمناها؟".

فتقول: "ربما! وعسى أن يكون الله قد لطف بنا!".

وتبتسم ابتسامة فاترة لا تسرنى، فأعوذ بالصمت، وأخرج به من هذا الحوار الجاف الذى بدأته ولم أحسن المضى فيه، ولم تعنى هى عليه.

ولما طال هذا بيننا قلت لنفسى: "إن جسمها ينشد هذه اللذة البريئة؛ ويصبو إلى الحركة التى ترقرق فيه الحياة وتجرى فيه ماءها، وقد ابتلاها الله بصديق ناشف له رأس وليس له رجلان، ولو أنها رزقت صاحبًا خفيف الساقين، ولا قيمة لرأسه إلا أنه زيادة لا غنى عنها لتمام الصورة لكانت به أسعد"، وبدا لى أن من الوفاء لها أن أتعلم الرقص.

وأنا - كما لا يعلم القارئ - امرؤ فيه عناد ولجاجة، فلما صح عندى أن الرقص لازم، وأن إتقانه واجب، أقبلت عليه كأن حياتى مرتهنة بالحذق فيه، واتخذت لى معلمة تدربنى عليه ساعة كل يوم، ولم أخبر صاحبتى بذلك، فقد آثرت الكتمان لأفاجئها وأسرها وأدهشها ولكن الإرادة شىء، والمعاناة شىء آخر مختلف جداً، فقد كنت بعد كل درس بل فى أثنائه - أفطن إلى وجود عضلات مختبئة فى ساقى، لم أكن أظن أنها هناك وكان ظهورها لى على غير انتظار، ومن حيث لا أحتسب، يزعجنى ويؤلمنى، وصارت مشيتى - بفضل هذه العضلات التى برزت من مكامنها - كمشية الكسيح وأصبح خطوى كأنى أمشى على ظهر جمل ذى سنامين، غير أنى صبرت على ذلك واحتملت من معلمتى سخرها وتهكمها، وأخفه أنها كانت تقول لى إنها استطاعت أن تعلم مقعداً هذه الرقصات فى أسابيع خمسة، وأنها ترانى أسرع منه! ولو كانت تقول إنى أبطأ من المقعد لما ثقل على نفسى كلامها، أما أن تثنى علىّ بالقياس إلى المقعد، فشىء لا يطاق.

وأخيراً، وبعد جهد جاهد وسعنى أن أخاصر بنتها من غير أن أدوس قدميها فى كل خطوة، وأفتت أصابعها بحذائى الغليظ، وأتركها تصرخ وتبكى من الألم، فتشهدت وقلت الآن أستطيع أن أفاجئ صاحبتى! فدعوتها إلى الخروج فى إحدى الليالى فتأبت وأبدت الزهد، فألححت ورأت منى أن إصرارى شديد، فأذعنت فذهبنا إلى "كازينو..." وجلسنا إلى مائدة كبيرة وأمرت الخادم أن يجيئنا بخير ما عنده من "الأكال والأشربات" وتركتها صامتة بضع دقائق ثم قلت لها: "ما رأيك؟".

قالت: "فى أى شىء؟".

قلت: "ألا تسمعين هذه الموسيقى؟".

قالت: "نعم، ما لها؟".

قلت: "ألا تشتاقين أن ترقصى على أنغامها المثيرة؟".

قالت: "يا له من خاطر!".

قلت: "قومى ارقصى!".

فضحكت وقالت: "هل أثر فيك الشراب بهذه السرعة؟ أرقص حقًا!؟".

قلت: "ولم لا؟ قومى!".

فذهب الضحك، وغاض الابتسام وحملقت فى وجهى، فقد رأتنى أنهض وأشير إليها بيدى أن تفعل، فقامت كأنها تتحرك وهى نائمة من فرط الذهول - ولها العذر - ومددت يمناى فطوقتها، وتناولت بيسراى أصابع شمالها وبدأنا نخطو وكان المكان خاليًا - كحجرة المعلمة فدرت بها فى خفة ولم أغلط ولم أدس قدمها الدقيقة، ثم بدأ الراقصون يكثرون حتى غص بهم المكان، وكان هذا أول عهدى بالزحام، ولكنى توكلت على الله وقلت لنفسى إن البداية حسنة، فيجب أن أتشدد وأتجلد وأثق بمقدرتى المكتسبة، وكانت عينى زائغة وهى تتلمس الطريق بين المتخاصرين، فضرب ظهرى ظهر راقص، ولا أدرى ذنب من كان هذا، فطار كل ما تعلمته كالحمامة أُطلقت من قفصها،

وذهبت ثقتى بنفسى ونسيت كيف ينبغى أن أخطو، ولم أكد استرد هدوء جأشى بعد هذه الصدمة حتى رأيتنى أفرق بصاحبتى اثنين يتراقصان وأدخل بها بينهما، فقال الرجل - أو صاح على لأصح -:

"أين تظن نفسك؟".

فقلت: "معذرة! إنى آسف!".

وتراجعت بصاحبتى التى اصفر وجهها من الألم الذى فى قدميها ومن الخجل من سوء ما أصنع، وإذا بى اصطدم بمن ورائى، ويشاء الله أن]يحاول [الذين اصطدمت بهم أن يتقونى بالإسراع فى التقهقر، فإذا أنا على ظهرى فوق أرض المرقص، وصاحبتى مستلقية على صدرى!.

وسمعت بعضهم يقول: "نوم العافية!".

فكدت أجن! وأنهضتها، وعدنا إلى مائدتنا، ورجعنا إلى شر صمتنا القديم، ثم قمنا إلى بيتها، وهناك قلت لها وأنا أودعها: "آسف آسف جداً!".

فقالت: "لا أسف! ولكن غير فاهمة!".

قلت: "لقد رأيت مللك وطول سكوتك فحسبت أن هذا لأنك تشتهين الرقص، وأنا لا أستطيعه، فأحببت أن أتعلمه، وكتمت ذلك عنك لأباغتك به".

فأشرق وجهها وتعلقت بى وقالت: "صحيح؟ من أجلى تكلفت هذا؟".

قلت: "أو لسنا صديقين؟".

قالت: "فقط؟ إنى أحبك!".

قلت: "أعوذ بالله! كيف يمكن أن تحبى رجلاً ليس له رجلان؟".

فضحكت وقالت: "إنى أسمو بحبى فوق ذلك!".

فضممتها إلىّ - وكانت أول ضمة.

الراعى الشاب[٨٣]

(قصة رمزية)

هى من القصص التى سمعتها فى الريف وتعجبت منها، وليتنا الآن هناك! ولشد ما أتمنى لو كنا الساعة قاعدين على حافة الترعة، والقمر فى السماء، ومن دونه السحاب، فنرى ضوءًا لينا مراقًا على الزروع والماء، ولا نرى قمرًا، ويخيل إلينا لذلك أنّ قد أصبحنا وعلينا ليل!، وأروى لك القصة كما سمعتها – فى الليل، بعد أن تغيب الشمس، وتذهب معارف الأرض، ثم يتسق القمر، وتقصر الظلال، ويطيب الهواء، ويسجو الليل، فلا تسمع فيه إلا خشخشة الأوراق، وخرير الماء، ونقيق الضفادع، ونباح الكلاب المتجاوبة من حين إلى حين، ويحلو الاضطجاع وتثبيت الأحداق، ويطول شخوصها، وتفتر الأجسام وتسكن الألسنة، ثم يتنحنح بعضهم ويعتدل وهو يخرج علبة الدخان ويفتحها، ويريحها على ثلاثة أصابع ويمسكها من فوقها بسبابته، ويشرع يلف سيجارة ويقول وهو مطرق، واصلاً ما انقطع قبل ربع ساعة:

"يا أفندى! أما رأيت سيد أحمد؟".

فأقول: "لا والله، لم أتشرف بمعرفته".

فيهز رأسه ويقول: "لا... هذا كان راعيًا...".

فأقاطعه وأسأله: "كان.....".

---

(٨٣) نشرت فى مجلة شهرزاد، ٧ سبتمبر ١٩٣٥، (ص٧-٩).

فيقول: "الله يلطف به... مسكين! نعم كان راعيًا، وكان شابًا وسيمًا قسيمًا، ولكنه لم يكن يركب الدنيا بشبابه، ولا كان يغره أنه جميل وأظنه ما نظر ولا مرة واحدة فى مرآة، ورأى وجهه فيها، ومن أين تجيئه المرايا؟؟ لقد كان مبيته أبدًا مع كلبه، وأين يبيت الكلب؟؟" "ولم يكن لهما بيت، وكل مكان بيتهما إلا البنى".

وأشعل سيجارته، وأنا أتعجب من الإنسان الذى يضيق بالسعة، ولا يرضيه إلا سد الفجاج! ونفخ الدخان وعاد يقول:

"وكان بعد الغروب يخرج مزماره من جيبه، ويشيع فيه، فنقبل على صوته، ونحف به، وننصت وهو يغنى فى هذه القصبة أشجى غناء، وكانت أصواته حزينة، والإرنان فيها شديدًا، ولكن الشبان كانوا أحيانًا يحملونه على أصوات أخرى يرقصون على أنغامها معًا، ويدورون فيها وقد أخذ بعضهم يد بعض. ثم.. ثم جن!".

فسألته: "جن؟ لماذا؟".

فهز رأسه مرات وقال: "لا أدرى.. لقد خلناه فى أول الأمر قد كف عن الزمر، لسبب ما، ثم شاع فى القرية أنه إذا جاء الليل جلس تحت شجرة وتناول مزماره وراح ينفخ فيه نغمة واحدة، من ثلاث حركات، لا تختلف ولا تتفاوت ولا تتغير، ساعة بل ساعتين، وقد سألوه عن ذلك فقال إنه يريد أن ينقل الضفادع إلى نغمة أشد، ويرفع طبقة نقيقها، وكان الصوت الذى يخرجه كالنقيق إلا أنه أعلى قليلاً، فضحكنا فى أول الأمر، وظنناه يعبث، وقلنا للشبان دعوه فسيفىء إلى مألوفه بعد أن يمل ما هو فيه من العناء، فانصرفوا عنه، وخلوا بينه وبين ما يزيد، ولكن الأسابيع توالت، وهو لا يريم مكانه فى الليل تحت الشجرة، ولا يرسل فى مزماره غير هذه النغمة الوحدة، إن صح أن تسمى نغمة، ولجّ فى ذلك لجاجة مزعجة، وكنا ربما ذهبنا إليه وقعدنا غير بعيد منه،

منتظرين أن يفرغ لنكلمه، فلا يفرغ إلا بعد أن تزهق أرواحنا أو تكاد، وتصور صعوبة الصبر على صوت واحد لا يتغير ساعة وساعتين!؟ وهو لا يلتفت إلينا، ولا يدركنا، ولا يدرك أن حضورنا له سبب آخر غير الرغبة فى الاستماع إليه، ولا يقدر أن لعلنا ضجرون متبرمون، ولا يظن بنا إلا أن قلوبنا معه، فيقول لنا أحياناً بلهجة الواثق من مشاركتنا له فى أمله وسعيه:

"لا بأس! لا بأس! غداً نعود إليهن بالإلحاح عليهن، وبعد غد أيضاً، وفى كل ليلة حتى يشيع الصوت فيهن، ويستولى على أعصابهن".

وقد قلت له مرة: "إن لهذه الضفادع مئات وآلافاً من السنين وهى لا تخرج سوى هذا الصوت وحده، ولا تعرف غيره، ركبها الله هكذا فهى لا تقدر على غير ما تسمعه منها من النقيق، فإذا كنت تبغى أن تغير لها صوتها فستحتاج إلى مئات أخرى وآلاف من السنين تتغير هى فيها أولاً لتتهيأ لما تدعوها إليه فهلا أقصرت؟".

فقال: "لا لا، إن هذه القصبة التى فى يدى تستطيع أن تشيع فيها ما شئت من أنغام مختلفة، وهى - بعد - قصبة، والمعول ليس عليها ولكن على ما يرسل فيها، وكذلك هذه الضفادع، لها قصبة تخرج منها صوتاً، وقد ألفته فهى تستسهله، ولا تريد أن تكلف نفسها جهداً غير الذى هان عليها بالعادة، فهو كسل لا أكثر، وعناد العادة، وثق أنها تستطيب الصوت الجديد، وأنا أشعر أنها تصغى إليه حين أرسله لها، وأراها تجاوبنى، وأكاد أجزم أنها تحاول أن تتابعنى، ولكن العادة تغلبها، فلا بد أن ألح عليها بالصوت الجديد حتى يملأ مالها من وعى وحتى يجئ يوم تهم فيه بالنقيق من طبقة الصوت الذى أفشى فيها الشعور به، أنى لست أعلمها صوتاً جديداً وإنما أنا أحركها للابتغاء والطلب، ومتى همت فستستطيع بلا شك، نعم، فإن عيبها ليس العجز، بل كسل العادة".

ويستأنف النفخ، فنمضى عنه، يائسين من صلاحه.

وقال لىّ ليلة أخرى: "انظر! ألا ترى هذا الضفدع؟؟ إنه يخرج إلىّ كل ليلة فأنفخ له، فيجاوبنى، لقد سرت فى أعصابه النغمة الجديدة، فهو يحاول أن يخرجها كما يسمعها، وسيفعل يومًا ما – نعم لا شك فى ذلك".

فسألته: "ومن أدراك أنه ضفدع واحد؟ إن الضفادع كثيرة، وهى كلها سواء".

فقال: "كلا، إنه واحد يخرج كل ليلة ولا يعدو هذا المكان، لو كان غيره لاختلف مكانه منى، كلا، هو بعينه صاحبى.. إنه مجتهد مواظب، وسأوفق لا محالة فى رفع طبقته، وسينشر هو بعد ذلك رسالتى إلى قومه، ويبشر بها حيث لا أستطيع أنا أن أفعل".

وجاءت ليلة – بعد أسابيع وأسابيع – خطر لى فيها أن أزور راعينا هذا تحت شجرته، فلما صرت منه على خطوات وقفت مبهوتًا، وكان غيرى هناك وقوفًا أيضًا، فقد سمعته ينفخ، على عادته، وسمعت ضفدعًا يجاوبه، وكان نقيق الضفدع من طبقة الصوت الذى يرسله صاحبنا، فلولا أننى كنت أراه ينحى اليراعة عن فمه، لخالجنى الشك، فدهشت، كما دهش الذين سبقونى إليه، وقلت لنفسى: "لقد نجح الذى ظنناه مجنونًا!".

ولم يخف سيد أحمد سروره، فراح يرقص وينفخ بقوة، ويصيح بنا: "ألم أقل لكم؟؟ هذا ضفدعى قد حاول ونجح!".

وعاد ينفخ ويستحث تلميذه بالإشارة والكلام، وكانت حركاته عنيفة من فرط ما هو فيه من النشوة، فطار المزمار من يده ووقع فى الماء فكف هنيهة عن التلويح والتوثب، وكان الضفدع لا يزال ينقنق، كأنما استحلى نغمته الجديدة، ولكن صوته كان آتيًا من الماء، لا من حيث اعتاد الراعى أن يراه كل ليلة على الأرض، فوقف "سيد أحمد" يفكر

ثم خطا خطوات، وعينه إلى الأرض إلى مكان الضفدع صاحبه، ثم انحنى ومد يده، وتناول شيئًا تأمله، ثم دار وألقى إلينا به، وأولانا ظهره ومضى!.

فسألت: "هل تعنى أن...".

فقال محدثى: "نعم، كان الضفدع الذى اتخذه الشاب تلميذًا له؛ ميتًا، وكان الصوت صوت ضفدع آخر بعيد ينقنق بطبيعته، لا محاكاة لصاحبنا، وفطن الشاب إلى هذا، وأدرك أن عناءه قد ذهب مع الريح وأنه لم يأت بجديد لا تعرفه الضفادع! مسكين! لم تلمس يراعته شفتيه بعد ذلك أبدًا!".

قلت: "صدمة قوية! أعرف ذلك بالتجربة".

من أجل قُبْلَة...![٨٤]

(ملاحظة: هذه الحادثة ليست شخصية وإن كانت مروية على لسان المتكلم)

***

من الحقائق الثابتة أن الزمن ليس له طول ثابت، وأنه يطول ويقصر، وينبسط وينقبض، ويتسع ويضيق، بلا ضابط، وكثيراً ما يمر الأسبوع منه خطفاً، حتى لتكون الثوانى أبطأ منه، وقد تفرط الساعة فى الطول حتى تتجاوز مدى الحقب، ولن تجد اثنين يحسان الزمن إحساساً واحداً، ويريان له طولاً لا يختلف، بل لن يجد فرداً واحداً يتساوى عنده اليوم واليوم، والساعة والساعة، ولو أنك سألتنى فى ذلك الصباح الذى سأسوق لك ما مر بى فيه لقلت لك – وأنا على يقين جازم – إن من غير المعقول أن يكون اليوم أربعاً وعشرين ساعة، بل لذهبت إلى أبعد من ذلك وقلت لك إن الزمن ليس له طول أو سرعة لأنه يكف عن الحركة أحياناً، ويقف وقفة من لا ينوى أن يتزحزح.

وكنت قد قضيت ليلتى عند أصهارى لأن الترام فاتنى، فدعيت أن أبقى إلى الصباح، فما فى ذلك من بأس، وكانت أخت خطيبتى تطاردنا وتتعقبنا ولا تدع لنا لحظة نخلو فيها، ولا تمكننا من اختلاس قبلة واحدة على عجل، فلم تبق غرفة فى البيت إلا دخلناها، ولا ممشى فى الحديقة إلا قطعنا فيه – على قصره – خمسين فرسخاً، ولا شجرة إلا وقفنا عندها نتأملها ونعجب بها – وإن كان الظلام حالكاً – وندور حولها –

---

(٨٤) نشرت فى مجلة شهرزاد، أول أكتوبر ١٩٣٥، (ص٤-٦).

بلا فائدة، لأن الأخت لا تفارقنا، فيئست وهمست فى أذن خطيبتى أنى سأصبحها بقبلة، ومضيت إلى غرفتى ساهمًا، ولبثت ورأسى كأنه مشدود إلى ذيل جواد من تلك الجياد الصناعية التى يركبها الأطفال فى الأعياد فتدور بهم فى حلقة، ثم وقفت الجياد، واستقرت الأشياء فى مواضعها، وثبتت الجدران حيث أقامها بانيها، واستطعت أن أجيل عينى فيما حولى، وثاب عقلى إلىّ شيئًا فشيئًا، ولم يكد يفعل - أى عقلى - حتى ثارت نقمتى على هذه الأخت الغيرى، وأسعفتنى ذاكرتى بأنى قرأت فى بعض الكتب أن أهل "تبت" يعتقدون - أو كانوا يعتقدون أن الإنسان من سلالة أتان - أى حمارة - وقرد، فقلت لنفسى إن هذه "الأخت" دليل ناهض وشاهد حى على صحة هذا الاعتقاد.

وسخطت ما شئت، وأوسعت اللحاف والمخدات لكمًا وركلاً، ثم رأيت أن ذلك لم يجدنى، وإن "الأخت" لا تتألم مما يصيب المخدات، فنهضت، ووقفت أمام المرآة، وتناولت رأسى بين كفى ورحت أسأل خيالى: "أليس هنا - أعنى فى رأسى - حيلة؟ هل عجز هذا الرأس الضخم كله عن ابتكار وسيلة؟ ألا خير فيه على الإطلاق؟ إذن أنا لا شك أخيب الخياب وأفشل الفشلة!".

وقطعت ثلاثة فراسخ أو أربعة فى هذه الغرفة، وأنا أروح وأجىء، ثم نظرت فى الساعة فإذا بها الثالثة بعد منتصف الليل، ففركت كفى مسرورًا، لأن النظر إلى الساعة ألهمنى شيئًا رجوت أن ينيلنى القبلة المشتهاة - أو المحرمة - فخرجت على أطراف أصابعى، وأرهفت أذنى، ثم انحدرت إلى الفناء الخلفى وحملت منه سلمًا، وذهبت به - على مهل وبحذر شديد - إلى الجانب الذى تطل عليه غرفة خطيبتى، وأسندته - أعنى السلم - إلى الجدار، ووقفت أتسمع، فلم أجد صوتًا؛ فذهبت أنفض المكان على قدر ما يسمح الظلام بذلك، ثم عدت مطمئنًا متهلل الوجه لأول مرة فى ليلتى تلك، وصعدت!.

ارتقيت إلى حافة النافذة، فإذا بها مغلقة، فجلست على الحافة أفكر فى طريقة افتح بها الشباك،وكانت قدماى على آخر درجات السلم،ويظهر أن كثرة تلفتى إلى الشباك لمعالجة فتحه أمالت السلم قليلاً،وإن حركة "قدمى" عليه دفعته وأنا لا أشعر، وإذا بالسلم تحك قائمتاه الجدار ويهوى! فلولا أن شجرة اعترضت مهواة لوقع على الأرض وأيقظ أهل البيت والخدم بصوته.

ولو أنى سقطت مع السلم لكان خيراً لى فيما أحسست فى تلك الساعة فقد كانت الحافة ضيقة،فاضطررت أن أعتمد بكفى على جانبى الحائط لأحفظ نفسى من السقوط،وكنت أشعر وأنا أجلس على المرقب العالى أن الدنيا تموج وتضطرب،بل تثب وتقفز فيما أرى،وأن شيئًا انتزع قلبى ووضع مكانه شيئًا كلعبة "اليويو" فقد كان هذا الذى حل محل قلبى،لا يهدأ ولا يكف عن الصعود والهبوط حتى لقد عاق نشاطه تنفسى.

ومضى قرن أو قرنان من الزمن وأنا على هذه الحافة،وإن كان النهار،فيما أرى، لم يدن خطوة واحدة فأرسلت نظرى فى موقفى رائداً فخلصت إلى النتائج الآتية:

الأولى : أنى لا أستطيع أن أنقر على النافذة، ليفتحوها لى، لأنها تفتح إلى الخارج، ففتحها خليق أن يلقينى على الأرض.

الثانية : أن مما يدعو إلى الارتياح ويستوجب حمد الله أن جسمى لا يزال قطعة واحدة.

الثالثة : أنى على الرغم من ذلك لا أحسد على ما أنا فيه.

الرابعة : أن الحافة متينة ولكنها قد تتصدع لسبب ما - كسوء الحظ - فلا يبقى ما يقينى،وهى على كل حال ضيقة لا راحة للجالس عليها،وهبها كانت واسعة مريحة فإن طول مقامى فيها أو عليها ليس بالذى يشرح الصدر ويسر الخاطر.

الخامسة : إن الأطباء مجمعون على أنه ليس أصح من نسيم الفجر فإذا خطر لخطيبتى أن تقوم من النوم وتفتح الشباك لتتمتع بنسيم هذا الفجر الموصوف فمصيرى معروف!.

السادسة : إن مجلسى هذا - أو مرقبى - ليس أبدع منه ولا أصلح لمن يريد أن يدرس كيف تستيقظ الطبيعة من نومها وتنهض لمباشرة مهمتها فى النهار، ولكنى أنا أريد أن أدرس شيئًا من هذا، وفى وسع الطبيعة أن تظل نائمة أو أن تذهب إلى جهنم، وما كرهت الشجر والزهر، والندى والطير - ولاسيما الطير - ككرهى لها فى هذا الصباح.

***

ولا أحتاج أن أقول إن الزمن لم يقف ولم يثقل رجله، كما كنت أتوهم، وأن الصبح بدأ يتنفس وينسخ الظلام، ولكنى لم تكن لى عين تبصر جمال الدنيا وهى تسفر، أو أذن تطرب لسجع الأطيار وهى تصفق بأجنحتها وتحيى الصباح الجديد بهديلها، وإنما كنت أفكر فى تعذر احتمالى للبقاء على هذه الحافة، وفى خوفى مما أصير إليه إذا لم أبق عليها، وفى الفضيحة التى لا مفر منها إذا بقيت ورآنى أهل البيت والخدم كما لا بد أن يفعلوا، وفيما عسى أن يظنوا بعقلى.

وكانت الفضيحة أسرع إلىّ مما توهمت أو قدرت، فقد تنبه أخو خطيبتى - فما أكثر أخوتها - فنهض واغتسل وانحدر إلى فناء البيت فأقام فيه شيئًا ليشد أعصابه، فقد كان من هواة الرياضة، ثم راح يركض حول البناء وإذا به يسمع مناديًا يصيح به من فوق:

"أنت! هوه!".

فوقف "الأخ" مبهوتًا وشخص ببصره إلى السماء، فعاد الصوت يهتف به:

"أنت! هوه!".

وكنت لا أراه ولا أعرف من هو لأنى لم أكن أجرؤ أن أصوب عينى إلى الأرض مخافة السقوط.

والتفت "الأخ" إلى مصدر الصوت فرآنى، وراقه المنظر فانطلق يقهقه؛ وينطوى، ويضرب ساقيه بكفه وهو يضحك، فصحت به وأنا مغيظ، وسببته ولعنته، لأزجره، ثم أهبت به أن يجيء بالسلم ويسنده تحت قدمى.

فقال الأخ: "ولكن كيف صعدت؟ وماذا تصنع هناك؟".

فصحت به: "هات السلم أولاً يا حمار!".

وجئ بالسلم وناشدته ألا يرفع يديه عنه حتى أنزل فقال الأخ - وله العذر -:

"ومن كان يسنده وأنت ترقى فيه وتصعد عليه؟".

فكدت أتميز من الغيظ، ولكن الانفجار حماقة، فتجلدت وتشددت، وكنت وأنا أنزل، أفكر فيما ينبغى أو أقوله لهذا الأخ الذى وجدنى على حافة شباك أخته، وبديهى أنى لم أكن أستطيع أن أزعم أنى ما صعدت إلى هذه النافذة إلا لأشم نسيم الفجر وأمتع نظرى بجمال الحديقة!!. إذن ماذا أقول؟؟ وكيف أقطع لسان هذا الثرثار؟؟.

ووصلت الأرض وصرت عليها، وأنا أكد خاطرى ولا أهتدى، وتشهدت، ودببت على الأرض برجلى لأستوثق، ثم رميت الأخ بنظرة حشوها بغض الأخوة، وطيها النقمة على الأخوات ومضيت عنه من غير أن أنبس بحرف، وماذا كان يمكن أن أقول؟؟ وتركت له العناية بأمر السلم!.

كلا، لا ينبغى لعاقل أن يخطب فتاة لها أخت كهذه!.

ثلاثة فى واحد[٨٥]

(تنبيه: القصة ليست شخصية وإن كانت مروية على لسان المتكلم)

***

ومن يدرى؟ لعلهم أربعة، وعسى أن يكونوا ستة! فما يعلم إلا ربك الذى يخلقنا ويركبنا فيما يشاء من الصور، وكان يبدو لى كأنه طائفة من النقائض جُمعت، وخُلط بعضها ببعض، وعجن التراب فيها بالنار، ثم صيغ من هذا المزيج المتنافر إنسان نعرفه باسمه ولا نعرف كنهه وحقيقته، ولم يكن هو يخفى عليه أن له بواطن وظواهر مختلفات، وأن فى أعماقه تيارات شتى تتلاقى لتتدافع لا لتتساير، قال لى مرة:

"إنك لست أقل منى "تعددًا" - أنت أيضًا لك جوانب كثيرة".

قلت: "كيف تقول؟".

قال: "أقول إن لك سيرة فى حياتك العامة، وسيرة أخرى فى حياتك الخاصة - ولك رأى تذيعه ورأى تضمره وتكتمه، ونزعة تبديها ونزعة تحجبها، إنك تغير جلدك فى اليوم الواحد أكثر من مرة".

ودعانى مرة أن أصحبه فسألته: "إلى أين؟".

---

(٨٥) نشرت فى مجلة شهرزاد، ٢٢ أكتوبر ١٩٣٥، (ص٤-٦).

قال: "ما سؤالك هذا؟ أتكره أن تجلس إلى فتاة خفيفة ظريفة رشيقة تنسيك الدنيا والسعى والكدح وراء الرزق؟".

قلت: "ومعنا رابع أو رابعة؟".

قال: "رابع - أخوها".

فهممت بسؤال، ولكنه زجرنى عنه وقال: "اركب! اركب!".

وبلغنا البيت فأطلق النفير، فأطل الذى هو أخوها وصاح: "حالاً! حالاً!".

والتفت هو إلىّ وقال: "أنت وأخوها على المقعد الخلفى، وهى إلى جانبى".

فانتقلت إلى الخلف وأنا أتمتم: "قسمة ضيزى".

قال: "لا تعجل... ليس المجلس فى السيارة".

وكان اليوم يوم أحد، فجعل يبحث عن دكان مفتوح يشترى منه شراباً ولحماً وجبناً وما إلى ذلك مما يؤكل على الشراب، ثم انطلق بنا من المدينة إلى الصحراء، وكان هناك "مقهى" صغير وقفنا على مسافة منه، ودعا الخادم فجاء بالكراسى والأطباق والأكواب "والصودا" وجعلت الفتاة تسقينا ولا تشرب، وكنت على يمينها، وكرسيى لصق كرسيها، وأخوها أمامنا، وهو بين الفتاة وأخيها، وكنت أقشر اللوز والفستق وأطعمها بيدى، فتأكل وتضحك وتميل علىّ، فأربح يسراى على ظهرها - إلى خصرها - وأضمها ضمة خفيفة فتلين ولا تنفر، وترفع وجهها إلىّ، وعلى شفتيها رجفة، فلولا أخوها لقبلتها، ويمد هو إليها كفه بالفستقة أو عود الخس فتتدلل وتهز كتفيها وتنأى بفمها وتحول وجهها الصابح إلىّ، فلا يغضب، وتنتقل إلى كرسى آخر، فانهض وأقف وراءها ثم أنحنى على الكرسى وأدنى فمى من أذنها وأهمس بما يفتح الله به علىّ، فتضحك وتتثنى، وأصابعى على صدرها، وهو ينظر إلينا، ثم ارتد عنها،

وأقعد حيث كنت، فتعابثه بكلمة أو إيماءة، فيقوم، فتذهب تعدو، فينطلق وراءها، ولكنه كهل وهي في عنفوان الشباب، فلا صبر له على المحاورة، فيكر إلينا آسفًا غير أنه مبتسم، وكلما دنا منها نفرت، وإذا لمست كفه ساقها، أسرعت فرفعتها وسوت ثوبها وأسدلته على ركبتها، وأخوها في شاغل عنا بالطعام والشراب.

وسألني بعد أن رجعنا: "ما رأيك؟".

قلت: "آسف".

قال: "لا تأسف، إني كهل، وأنت أصغر منيّ، والشباب إلى الشباب أصبى".

قلت: "إذن لماذا لا تقصر عن مجانة لا تستفيد منها إلا الحسرة؟".

قال: "لا أستطيع! إني مدبر، فعيني لا تزال تتلفت إلى ما أولى عنه، أما أنت فشاب، والذي أمامك لا يزال أطول مما خلفت وراءك، وهل وراءك إلا الطفولة الغافلة والحداثة الجاهلة؟؟ ولكني أنا ورائي خير ما في العمر، فلا يسعني إلا أن أنثني وأتلفت وأدور وأتوقف، غير أني لا أتحسر، فإن حسبي متعة النظر ولذة الحديث إذا لم يكن ثم سواهما، ومن متعي أن أرى الشباب كيف يلهو كما كنت ألهو، ولست أحجم عن اللهو إذا تيسرت لي أسبابه، فإذا لم تتهيأ، ففي لهو العقل الكفاية".

قلت: "اسمع، إني لا أرى مما يليق بك أن...".

فقاطعني وقال: "لا تهذِ يا هذا، إن لي حياتين - حياة العمل وهذه مشتركة بيني وبين الناس، فأنا فيها جاد صارم، وحياتي الخاصة، وهذه لي وحدي وليس للناس شأن بها، وأنا فيها أقبل على كل ما يتاح ليّ من اللهو وأغنم كل ما يتيسر لي من المتعة... لا تعترض! إن الناس جميعًا كذلك، ومنافق كذاب من يدعي غير هذا".

***

ومن عجب آرائه أن أهل المدن المتحضرين ليسوا أقل خشونة وجلداً من أهل الريف، ولا أرق وأطرى، ومن قوله لى فى ذلك:

"إنكم تنظرون إلى أفراد معدودين من ذوى اليسار والترف وتقيسون أهل المدن جميعًا على هؤلاء الآحاد، وتنسون أن كثرة الناس من الفقراء الذين لا يكفون عن السعى والكدح فى سبيل الرزق ليلاً ونهاراً، أين فى الريف من يتعب كتعب أهل المدينة؟ أين فى الريف من يعدم قوتًا ويبيت طاويًا كما يبيت الكثيرون من سكان المدن؟؟ وأين هو هذا الترف والطراوة فى حياة المدينة؟ وليس فى المدن رذيلة إلا وفى القرى مثلها، ولكن المدن مزدحمة غاصة، وتيار الحياة فيها أزخر، فالعيوب تبدو أبرز، كلا، الإنسان هو الإنسان سواء أكان فى قرية سحيقة أم فى مدينة، ولكن الحياة فى القرية أهدأ، وضغطها على الأعصاب وإرهاقها لها أخف وأقل، فالناس فى المدن أطلب للترفيه وأكثر مصارحة بالرغبة فيه".

وآراؤه فى مجالسه الخاصة غير آرائه فى حياته العامة، فهو مثلاً فى حياته العامة لا ينحرف مقدار شعره عن تأييد النظم الاجتماعية المقررة، ولا يكف عن الدعوة إلى مغالبة النفس وضبطها وكبحها والحرص على الفضائل الاجتماعية، ولكنه حين يكون بين إخوانه الذين اصطفاهم، لا يتردد فى المعالنة بإنكار الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ويذهب إلى أن هذه كلها أكاذيب استعين بها على تنظيم حياة الجماعة ووقايتها ما تجره الفوضى ويؤدى إليه إرسال النفس على السجية، وعنده أن الإنسان حيوان مصقول، لا أكثر، ولكن الصقل لا يمنع أن تطغى حيوانيته إذا استفزها شىء، فلا تعود طبقة الدهان - وإن كانت سميكة - تنفع أو تصد، ومن رأيه أنه ما من إنسان يحجم عن الشر - حتى من غير استفزاز - إذا وسعه أن يقدم عليه وهو آمن، وكل امرئ يشتهى أن يكون له مال الأغنياء، وقوة الأقوياء، وسطوة الحاكم وبطش الظالم وفجور الفجار، ولكنه يقيس قدرته إلى شهوته فيطلب ما فى طوقه ويقصر عما عداه، وتفعل العادة والنظام المألوف والشرائع فعلها أيضاً.

ولست أعرفه مشى فى جنازة أو بكى على ميت، وإن كان حبه للحياة وجزعه من الموت أقوى ما عهدت فى الناس، ووفاؤه لإخوانه وحدبه ورقة قلبه من الفلتات المفردة فى هذه الدنيا، ولكنه حين يذكر نظرية قديمة ظهر بطلانها وعفى عليها الزمن، يخيل إليك أنه يؤبن ميتًا على قبره! وإذا سمعته يثبت لك فساد رأى رأيته يترفق بالرأى ولا يعنف فى تفنيده كأنه يتقى جرح الرأى وإيلامه، أو كأنه يدفن ميتًا أو يشيعه إلى حيث يوارى.

وليس له إيمان بشىء مما يؤمن به الناس، ولكنه لا يجهر بذلك إلا مع خُلصائه وقد قلت له مرة: "إنك تهدم بيد ما تبنيه بالأخرى".

فقال: "كلا، فإن الذين أصارحهم بما أنطوى عليه من الآراء يستطيعون أن يفهموا ويقدروا، أما سواد الناس فأصلح لهم أن يبقوا على ما يعتقدون صحته وحتى ولو كان خرافة، وإلا ارتدوا إلى الهمجية والتوحش، وفسد الأمر كله، ثم إنى أخشى أن أكون مخطئًا، فإنى أشك حتى فى نفسى، فكيف أستبيح مع ذلك أن أرج الناس وأزلزل لهم نفوسهم؟؟ ألا يمكن أن يكونوا هم على صواب، وأكون أنا الذى ركبت من الغلط أبلد الحمير؟؟ جائز! كل شىء جائز يا صاحبى".

وهكذا هو أبدًا...

كيف كسبت الرهان![٨٦]

(تنبيه: الحادثة ليست شخصية، وليس لي أخت)

***

غام الزجاج أمامى من كثرة ما سقط عليه من ندى الفجر، وكنت - كلما قطعنا بضعة فراسخ - أمسحه بمنديل ثم أجلوه بورقة، وكان ذلك يحوجنى إلى الوقوف ثم استئناف السير، وهذا مضيعة للوقت، والشقة بعيدة، والرهان جسيم؛ فقلت أرفع الزجاج، فإن التعرض للهواء البارد أيسر محملاً، وأهون من النظر من زجاج عليه ضبابة، وإن كانت رقيقة؛ وصحيح أن أختى كانت تصف لى الطريق وتسمى لى ما يعترضنا عليه، وتعين لى مواقع الأشياء، ولكن السائق لا يستطيع أن يعتمد على غير عينيه؛ ثم إن وصفها كثيراً ما كان يحيرنى ويحدث لى اضطراباً، فقد كانت تقول مثلاً: "هذا رجل فى وسط الطريق.. لا لا لا.. إنه أقرب إلى اليسار... انتظر... بل هو يمشى يميناً... امض على بركة الله... لا خوف".

فأتنهد، وأمضى على بركة الله، فما ثم شىء آخر أمضى عليه؛ بودى لو تبين لى كيف أستطيع أن أتريث وأنتظر حتى تتثبت هى وتقطع الشك باليقين! ثم إنى لم أكن أومن بأن نظرها أصح وأسلم وأقوى، وأنه يسعها ما أعيانى من اختراق هذا الضباب - أعنى النظر من خلال الزجاج المتغيم، لذلك توكلت على الله ورفعت الزجاج.

---

(٨٦) نشرت فى الرسالة، ١١ نوفمبر ١٩٣٥، (ص١٨١٢-١٨١٥).

وقال زوجها: "لا بأس! ولم لا؟ إنه لن يصيبنا شر من الالتهاب الرئوى".

فرمت إليه زوجته شيئًا وقالت: "تلفع بهذا".

فرده إليها وهو يقول: "الكلب لا يعض أذن أخيه... صدق والله!".

فثاروا به وشغبوا عليه، ولما قرت الضجة قلت: "غط صدرك إذا كنت تخشى الهواء، وفمك أيضًا - فإنى نويت أن أعوض ما خسرت إلى الآن".

وضغطت بقدمى فانطلقت السيارة كالسهم، وانحنت أختى تنظر إلى العداد، وجعلت تعلن إلىّ الرقم كلما تغير، وتصيح: "٤٠,... ٤٣,... ٤٧,... ٥٠,... أوه! لقد وصل إلى الستين!.... السبعين....".

ثم أمسكت، فقد كان الهواء قويًا، ودفعُه فى الصدر شديدًا، فلولا أن النظارة على عينى لما وسعنى الصبر عليه؛ وكان الطريق مستقيمًا، والتراب راقدًا لكثرة ما نزل عليه من الطل؛ وبدت لعينى مركبة فسألت نفسى: "ترى على أى ناحية من الطريق هى؟" ولكنى جزتها ومرقت كالسهم فى نفس اللحظة التى رأيتها فيها، فلا جواب لسؤالى؛ وأحسست أن سيارة مقبلة علينا، ثم تبينت أنها ماضية فى اتجاهنا فما عتمت أن صارت وراءنا، وأحسب أن سائقها قد أوسعنى شتمًا ولعنًا، فما نبهته ولا حذرته؛ وظهرت ضيعة، ورأيت بيوتها الواطئة المبنية من الطين، وأخذت عينى الأشجار المغروسة أمامها - أو خلفها، لا أدرى - فقد غابت عن عينى بأسرع مما بدت لها؛ وكنت لا أجرؤ أن أصوب لحظى إلى عداد السرعة، ولكنى كنت أحس كل كيلو نقطعه ونضيفه إلى ما فرغنا منه؛ وزاد ضغط قدمى، فتشجعت أختى ونظرت ثم قالت: "٨٩,.. ٩٠,.. ٩١,... ٩٢,..".

ثم رأتنى كالمسمر فى مكانى، وكأنما أدركها العطف علىّ، أو قواها إصرارى على الفوز، فعادت تنظر وتبلغنى ما ترى: "إلى اليمين شىء... عربة... خال... عربة... تتحرك... دراجة إلى يسارك... سيارة مقبلة... خال... لا... رجل يمشى... خال...".

فسألتها: "كم كيلو قطعنا؟ وكم الساعة الآن؟".

وكانت الساعة الرابعة صباحًا، ولا يزال أمامنا مائة وعشرة كيلومترات إلى دمنهور، ونحو ثلاثين أخرى إلى القرية، وثلاث ساعات نقطعها فيها، فجعلت أدافع اليأس؛ ذلك أن الطريق إلى (بنها) واسع، ولكنه بعد ذلك يضيق، إلى قريب من طنطا، وسيزدحم بالجمال والأبقار والأغنام والدواب والسيارات، فسألت القوم: "هل ورد ذكر لدمنهور فى الرهان؟".

فقالت أختى: "أظن... لا لا... لم يرد لها ذكر".

وقال زوجها: "أو ورد... سيان... ... ...".

فقاطعته ابنة عمه، وكانت معه على المقعد الخلفى وقالت: "لا، على التحقيق، كل ما اشترط هو الوصول إلى القرية الساعة السابعة صباحًا، والأسبق هو الفائز... ولكن لماذا تسأل؟".

قلت: "لأن هناك طريقًا أخصر... ... من طنطا إلى دسوق مباشرة".

قالت: "وما الفرق؟".

قلت: "ثلاثون كيلو... مسافة لا يستهان بها... والطريق أضيق ولكنه معبد".

قالت: "وهل تظن أنه يجهل هذا الطريق؟".

فهبط قلبى من صدرى إلى حذائى، ولى العذر، فإن قريبنا هذا - ومراهننا، وصاحب الضيعة وداعينا إليها - أبرع منى وأعرف بالسكك المؤدية إلى قريته، ولا شك أنه أهمل النص على دمنهور فى الرهان عمداً، لظنه أنى لا أعرف غير سكة دمنهور، ثم لا أشك أنه تلكأ وراءنا ليغافلنا فى طنطا، ويميل هو إلى الطريق الأخصر... ... ...

وزاد الطين بلة أنى أحسست ونحن ندخل بنها كأن قدمى قد شكت بمسمار محمى، فصرخت، ورفعت رجلى، واضطررت أن أميل بالسيارة إلى الرصيف، وخلعت

الحذاء وجعلت أنظر، وأتحسس قدمى وأفركها، فقالت أختى: "ماذا جرى؟".

وقال أخوها: "هل أدلكها لك؟ كلا، لا بأس! إذن لم يبق إلا العلاج بالإيحاء، اسمع! متى قلت: "واحد" فإن عليك أن تفرغ رأسك من كل شىء - وهذا سهل جداً ولن يكلفك عناء - ومتى قلتُ: "اثنين" فاعتقد أن الألم الذى لا تحسه، ليس إلا وهماً... ومتى...".

فصحنا به نسكته، ولما انقطع اللغط قلت: "طول الضغط فعلها.. على كل حال لا أظننى أستطيع أن أسوق السيارة، فعليك أن تتفضل وتجلس فى مكانى، وأمرنا إلى الله، وأرواحنا فى وديعته، وعوضنا الله خيراً، فقد ذهب الرهان والأمل فى كسبه".

فصاحت أختى: "ولكنه لا يحسن القيادة...".

قلت: "وما الحيلة؟ سأجلس إلى جانبه - وأرشده".

فقالت بنت عمه: ولكنه سيقصر عمرنا...".

فقلت: "وماذا نصنع غير ذلك؟".

وقالت زوجته: "ولكنى أخاف... أعنى... إنه...".

فقلت: "اطمئنى.. لا خوف عليه... ولا علينا، إذا كان هذا يعنيك".

فالتفت إلينا وقال: "إن الذى فهمته هو أن هناك اقتراحًا منكم بأن تتمتعوا بقيادتى لهذه السيارة... حسن جداً.. فلتبلغ الصحف، وليدع الشعراء".

فقلت: "إن المسألة لا تحتمل هذا المزح...".

وقالت أختى: "لا تحتمله أبداً... عدنى ألا تسرع... سر ببطء... عل مهل.. ولنصل بعد أسبوع.. ماذا يهم؟ واحذر أن تسابق شيئًا...".

فقال: "لا تخافى يا نور عينى... إذا صادفت فى طريقى سيارة فإنى أعدك أن أعطل المحرك، وأذهب فأختبئ تحت شجرة".

ودخلت بينهما وقلت: "إن وعداً كهذا لا سبيل إليه، فإن علينا أن نصل إلى القرية في وقت معقول، إذا لم يكن علينا أن نكسب الرهان، ثم إني سأكون إلى جانبه وسأرشده، وسيكون هو السائق اسماً، فقط، فلا خوف".

فالتفت إلينا، بعد أن قعد في مكاني وقال: "ولكني أشترط أن يكون الإرشاد بلغة مفهومة، أما أن تصيح بي "الهوا" أو "اكسر"... فلا يا صاحبي... قل كلاماً مفهوماً أطعك! ولا تقلد ذلك الذي علمني، وصاح فجأة: "حُش... حُش" فوثبت عن المقعد، ولم أدر ماذا أحوش، ووثب الرجل الذي دعاني معلمي أن أحوش السيارة عنه... وعلى ذكر ذلك أقول إني لم أر في حياتي أحداً يثب كما وثب الرجل يومئذ!".

فصاحت زوجته، وهي تنزل من السيارة: "إني لم أكن أعرف هذا الخبر، ويستحيل أن أدعك تسوق السيارة".

وقعدت على الرصيف، وجعلت أنظر منها إليه، ومنه إلى بنت عمه، في صمت؛ ومضت دقائق كأنها الدهر طولاً، مشيت بعدها إلى مقعد القيادة وقلت: "انزل من فضلك... فإنك مطرود".

فنزل وهو يقول: "ولكن رجلك... ثم إن هذا...".

قلت: "لا بأس، سأجرب على الأقل".

فدنت منا بنت عمه ووضعت كفيها على كتفينا وقالت لي: "ألا تدعني أسوق؟... ربما... استطعت...".

قلت: "حباً وكرامة، ولكن كيف يمكن؟ إنك...".

قالت: "لست جاهلة جداً... وسأحتاج إلى إرشاد... والطريق خال".

فقال: "نعم خال... جداً، إلا من البقر والجمال..".

***

وركبنا جميعًا، وقلت لها: "الآن ضعى ناقل السرعة فى... برافو... انقليه برفق.. برافو جدًا... أظن أنه يحسن التأنى حتى تبعد عنا هذه السيارة".

فقالت: "وهى تحول ناقل السرعة إلى المكان الثالث: "كلا أظن أن الأوفق أن نمر به".

ومرقت كالسهم بجانبه، فالتفت إليها متعجبًا، فما كنا نعرف أن لها دراية بالسيارات أو خبرة بقيادتها، ونظرت إلى العداد فإذا هو يشير إلى الخمسين، فالستين، فرفعت عينى إليها، فألقيت على ثغرها ابتسامة فاتنة، وقالت وهى تخطف بالسيارة: "أظن أن الأمل فى الرهان لم يذهب... على كل حال، "عبده" لا يزال وراءنا".

فقالت أختى: "وراءنا؟ من قال هذا: لقد مرق وأنتم واقفون... رأيته بعينى".

فعدنا إلى اليأس بعد أن كاد ينتعش الأمل، ولكن الفتاة قالت: "هذا أحسن... خيرًا صنع... وأنا الآن مطمئنة".

قلت: "ولكن كيف؟ أليس قد سبقنا؟".

قالت: "سترى... معنا الله".

***

وشارفنا طنطا، ولمحنا سيارة "عبده"، فتباطأت، وأبت أن تسبقه كما أشرت عليها؛ فلما صرنا فى قلب المدينة، اغتنمت فرصة الزحام، وتركته يمضى فى طريق، وضربت هى فى طريق غيره، وأطلقت للسيارة العنان، وقالت بعد أن خرجت إلى السكة الزراعية: "إنه يعتقد الآن أننا وراءه، واعتقاده هذا ربح لنا، وبقى أن يغلط ويأخذ طريق دمنهور".

فسألتها: "ولكن من أدراك أنه لم يسبقنا؟".

قالت: "كلا... إن طريقى أخصر جداً... كن واثقًا".

ومضينا على سكة دسوق، وكنا لا ننفك نلتفت وراءنا لعلنا نرى سيارة "عبده"، فلما طال ذلك علينا أيقنا أنه أخذ طريق دمنهور، فقد كان فى وسعه أن يدركنا بسهولة.

وسكة دسوق ضيقة كما أسلفت، وكانت إلى هذا كثيرة الزحاليق، وكانت السيارة لهذا تتلوى على المواضع البليلة، كالحية، ولكن سائقتنا كانت حاذقة، فسكن روعنا جميعًا، ووسعنا أن نضحك ونمزح.

وقلت لها - همسًا -: "إنى أحس غيرة... هنا"

وأشرت لها إلى موضع القلب فابتسمت وقالت: "لماذا؟".

قلت: "لأن على جبينك خصلة صغيرة جميلة يداعبها النسيم - أعنى يقبلها - علنًا وعلى مرأى منا جميعًا - وهذا... هذا... مخجل... فعسى ألا يُعدينى بالجرأة".

فتكلفت الجد وقالت: "إذا فعلت، فسأمضى إلى هذه الترعة... مباشرة".

فهمست: "هش... لا تمزحى... إنها مسائل لا تحتمل المزح... ومن يدرى؟؟ فقد تصيبك العدوى.. ثم إنك لن تحسنى التعبيس ما دام لك هذا المحيا الواضح الذى يضيئه الجمال، ويضحك فيه أيضًا".

فلوت مُوجِّه السيارة بلا كلام فصاح ابن عمها: "إلى أين بنا يا هذه؟".

قالت بابتسام: "إلى الترعة... إذا لم يسكت".

قال: "إذا كنت تريدين أن تستحمى فإن فى البيت الذى نرجو أن نبلغه سالمين حمامًا بديعًا، ولكن بغير ماء! على كل حال، أظن أن جارك مستعد أن يملأ لك الجرار، ويصبها عليك أيضًا".

قالت: "إذا وعد بأن يكون حسن السلوك...".

واستأنفنا السير بسرعة، ويطول بنا الحديث إذا أردت أن أسرد ما عانيناه من الغنم والبقر والجمال والسيارات؛ ولكن حادثًا واحدًا وقع لنا لا أرى بدًا من ذكره، ذلك أنّا وقعنا فى وحل عظيم، ولم يكن لنا مفر، ولا كان لنا مهرب، فقد كنا مقبلين بسرعة فإذا أمامنا - وإلى مسافة طويلة - ماء وطين ووحل شديد فارتطمنا فيه قبل أن ندرك ما حدث، وصارت العجلات تنزلق دائرة ولا تتقدم، فأوقفت المحرك وقالت:

"هل مع أحد منكم سيجارة؟".

وأشعلتها، ونفخت دخانها ثم قالت: "هذا أوان الحاجة إلى الرجال... فاخرجا، وابحثا عن قش تلقيانه تحت العجلات، أو اجرفا الطين أمامها وشقا لها طريقًا".

فقال ابن عمها: "هذا بديع... لقد تركت أظافرى تطول لمثل هذا اليوم... قم بنا يا أخى".

ولكنا فعلنا غير ذلك، ودعونا أحد الفلاحين إلى معونتنا، فزعق فاجتمع حولنا نفر من الرجال والنساء، أعملوا أيديهم فى الطين حتى رفعوه من طريقنا، فشكرنا لهم مروءتهم ومددنا لهم أيدينا بنقود، فأبوها كل الآباء؛ وقال الذى جمعهم: "عيب يا أفندى" فألححنا، فأصر على الإباء، وعلى أن هذا عيب، فكررنا له الشكر، وصافحناه ثم نظرنا فى أيدينا فإذا كلها طين! فاستحيينا أن نقول شيئًا على مسمع منه.

***

بلغنا البيت قبل صاحبه وقبل الموعد المضروب بنحو ربع ساعة، وكان الفضل لهذه السائقة البارعة التى كنا نجهل أن هذه من مزاياها؛ ولما أقبل مضيفنا بعد دقائق قال له نسيبى:

"ليكن هذا درساً لك... هات الرهان".

قال: "ولكن من أين جئتم؟ ثم كأنما تذكر فرفع يده إلى جبينه وصاح: "ما أغباني!".

فقال نسيبي: "تمام... أعرف نفسك... هكذا قال الحكماء... وهذا هو ربحك اليوم... وأولى أن تسأل كيف جئنا... حدثه يا هذا، فإن بى كسلاً بعد الذى تجشمته من متاعب القيادة".

فصحنا به منكرين هذا الكذب...

حكاية الطباخة[٨٧]

وضعت الشوكة يائساً، ورفعت طرف الفوطة إلى فمي، ثم رددتها وأدرت عينى فى الجالسين إلى السفرة وسألت:

"أليس هنا كحول... أو بنزين... أو صبغة يود... أو برمانجانات البوتاس؟".

فسألتنى زوجتى: "يعنى؟".

قلت: "لأطهر فمى".

فتنهدت وقالت: "وما حيلتى أنا؟ لقد وضعت أصابعى كلها فى الشق".

قلت: "أولى أن تضيعها فى عينىّ هذه التى تسمى نفسها طباخة... قد تكون هذه عجة من طراز حديث، ولا شك عندى أن مذاقها جميل، ولكن لونها يقول لى إنها بطانة نعل قديم، رائحتها وحدها تنبئ بذلك وتدل عليه، وعلى ذكر النعال أقول إنى أريد أن أشترى حمالة للجوارب، وجوارب تصلح لأن تشد بالحمالة، فمن يصحبنى؟".

ورفعت الكرسى استعداداً للنهوض فقالت زوجتى: "ولكن ألا تشيرون علىّ بشىء؟ ماذا أصنع؟".

قلت: "عليك بالصبر فإن ثوابه عظيم".

(٨٧) نشرت فى مجلة شهرزاد، ١٢ نوفمبر ١٩٣٥، (ص٤-٦).

فنظرت إلى أخى وقالت: "لقد جربت عشر طباخات فى خمسة عشر يومًا... وأوصيت مكاتب التخديم فى كل أحياء القاهرة، ورجوت من قريباتى وصواحبى أن يساعدننى... وهذه هى النتيجة! لا نستطيع أن نذوق ما يطبخ فى البيت، ونضطر أن نخرج إلى المطاعم أو أن نجئ بكباب وجبن وزيتون حتى تلفت معدتنا... فماذا أصنع؟ أشيروا بشىء...".

فنهضت وأنا أقول: "قوموا من هنا، أولاً، فإن رائحة هذه العجة تحدث لى تسممًا".

وانتقلنا إلى غرفة بعيدة، وفتحنا النوافذ، وأشعلنا السجاير، ولو كان عندنا بخور لأطلقناه، وجلسنا صامتين، ساهمين، واجمين، لقد كانت لنا طباخة حاذقة ظلت معنا مدة عشر سنوات، وكنا نقتتل على الطعام الذى تصنعه؛ ونروح نتخطفه، ويجرى بعضنا وراء بعض كالأطفال من أجله، ثم أبت الحمقاء إلا أن تتزوج، ففارقتنا، ونحن - مذ تركتنا - نختبر طباخة بعد أخرى، ولا نرضى عن واحدة، حتى اسود عيشنا وحل الخصام فى بيتنا محل الوئام - أو كاد على الأصح - ولقد حدثتنى نفسى مرارًا أن أسعى بالوقيعة بين الطباخة وزوجها لعله يطلقها فترتد إلينا ولكنى زجرت نفسى عن هذا بجهد.

وقالت زوجتى: "إن أخى يصطاف فى الإسكندرية فما قولكم فى أن نكتب إليه لعله يهتدى إلى طباخة صالحة يرسلها إلينا".

فوافقنا على هذا الرأى، وقلنا حجر قد يصيب، وإن كان قد كلفنا كثيرًا، فجلست إلى مكتبى وكتبت الرسالة الآتية:

"أخى العزيز

إنك، كما تعلم، شرهان مبطان لا تمتلئ لك عين، ولا تشبع لك بطن، وهذا هو الذى يدفعنى إلى الكتابة إليك، وأنى لأدرى أن ذوقك سقيم، وأن همك من الطعام هو

شعورك بالحشو والامتلاء، ليس إلا، ولكنك قد صرت آخر أمل لنا، أو بعبارة أدق أنت آخر حجر فى أيدينا نقذفه، وأظنك علمت أن "حميدة" تزوجت وفارقتنا، وأحسب أنه يسرك أن تعلم - فإنك خبيث البطن والنفس جميعًا - إننا بعدها نتضور جوعًا، فلو رأيتنا لشمت، فقد ذهبت عيوننا فى رؤوسنا، وانحنت ظهورنا، وصارت لبطوننا أصوات كأصوات العصافير والثعالب، ونحن فى هذا البلاء منذ خمسة عشر يوماً، فهل نستطيع أن تجد لنا فى الإسكندرية من يطعمنا؟ لقد أقفرت مصر فنحن نتحول إليك مكروهين، ونصيحتى إليك إذا لم توفق أن تصعد إلى قمة منارة الإسكندرية وتلقى بنفسك من فوقها.. فى البحر.. وهذا واجب على كل حال".

المخلص لك

حاشية - ارحمنا وأبرق بمن تجد، فإن جوعنا كافر.

***

وتلى الكتاب فقالت زوجتى وهى تضحك: "إذا لم يحركه هذا، فلن يحركه شىء".

وقال أخى: "ألا ترى أنك بالغت قليلاً؟".

فقالت زوجتى: "أخى يعرف أسلوبه، فلا تخف".

وصحت أنا به: "كل من هذه العجة، أولاً، إنها لا تزال على السفرة.. ثم قل بعد ذلك، إذا استطعت، إنى بالغت".

وسألت زوجتى: "والآن ماذا نصنع بأنفسنا؟".

قلت: "الحق أقول، إنى جوعان، ثم إنى أريد أن أنسى رائحة العجة، فلنذهب إلى مكان بعيد لا تصل إلينا فيه - أعنى الرائحة - إلى الجيزة مثلاً، وهناك نأكل بيضًا ودقة و...".

فقالت زوجتى وهى تنهض: "ونذهب بعد ذلك إلى السينما؟؟".

***

بعد يومين – أعفى القارئ من وصف ما أصابنا فيهما – تلقينا البرقية الآتية:

"انتظروا جمالاً بقطار الظهر".

فرقصنا من الفرح – أعنى كدنا نرقص – وكان اليوم يوم جمعة، والساعة العاشرة، فقلنا نذهب جميعًا إلى المحطة احتفاء بمقدم الطباخة التى ستعيد حياتنا إلى مجراها الهادئ، ولبسنا ثيابنا، وهممنا بالخروج، فسألتنى زوجتى: "ولكن كيف نعرفها؟".

قلت: "من؟".

قالت: "الطباخة الآتية؟".

قلت: "آه! صحيح! لا شك أن أخاك أذكى من أن يفوته أن يضع عليها علامة! يعلق على صدرها ورقة مثلا يكتب عليها بالخط الثلث...".

فقالت: "لا تمزح... ستكون بين مئات ومئات من ركاب الدرجة الثالثة فكيف نهتدى إليها؟".

قلت: "ومن يدرينا أنها ليست فى الدرجة الأولى؟ إن كتابى إلى أخيك خليق أن يبعثه على اختيار طباخة تليق بقصور الملوك والأمراء".

فقالت: "ولكن ما العمل؟ ألا تدع المزاح الآن؟".

قلت: "لا عمل إلا أن نقف على الرصيف ونستقبل كل من نتوسم أنها طباخة حاذقة بالسؤال الآتى: "معذرة ولكن هل حضرتك جمال؟ "فأنى أظن جمالاً هذه أنثى لا جملاً – أعنى بعيرا".

فصاحت: "ولكن كيف يمكن؟ أنا لا أجرؤ على التصدى للسيدات على هذا النحو".

قلت: "وأى بأس هناك؟؟ ثم إنهن سيكن سيدات من الدرجة الثالثة".

قالت: "ولو"!.

قلت: "إن أخاك هذا ذكى جداً - لماذا بالله لم يصف لها مكان بيتنا؟؟ أما كان يسعه أن يقول لها اركبى سيارة مثلاً إلى شارع كذا وقفى بالمنزل رقم كذا؟؟ أم لا بد أن يحيرنا؟؟".

***

وصرنا فى المحطة - على الرصيف، وجاء القطار، وشرع الناس يخرجون منه، وكنا عند أول مركبة من مركبات الدرجة الثالثة، فجعلنا نحملق فى وجه كل امرأة مقبلة علينا، ولم أجترئ على سؤال واحدة منهن فهمست فى أذن امرأتى: "لست أدرى وجه طباخة، فما العمل؟".

فصاحت بى: "ولكن ما فائدة مجيئنا إلى هنا إذا لم تسأل".

قلت: "يا امرأة لا تصيحى هكذا! إن الله مع الصابرين... هذه فتاة جميلة مقبلة... تصلح أن تكون سيدة بيت...".

ودنوت منها وقلت: "عفوا يا سيدتى، ولكن هل تسمحين لى...".

فقالت: "ليس معى شىء... أشكرك".

ومضت عنى فعدت إلى زوجتى وقلت لها: "هل أعجبك هذا؟ لقد توهمتنى حمالاً...".

فضحكت وقالت: "هذا جزاؤك! لماذا لم تكلم غير هذه الفتاة الجميلة؟".

فتنحنحت ثم قلت: "يجب أن نرجع... لا فائدة... وهل كنت تريدين أن أسأل هؤلاء الفلاحات؟ إن طباختنا من الإسكندرية يا امرأة - لا تنسى هذا".

فهمت بالرد ولكن يداً على كتفها جعلتها تدور، وكنت أنا زائغ العين بين النساء، فقالت: "أوه! هذا أنت! لماذا لم تقل أنك آت؟".

فقال أخوها: "لم أكن أنوى الحضور، فى أول الأمر، ثم بدا لى أن الأوفق أن أحضر".

فسألته: "وأين جمال؟".

فقال: "هذا هو"، وأشار إلى رجل وراءه.

فصاحت أخته: "هو؟ هل جئت بطباخ؟".

قال: "نعم - لم يقل أحد إنه ينبغى أن يكون طباخة".

قالت: "ولكن أين نضعه؟ ليس له مكان عندنا - إن البيت شقة - كلا لا يمكن أن أقبله".

فتدخلت وقلت: "إذا كان يستطيع أن يصنع لنا طعاماً نرضاه، فلا بأس، ومن الممكن أن نستأجر له غرفة بيت قريب".

فقالت زوجتى: "هذا خراب... طباخ من الإسكندرية.. وأجرة سفر.. وأجرة غرفة.. ثم من يدرى؟".

قلت: "صحيح.. والرأى الآن أن نلجأ إلى الدس والوقيعة".

قالت: "إيه؟ دس؟".

قلت: "تمامًا! حتى نطلق حميدة.. لا مفر من ذلك فما نستطيع العيش بدونها.. أو نقنعها بالسكنى قريبًا من بيتنا فتطبخ لنا وتذهب إلى بيتها، ولكن التفريق بينهما أحسن".

فقالت زوجتي: "كيف تجرؤ على التفكير في هذا؟".

قلت: "يا سيدتي - وقت البطون تضل العقول وتموت المروءة.. والآن تفضلوا ولنجرب جمالك يا..".

فوضعت زوجتي يدها على فمي وقالت: "في البيت..افرغ سمك.. وسمي أيضًا، فإني منتفخة به.. طباخ رجل.. كيف أطيقه في المطبخ؟... معي في بيت واحد؟".

قلت: "في البيت.. افرغي سمك.. وسمي أيضًا.. في قلب هذا الأخ المغفل..".

ريرى... تعبان![88]

(تنبيه: القصة ليست شخصية - وليس لي بنت عمة مع الأسف ولا ابن عمة والحمد لله)

***

وضعت الحقيبة أمام الباب، وأنا أنهج، وألهث - كالكلب - وألقيت عليها ما كان على ذراعى من المعاطف، ووقفت غير قادر على التحرك، وأنفاسى تروح وتجىء كأنها خارجة من قصبة زامر ينفخ فيها نفخًا خافتًا.

"مسكين! هل تعبت؟".

فرميتها بنظرة كان ينبغى أن تذويها، ولم أقل شيئًا لأنى لم أكن أستطيع أن أتكلم.

فقال أخوها وهو يضع قدمه على الدرجة الأخيرة، ويلقى بحمله على الأرض:

"لو أنه حمل بيسراه عدل هذه الحقيبة التى حملها بيمناه، لما أحس شيئًا من التعب - فالذى يستخلص من هذا أنه لم يكن يحمل الكفاية من هذه الأشياء".

فنظرت إليه أخته ضاحكة فقال: "نعم، فإن المسألة فى الحقيقة، مسألة توازن.. إذا اختل: شعر المرء بتعب الناحية المثقلة".

---

(٨٨) نشرت فى مجلة شهرزاد، ٢٦ نوفمبر ١٩٣٥، (ص٤-٦).

وكانت أنفاسى قد انتظمت فقلت له:

"هل تريد أن تموت الآن؟ أو بعد الغداء؟ سيان عندى..".

وفتح الباب فدخلنا - هذا اللعين وأخته، وكلبها، وزوجتى وأنا - وكنا قد ذهبنا على المحطة لنستقبل الفتاة ونعود بها إلى بيت أخيها، حيث أعد لنا الغداء.

وجاءت الخادمة بالقهوة ودارت بها علينا فرفضتها فقالت زوجتى:

"ليس من الضرورى أن تظهر كل هذا الاشمئزاز".

فقلت: "يا امرأة، كونى منصفة... هل من العدل أن أشرب قهوة بعد الذى نالنى من الإعياء، وفى هذا الجو البارد، وقبيل الغداء أيضًا؟".

فقالت "آمال" لأخيها: "أليس عندك شىء.. له؟".

فنهض وهو يقول: "أمرى إلى الله! أنا واثق أن عينه وقعت على الزجاجة هو داخل... ولهذا يتظاهر بالتعب والفتور".

وكان السحاب الرقيق قد أخذ يرش الأرض رشًا خفيفًا حين ناولنى "كريم" الكأس الأولى وكأنه يريد أن يلكمنى بها، فقلت له والكلب على حجرى والكأس فى يمينى وعينى إلى النافذة المفتوحة:

"ربما سرك أن تعلم أنى أستطيع أن أراك تغرق إن شاء الله فى بركة من الوحل - من غير أن أتأثر".

فارتجف وقال: "إن حالة الجو اليوم تجعل الإعراب عن شعورك هذا ثقيل الوقع... وقد بدأت أحس بالبرد إحساسًا لا يطرده إلا قليل من الكونياك".

وصب من الزجاجة فى كأسه وقلبها على فمه، فهممت بأن أقول كلمة حق فى هذا السلوك، ولكن "آمالا" صاحت بى: "ماذا تصنع؟

فالتفت إليها مستغرباً فقالت: "هل أطعمت (ريرى) شكولاته؟".

قلت: "نعم... هذه هى الرابعة.. إنه ضيفى.. على حجرى، وأنا.. على خلاف أخيك - لا أدعو الناس إلى الطعام لأميتهم جوعًا".

قالت: "ولكنه سيمرض.. الشكولاته تتعبه.. دائمًا.. هاته".

وأخذته منى.

وقمنا إلى الطعام.

***

فى ضحى اليوم التالى كنت جالسًا إلى مكتبى، وأمامى زوجتى على كرسى طويل، فدخلت الخادمة وناولتنى برقية، فرفعت زوجتى عينها إلىّ وقالت: "ممن؟".

فقلت وأنا أفض الغلاف: "إن الله مع الصابرين.. أوه.. مسكين..!"

فنهضت عن الكرسى، وخفت إلىّ، وأقبلت علىّ تسألنى بلهفة: "من؟ ماذا جرى؟".

فمددت إليها يدى بالورقة فقرأت فيها: "ريرى تعبان... آمال".

وقلت: "لا شك إن هذا نتيجة إهمال من آمال.. غفلت عنه فراح يلتقط ما يجد، فمرض".

فقالت زوجتى محتجة: "لا تكابر! إنك أنت السبب! هذه الشكولاته التى قعدت تدسها له فى فمه هى التى أمرضته.. ثم لا بد أن يكون مريضًا جدًا وإلا لما أبرقت إليك بالخبر".

قلت: "كونى ملاكًا واذهبى إليها، فإنى لا أجرؤ أن أريها وجهى".

قالت: "وهل فى هذا شك؟".

فلم أدر أى شىء هو الذى لا شك فيه، ولكنى رأيت من الحزم أن أسكت.

***

وصدق الذى قال إن الأقارب عقارب؟ هذا "كريم" مثلاً، ابن عمتى، وليس فى كونه ابن عمتى ما يجيز له أن يطاردنى فى حيث كنت من الأرض - فى البيت، والمكتب، والمقهى، والسينما، بل حتى فى الطريق وعلى قارعته، وأقول له ذلك فيضحك ويعد كلامى أسلوبًا جديدًا فى العبارة عن شوقى إليه وترحيبى به، وكم أسفت لأنى أغريته بالتأمين على حياته من الموت والحوادث - كتكسير العظام مثلاً!

وها أنا ذا أهم بالخروج من مكتبى لملاقاة إخوان وقضاء السهرة فى مكان آمل ألا يهتدى إليه، وإذا به يفتح الباب ويدخل كالقنبلة ويصيح كالمجنون "هنئنى!".

فأقول: "هل مت؟".

فيقول: "اقعد! اقعد! أليس عندك شمبانيا؟".

فأقول: "أحب أن أذكرك بأن هذا مكتب عمل، لا خمارة!".

فيسحبنى من يدى ويقول: "إذن تعال يا مسكين أسقك شمبانيا!".

فأقف مذهولاً - ولى العذر - وأقول: "أنت تسقينى شمبانيا؟ أنت؟؟ ماذا أصاب الدنيا؟ متى تغيرت عن عهدى؟ قل لى أولاً - على حساب من، تسقينى هذه الشمبانيا؟".

فيقول: "لا تكن مغفلاً - تعال!".

فأقول: "كلا - حتى أعرف - إنى رجل أعرف القانون وألتزم ما يقضى به، ولا أحب أن أكون شريكًا فى جريمة، كلا، وليس أبغض إلىّ من أن أغرم أنا ثمن هذه الشمبانيا، على حين تروح تدعى أنت أنك دعوتنى إليها وسقيتنيها".

فيخرج من جيبه محفظة منتفخة ويضرب عليها بلطفه ثم يفتحها فأراها محشوة بالورق فأصيح به: "من أين سرقت هذا المال كله؟".

فيقول: "مائة وخمسة وثلاثون جنيها! هل تصدق؟ ربحتها اليوم من السباق!".

فأهز رأسى منكرًا وأقول: "لا يا صاحبى! لن تستطيع أن تخدعنى فإنى أعرفك، والذى ربى خير من الذى اشترى، فقل الحق!".

فيقول: "خمسة جنيهات فقط لعبت بها.. جاءتنى بهذه الثروة".

فأسأله وقد بدأ رأسى يدور: "ولكن كيف؟ أى جواد...".

فيقول: "ريرى... و.. ألم تصل إليك برقيتى؟".

فأمنعه من الكلام ويدى على جبينى وأقول: "و.. وتعبان..".

فيقول: "نعم. نعم. وآمال".

فانحط على الكرسى كالحجر، فيدنو منى ويسألنى: "ماذا جرى؟".

فأقول: "لا شىء! والآن اعفنى بالله من وجودك، أو على الأقل ضع السيجارة فى فمك لعلها تصلح صورته بعض الشىء.. آخ!".

فيلح علىّ فأسأله: "من الذى اختار لك هذه الجياد؟ شمعون؟".

فيقول: "ولكنى أبرقت إليك لما لم أجدك".

فأقول: "صحيح والآن اذهب عنى".

فيضحك ويقول: "قم. قم، تعالى أسقك الشمبانيا وعلى ذكر ذلك، هات جنيهاً".

فأفتح عينى جداً وأقول: "ها؟ أهو ذاك؟ كان ينبغى أن أدرك أنها حيلة للنصب علىّ؟".

فيقول: "لا تكن بغلاً! هات الجنيه وخذ سبعة وعشرين".

فأضحك وأقول: "أعطيه جنيهاً... وآخذ سبعة وعشرين! شىء جميل.. لا، ليس هذا الذى بين كتفيه رأساً.. كلا.. قد يكون مخزناً للمجارى أو..".

فيقول: "يا حمار! لعبت لك بجنيه، فلك فى الربح نصيب".

فأهز رأسى وأقول: "إذن لماذا لا تكتفى بإعطائى ستة وعشرين جنيهاً؟ هه".

فيقول: "كلا.. آخذ حقى أولاً..".

فأقول: "تمام، وألجأ أنا إلى القضاء بعد ذلك لاستخلاص حقى.. مفهوم".

فيقول: "ما هى الحكاية؟ لست فاهماً شيئاً! لماذا لم تعمل ببرقيتى؟".

فأقول: "الحكاية هى أنك تريد أن تنصب علىّ وتسلبنى جنيهاً، أما البرقية فإذا أردت أن أخبرك بقصتها فشرطى أن تكتمها ولا ترويها لأحد.. خذ الجنيه وهات الفلوس، واسمع الحكاية، وعوضنى الله خيراً".

جَمَال..[٨٩]

"والآن ما العمل؟ وما حيلة تصرف "بنتنا" عن هذا الشاب الفقير الوحد الذى لا نعرف له أصلاً؟ ألا رُقية نرقيها بها فتشفيها منه، فما نظن به إلا أنه طامع فى مالها؟".

عن هذا كان القوم يتساءلون، وفى أيديهم فناجين الشاى، ورؤوسهم متدانية، وأصواتهم خفيضة، لئلا تكون "بنتهم" قريبة منهم فتسمع ما يقولون؟ وقال كبيرهم:

"اسمع يا صالح! لو كنت مكانك لعجلت بزواجها فإن تلكؤك هذا هو فرصة الشاب".

فقال صالح وهو يهز رأسه: "كلا! بل التأنى واجب، ثم أنى قد ولى شبابى - أو على الأقل ذهب منه أكثر مما بقى".

فأنكروا عليه هذا القول، وأكدوا له أنه ما زال فى ريعان الصبى وعنفوان القوة، وكادوا يزعمون أنه ولد هكذا - أبيض الشعر - فسره ثناؤهم وشرح صدره لغطهم فقال وهو ينفض السيجارة:

"أنا أقول لكم! إن "جمال" مخدوعة - تتوهم فى هذا الشاب من النبل والفضل ما لا وجود له، فإن أردتم أن تزول الغشاوة عن عينها فإن عليكم أن تظهروه لها على حقيقته، ولا يتسنى ذلك إلا إذا عدلتم عن اعتراضكم عليه - أدعوه فى كل وقت -

---

(٨٩) نشرت فى مجلة شهرزاد، ١٠ ديسمبر ١٩٣٥، (ص٤-٧).

اخلطوه بأنفسكم – فلن يسرق شيئًا على كل حال – ودعوها تراه فى كل حال، فإنها لا تلبث أن ترى منه ما يزهدها فيه وينفرها منه – ثيابه وحدها كفيلة بذلك".

فاستحسنوا هذا، ووافقوا عليه، وأقسمت "الست الكبيرة" لتدعونه إذا لم تدعه "جمال" وأخذوا يتفرقون فى الحجرة، ويتبعثرون فى نواحيها، حتى لا ترتاب "جمال" حين تدخل عليهم، وما فى اجتماعهم وتدانيهم ما يوجب الريبة، بل الطبيعى أن يجلسوا معًا ويتحدثوا، وهم ثلاثة فى غرفة واحدة ولكن المريب يكاد يقول خذونى.

ودعى "حامد" إلى الشاى فى اليوم التالى – أغروا جمال بدعوته، فإنهم خارجون فى يومهم لرد زيارة، ويحسن أن يكون معها جليس يؤنسها ويجلو عنها الوحشة. فسرت جمال وفعلت، وجاء حامد، ودخل البيت لأول مرة، فروع فما له عهد بمثل هذا البذخ، وجلس فى ركن، وجعل ينظر إلى ما حوله من الأثاث الوثير، وعلى ثيابه العتيقة وحذائه الذى ضيع نصف ساعة فى تنظيفه وتلميعه، وإلى أصابعه مخافة أن يكون سواد الدهان قد ظل عالقًا بأظافره، ودخلت جمال تنساب فنهض لها، ولم ينسه بشرها أنه شىء شاذ فى هذه الحجرة، وجاءت الخادمة بالشاى فرفع عينه إليها، ووقع فى نفسه أن مثله كثير عليه أن يطمع فى ود الخادمة فكيف بجمال؟؟ وزاد اضطرابه لما دار بنفسه هذا الخاطر، فارتعشت يده وسقطت قطرات من الشاى على ثيابه، ووقع فتات الكعك وما إليه، على السجادة، ولم يخف اضطرابه على جمال ولم يغب عنها سره، فقد كانت تعرف أنه دقيق الإحساس بفقره، وكانت تشجعه على اطراح هذا الشعور الثقيل، وتجرئه على الاستخفاف بالغنى، وتوحى إليه أن الثياب الجديدة لا تغير الإنسان، ولا ترفعه مقامًا فوق مقام الناس، وأن العبرة ليست برشاقة الحركات وجدة الملابس، ولكن شعوره بنفسه وبأنه من الفقراء لا السراة الأغنياء، وأنه لن يستطيع قط أن يحذق فن الرشاقة فى الحديث والإيماء والسير وما هو من هذا بسبيل... كان أقوى من أن يلطفه الإيحاء، فنهض فجأة، ووضع كفه على كتفها وقال:

"اسمعى يا جمال.. يحسن ألا يتكرر هذا.. إن هذا البيت يروعنى.. إنى من طبقة أخرى.. لست أحس الفرق الذى بينى وبينك وأنا فى الشارع، أو فى الحديقة... ولكن هنا.. عفوك.. وأستودعك الله!".

وانطلق خارجًا.

وكان يومًا...

***

وأصر القوم على خطتهم، فدعوه إلى العشاء، فاعتزم أن يرفضها معتذرًا، وقضى ساعات كاملة يفكر فى عبارة مقبولة يعتذر بها، فما كان يسعه أن يقول إنه لا يتقن آداب المائدة، وأنه لا يعرف هل يتناول الهليون بيده، أم بالشوكة مثلاً، ولكن "جمال" مرت به وانتظرته فى سيارتها على طريق مدرسة الهندسة حتى خرج، وألحت عليه أن يلبى الدعوة وناشدته الود الذى بينهما ألا يخذلها، وقوّت قلبه، وقالت له إن هؤلاء ناس مثله، بل إنه خير منهم لأنهم متكلفون وهو على الفطرة، وأخبرته أنها تلقت من أبيها رسالة وأنه يذكره فيها ويقرئه السلام ويتمنى له التوفيق.

وجلسوا إلى السفرة، فراح "صالح" يناوشه؛ ويستدرجه إلى الكلام عن أصله وفصله ومقره، وكانت "جمال" مقطبة، لا تنظر إليه، ولا تكاد تأكل شيئًا وإن كانت يدها لا تكف عن العمل فى الطبق، وكانوا يمطرونه أسئلة عن كل شىء ليظهروا جهلة وأخيرًا قالت الست الكبيرة:

"سنذهب غدًا إلى الأوبرا - فإن فيها رواية جميلة، فتعال معنا".

فارتاع حامد.. ومن أين يجئ بثياب السهرة؟؟ ويئس فاندفع يقول:

"يا سيدتى، إنى من أجهل الناس بالموسيقى وما إليها... ربما... فى المستقبل... قد يتاح لى أن أظفر بسيدة مثقفة مثلك تبدلنى من جهلى علمًا، ولكنى إلى أن يكتب الله لى هذا الحظ أرجو أن تعفينى من الأوبرا... ثم إنى طالب فقير، وليس عندى ثياب

للسهرة... بل ليس عندى غير بذلتين اثنتين... هذه ألبسها فى الشتاء، وأستغنى بها عن المعطف وأخرى للصيف...".

وأمسك، وأجال عينه فى الجالسين فإذا كلهم مطرق إلا "جمال"، فقد كانت عينها تومض، وكان وجهها مشرقًا، حتى لخيل إليه أنها توشك أن تصفق جذلاً وسروراً.

وكان مساء...

وضاقت الدنيا فى وجه حامد، وشق عليه أن يظل عرضة لاستهزاء هؤلاء الأغنياء المترفين المترفعين وأدعياء الأرستقراطية "المحدثة"، وأدركه عطف على "جمال" فى هذه المحنة... محنة الحياة بين هؤلاء الناس ونازعته نفسه أن يسعى لإنقاذها منهم، ثم عاد فضحك، فما خفى عليه أن يغالط نفسه ويوهمها أنه إنما يطلب "جمال" إشفاقًا عليها ورثاء لها، لا لأنه يحبها ويشتهيها ويريدها لنفسه... وتذكر أن جمال منهم وأنها مخلوطة بهم، فهى لا تستطيع أن تنكر أساليب حياتهم ووجوه عيشتهم كما ينكرها هو، ولا أن تنفر منها كنفوره، ولا تحسها كإحساسه، ودار برأسه هذا الخاطر فأمضه وأبعجه، وحدث نفسه أن "مالى أنا أشغل نفسى بجمال.. إنى طالب، فَهَمِّى ينبغى أن يكون درسى، وليس يجوز لى أن أعدوه حتى أفرغ من أمره كله... صحيح أنه لم يبق علىّ إلا شهور أجوز بعدها الامتحان، ولكن علىّ بعد ذلك أن أضرب فى زحمة الحياة وأخوض عبابها، وألتمس الرزق والكسب...ولست أستطيع أن أطالبها بما لم تألف من الصبر على الشظف وطول الاحتمال للضنك، وقد يغريها الحب بالرضا فى أول الأمر ويخيل إليها أن هذا أحلى، وأن فى الحب المتبادل عوضًا كافيًا عن لذات الحياة ومتع العيش، ولكن الإنسان وما يتعود، وقد نشأت فى أحضان النعيم وظلال الترف فما عسى صبرها على الفاقة ورفو الثياب وترقيعها، والتدقيق فى الحساب، وسكنى البيوت الرطبة فى الأحياء المكتظة، والقناعة بالقليل الرخيص، وبالترام فى الدرجة الثانية، وإحفاء القدمين بالمشى الطويل... كلا! لا قبل لها بذلك، فيجب أن أفطم نفسى عنها، لا زهداً فيها بل إيثارًا لخيرها..

وصح عزمه على ذلك، وتناول كتاباً وجلس به إلى مكتبه، وفتحه وأكب عليه وإذا بنقر خفيف على الباب ثم فتح الباب ودخلت "جمال" ووراءها صالح الأنيق الرشيق - على كهولته - وخلفهما الست الكبيرة وزوجها وكان مسكن حامد كله هذه الغرفة الوحيدة - هى مكتبه، وغرفة نومه، وحجرة جلوسه، وحجرة طعامه أيضًا، وكان فيها سرير وكرسيان ومكتب صغير مغطى بالصحف وعليه أكداس الكتب، وحبل مشدود بين حائطين يعلق عليه ثيابه، فاضطرم وجهه من الخجل والغيظ، وخيل إليه من ابتسامة صالح أن هذه الزيارة مقصود بها تحقيره فى قلب بيته، ولكن "جمال" أقبلت عليه وقالت له:

"هل تسمح لى أن أصنع لهم قهوة؟".

فارتبك قليلاً، ثم ابتسم بجهد وقال: "بل استريحى أنت... سأصنعها أنا.. ولكن الفناجين غير كافية لا يزورنى أحد فى العادة".

فقالت جمال: "بل أساعدك.. هات الأدوات".

وأدنت رأسها من رأسه وهى تساعده، وطن فى أذنه أنه لم يبق شك فى أن هذه الغزوة إنما يراد بها إشعارها بُعد ما بينها وبينه، ولكنها إنما تشعر بأنها تزداد منهم بُعدًا، ومنه قربًا، وأن أباها لو كان هنا معهم، لاغتبط بهذه الزيارة، وبالجلسة فى هذه الحجرة النظيفة الخالية من مظاهر الكذب والدعوى والنفاق والتكلف، فقد نشأ فقيراً، ولا يزال على غناه يحن إلى أيام صباه - أيام كان رقيق الحال يعمل بالمثل القائل: "من أخر غداه لعشاه التقاه" وأن عليه - على حامد - ألا يعبأ بهم أو يكترث بهم، بل عليه أن يأكلهم أكلاً..

ولكنها هى التى أكلتهم، فقد أخذت تحدثهم وتصف لهم أولى حياة أبيها، وكيف شق لنفسه طريقًا فى الدنيا، وكيف كان فى صدر أيامه حمالاً فى ميناء الإسكندرية،

يحمل على ظهره جوالق الفحم من الأرصفة إلى السفن، وكيف كان ينام فى غرفة واحدة مع ثمانية من زملائه، ويأكل الخبز الناشف و"المش" المدود، وكيف أدخر قليلاً من المال وشارك ثلاثة وعملوا جميعًا وسطاء، ثم استطاعوا أن يتولوا هم إمداد السفن بما تحتاج إليه من المواد المختلفة وهكذا حتى كثر المال واتسع الرزق وعظمت التجارة.

ولم تستطع الست الكبيرة صبراً على هذا الحديث فجعلت تقاطع جمال، تارة، وتنهرها أخرى، ولكن "جمال" أبت إلا أن تذكر أقرباء لها بأسمائهم لا يزالون يعيشون عيشة الفقر المدقع والمرتبة الذليلة، فوثبت الست الكبيرة وهى محنقة وقالت لجمال:

"إذا كان يسرك أن تبقى؛ فابقى، أما أنا فماضية.. تعالوا..".

وجرتهم فخرجوا بلا كلام.

وقالت جمال: "والآن يا حامد.؟".

قال: "لقد كنت فظيعة..".

فسألته: "أفظع منهم؟".

فقال: "لا تنسى أنهم كانوا ضيوفى".

فصاحت به: "ضيوفك؟ إنهم ما جاءوا إلا ليهينوك ويعذبوك ويمزقوا لك...".

قال: "أعرف هذا، ولكن...".

فقاطعته: "من فضلك...؟".

فرفع إليها وجهه مستفسراً فقالت: "من فضلك..لا تكن مغفلاً...".

وضحكت ففتح لها ذراعيه.

***

لم تعد جمال فى يومها ذاك إلى أقربائها، بل ركبت سيارتها ومعها حامد إلى أبيها فى الإسكندرية، ولم يذكر التاريخ عدد القبل التى تبادلاها فى الطريق ولكنه ذكر أن أباها قال لحامد:

"غداً تكتب لى ورقة تقول فيها إنك تسلمتها منى، ثم تتركها عندى وديعة حتى..".

فقال حامد: "وتكتب لى صكًا".

فلم يلتفت إليه ومضى يقول: ".. حتى تأخذ شهادتك وعلى ذكر ذلك ماذا تريد أن تصنع بها؟".

فقال حامد: "ماذا أريد أن أصنع بها؟ أتزوجها بالطبع".

فقال: "إنما أسألك عن الشهادة..!.. تعال اشتغل معى، فإنى كبرت وليس لى ولد..".

فنظر حامد إلى جمال فهزت رأسها فقال: "بعد الامتحان.. لم يبق إلا شهور..".

فهز الرجل كتفيه وقال: "الشهادة.." وتركهما...

فى الحب والمرأة[٩٠]

أنا - كما لا يعرف القارئ وإن كان لا شك لبيبًا - أكره أن أُحِب أو أن أُحَب. ولهذا النفور من الحب أسبابٌ شتى، منها أنه لا يد لى فى الأمر، ولا سلطان لى عليه، والمرء يصاب بالحب كما يصاب بالزكام - بكرهه وعلى الرغم منه - ولو خُيِّر لاختار السلامة وآثر النجاة، ومن ذا الذى يطيب له أن يتوعك؟ والحب حين يغمر النفس يذهلها عن لذته وحلاوته، ويشغلها بالوجيب والقلق والخوف والرغبة والغيرة، ولهذا كان أمتع ما فيه ذكراه - أى بعد أن تفتر الحرارة وتسكن النفس ويزول الاضطراب والقلق - أو تنتفى دواعيهما بفتور الرغبة - وقد يكون البحر الجائش العباب رائعًا ولكن ركوبه لا يحلو، واعتسافه لا يؤمن، والنفس مثله، وقد يسمو بها اضطرام الحب فيها إلى الجلال، ولكن الإحاطة بما تضطرب به والغوص عليه لا يتسنيان إلا بعد الهدوء، وقد يلهم المرء شيئًا وهو هائج، ولكن النظرة المباركة هى التى تدور بها العين فى أنحاء النفس بعد أن تعود إليها سكينتها وصفوها ويتيسر الوصول إلى أغوارها والنفاذ إلى زواياها والتغلغل فى سراديبها.

ومن الأسباب المزهدة أنى رجل عادل منصف، أو دع الإنصاف وقل إن الله خلق لى فى وجهى عينين، فما خيرهما إذا أنا لم أنظر بهما؟ والمرأة مستبدة، ومن استبدادها أنها تغضب وتثور وتسود عيشك إذا نظرت إلى سواها، وعبثٌ أن تحاول أن تفهمها أن الإغضاء عن كل هذا الجمال الذى فى الناس، قلة عقل، وقصر نظر - بل

(٩٠) نشرت فى مجلة "الرسالة"، ١٣ يناير ١٩٣٦، (ص٤٣-٤٤).

عمى-؛ وماذا تصنع العينان إذا لم تبصرا؟ وأى عمل آخر لهما هناك؟ وكون المرأة التى يُبتلى الإنسان بحبها جميلة ليس معناه أن النساء غيرها دميمات؛ وحبك إياها لا ينبغى أن يتقاضاك مقت النساء الأخريات وتنقصهن، والإعجاب بهن لا يعد ثلبًا لحبيبتك، وفى وسعها هى أيضًا - إذا شاءت وكان هذا مما تستطيع - أن تعجب مثلك بهن والرجل الذى يفقده الحب القدرة على الإعجاب بالجمال فى صوره المختلفة يكون فاسد الذوق، ولو عقلت المرأة لكان هذا كافيًا لتشكيكها فى رأيه فيها.

ويزهدنى فى الحب أيضًا أن مناظر العشاق مضحكة، وأحوالهم سخيفة، ومبالغاتهم شديدة، ودعواهم عريضة، وعمى قلوبهم وأبصارهم تام عن كل ما يحيط بهم، وأى عاشق لم يقطع ألف وعد بالوفاء المستحيل؟ بل أى محب لم ينس طربوشه مرة، أو لم يلبس طربوشين واحدًا فوق الآخر (ومع ذلك تراه لذهوله يدور باحثًا عن طربوشه لظنه أن رأسه عار!) أو لم يبد للناس فى الطريق أو الترام ملتاث العقل مخبولاً، يضحك ويقطب بلا سبب ظاهر، ويشير بأصابعه أو يلوح بيده، أو يكلم نفسه؟ والأرق؟ لا أدرى لماذا لا ينام العشاق ملء جفونهم كما ينام عبادُ الله الآخرون؟ ولكن الذى أدريه أن النوم المريح قلما يؤاتيهم أو يسعفهم بسكينته، وتالله إن العاشق لمسكين! لا نوم الليلة يا صاحبى لأنك حين ذهبت إلى بيت حبيبتك رأيتها مطلة من النافذة وناظرة إلى جهة غير التى تعرف أنك آتٍ منها! فهل كانت يا ترى تنتظر سواك؟ وعليك أن تذرع أرض الغرفة مائة ألف مرة هذه الليلة وتقطع خمسمائة فرسخ - جيئة وذهوبًا - لأنك وأنت معها جعلت ذراعك حولها وهممت بضمها وتقبيلها فجنحت إلى الدلال ونفرت من العناق، وكانت تبتسم، ولكنها قالت "من فضلك!"، "من فضلك؟"، وهل بيننا "من فضلك؟"، هذا كلام يقال للأغراب، وتكلف فى التعبير لا يكون بين المحبين! ويظل طول الليل يدب على رءوس النيام تحته، وفى ليلة يسير على وجهه فى الشوارع كالمتشردين، ويحدث نفسه بالانتحار، ويجتاز جسر إسماعيل، وعينه إلى الماء الذى يتدافع بين قواعده، وقد يسأم التدخين فيلقى بعلبة السجاير فى الماء ويغرقها فيه بدلاً

منه وفداء له، وبعد خمس دقائق يشترى غيرها، ولا يزال يتمشى حتى يرتاب فى أمره الشرطة، ويرى منهم ما يرد إليه بعض ما غرب من عقله، فيرجع إلى البيت مضعضعًا مهدودًا... إلى آخره، إلى آخره.

ثم إن الحب إذعان، ومن أحب امرأة فقد أسلم أمره - إلى حد ما - لأهواء لا ضابط لها ولا كابح، ولا تمييز فيها بين الممكن والمتعذر، أو اللائق وغير اللائق؛ وقد يطير الحب عقل الرجل - بل هو يفعل ذلك على التحقيق - ولكنه لا يستطيع أن يغير أسلوب تفكيره ولا أن يجعله كأسلوب المرأة فى تفكيرها، وعسيرٌ أن يظل الحب قادراً على إخفاء الفوارق بين أسلوبى الرجل والمرأة فى التفكير، وهب وقدته تبقى زمنًا طويلاً - وهو ما أشك فيه ولا أومن به - فإن توالى اصطدام العقليتين خليق أن ينبه إلى هذه الفوارق وأن يزعج الرجل ويحيره، وقد يفضى به إلى السآمة.

والمرأة التى ترى نفسها محبوبة تتوهم أن الرجل أباحها ظهره فهى تركبه وتركضه كيف شاءت وإلى حيث ينزو برأسها أن تذهب، ولا تبالى ما يصيبه من الإرهاق والجهد والإعياء والملل، ولا يخطر لها أن كده على هذا النحو ولحاجتها فى ذلك خليقان أن يخمدا وقدة الحب.

والدلال، ماذا تقول فيه؟ إنه مصيبة كبيرة وبلاء عظيم، ولكن المرأة تحسبه وقود الحب، فلا سبيل إلى شىء إلا بعذاب غليظ من هذا الدلال الثقيل، إذ كانت المرأة تسىء الظن بقيمة الاستجابة السريعة، ولا تؤمن إلا بقول القائل - قاتله الله كائنًا من كان، فقد نسيت من هو -: "وَحَبُّ شىءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا"(٩١) .

---

(٩١) شطر من بيت من البسيط، للأحوص الأنصارى (ت١٠٥هـ/٧٢٣م.) ونصه:

وَزادَنى كَلَفًا فى الحبِّ أن مُنِعَت

وَحَبُّ شَىءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

قلت مرة لامرأة وقعت بينها وبين حبيبها نبوة من جراء دلالها وإبائها عليه قبلة اشتهاها:

"يا ستى أنت تحبينه، وهو يحبك – أليس كذلك؟".

فألقت إلىّ نظرة خبيثة، فهززت رأسى وقلت: "نعم أو لا؟ أيهما؟ قولى بلسانك".

فقالت: "لكأنى فى مدرسة!".

قلت: "ومن الذى غشك وأوهمك أنك استغنيت عنها؟؟ إنك لم تشبى عن الطوق إلى الآن، وما زلت إلى هذه الساعة بنتًا صغيرة جاهلة، أجدر بك أن تخرجى إلى الشارع، فتلعبى فيه بالحبل..."

فلم يسؤها منى هذا الطعن لأنها كانت تعرف عطفى عليها، وحبى لخيرها، فأعدت عليها السؤال، فقالت: "نعم".

فقلت: "أشهد ألا إله إلا الله! وقد اشتهى منك قبلة، فهل كنت تأنسين من نفسك استعدادًا للإجابة ورغبة فيها؟".

فضحكت وقالت: "هذا أشبه بالتحقيق..... شىء جميل والله!".

قلت: "هو تحقيق... فأجيبى".

فصاحت: "ولماذا لم يقبلنى؟ ماذا منعه؟".

فصحت بدورى: "إيه؟ ماذا تقولين؟".

قالت: "أقول إن روحى كانت على شفتى... وكنت أتلهف على قبلته، ولكنه لم يفعل وذهب يتكلم... سخيف!".

قلت: "ليس هو وحده السخيف".

فرفعت وجهها إليّ، وزوت ما بين عينيها، فقلت: "أنا أيضًا مثله... فقد كنت أحسبه مؤدبًا.، وأعده مهذبًا، فإذا به مغفل!".

فضحكت... وهكذا المرأة أبدًا... ومن هذا الذى يجرؤ أن يزعم أنه يعرفها معرفتها؟ يفعل الرجل الشىء يطلب به رضاها، فإذا هى ساخطة ضجرة، ويتقى الشىء يخشى أن يغضبها بفعله، فإذا هى تلومه وتؤنبه وتعد ذلك من ذنوبه؛ وتختصر الطريق وتمشى إلى غايتك مباشرة، فتراها تؤثر اللف والمحاورة، فتروح تدور فتجدها قد تغير مزاجها، واختلفت رغبتها وانقلبت تؤمن بأن الخط المستقيم أقرب ما بين نقطتين؛ وتهدى إليها تحفة تتعب فى انتقائها، وتغرم فى سبيلها نصف دخلك، فتقول: "هلا استشرتنى قبل أن تشتريها؟"؛ وتستشيرها فى مرة أخرى فتقول: "لو فاجأتنى بالهدية لكان ذلك أحلى وأوقع" فأنت معها أبدًا على كف عفريت سكران.

وعقول الرجال فى رءوسهم، أما عقل المرأة فقد يكون فى حذائها – ولكنه على التحقيق – ليس فى رأسها، وضائع، ضائع، من يجادلها بمنطق الرجال، أو يكلفها كلام العقل، فما عرفتُ ذلك يجدى معها، ولو أن رجلاً أثنى على عقل امرأة بكتاب فى ثلاثين جزءًا لما بلغ من نفسها ما هو خليق أن يبلغ بكلمة ثناء مفردة على جمالها – ولو كذبًا – أو نظرة إعجاب واحدة إلى حذائها وإن كان أضخم من الباخرة نورماندى، أو مسحة بكفة – فى حنو، ولو متكلفًا – على شعرها وإن كان كضوء القمر.

ولست أذم المرأة، وكيف أجرؤ، وهى زينة الحياة وسر سحرها؟ ولكنى أقول إنها مخلوق آخر، غير الرجل، وهو قول ليس فيه جديد، ولا شك أن الرجل يبدو للمرأة – كما تبدو هى له – مستغرب الأطوار شاذًا فى أسلوب تفكيره، وطريقة تناوله للأمور.

المطاردة[٩٢]

"أترى هذا الوجه الشتيم؟ ما أقبحه!"

قلت: "دعيه! لا تنظرى إليه! إنه يذكرنى بكابوس كاد يزهق أنفاسى".

قالت: "وصاحبه – جليسه – ليس أصبح منه وجهًا، أعوذ بالله!".

قلت: "صدقت.. حولى عينك إلى وجهى، فإن النظر إلى جمالى يشرح الصدر، ويجلو صدأ العيش".

فضحكت وقالت بلهجة السخر: "يا سيدى!".

قلت: "سلى بنت عمك عنى إذا كنت لا تصدقين، ما قولك يا امرأة؟ أليس زوجك خير الأزواج وأجملهم وأبرعهم، وأظرفهم وآنسهم؟ اشهدى بالحق".

فقالت زوجتى: "الحق أنى لا أرتاح إلى وجود هذين الرجلين".

فقلت مستغربًا: "وما لنا نحن؟ إنه مكان عام".

قالت: "لا شك، ولكنهما لا يرفعان عيونهما عنا – ألم تلاحظوا ذلك".

فقال أخوها: "لاحظت أكثر من ذلك – فقد رأيتهما يحومان حول السيارة".

---

(٩٢) نشرت فى مجلة "مجلتى"، أول أبريل ١٩٣٦، (ص٦٧٨-٦٨٢).

فانزعجنا وخفنا أن يكونا لصين، ولكنه قال: "لا أدرى! فإن سيارتهما أحدث وأنفس وأوجه، ولا يبعد أن يكونا لصين، ولكن البعيد أن تكون السيارة غايتهما".

قلت: "إذن ما غايتهما؟".

فهز كتفيه وقال: "سلهما إذا شئت!"

***

وآن أن نرجع إلى القاهرة، فقال نسيبى: "سقها أنت"، وجلس إلى جانبى، وجلست زوجتى وابنة عمها وراءنا على المقعد الخلفى، وأنا أكره السرعة، ولاسيما على مثل هذه السكة الزراعية، وفى الظلام أيضًا، ولم تكن مصابيح السيارة قوية، فآثرت الترفق وسرنا على مهل، وكنا عائدين من طنطا، والمسافة إلى مصر مائة كيلو متر، وكل ما يمكن أن نقتصده من الوقت إذا نحن أسرعنا، لا يعوض ما لا بد أن نتعرض له من متاعب الرجات والقلقلة وتنغيص التراب.

وكنا نغنى ونضحك، ومن عسى أن يرانا أو يسمعنا على السكة الزراعية؟؟ وهب أحدًا رآنا فكيف يعرفنا؟ وإذا بنسيبى يغمزنى بكوعه ويدعونى بعينه أن أنظر فى المرآة، فرأيت وراءنا سيارة، فهززت رأسى، فقال بصوت خفيض: "أنا موقن، فجرب!".

فأسرعت، فأسرعت ورائى، فتمهلت وأفسحت لها الطريق، فتمهلت وأبت أن تسبقنا، وكررت ذلك مرات حتى زاد شكى فى أنها سيارة الرجلين الدميمين، وأنها تتعقبنا لسبب ما، ولكن ما هو السبب؟ إذا كانت النية الاعتداء، فإن الطريق خال، ولكن السيارة تكتفى بالتعقب، فماذا عسى أن يكون المراد؟.

وثقلت على نفسى هذه المطاردة، وانقبض منها صدرى، وخفت أن تشعر زوجتى وابنة عمها بذلك فيتعكر صفوهما وتنزعجا، فهمست فى أذن نسيبى أن أكتم هذا

عنهما، فوافق وقال: "ما دام الأمر أمر تعقب لا أكثر - إلى الآن على الأقل - فأمض على بركة الله، وأسرع، وسنرى ما يكون".

وبلغنا بنها، فأردت أن أعرج على دائرة البوليس، أو على أقرباء لنا، واقترحت حتى أن نبيت عندهم، فأبى نسيبي. وقال:

"ماذا نقول للبوليس؟ ليس لنا شكوى معقولة إلى الآن، وعلى أني أعتقد أن غايتهما في بيتنا، فلنذهب إليه، ويجب ألا نتلكأ، فلست أحب أن أكون وراءها، فما آمن أن يعرقلا طريقنا في موضع يختارانه، وخير لنا أن يكون طريقنا خالياً".

فاقتنعت، وإن كنت قد ظللت متوجساً، ولكن ثقتي به عظيمة، فمضيت بأقصى ما تستطيع السيارة من السرعة، وكنت لا أرى في المرآة شيئاً في أول الأمر، ولكني بعد قليل لمحت ضوء سيارة، فأيقنت أنها هي، وجعل الضوء يدنو منا، حتى صار على مسافة مائة متر، ولم تزد بعد ذلك اقتراباً.

وفي السكة بين بنها والقاهرة جسر، أو مزلقان يقفل لمرور القطار ثم يفتح للناس فلما بلغناه رأينا البوابة مقفلة، وأبصرنا ثلاثة من الشرطة ومعهم ضابط أشار إلينا فوقفنا بجانبه فأدار عينه فينا ثم قال: "يمكنكم أن تذهبوا".

فقال نسيبي: "نشكر لك حسن ظنك، فهل لهذا الإجراء سبب؟".

قال: "نعم - ونحن منتظرون".

فقال نسيبي: "إذن يحسن أن أخبركم أن السيارة التي وراءنا تتعقبنا من طنطا، لغير سبب نعرفه، ومعنا سيدتان أخشى عليهما السوء".

فمضى إلى السيارة التي وراءنا - وكانت هي أيضاً قد وقفت، ووقف إلى جانبها جندي ينتظر أمر ضابطه، ويمنع أن يخرج منها أحد - ثم عاد إلينا وقال:

"هذان اثنان نعرفهما، ونطاردهما منذ سنتين تقريباً، ولكنهما أمهر منا - اسمع، هات عنوان البيت، ومتى وصلتم إليه فليكن أول ما تصنعون أن تتصلوا بضابط المباحث في قسمكم، وسأتصل به أنا قبلك، ودع الباقي له، وأفعل كما يأمرك - والآن تفضلوا".

وبلغنا البيت في أمان، ومن غير أن نرى سيارة صاحبينا، فخيل إلينا أن الضابط حجزها، وفعلنا ما أشار به، واتصلنا بضابط المباحث فقال إنه سيحضر حالاً، وأمرنا أن نترك بابي الجراج والبيت مفتوحين، ففعلنا، ولم أكد أعود إلى النافذة حتى لمحت من بعيد ضوء سيارة يطفأ، وبعد نحو دقيقتين، رأيت اثنين يدخلان الجراج، فنبهت نسيبي، فقال: "نعم لقد رأيتهما، ولكني رأيت قبلهما أشباحًا عديدة تنبث حول البيت، وعلى جانبي الطريق".

قلت: "لم أر أنا شيئًا".

قال: "ذلك لأن عينيك على باب الجراج وحده، أما أنا فعيني على الطريق".

قلت: "وماذا تفهم من ذلك كله؟".

قال: "أنا؟ لا شيء! سنرى".

وفي هذه اللحظة خرج الرجلان من الجراج ومع أحدهما شيء لا أدري ماذا هو، لأني لم أتبينه في الظلام، فاستغربت أن يجيئا وراءنا من طنطا ليسرقا من جراجنا شيئًا صغيراً كالذي خرجا به، فجعلنا نفكر في هذا اللغز ونعالج حله، ولكنه أعيانا، وإذا بالضابط يدق الباب، فنزلنا إليه فقال:

"أشكركم - الآن يمكنكم أن تغلقوا أبوابكم وتناموا مطمئنين".

قلت: "ولكن ماذا حدث؟".

قال: "حدث ما كنا ننتظره ونرجوه منذ سنتين، هذان الرجلان مهربان مشهوران، ولكنهما لا يحملان شيئًا من المخدرات معهما أبداً، وقد استطاعا أن يخبئا ما معهما

فى صندوق الآلات بسيارتكم، ولهذا كانت عيونهما عليكم، ولهذا تعقباكم من طنطا إلى هنا، والفضل فى القبض عليهما الليلة للضابط الذكى الذى كان متربصًا عند المزلقان، فقد كانت الأخبار التى عنده أن اثنين من تجار المخدرات سافرا بكمية منها إلى القاهرة، ولهذا أخذ الطريق على السيارات، ووزع مخبريه على القُطر والمحطات، فلما سمع قصة المطاردة، ورأى الذين يتعقبانكم أدرك السر، وفطن إلى أن المخدرات مخبوءة فى سيارتكم، وقد كان من البلاهة أن يفتشكم فيضطر أن يقبض على أبرياء وينجو المجرمون، ومن أجل ذلك ترككم تستأنفون السير وأنتم جاهلون ما تحملون، وأخبرنى بما عرف وما دبر، فجئنا واختبأنا، حتى يستردا بضاعتهما ويضعاها فى سيارتهما ويركبا، ثم قبضنا عليهما واستولينا على جسم الجريمة... فشكرًا لكم مرة أخرى".

فذهلت ولم يسعنى إلا أن أسأله: "ولكنا سبقناهما وغبنا عنهما، فكيف اهتديا إلى البيت؟".

قال: "أوه.. هذا سهل، وهل تظن أن واحدًا مثلهما يجازف بوضع المخدرات فى سيارتكم ولا يعنى بأن يهتدى إلى عنوانكم؟؟ إن الاحتمالات كثيرة، فقد تتعطل سيارته، لسبب من الأسباب، أو تغيبون عن عينه فى الطريق ولاسيما فى شوارع القاهرة، فلا بد له من معرفة العنوان ليزوركم فيما بعد!!".

وضحك... وحيا ... ومضى.

ليلة وداع(٩٣)

قال لى صاحب: "أين نقضى سهرتنا الليلة؟".

قلت: "سهرتنا؟؟ فهل كتب علينا أن نسهر الليلة؟".

فقال برقة إبليسية الإغراء: "إنه آخر أيام المعرض، أفلا يحسن أن نودع مدينة الملاهى؟".

فقلت: "من ذا تودع فيها يا شيخ، وقد ودعت شبابك؟".

فلم ينهزم وقال: "نودع من خلقهن الله فى أحسن تقويم".

فقلت: "ولكن فيهنّ من خُلقن على صور الأبقار والجواميس، فهل نحتفل بوداع هؤلاء أيضاً؟".

فلم يصده حتى هذا، فلم يبق إلا أن نتوكل على الله ونستودعه نفوسنا ونذهب إلى مدينة الملاهى كما أراد، وحسناً فعلنا، فما كان يمكن أن نرى حشداً أعظم من هذا فى مكان أضيق من تلك التى سموها مدينة الملاهى؛ وكانت النساء أكثر من الرجال، وهن وحدهن معرض كامل، فما يخطر للمرأة صورةٌ من صور الخلق فى المرأة إلا وهى موجودة، وكانت الكثرة من العذارى الخود، والخرّد الحسان، اللواتى يترقرق الماء فى وجوههن من نضرة النعيم، ويتثنين من اللين فى غير استرخاء، أما القلة فكانت من الخِدلجّات الممتلئات الأذرع والسيقان العظيمات والأوراك والبطون، والمترجرجات

---

(٩٣) نشرت فى مجلة "الرسالة"، ٢٧ أبريل ١٩٣٦، (ص٦٩٤-٦٩٦).

اللحم، والمستديرات كأنهن البراميل، فلو أرقدتهن على جنوبهن ودفعتهن لتدحرجهن بلا توقف.

وكنت كلما رأيت واحدة من هؤلاء وقفت كالجندى، ورفعت يدى إلى جبينى بالتحية العسكرية! فيسألنى صاحبى عما أفعل؟ فأقول: "هذه تحية العظمة يا سيدى!! إلى متى نظل نبخس الناس أشياءهم ونغمطهم فى مصر؟؟ لقد آن جداً أن نقر لكل إنسان بحقه ومزيته".

والتقينا بأصحاب لنا، فصرنا جماعة ومضينا نتنقل من مكان إلى مكان، وإذا بى أرى قريباً لى ومعه صديقة له، ما رآنى قط مقبلاً عليه وهى معه إلا نهض بها زاعماً أن عليه أن يفعل كيت وكيت، أو أن يقابل فلاناً أو علاناً من خلق الله الذين يتحرى أن ينتقى لهم أسماء لا أعرفها لأنها مخترعة لا وجود لها، فأكاد أتميز من الغيظ، ولكن ماذا أصنع؟ غير أنى فى هذه المرة أدركته قبل أن يقوم - أعنى قبل أن يرانى، وكان جالساً معها - كما لا أحتاج أن أقول، فحملت كرسياً إلى حيث هما، ووضعته وقعدت عليه أمامهما، ثم حييتهما أحسن تحية وأرقها - تحية تلين الصخر، لا بل تذيبه - ولكنّ قريبى، وقاك الله، أصلب من الصخر والحديد، فما كاد يرانى أصافحها حتى قال لها وهو يجذبها من ذراعها: "تفضلى فقد تأخرنا جداً".

فابتسمت - وهل كان يسعها إلا ذلك وهى ترى هذا منه فى كل لقاء؟ - فتشجعت وقلت:

"يا أخى حرام عليك!! ما هذا العنف؟ - هذا ذراع غض بض يا سيدى، وليس بعصا شرطى...".

فابتسمت مرة أخرى، فقلت فى سرى هذه علامة الرضى، وإنها والله لراغبة فى البقاء، وتذكرت قول زميلنا القديم: "وفاز بالطيبات الفاتك اللهج" فقلت لهما:

"العجلة من الشيطان يا مولانا.. ومازلنا فى أول الليل، وما يدريك ويدرينى أنها ليست مشتاقة أن تركب معى واحداً من هذه القُطر التى تشبه الترام وتجرى بالكهرباء وتتدافع وتتصادم فتتعالى الصيحات والصرخات وتجلجل الضحكات، وتنشرح الصدور... قومى يا ستى معى أركبك واحداً منها".

فصاح بى وهو يدفع ذراعها أمامها ليمنعها أن تقوم:

"معك؟ تقول معك؟، معك أنت؟، يا خبر أسود!، أنت مجنون؟".

فلم تفزعنى هذه الثورة، لأنى أعرف سببها وباعثها، وقلت له وأنا أبتسم:

"صحتك.. صحتك.. لا تهج هكذا، فإنى أخاف على قلبك.. ألم ينصحك الطبيب بالابتعاد عن كل ما يهيج، أعصابك؟. أقعد.. أقعد ساكناً وأشرب ماءً بارداً حتى نعود إليك.. لن يطول غيابنا عنك.. قومى يا سيدتى.. لا تقلقى عليه.. إنه بخير ما اجتنب ما يورثه اضطراب الأعصاب".

فنهض هو بدلاً منها وقال بلهجة المغيظ المحنق:

"أعصاب؟، قلب؟، طبيب؟، عن أى شىء تتكلم؟، كيف تسمح لنفسك أن تقول إنى مريض بقلبى؟".

فضحكت وقلت: "لا مؤاخذة!، لقد نسيت أن عقلك لا قلبك هو المريض.. على كل حال.. عقلك.. قلبك.. سيان.. والخطأ مردود.. والآن وقد انتهى الخلاف وحسمنا النزاع فيحسن أن ندعك وحدك قليلاً حتى تثوب إليك نفسك الوديعة الرقيقة الكريمة الجمة المروءة ال... ال... ماذا أيضاً يا بارد يا أنانى!؟".

فأرسلتها الفتاة ضحكة مجلجلة تجاوبت نفسى بأصدائها، فصار رنينها فى قلبى لا فى الفضاء، ولكنه قطع عليها الضحك بيمين أقسمها ألا تقوم معى، فوجمتُ وشعرتُ

بقلبى يبكى لها، فقد كان من الواضح أنها تشتهى أن تركب هذا الترام، وقريبى يأباه عليها لأنه يؤثر الاحتشام والتلفع بالوقار، ثم قلت لها:

"لا بأس.. لا بأس.. ما لا يدرك كله لا يُترك كله.. انظرى إلىّ وأنا أركب وسأترك مكانك إلى جانبى فيها خاليًا، ففى وسعك أن تتصورى نفسك جالسة فيه كما سأفعل تمامًا.. وإلى اللقاء القريب، وعسى أن تتمتعى بهذه اللعبة التى ألعبها إكرامًا لسواد عينيك.. أم تراها زرقاوين؟؟ أرنيهما بالله قبل الركوب حتى لا يغلط خيالى..".

فقال قريبى على سبيل التوديع: "اذهب، اذهب ولا تعد!".

فقلت: "يا شيخ حرام عليك! أنا شاب..".

وركبت وحدى احتفاظًا لها بمكانها، وكان يكفى أن أصون لها مكانها فى قلبى، ولكن الوفاء - صانك الله - داءٌ مكتسبٌ، وكان الميدان هادئًا، والراكبون يتحاورون، ويهرب بعضهم من بعض، ويتقون التصادم، وإن كان لا خوف منه، فجريت أنا على نقيض ذلك، وجعلت وكدى أن أصدم الذى يروقنى، وكنت كلما أقبلت بسيارتى على أخرى لأصدمها أصيح براكبيها - وأنا أدفع بقبضة يدى فى الهواء - "بُمم!" فعلا الصخب - كما ينبغى أن يحدث - وكثر الضحك واللغط والصياح والصراخ، وانتهى الدور فنسيت صاحبتى التى تركتها مع قريبى، وشغلنى ما أنا فيه عنها، وألهانى عن ذكرها كما هى عادتى، فإن اللحظة الحاضرة تذهلنى عن كل ما مضى وكل ما عسى أن يجئ، ولعبت دورًا آخر، ثم غيره، وغيره، حتى أضنانى الجهد المتواصل، وابتلت ثيابى من كثرة العرق المتصبب، فتذكرت قريبى وصديقته، وقلت أجلس معهما برهة أستريح فيها وعسى أن يهديه الله ويرفق قلبه القاسى، وعدت إلى حيث تركتهما فإذا بهما قد ذهبا..

أى والله يا ناس!! خطفها قريبى - قريبى لا أحد الغرباء - وطار بها وخلفنى أتلهف عليها وأسخط عليه، وأذم الغدر والخيانة والأنانية والأثرة وألعن أمثاله من

الأقرباء الذين يعمر قلوبهم الحسدُ والحقدُ لا الحب والإخلاص والتعاون على البر والتقوى.

ولمحت صديقنا الدكتور م. فقلت أسلم عليه، وكان حوله سرب من الناعمات اللينات، والمسترسلات الأعطاف، المستغنيات بالجمال عن الزينة، المُبَتَّلاتِ الحسن على الأعضاء فلا ترى لشىء فى أجسامهن الحلوة أوفر من حظه أو أقلّ، فدنوت من إحداهن - وكانت طويلة العنق مسمورةً لا رخوة ولا مترهلة - وقلت لها:

"ماذا يقول لكن دكتورنا الساحر؟، هل لك فى رهانى؟".

قالت: "على أى شىء؟".

قلت: "على أن عينه زائغةٌ وأنه يريد أن يتزوجكن جملة وإن كنتن سبعًا؟".

فضحكت وقالت: "صدقت".

قلت: "هاتى إذًا، وليعوضك الله خيرًا.. واحذرى أن تراهنينى مرة أخرى".

قالت: "ولكنى لم أفعل".

قلت: "بلى.. هاتى!. ما هذه المماطلة؟. إنه خلقٌ لا يليق بمثل هذا الجمال المشرق".

قالت: "أما إن هذا لغريبٌ... والله ما راهنتك".

قلت: "لا فائدة.. تفضلى معى إلى هذا الترام واركبيه بجانبى، فإن ركوبه موصوف لإبراء الذمة".

فضحكت وسألتنى: "ولكن من أنت..".

قلت: "أنا صاحب الدكتور الذى يريد أن يتزوجك على كل هذه الضرائر.. تعالى واكسبى صداقتى لتفوزى به وحدك".

ولحنى الدكتور وأنا أمضى بها فصاح: "اللصّ... اللص.. أدركوه، خطف البنت.. الحقونا يا ناس".

وخفت أن يصدق بعض البلهاء فأقع فى مأزق، فجعلت أصيح مثله: "اللص... أدركوه.. خطف البنية... اجروا وراءه".

وانحدرنا إلى الملعب ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك، وقبل أن يبدأ اللعب وتدور السيارات تآمرت مع زميلتى على الدكتور واتفقنا أن نركبه سيارة وأن نوسعه بعد ذلك صدمًا وخبطًا، فإنا نعرفه يخاف الرجات ويشفق من عواقبها - لا ندرى لماذا - وقد كان، حاولنا إقناعه بالحسنى أولاً فلم يقتنع، فلم يبق إلا أن نحمله قسرًا على الركوب، فجرته أربع فتيات فظل يقاومهن حتى قلت له:

"أظنك استحليت هذا الجرّ.. تفضل يا...".

فكف عن المقاومة استحياء، وقال لى وهو يركب السيارة:

"الله يلعنك يا شيخ.. أخجلتنى والله!".

قلت: "لا عليك يا مولانا.. تفضل وأرنا همتك".

وصدمته صدمتين، ثم تركته لمن هن أولى بذلك، فلما خرج نظر إلىّ وقال:

"وصلتنا منك زقات يا سيدى.. نشكرك".

فقالت له إحدى الفتيات: "لو كنتَ ركبتَ معى يا دكتور؟؟؟..".

فقاطعها وقال: "إذن لكانت الزقات قد كثرت يا ستى.. كلا! الخيرة فى الواقع".

وهكذا ودعنا مدينة الملاهى... فليتها تعود لنودعها مرة أخرى...

البئر التى حفرتها(٩٤)

"من حفر بئرًا لأخيه، وقع فيه".

والصواب "فيها"، ولكن السجعة جنت على البئر وعلىّ أيضًا، فأما على البئر فلأنها ذكرتها وهى - مذ خلقت، أعنى حفرت، مؤنثة، لا أدرى لماذا؟ - وأما علىّ أنا، فلأن الخطأ الذى جر إليه حب السجع بغض إلىّ المثل وصرف قلبى عن حكمته وأنسانيه - أو أنسانيها، كما تشاء أو تشاء لك الحذلقة - جملة وتفصيلاً، وهل صرت أكره السجع والسجاعين إلا من أجل ذلك وما إليه، ولو أنى أردت أن أقص عليك ما جناه السجع علىّ، لما كان لهذا آخر، هذا وغيرى هو الذى يسجع، فكيف لو أنى أنا الذى يفعل ذلك ويتكلف له؟؟ ولكن حكاية واحدة تكفى، فلأجتزئ بها ولأقتصر عليها.

لى قريب - لا يعرفه القارئ، أو على الأصح لا يستطيع أن يعرفه "الآن" بعد أن غيرت له وجهه، أو أصلحته، إذا أردت الدقة فى العبارة، فقد كان لحيانيًا - أعنى عظيم اللحية طويلها وكثها أيضًا، وتستطيع أن تتصور لحيته هذه كيف كانت إذا قلت لك إنها كانت مستطيلة وكان يخيل لى حين أرى طولها واسترسالها وكثرة الشيب فى نواحيها، أنها لوح إردواز أسود، جرى فيه قلم صبى عابث بالتخطيط، وكانت لحيته هذه إذا جلسنا نشرب أو نسمر، تفسد علىّ كل متعة، وتشغلنى عن الحديث والنظر إلى ما عداها، فأكون بسببها حاضرًا كغائب، ومشاهدًا للأمر غير مشاهد، وسامعًا كأصم، وكان منظرها يغرينى بالعبث بها، فأرى يدى تتحرك وهى ترتعش، وأحس بحنين

---

(٩٤) نشرت فى مجلة "مجلتى"، أول مايو ١٩٣٦، (ص٨٧٢-٨٧٨).

أصابعها إلى لمس هذا الشعر الأسمط وفتله، وكان هو يأنس بى، ويرتاح إلىّ، ويؤثر أن يكون معى، ولا يعلم - كما لا أحتاج أن أقول - بما تنازعنى نفسى أن أصنع بلحيته، فضاق صدرى يوماً وقلت له:

"اسمع يا أخى، ألم يأن أن تخرط هذه اللحية؟".

فحملق فى وجهى كالذهول وقال: "إيه؟ أخرطها؟".

قلت: "لا تصح هكذا! نعم تخرطها! أية مصلحة لك فى أن تبدو أسن جداً مما أنت؟ إن الذى يراك يحسبك ابن ثمانين أو تسعين".

فضحك وقال وهو يمسح عليها بكفه: "إنى أحس أنى مازلت فى العشرين من عمرى".

فقلت: "على ذكر ذلك، كم عمرك.. الحقيقى؟".

فسأل: "كم عمرى؟ أولا تعرفه؟".

فصحت به محتداً: "وهل كنت ولدت معك؟".

ثم ابتسمت وقلت: "لقد رأيت إيفون أمس...".

فلمعت عينه، وظهرت أسنانه التى اسودت من ترك التنظيف وكثرة التدخين، واضطربت لحيته، ومضيت فى كلامى فقلت: "سألتنى عنك".

فقال: "صحيح؟؟ وماذا قالت؟ أما والله إنها لظريفة!".

قلت بخبث: "ظريفة جداً... قالت أين جدى؟ ففهمت أنها تعنيك".

فتدلت لحيته على صدره، وانطفأت لمعة عينيه، بل غابت عينه وبعدت جداً فيما بدا لى عن مستوى هذه الغابة التى على وجهه، فلم أرحمه وقلت لأستفزه:

"لقد قلت لها إنك مشغول بتمشيط لحيتك وتسويتها وتخليصها مما علق بها من النخالة وفتات الطعام وما إلى ذلك".

فارتفعت يده إلى لحيته، ولكنه ردها بسرعة، وأقبل عليّ يلعنني، ولما سكنت العاصفة التى هجتها عامداً قلت له:

"اسمع يا صاحبى، لا حياء فى الحق، إذا كنت تكره أن تدعى جداً، وأن تحمل حول وجهك وعلى صدرك هذه المخلاة القذرة التى تلعقها وتسميها لحية، فتعال إلى هذا الحلاق ليزيلها لك بالموس ويرد إليك شبابك الذى تستره وتخنقه بها".

فهم بمقاطعتى فقلت له: "مهلاً يا سيدى، إما أن تنشد السمت والأبهة والجلال، وحينئذ لا يبقى بأس من هذه اللحية، وأما أن تنشد الجمال والسرور والمتعة به وحينئذ ينبغى أن تعفى ربات هذا الجمال من منظرها الكريه المخيف".

ولم أزل به حتى اقتنع، ولكنه أراد أن يتمهل حتى يخبر زوجته، فخفت إذا وكلته لرأيه فى ذلك أن يكر إلى رأس أمره، أو أن تنهاه امرأته، فدفعته دفعًا إلى دكان الحلاق، وكنت زبونه، فهمست فى أذنه "امحها محواً تامًا" وما لا تأخذه الموس، انتفه له بخيطين، واحلق له شاربيه أيضاً .. احتل لذلك".

فهز رأسه أن نعم، وقال قريبى وهو يعقد ويتحسس لحيته، وعينه عليها فى المرآة:

"ألا يحسن أن نكتفى الآن بقصها وتخفيفها، إنك تعلم أنى ألفتها فقد حملتها عشر سنين".

قلت: "ألا تكفيك عشر سنين؟ بل نفرغ منها ومن شرها دفعة واحدة".

وكذلك كان - حلق له لحيته وشاربيه، وقص له شعر رأسه وسواه، وجئته أنا بشىء ينظف به أسنانه ويجلوها، فوقف ينظر إلى نفسه فى المرآة مستغرباً منكراً، كأنما يرى

فى صقالها إنسانًا لا عهد له به، فهنأته بشبابه المسترد، وسحبته إلى قهوة اعتدنا أن نختلف إليها، فلم يعرفه خادمها الرومى، فقلت له:

"أرأيت؟ لقد كانت هذه اللحية كمينا وقع فيه شبابك - أحبولة...".

فضحك فقلت: "إنى منتظر".

فقال مستغربًا: "ماذا؟".

فقلت: "سبحان الله العظيم! ألا تعرف واجبك؟ منتظر أن اسمع منك الشكر الجزيل العميق... فهاته فإنى مصغ، ولكن لا تبالغ فتخجلنى".

فاطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال: "أتظن أن زوجتى تعرفنى الآن؟".

قلت: "آه! هذه هى المسألة، كما يقول هملت، ومن حقك أن تخشى إنكارها، والرأى عندى أن تتقى مفاجأتها، وأن تدعنى أمهد لك عندها".

وهولت عليه حتى رضى أن أقوم بواجب التمهيد، فتركته برهة ودققت التليفون لقريب لنا خبيث، وأوصيته بأداء الواجب على النحو الذى أردته أنا.

***

وقلت لزوجتى: "قومى يا ستى".

قالت: "إلى أين؟".

قلت: "إنى انتظر دعوة تجيئنا إلى العشاء عند قريبنا فلان، فيحسن أن تكونى على استعداد، فالبسى أبرع ثيابك".

فأطالت التفرس فى وجهى، وخفت أن يفضحنى هذا الوجه الذى لا يستطيع أن يكتم شيئًا، فتشاغلت بجريدة ملقاة على كرسى حتى مضت عنى، وجاءت الدعوة كما

قدرت، أو كما دبرت، فخففنا إلى بيت قريبنا، فاستقبلتنا زوجته، بوجه أصفر، وشعر منفوش، وكف بارد من فرط الاضطراب العصبى، فقلت: "كل شىء هادئ؟".

قالت: "لقد حبسته - غافلته وأغلقت عليه الباب، بالمفتاح، كما أشرت، هذا هو".

وناولتنى المفتاح فقلت: "حسن جداً، وسنرى ماذا ينبغى أن نصنع به، والآن اطمئنى، وهاتى الطعام فإنى وحقك جوعان".

وجلسنا إلى السفرة، وهى تشكرنى على حسن تدبيرى، وقصت على زوجتى كيف دخل عليها رجل غريب يزعم أنه زوجها ويحلف بالله أنه هو بعينه، وأنه إنما حلق لحيته ليس إلا... فأدركت أنه المجنون الذى بعثت إليها أحذرها منه وأوصيها باستدراجه وملاطفته حتى تحبسه وتدعونا لنرى رأينا فيه.

فاستغربت زوجتى، وجعلت تنظر إلىّ خلسة، فتبينت من نظرتها وأسئلتها أنها تستريب بشىء، وأنها تعتقد أن للأمر باطناً غير ظاهره، وكان صاحبنا المحبوس يدق على الباب ويضربه بيديه ورجليه أيضاً، ويصيح أن "افتحوا يا بهايم، يا مجانين".

فقلت لزوجته: "السكران يحسب الناس كلهم سكارى، وكذلك المجنون".

فقالت زوجتى: "ألا يمكن أن يكون صادقاً؟".

قلت: "ولا تعرفه زوجته؟ معقول أن يختلف منظر المرء بعد أن يحلق لحيته وشاربيه ولكن غير المعقول أن يتغير صوته أيضاً - فهل تعرفين هذا الصوت؟".

ولم يكن صوته قد تغير، ولكن للإيحاء فعله فى النفوس، وكان هو يصيح من الغيظ والحنق على خلاف عادته والمألوف منه فى بيته، فاختلفت نبرات الصوت، وصار من السهل بعد أن توهمت زوجته أنه رجل غريب، أن تنكر صوته أيضاً، ولاسيما بعد أن بحه الصياح، والعجيب أنها لم تنظر إلى ثيابه، ولو جعلت بالها إليها لشكت فيما

صدقت، ولكن الوهم والدهشة فعلا فعلهما فأزاغا بصرها، وحرماها الهدوء اللازم للتفكير المتزن والحكم السديد.

وقلت: "إن هذا المجنون يوشك أن يكسر الباب، فلنشغله بالحديث".

فوافقنا فقلت: "يا هذا، من أنت؟".

فعرف صوتى وصاح: "أنت جيت؟ افتح بقى!".

فضحكت وقلت: "حتى نعرف من أنت؟".

فقال: "اصنع معروفًا وخل المزح الآن".

قلت: "خل أنت المزح وقل لنا كيف دخلت بيتًا غير بيتك".

فبدأ يحتد ويهيج ويقول: "أقول لك افتح... أما أن هذا لشىء بارد! تحبسوننى فى بيتى؟".

فقلت: "لا أفتح لك قبل أن أعرف من أنت... ولست أعرفك من صوتك فإنه مبحوح لا يشبه صوت قريبنا".

فقال: "مبحوح؟".

وتنحنح، فعل من يريد أن يخلص صوته فقلت: "هات أمارة غير الصوت لنطمئن ونفتح لك، فإن عملك هذا عمل مجنون لا يؤمن".

فقال: "من معك؟".

قلت: "الزوجة المحترمة... أعنى المحبوبة".

فقال: "برافو... اسمع بقى يا حبيبى... تريد أمارة؟؟ سأذكرك بشىء، توقن بعد أن تسمعه أنى أنا صاحب هذا البيت وزوج هذه العمياء المغفلة".

فصحت به: "لا تكن وقحًا... وخير لك أن تكون مؤدبًا".

فقال: "سمعًا وطاعة يا مولاى ومالك رقى بضع دقائق... والآن هل تستطيع أن تكر بالذاكرة إلى ما قبل عشر سنوات... عشر سنوات فقط... ليست مسافة طويلة وإن كانت أطول من زمن زواجك الذى تشعر بطوله وتشكو ثقله... وكنت معك فى قهوة "الحمام" فى الجيزة، فأقبلت فتاة كانت على موعد معك، وأظن اسمها "راشيل"... شقراء.. ذهبية الشعر.. ساجية الطرف.. معتدلة القوام.. تنساب فى مشيتها...".

فقاطعته وقد اصفر وجهى: "إن لك لخيالاً قويًا.. ولم يكن قريبى مثلك".

فقال: "دع راشيل، فقد يكون العهد بها بعيدًا، وأرجع بالذاكرة إلى بضعة أيام، حين أقبلت عليك وأنت جالس مع "سعاد" وقد قلت لى وأنت تعرفنى بها إنها غيرى جدًا لأن لك زوجة، وضحكت وأمرتنى أن أقنعها بأن الزوجة شىء يترك فى البيت مع أثاثه".

فصحت به: "اخرس يا قليل الأدب، يا عديم الحياء! كيف تجرؤ أن ترمينى بهذه التهم الشنيعة؟".

والتفت إلى زوجته وقلت: "افتحى له حتى أهشم له رأسه".

فقالت زوجتى: "لا تثر... دعه يتم كلامه أولاً، ثم افتح له بعد ذلك... ولا تنس أن المفتاح معك".

فزال عنى الغضب، وقلت بهدوء متكلف: "يا ستى، كيف تريدين أن ندعه يتم كلامًا كله أكاذيب تخرب البيوت العامرة؟".

فقالت ببرود: "من أدرانا أن الذى يقوله كذب؟".

فسألتها بسرعة: "أتراك تصدقين هذا المعتوه؟".

فابتسمت وقالت: "أهو معتوه؟".

وكان ما يزعمه كذباً، ولكن الكذب والصدق يستويان مثل هذا الموقف، والمرأة تسرع إلى التصديق ويعز بعد ذلك ردها إلى التكذيب، ولم يحضرنى جواب، وصار الذى يشغلنى هو كيف أخرج (أنا) من هذا المأزق؟.

وأبعدت الطبق، وأشعلت السيجارة، وانطلقت أدخن، فى صمت فقالت زوجتى للسجين: "ألا تحدثنا عن سعاد؟ صفها لنا، فقد شوقتنا إليها".

فلم أقل شيئًا، وماذا عسى أن أقول؟ وتنحنح اللعين وسأل: "ألا تزال مصراً على أنى غريب يدخل بيتًا غير بيته ويدعى أن التى فيه زوجته، إذا كان الشك لا يزال يخالجك، فإن فى وسعى أن أمحوه بطائفة متخيرة من الذكريات المقنعة... فما قولك؟؟".

فتراجعت منهزمًا وقلت: "يا هذا، إن المسألة ليست مسألة ما تخترعه وتسميه ذكريات، ولكنما هى أنى لا أراك، ولا أعرف صوتك المبحوح، فإذا استطعت أن تعدنى أن تتوخى الهدوء إذا أخرجتك، فإنى مستعد أن أفتح لك الباب، ولست أخاف على نفسى منك، ولكن معى سيدتين كما تعلم".

فبذل الوعد وأخرجته.

***

وقالت له زوجتى بعد أن قرت الضجة، وعادت الكراسى إلى مواضعها من المائدة: "ألا تزيدنا من حديث سعاد؟؟ لا بد أنها فاتنة!".

فنظر إلىّ مبتسمًا، ثم التفت إليها وقال: "هذا حديث خرافة، ولكنه كان ضرورياً لنجاتى".

فتشهدت، وخلصت أنفاسى، واستطعت أن أقول: "ألا ترى إنك جاوزت كل حد في الاختراع؟".

فقال: "تفعلها تحلق لى لحيتى وشاربى، وتدبر لى هذه المكيدة فى بيتى ومع زوجتى، وتنتظر بعد ذلك أن أكون لطيفًا مترفقًا بك؟".

فالتفت إلى زوجتى وقلت: "يا امرأة؟ هل سمعت؟".

قالت: "سمعت ووعيت... كل شىء!".

وهكذا خرجت، وقد دارت الدائرة علىّ.

فى ليلة مقرورة[٩٥]

"انفخى النار أو أذكيها فإنى بردان، ولست أجد حرها".

وكان الوقت شتاء، والبرد قارساً، والرياح متداركة الهبوب تقشر الحصى عن وجه الأرض، وتهيج بالغبار نحو السماء كالعامود، ولكن الغرفة كانت دافئة، والنار فى مواقدها تستعر، فعجبت الزوجة، ونظرت من زوجها إلى الموقد، وقالت:

"بردان؟ بردان والغرفة كجهنم؟ لقد ألقيت عليها منذ دقائق خشباً كثيراً لا يزال يقرقع من شدة التلهب، فكيف لا تحسها ولا تسمعها؟ مالك؟ أبك شىء؟".

فهز الرجل رأسه هزة خفيفة، وقال وهو يمد يده: "لا..!! خذى اشعلى لى هذه".

وناولها سيجارة كان يقبلها بين أصابعه، فوضعت طرفها على النار ونفخت فيه حتى صار كالجمرة المتلظية، ووضعتها بين أصابعه وهى تقول: "سأعود إليك قبل أن تفرغ منها".

وخرجت وردت الباب وراءها، فتنهد الرجل وأطرق.. وفرغت السيجارة، وشعر بحرها على أصابعه، فأراد أن يطفئها أو يرمى بها، فمد يده الفارغة يتحسس حتى لمست أصابعه حرف منضدة صغيرة، فأجرى راحته عليها، حتى التقت أنامله المرتعشة بشىء فرفعه إليه يريد أن يتبينه، فانقلب وتحطم، فرد يده بسرعة، وقد تجهم وجهه؛ ثم تنهد، ورفع قدمه وانحنى على الأرض، ووضع السيجارة تحت حذائه.

---

(٩٥) نشرت فى مجلة "الرسالة"، ١١ مايو ١٩٣٦، (ص٧٦٥-٧٦٧).

وكان الذى يراه وهو جالس على الكرسى، ورأسه مثنيٌّ على صدره، خليقًا أن يتوهمه نائمًا من فرط السكون، ولكنه لم يكن نائمًا ولا ذاهلاً؛ وإنما كان مُرهفًا أذنه لحركة الأقدام فى غرفة ابنته، وما عسى أن يتأدى إليه من الأصوات غير ذلك على الرغم من الباب الموصد عليه، وكانت زوجته لا تزال تعود إليه كل بضع دقائق لتطمئن عليه على زعمها، فقد أقلقها عليه قوله إنه بردان فى هذه الغرفة التى يُشتكى حرُّها، ولا يعقل أن يشتكى بردها فكان يبتسم ويقول لها: "لا تخافى علىّ فإنى بخير، ولكن طمئنينى على فردوس، كيف هى الآن، ألا أصعد معك إليها؟".

وكان يعلم أنها أبت ذلك عليه من قبل مرات، فهو على يأس كبير، ولم تكن لجاجته فى الطلب كلما دخلت عليه إلا ليرى كيف يكون جوابها فى كل مرة، وكان يؤكد أنه سيدخل على أطراف أصابعه، ثم لا يتكلم ولا يتحرك ولا يمد يده ليلمس الفتاة، فضاق صدرها بهذا الإلحاح، وقالت له: "إذن لماذا تريد أن تصعد إليها؟؟ أكل مرادك أن تزعجها والسلام؟".

وأسفت لأنها احتدت فانقلبت تعتذر إليه بما تكابده من العناء، وتوزع القلب والجهد بينه وبين ابنتهما، فقبِل اعتذارها، أو لعل الأصح أنه لم يجعل باله إلى ما بدر منها وما ظنت أنه ساءه من حدة اللهجة وقال:

"لا تشغلى نفسك بى، وإذا احتجت إلى شىء فإن فى وسع الخادمة أن تقضيه لى، أليست الممرضة مع فردوس؟ إذن دعى لى الخادمة فهى حسبى إلى أوان النوم".

فأبت عليه حتى الخادمة، وقالت: إن فردوس لا تستغنى عنها، وإن فى وسعه أن يصفق إذا أراد شيئًا فتجئ هى - زوجته - إليه، فترك الإلحاح، وعاد إلى جلسته وإطراقه وسهومه وكفّ حتى عن أن يرفع رأسه - على عادته - حين تدخل زوجته عليه، كأنما لم تعد به حاجة إلى سؤال، أو كأنما لم يعد يعنيه من الأمر كله شىء، وكانت زوجته تقف حياله هنيهة، ثم لا تأنس منه استعداداً لكلام، أو تتوهمه أغفى فتتسلل

راجعة من حيث جاءت، وكأنما اطمأنت أو خشيت أن تزعجه أو توقظه؛ فصارت تترك الباب مواربًا، ولا تكلف نفسها عناء إيصاده - كما كانت تفعل - من قبل اتقاء لما يحدثه ذلك من الصوت.

ومضت ساعة وبعض ساعة، والدنيا أتم ما يكون سكونًا، لولا الرياح العواصف؛ وإذا بالباب يدق دقًا مزعجًا، وإذا بالخادمة تنحدر على السلم، كأنما هى فى سباق، أو كأنما وراءها الذى تهرب منه وتمضى إلى الباب فتفتحه ثم تغلقه، وإذا بالبيت يملأه بكاء وليد يصيح: "واء واء واء" ولا تمضى دقائق حتى يكون كل من فى البيت قد أحاط به ما خلا فردوس المريضة التى لا تستطيع أن تبرح سريرها أو تنهض عنه، ويدخل هذا الجمع الحافل - سيدة البيت والممرضة والخادمة ورجل غريب يحمل بين يديه طفلاً ملفوفًا فى أشياء كثيرة وعلى وجهه شف أرجوانى رقيق جداً.

وتتقدم الزوجة من بعلها وتقول: "ماذا تظن؟ لقد وجد هذا الرجل طفلاً ملفى على مقربة من عتبة البيت! مسكين إنه وليد! ابن ساعة أو ساعتين على الأكثر! وماذا ينبغى يا ترى أن نصنع به؟ لا أستطيع أن نرده إلى حيث كان... ولا أحسبنا نستطيع أن نستبقيه... كلا! هذا أيضًا عسير علينا، ما رأيك؟ أشر كيف تصنع؟".

فيرفع وجهه إلى الناحية التى يجئ منها صوتها ويقول: "المهم الآن إرضاع الطفل - والوقت بعد ذلك فيه متسع للتفكير فى مصيره، فانظرى من ترضعه، ابعثى فى طلب واحدة... اصنعى شيئًا... لا تقفى هكذا".

ولم يكن ثم ما يدعوه أن ينهرها على هذا الوجه، فما كانت قصرت أو تلكأت، ولا كان مضى على دخولها عليه بالطفل إلا مسافة ما ألقت عليه خبر العثور عليه، ولكنه كان ضيق الصدر بما أجن لا بما حدث من التباطؤ، وكان يثقل عليه وجود الرجل ولا يرتاح إلى الحديث على مسمع منه فى أمر هذا الوليد، ورأت زوجته منه هذا النفور، وأحست له سببًا باطنًا غير ظاهره، فقالت:

"صحيح، أين نجد مرضعة يا فاطمة؟ (الخادمة) أتعرفين واحدة قريبة من هنا أو جارة نستعين بها الليلة حتى نهتدى إلى مرضعة صالحة؟ (ونظرت إلى زوجها الذى لا يراها وقالت بسرعة كالمستدركة) أو نرى لنا فى الطفل رأيًا آخر".

فقال الرجل بلهجة السأمان: "ارضعيه أولاً.. اذهبى، فما ندرى كم ساعة له وهو ملقى، وإن كان الذى يبدو لى من سكوته أنه لا يشكو شيئًا وأنه على الأرجح - كما قلت أنت - حديث عهد بالولادة... على كل حال يحسن أن تعنى أن الليلة كعناية الأم".

فانصرفوا عنه، ومضت الليلة بسلام، وجاءوا فى الصباح بمرضعة للطفل، فقد أصر الرجل على اتخاذه وتبنّيه، وكانت زوجته حين رأت منه هذا الإصرار قد راحت تنكر عليه هذا العزم، وتخوفه ما لا بد أن يعانى من جراء وجوده فى البيت، وتنذره الضجات والضوضاء وغير ذلك، فإن الأطفال فى سن الرضاع لا يوقرون كبيراً، ولا يعنون براحة أحد، ولا يبالون ما يكون منهم، ولكن هذا لم يثنه عما صح عليه عزمه.

ومضى عام ثم آخر، وحبا الطفل ومشى، ولم يفتر حنو الرجل عليه، بل صار هو سلوته، فكان يخرج به كل يوم ساعة فى الصباح وأخرى فى المساء، ولم يكن يبعد عن البيت لأنه مكفوف، فكان يتمشى فى الحديقة الواسعة والطفل أمامه فى مركبته الصغيرة، فإذا غادر البيت اكتفى بالطواف حول السور، وكان كلما التقى بفردوس والطفل معه، يتركه لها وينصرف عنها، ولا يبقى معهما فى مكان، وكان ذلك يسر فردوس فى أول الأمر لأنه يسمح لها بأن ترسل نفسها على سجيتها مع الغلام، ولكنه لما تكرر من أبيها، أزعجتها منه دلالة العمد فيه، ولكن ماذا تقول أو تفعل.

وكانت زوجته كثيراً ما تشير فى حديثها معه إلى فردوس وأنه لا يبدو لها خاطب بين الأقرباء والأصدقاء العديدين، فلا يقول الرجل شيئًا، ولكنها أضجرته مرة فقال لها:

"دعيها، ولا تقلقى عليها، فإنى أحسب الطفل سلوة كافية لها".

فسألته زوجته بلهفة: "ماذا تعنى؟ كيف يمكن؟".

فابتسم الرجل وقال: "أعنى أن فى وسعها أن تفيض عليه من أمومتها الكامنة؛ وكفى بهذا الطفل عزاء وسلوة ما دام لا بعل لها".

وطال الأمر، وشق على الزوجة أن الحبائل الكثيرة التى ألقتها لم تقنص أحداً، ونفد صبرها وعجزت عن الكتمان فقالت بشجوها لزوجها، وكان هو أيضاً قد مل هذه الأحاديث التى لا تنتهى فسألها: "هل يسمعنا أحد.. انهضى وانظرى".

ففعلت وعادت فطمأنته فقال: "إذن اسمعى - لقد كنت أوثر أن أظل ساكتًا لا أتكلم، ولكنك أكرهتنى على الكلام، وإنى لضرير ولكن رأسى لم يعطله شىء، فهل تذكرين كيف سافرت ابنتنا وقضت شهوراً عند خالها فى ضيعته؟ إنى ما زلت أذكر ذلك لأنى أعلم أنها لم تكن عنده ولا عند أحد غيره من أقرباء أبيها أو أمها، وإن كنت أجهل أين أقامت كل هذا الزمن.. انتظرى، فلست ألومك، بل أنا على العكس أثنى على حكمتك، وحسنًا صنعتِ، وقد عادت بعد ذلك فجأة وأوت إلى فراشها ساعة وصولها، وظلت مريضة حتى كانت الليلة التى دق علينا فيها الباب، وجاءنا الرجل بهذا الطفل، ومن حسن الحظ أن الرجل لا يعرف شيئًا - ولست أدرى كيف دبرت الأمر، ولكنك على كل حال أحسنت التدبير، ولولا هذه القابلة التى زعمتِها ممرضة لاطمأن قلبى، وأمنت الافتضاح، ولكنها على ما يظهر استطاعت أن تكتم السر فالحمد لله، والآن وقد أحوجتنى إلى الكلام أفلا يحسن بعد ذلك أن تعفينى من حديث الزواج التى لا تملينه؟".

فلم تقل شيئًا حتى سمعته يحدث نفسه ويقول: "مسكينة، مسكينة".

فنهضت وسألته: "أتعطف عليها".

فأشار بيده إشارة من يريد أن تذهب عنه وهو يقول: "بلهاء".

ولم يدر بينهما بعد ذلك كلام فى الموضوع.

تجربة[٩٦]

ماذا ترى يصنع رجل يعشق للمرة الأولى فى حياة صاخبة مضطربة، ولكنها على كثرة ما جرب فيها خلت من الحب ونجت من زلزلته للنفس؟؟

من هذا كان يسأل "ميم" - وحسبنا من اسمه حرف واحد - وهو جالس إلى مكتبه، والفتاة التى يحبها قبالته على الشرفة، والجديد من الأمر يتطلب جديداً من التصرف والتدبير، ولو كانت له خبرة بالحب، أو سبق له به عهد، لقاس حاضره على ماضيه، وأجراه فى مجاريه، وغريب أن يتقضى شبابه وهو فارغ القلب، وأن يدركه الحب ويعمر فؤاده بعد أن شارف الكهولة ووقف على بابها، وأخذ الأبيض يختلط بالأسود، وبدأ الزمن يرسم خطوطه!! وإن كان هو لا يحس شيئًا من ذلك ولا يباليه، ولا يعرف إلا أنه ما زال فى عنفوان الفتوة.

وألقى القلم واضطجع وقال يناجى نفسه، وهو يضحك ساخرًا: "هل أصنع كما يصنعون فى هذه الروايات الكثيرة التى قرأتها، وعلى ذكر ذلك - ماذا ترى أبطال هذه الروايات يصنعون فى حالات كهذه؟ لقد نسيت والله؛ فكأنى ما قرأتها ولا وقعت عينى عليها... وهبنى كنت أذكر ذلك فهل يصح فى دنيا الحقيقة ما يصف الخيال؟".

واستطرد من هذا إلى القول بإن الروايات ليست - ولا يمكن أن تكون - خيالاً بحتًا، وشيئًا يخلقه الإنسان من لا شىء، ولا يحور فيه على أصل من حقائق الحياة،

---

(٩٦) نشرت فى مجلة "الرسالة"، ٢٥ مايو ١٩٣٦، (ص٨٤٥-٨٤٧).

وأنكر قدرة الإنسان على هذا الخلق، وذهب إلى أن كل ما يسعه هذه أن يلفق القصة من جملة ما شهد وجرب وسمع، وأن يكوّن الشخصيات من أشتات ما عرف، فليست القصص خيالاً، ولا ما تصفه محالاً، وإذن يكون تقليدها ميسوراً... أو دع كونه ميسوراً أو غير ميسور، وقل إنه لا يكون شططاً.

"ولكن القصص يعنى فيها واضعها بترتيب الأحوال والمواقف على النحو الذى يؤثره هو، والذى يراه أوفق لغايته، ومن عسى يرتب لى دنياى كما يرتب مؤلف القصة دنيا أبطاله؟؟ أم أستشير صديقًا مجربًا؟؟ ولكن هذا مخجل! ثم إن العبرة بنوع استجابة الفرد لوقع الحياة فى نفسه؛ والاستجابة تختلف باختلاف الأفراد، والذى يفعله إنسان ما، فى موقف ما، ليس من الحتم – ولا من المعقول – أن يفعله كل إنسان فى الموقف عينه.

فالاستشارات عبث ولا خير فيها، ولا جدوى منها إلا الفضيحة... الفضيحة؟؟ نعم، أليس فضيحة أن تفتح قلبك لمخلوق غيرك، وأن تبيحه سرك، وتكشف له عن ضعفك، وتدع عينه ترى مقاتلك؟؟ ولكن هل معنى هذا أن الحب ضعف؟؟ نعم، لأن فيه إفناء شخصية فى أخرى – إلى حد ما على الأقل – ولم أكن هكذا قبل أن أبتلى بهذا الحب، وأنى الآن لأرى حياتى كلها رهنًا بمخلوق آخر لا أعرفه ولا يعرفنى... فكيف لا يكون هذا ضعفًا؟؟

وعلى ذكر ذلك من تكون هذه المحبوبة التى غيرتنى وأورثتنى هذه الهواجس والوساوس؟؟ وجعلت من نفسها المجهولة قطبًا تدور عليه خواطرى جميعًا فى اليقظة والمنام؟...

واستغرب من نفسه أنه لا يعرفها، وأنه مع ذلك لا يعنى بسواها، فى حى يعرف من إحصاء البوليس أن فيه مائتى قهوة ومائة وعشرين ألف نفس، أى دائرتين انتخابيتين، "ولو مات أهل الحى لما حزن عليهم، ولا أسى لهم، ولا أحس نقصًا أو

خسارة، ولا أسف إلا على خلو الحى وخرابه وقعوده هو فيه وحده على تله! ولكنه لو علم أن هذه الفتاة جرح أصبعها أو أصابها زكام، أو وعك، لبات مسهد القلب كاسف البال، بل لاسودت الدنيا فى وجهه - ومع ذلك لا يعرفها!! لا اسمها.. ولا دينها.. ولا شيئًا عن قومها... وكل ما يعرف هو أنه يراها من نافذة غرفته وهو جالس إلى مكتبه يقرأ أو يكتب... وأنه أِلفَ أن يبصرها، وصار على الأيام يطيل النظر إليها وهى واقفة على الشرفة العالية، حتى اعتاد أن يراها على الأيام، وحتى سارت نفسه تستوحش إذا دخلت أو غابت، وجعل يلاحظها بعد ذلك فأدهشه منها أنها لا تكاد تغادر بيتها، فما رآها خارجة إلا مرة واحدة فى شهور طويلة - مع أمها فقد كانت أمها بلا شك - وهى مع ذلك من السافرات!! وزاد دهشته أنه كان يراها فى الأغلب جالسة فى الشرفة وفى يدها كتاب.. كتاب لا مجلة!! ترى أى كتاب أو كتب تقرأ؟؟ لا شك أنها روايات.. وهل للفتيات صبر على غير ذلك؟؟ وللسن حكمها... وسنها الصغيرة تغريها ولا شك بإيثار القصص والروايات لأن حياتها جديدة فهى تروم أن تعرفها معرفتها، وتظن أن الروايات أخصر الطرق وأوجزها إلى هذه المعرفة... ثم إن الروايات تصف كل هو ما هو حبيب إلى الشباب وقريب من هواه.

وصار يأنس بمنظرها، ويرتاح إذا بدت لناظره، ويشعر بالفراغ حوله - وفى نفسه - إذا خلا مكانها، أو لم تظهر على الشرفة أو من النافذة، وأدهى من ذلك أنه صار يحس من نفسه العجز عن العمل والتفكير إذا لم تأخذها عينه فى محلها المألوف من الشرفة.

واستحيا أن يسأل عنها جاراً، أو خادمًا أو أحداً من الناس - وماذا عسى أن يقول لهؤلاء؟... وبأى شىء يسوغ السؤال؟؟

وفرك عينيه بأصابعه، وهو يدير هذا كله فى نفسه، ثم أطبق جفونه وراح يحاول أن يحضرها لذهنه، كما تبدو له من النافذة أو الشرفة المألوفة، فلم يجد عناء فى ذلك، فقد كانت الصورة مطبوعة على صدره... وذكر قول العقاد فى قصيدة مرقصة له:

ذهبيّ الشعر ساجي الـ طرف حلو اللفتات

فأما أنها ذهبية الشعر فنعم! وأما أنها ساجية الطرف فلا.. فإن في نظرتها - حتى على هذا البعد - لقوة، وإن كان لم ير أحلى من نظرتها ولا أسحر للب حين تبتسم، ويشرق وجهها الواضح الصبيح، وإنه ليراها الآن كما كانت يوم ضحكت وتثنت، وكانت معها أختها - لا بد أن تكون هذه أختها الكبرى فإن فيها منها مشابه، والأرجح أنها متزوجة فإنها لا تزور هذا البيت إلا غبّا - وتالله ما كان أحلاها يومئذ!! لقد كانت في ثوب وردي اللون محبوك، مفصل على قدها تفصيلاً يجلو محاسنها كلها ويعرض مفاتنها جميعًا... وكان نحرها يضيء - وثدياها الناهدان يبدوان من تحت الثوب بارزيْ الحلمتين... إنه ما أعظم فتنة هذا الجسم الغض الجديد الذي لم تبتذله السن، ولم يرهله الزواج... وكان شعرها الوحف الأثيث الناعم اللامع مرخى... وكان الضوء المراق عليه يخيل للناظر أن فيه نجوماً زهرا، أبهى وأسنى من نجوم السماء... وكان وجهها الدقيق المعارف... (يا ويلي من هذا الفم الذي لم يعرف الأصباغ، وهو مع ذلك يبدو لي كأنما غَذَتْهُ الورودُ) متهللاً، وقد لانت نظرتها القوية، وفقدت حدتها المألوفة، واعتاضت منها الرقة، وبدا خداها كأنهما غلالتا ورد... آه... ماذا يقول هذا الشاعر مهيار؟؟

آه على الرقة في خدودها لو أنها تسرى إلى فؤادها!!

صحيح... وليت من يدري كيف فؤاد هذه الفتاة الرائعة الرقيقة الخدين اللينة النظرة حين يسرها شيء... أرقيق هو يا ترى كخديها؟؟ أم... كلا!! لا يمكن أن يكون إلا رقيقًا! ولكن لماذا؟؟ على كل حال لا يزال أوان السؤال بعيداً.. أوه بعيداً جداً.. وما حاجتي إلى الاطمئنان من هذه الناحية، ولا صلة هناك، ولا كلام، ولا حتى إشارة؟؟.

وقام يتمشى في الغرفة الواسعة المكظوظة بالرفوف والمقاعد وغير ذلك، وحدثته نفسه - وهي تعابثه - أن يركب الحياة بما يركبها به الشباب، فضحك وقال.. لم يكن

باقيًا إلا هذا.. أمسح لها شعرى بكفى... أو أعبث على مرأى منها بوردة أرجوانية "كتفاح خدها الأرجوانى" كما يقول البحترى!! أو أبعث إليها مع النسيم بقبلة... أو هو هو هو!!

وقهقه وهو يتخيل نفسه فاعلاً ما يفعل الشبان والأحداث، ثم أشعل سيجارة وارتمى على مقعد وثير وسأل نفسه: "أتراني أحتقر الشبان وأسخر مما يصنعون؟؟، وماذا أرى الحكمة والاتزان والوقار والاحتشام أجدانى؟... أو يمكن أن يجدينى؟.. هه؟ ومع ذلك لم لا أفعل كما يفعل الشبان... أتراني هرمت! كلا! فما جاوزت السابعة والثلاثين، وإن كان الكثير من شعرى قد حال لونه، وإنى لأقوى وأعظم جلداً على الحياة والكفاح من ابن عشرين.. ولكنها عادة الاحتشام - قبحها الله!.

ولم يرقه أن يقطع نفسه حسرات هكذا، فقال... لماذا أرخى لنفسى الطِوَلَ... وهى؟؟ أكبر الظن أنها لا ترانى، ولا تعبأ بى إذا رأتنى، ولا يرد ذكرى على بالها، وإن كنت أراها أول ما يجرى بخاطرى فى الصباح، وآخر شىء يجريه خاطرى بالليل.. أفلا يحسن أن أكبح نفسى عن هوى عقيم؟؟ ولكن لماذا أدع العاطفة تستنفد نفسها.. لا مانع فيما أرى، لو أن من الممكن أن تستنفد نفسها.... وهبها يمكن أن تفعل، فإنى أخشى أن تورثنى حسرات كثيرة... ولهفات ثقيلة... الأرجح مع ذلك أن تعمق العاطفة فى النفس وإن كان لا مدد لها من المحبوب، فإن فيها - بمجردها - للذة تترك المرء كالجمل حين يجتر ما فى جوفه ويعيد مضغه مرة وأخرى... وهل قتل المجنون وأمثاله من صرعى الهوى إلا هذه اللذة التى كانوا يجدونها فى حبهم والتى كانت تغريهم بأن يجعلوا لها غذاء ومدداً من نفوسهم؟...

وابتسم وهو يقول.. لست أحب أن أكون أحد هؤلاء المجانين الذين أتلفهم الحب وقتلهم العشق... فقد كانوا حقيقة مجانين... ولكن ليتنى أعرف حيلة!! والبلاء أن حياة المجتمع ما زالت كما كانت، وإن كان النساء قد سفرن! ومن النادر جداً على الرغم من هذا السفور أن يتيسر التعارف فى مجتمعات مختلطة، إذن لهان الأمر وأمكن السعى.

وقال وهو يضحك "لم يبق إلا السحر" ثم عبس ونهض وقال لنفسه إن التعبير بالسحر فيه تجوز كثير، ولكن فى الوسع تغليب إرادة على إرادة، وأداء رسالة من نفس إلى نفس أخرى.. أعنى أن الإيحاء حقيقة ثابتة لا شك فيها - نعم لا شك فيها إلا جاهل - وفى مقدورى ولا ريب أن أوحى إلى هذه الفتاة العاطفة التى تخامر نفسى، وأن أبلّغها رسالة قلبى، وأن أوقد فى صدرها نارًا كالتى تستعر فى قلبى... أفعل كل ذلك بعينى... ألست قد أنمت مرة خادمًا كان عندى وأمرته ألا يستيقظ إلا بعد صلاة الجمعة؟؟ ألست قد جربت فعل نظرتى فى نساء كثيرات؟ ألم تصح إحداهن وقد أطلت التحديق فى عينيها "حول عينك عنى، فإنى لا أطيق نظرتها وأحس أن رأسى يدور" ألم تصرخ إحدى قريباتى دون أن تحول عينها عنى، لأنى كنت أحدق فى عينيها على غير قصد؟ فهذه قوة مجرّبة... قوة نفسية لا شك فيها.. وما أظن إلا أنى قادر على أن أوحى إليها الحبَّ.. وكل شىء بعد ذلك يهون... نعم إن بيننا لبعداً... ولكن ما قيمة هذا؟؟ إنها موجة نفسية أرسلها إليها، لا شرارة قصيرة... ولماذا يمكن إرسال موجة من آخر الدنيا، ولا يسهل إرسالها مسافة ثلاثين أو أربعين مترًا؟؟

واقتنع بأن ذلك ميسور، فانشرح صدره، وأشرق وجهه، واعتزم أن يجرى هذه التجربة.

وسأبلغ القارئ ما يكون - إذا كان شىء.

من ذكريات الحداثة

الطب قديمًا[٩٧]

أجار الله القراء الكرام من المغص - الكلوى منه والمعوى وغيرهما إن كان هناك ضروب أخرى لا أعرفها، وعسى ألا أعرف من صنوف هذه البلايا فوق ما عرفت، ولم أكن حينما عانيته أول مرة أدرى أن هذا هو المغص، وأنَّى لى أن أعرف ولا خبرة لى ولا تجربة ولا علم؟ وكنت يومئذ حدثًا لم أبلغ بعد مبالغ الرجال، ولا أحتاج أن أقول إنى كنت فقيرًا، فقد تكلفت المقادير - أو على الأصح تكفل أخ لى - بإفقارى بلا موجب أو حكمة، ولو أبقى لى شيئا أنعم به مما خلف أبونا لما ساءنى ذلك، وماذا كان يخسر لو أنه كان قد حفظ لى بعض ما بدد وحسبه أو عده ضاع فى جملة ما أضاع وبعثر؟؟ على أن هذا حديث آخر ليس هذا وقته، وما سقت الإشارة إليه لأنى آسف أو ناقم ساخط، فما أعرفنى أسفت أو ندمت أو نقمت على شيء فات ومضى زمنه، وصار لا جدوى من ذكره إلا الحسرة واللهفة، ومن كان يجد فى هاتين لذة فإنى أسأل الله أن يضاعف حظه منهما!

وأعود إلى المغص لعنه الله ولا ابتلانى به مرة أخرى، وكنت كما أسلفت تلميذًا صغيرًا، ولم يكن الأطباء فى ذلك الوقت قد كثروا، وقلما كان الناس يلجأون إليهم إذا خرجت بهم الحال عن حد الصحة، ولم يكن يعرف الأطباء إلا الأمراء ومن هم فى

---

(٩٧) نشرت فى مجلة "مجلتى"، أول يونيه ١٩٣٦، (ص٣١-٣٥).

حكمهم من أهل الميسرة، وكانت كثرة الأطباء من الأجانب، وكان الالتجاء إلى الطبيب فى نظر العامة مرادفًا للتهيؤ للموت ونذيرًا بقرب الأجل ودنو المنية، وكنا إذا سمعنا بأن واحدًا عاده طبيب كان ذلك إيذانا بأنه ميئوس منه، ما لم يلطف الله به، فلا غرابة إذا كان مثلى لم يفكر فى طبيب وإن كان يتعلم فى المدارس، وكان الناس إذا شعروا بالحاجة إلى دواء استشاروا الصيدلى - هذا فى الأحياء الراقية أما فيما هو دونها فقد كان الحلاق هو الطبيب والجراح كما لا يزال فى بعض القرى إلى يومنا هذا.

ولكنى لم أكن أعرف حتى الصيدلى، وحيرنى وأزعجنى ما عرانى، وخفت على نفسى، وخيل لى أنى لا محالة هالك وأبيت أن أصدق أن الذى أصابنى هو المغص، فقد كان الوجع فى بطنى فوق ما أحتمل، وكنت أحس أن أمعائى تتلوى وتتقطع، ولا أشك فى أن فى جوفى سكينًا تفعل ذلك، وكان الوجع يفتر حينا فترتد إلىّ الروح وتخلص أنفاسى، ويبدو لى أنى شفيت، ولا يكاد هذا الخاطر يدور فى نفسى وأهم بالقيام وترك الفراش، حتى يعاودنى الكرب فيطير عقلى، ويصفر وجهى، وتسرع أنفاسى، وأحس أن روحى ستزهق.

وزارنى قريب لى فى مثل سنى فقلت إنى لا أريد أن أرى أحدًا، وخجلت أن يبصرنى - وإن كان قريبى - وأنا أتلوى وأصرخ، وأستنجد، وأنفخ، وأبكى، وأدس اللحاف فى بطنى، والفوطة فى فمى، وأعض المخدة أو أرمى بها، وإن كان لا ذنب لها، ولكن أهلى أصروا أن أستقبله واستقبحوا أن يجئ ولا يرانى، وزعموا أن وجوده يسلينى ويرفعه عنى، ويذهلنى عما أكابد، وقد يفتح الله عليه بنكتة أو قصة طريفة فأضحك ويزول عنى الكرب، فقلت أمرى إلى الله - هاتوه والسلام.

فلما دخل جلس كأنه فى مأتم، وجعل يمصمص شفتيه، ويهز رأسه ويقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم الطف به وارحمه" ففزعت ووقع فى روعى أنى لا محالة ميت، فأخرج منديلاً وراح يمسح به العرق، وكان الوقت صيفًا والحر شديدًا، والغرفة كالمحبس، وقد أبى أهلى أن ينقلونى منها خوفًا على من الهواء، وتوهمًا منهم أن

الحبس فى هذا المخزن أجلب الشفاء السريع، ثم نهض وخرج ويده بالمنديل على وجهه فظننته يبكى فجزعت وتحسرت على نفسى وشبابى.

وغاب غير قليل ثم رجع يصيح "يا ساتر" ففهمنا أن معه رجلاً غريباً، وأخلى الطريق ودخل القريب مع الغريب، وإذا به - أعنى الغريب - شيخ معمم فى قفطان باهت، وجبة حائلة اللون وحذاء شامى - كما كان يسمى - أى أصفر اللون فاقعه جداً.

وقال قريبى وهو يضع له كرسياً إلى جانب السرير "تفضل يا عم الشيخ على" فقال عم الشيخ على وهو يميل رأسه يمنة ويسرة كأنما يجرب قدرته على تحريكه "باسم الله الرحمن الرحيم.. توكلنا على الله".

فجعلت أنظر إلى هذا الغريب - ومنه إلى قريبى - مستغرباً، وكان الألم الذى أجده فى أحشائى قد خف شيئًا، فوسعنى أن أنظر وأتأمل وأعجب، وسمعت قريبى يقول لصاحبه "شف لك طريقة فيه بقى يا عم الشيخ على، الله يجعل البركة فى يديك".

فقال الرجل وهو يحرك رأسه على نحو ما وصفت - وأنا نفسى تحدثنى بأن أنهض عن الفراش لأثبته له مخافة أن ينخلع "باسم الله.. توكلنا على الله الفاتحة إن ربنا يمن عليه بالشفاء... بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين...".

وقرأ هو وقريبى الفاتحة إلى آخرها وأنا أنظر إليهما وأحرك شفتى كأنى أقرأ معهما، ثم أدنى الرجل كرسيه منى وقال بعد أن تمتم وغمغم بكلام لم أتبينه "أخرج لسانك قليلاً يا سيدى".

فأخرجت له لسانى كما طلب، فحدق فيه وهو مقطب ثم تناول يدى وراح يبحث فيها عن نبض يجسه، ويظهر أنه عثر عليه فقد ظل قابضًا على يدى برهة وهو ينظر إلى الحائط كأنه ينصت أو يتسمع، ثم ترك يدى وهو يقول "لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله، افتح صدرك يا بنى".

فلم أفهم كيف أفتح له صدرى فكرر الطلب، ومد يده فقط الأزرار ونحى الثياب عن صدرى وعراه، ومسح عليه بكفه ثم وضع أذنه عليه ولبث زمنًا يتسمع ثم رفع رأسه وهو يزوم، فمال قريبى على أذنى ليهمس فيها وقال بصوت يسمعه من الجمالية الواقف فى المحطة "عم الشيخ على رجل مبروك" فأحسست أن أذنى قد تمزقت، وشق علىّ ذلك، فذكرت لقريبى رأيى فيه، فرد على بألفاظ كألفاظى - صريحة لا لبس فيها ولا إبهام - ولم أقصر فى الجواب فعلت الضجة واشتدت الضوضاء، والرجل الغريب ساكت لا يقول شيئًا حتى سمعنا نقرًا على الباب فسكتنا.

والتفت قريبى إلى الرجل وقال: "ما رأيك بقى يا عم الشيخ على؟".

وقال عم الشيخ على: "المسألة بسيطة، يا بنى، ولكنها تحتاج إلى زمن... مسكين!".

فذعرت وسألته: "لماذا، ماذا بى؟".

فقال الرجل وهو مطرق: "لا شىء... لا خوف... لا خوف.. بس القلب انتقل من موضعه... تحرك قليلا إلى تحت".

فصحت ويدى على قلبى وأنا أنهض: "يا خبر أسود؟".

فردنى الرجل بيده وقال: "لا ينبغى أن تتحرك مرة أخرى وإلا.. وإلا..".

فقال قريبى: "وإلا مات.. طبعًا".

ثم قال الرجل: "لا بأس.. لا خوف، هات لى قليلاً من الماء الساخن"

فنهض قريبى ليجيئه بما طلب، فصب عليه ماء باردًا وجسه بإصبعه ثم التفت إلىّ وقال لى "قم" فقمت واستويت فى الفراش فقال "اشرب هذا" فقلت "إيه؟ أشرب ماء دافئًا؟.. لا.. أبدًا.. لا يمكن".

فأشار إلى قريبى فنهض هذا ووقف من خلفى وقبض على ذراعى، وتناول الرجل الماء وصبه لى فى حلقى - أو على الأقل هذا ما حاول أن يصنع، ولكن الحقيقة أن أكثره سال على صدرى وبل ثيابى، فلما خلصت أنفاسى ثارت لنفسى من قريبى بكلام لا يحتمل التأويل.

وقال الرجل: "سأنهض الآن وأعود فى المساء لأرى كيف يكون حاله، وسأجيئه معى بشىء من الدواء... ولكن المهم ألا يتحرك، والله يساعدنا على إرجاع القلب على موضعه".

فدنا منى قريبى وقال: "هات خمسة قروش".

فصحت به: "خمسة قروش؟، من أين؟، أنت مجنون!".

قال: "لا بد.. إنها ثمن العلاج.. أسرع".

فقلت: "ولكن من أين أجئ لك بخمسة قروش؟ هل أسرق؟ وممن؟".

فلوح بذارعه وخرج، وما لبث أن عاد بخمسة قروش - قطعة واحدة براقة - ودسها فى يد الشيخ على.. فخرج وهو يتمتم.

وعاد الرجل فى المساء كما وعد، ولم يعد إلى الفحص، ولكنه أخرج من جيبه حُقًا فيه مادة بيضاء كالملح، لف منها قليلاً فى ورقة سيجارة، ودعا بماء وقال افتح فمك، ودس الورقة فى حلقى وجرعنيها بالماء فكدت أختنق وجشأت نفسى واضطربت من سوء الطعم.

وأخذ فى هذه المرة خمسة قروش أخرى وقرشًا ثمنًا لهذا الدواء الشنيع ووعد أن يعد فى الصباح، فقلت لنفسى "هذا خراب! ومن أين أجيئه كل صباح وكل مساء بخمسة قروش؟ يجب أن أشفى أو أن أتظاهر بالشفاء".

وجاء فى الصباح فبشرنى بأن القلب كف عن الانتقال من موضعه، ولكنه يحتاج إلى بضعة أيام أخرى من الراحة والعلاج ليعود إلى مكانه، ويظهر أنه كان يعرف حركة قلبى من النظر إلى وجهى، ومن تأمل جفونى، وفحص أهداب عينى، فما كشف عن صدرى بعد المرة الأولى، ولا عاد إلى التسمع بعدها.

واتفق يوماً أن زارنا قريب لنا - من أبناء عمومتى كان طبيباً فى الجيش، فألفانى راقداً، فسألنى ماذا بى، فقالت أمى: "كما ترى - له بضعة أيام وهو هكذا".

وكنت قد كتمت عن أمى أن قلبى قد خرج من موضعه حتى لا أزعجها أو أفزعها، فلم تكن تدرى سوى أنى مريض وأنى تحت العلاج - كما يقولون - وعبثاً حاولت أن تعرف الحقيقة من قريبى، فقد أوصاه الشيخ علىّ بالكتمان حتى يتم الشفاء، وألح عليه ألا يذكر أنه يتولى علاجى، فلما جاء قريبنا الطبيب وسألنى لم أستطع أن أكتمه الحقيقة، فأسررت بها إليه فى أذنه، فما راعنى إلا أنه كان يقع على الأرض من الضحك.

وفحصنى ثم أمرنى أن أنهض فليس بى شىء، وأوصانى إذا عاد الشيخ على أن أذهب به على البوليس.

ولكنى فعلت خيراً من هذا - اتفقت مع قريبى الذى رمانى بالشيخ على - على ما ينبغى أن نصنع، فلما جاء الشيخ على وجد جيشاً من الصبية، فأغلقنا الباب وضربناه علقة واستعدنا منه نصف ما بزنا - فقد كان هذا كل ما معه - على أن يرد إلينا الباقى فيما بعد، ولا أحتاج أن أقول إنا لم نر الشيخ علىّ بعدها، فلا يزال النصف الآخر باقياً فى ذمته، فإن كان على قيد الحياة فليرده إلينا وإلا فهذا بلاغ للبوليس.

من صور الحياة

بين صديقين[٩٨]

"إلى أين؟"

فلم تلتفت إليه الفتاة، ولم توله ذرة من العناية، وكان هو ممن يصده عن اللجاجة أيسر الانصراف أو أضأل بوادر الفشل، ولكن شيئًا فى نظرة الفتاة حين مرت به – وهو واقف على الرصيف ينتظر صاحبه الذى ذهب يشترى سجاير – أوقع فى روعه أن لعلها لم تسمع، فأهمل صاحبه ومضى فى أثرها بخطى واسعة حتى أدركها ثم قال: "لم لا تردين تحية الأصدقاء، ماذا بك؟".

وكانت هذه جرأة منه، فما كان يعرفها، ولا رآها قبل اليوم، فنظرت إليه شيئًا وقطبت ثم هزت رأسها وقالت: "لا أذكر... على كل حال... بونسوار..."

فقال: "أشكرك، والآن إلى أين... إن معى سيارتى، ومن بواعث سرورى أن تشرفينى بالركوب فيها إلى حيث تشائين".

فهزت رأسها مرة أخرى وقالت: "كلا... وأشكرك".

فألح عليها وأخذ يقنعها بأن رفضها لا مسوغ له، وأنه يجب أن تثق بنفسها فإنه لن يأكلها، وكانت – وهو يكلمها – تنظر إلى بنت صغيرة على مسافة متر أو نحو ذلك،

---

(٩٨) نشرت فى مجلة "مجلتى"، ١٥ يونيه ١٩٣٦، (ص١٠٧-١١٠).

فحول عينه إليها فإذا بالبنت كتلة صغيرة من الدمامة فى ثياب رثة، فخفق قلبه خفقة العطف والمرثية، والدمامة تحتمل - ولا تكاد تضير - إذا كان الإنسان رجلاً، وقد يعوضه الله منها قوة أو ذكاء أو غير ذلك، ولكن البنت الدميمة الفقيرة أى عوض لها هناك؟؟ والتفت إلى الفتاة وقال: "معك؟"

فأشارت برأسها أن نعم، فقال: "هذا أحسن... ولا داعى للتردد الآن".

فقالت: "ولكنى متعبة!!".

فضحك وقال: "يا لمنطق النساء!! تفضلى يا ستى ولا تخافى... أو انتظرى هنا حتى أجئ بالسيارة".

وعاد بالسيارة، فألفى صديقه يعدو إليه، ففتح الباب وقال: "اركبوا".

وكان صديقه قد وقف يلهث ويحتج بكلام متقطع على عدم انتظاره، فترددت الفتاة فقال: "هذا صديق... أدخلى ودعيه يحتج كما يشاء، أو يختصر الأمر ويركب إذا أراد....".

وركبوا جميعًا - الصديق - داود - والبنت الصغيرة على المقعد الخلفى، وصاحب السيارة والفتاة على المقعد الأمامى، وكان الجو راكداً، والحر شديداً، فسألها: "هل عندك مانع من جولة قصيرة فى الهواء الطلق، إذا كان هناك هواء طلق فى مثل هذه الليلة؟".

فقالت: "كلا" ولكنى أرجو أن تسمح لى بخلع حذائى، فقد ورمت قدمى من كثرة المشى".

فقال مستغرباً: "ومع ذلك كنت تأبين أن تركبى!".

فحدثته أنها تعمل فى محل خيَّاطة مشهورة، وأنها تتقاضى فى اليوم سبعة قروش - وقد تكون هذه مبالغة - وأنها كُلفت أن تشترى لأحدى الزباين مترين من (الستان)

فحفيت قدماها، ولم تعثر على اللون المطلوب، فضاق صدرها، وانهدت قوتها، حتى لهمت ساعة كلمها بأن تشتمه أو تضربه، ثم ضحكت وقالت: "سامحنى... لقد كان هذا الخاطر وقاحة".

فعجب وقال: "هذا أغرب ما سمعت فى باب الاعتذار!! أينا الذى ينبغى أن يسامح الآخر؟؟ أنا الذى تصديت لك، واعتديت على حريتك، وأثقلت عليك بالفضول والتطفل؟؟ أم أنت التى وسعت صدرك واحتملت منى هذه السماجة؟؟".

وبلغوا مكانًا فى "الهواء الطلق" فجلسوا فيه يسمرون ويضحكون، ويتعارفون، حتى يئسوا من تحول الهواء من الركود الخانق إلى الطلاقة المنعشة، فقال: "هذه ليلة كان ينبغى ألا ينقصها من أسباب السعادة شىء، ولكن الهواء يأبى أن يتحرك، ولست أحب أن أقرن ذكرى التقائى بك بهذا الركود، فإذا أمكن أن نتقابل مرة أخرى....".

فلم تر مانعًا، واتفقا على اللقاء فى اليوم التالى، ونهضوا جميعًا ليعودوا من حيث أتوا، فاغتنم داود فرصة اشتغال صديقه بأداء الحساب، وأسر شيئًا إلى الفتاة، ثم ركبوا وانطلقوا راجعين.

وقالت الفتاة وهى تنزل أمام دارها: "غدا الساعة السادسة... أليس كذلك؟".

قال: "إن شاء الله... وعسى ألا تنسى أو تتأخرى".

وكان قد نزل من السيارة لتوديعها، فقالت له: "داود يريد مقابلتى بعد غد... فبماذا تشير؟".

فابتسم وقال: "هل أصبحت وصيًا عليك بهذه السرعة؟؟ ولم لا؟؟".

وافترقا وأن لا بد أن يذهب بداود على بيته أيضًا، فلما بلغاه سأله داود: "ستقابلها غدا؟".

قال: "نعم، وأنت؟".

قال: "أنا؟ لا!".

قال: "آه... نسيت... بعد غد... أليس كذلك؟".

فأظهر داود الدهشة وقال: "بعد غد؟؟ من قال ذلك؟ أبدًا".

قال: "يا صاحبى، ما هذا الحرص على الكتمان؟ أو ما حكمته؟؟ أتظن أنه يعنينى أن تقابلها أو لا تقابلها؟".

قال داود بلهجة التأكيد: "ولكن ليس هناك موعد".

قال: "هى أخبرتنى".

قال داود: "ولكنى لا أكذب".

قال: "صادق... والآن أستودعك الله".

وكان داود يعرف من صاحبه أنه يكره الكذب ويمقت الكذابين، ويعد ذلك جبنًا وسخفًا وحالاً لا تليق بالرجال، فلما كان الصباح دق داود التليفون لصاحبه يعتذر له ويستغفره ويقول إنه لا يدرى أى سبب أغراه البارحة على الكذب، ويلح فى طلب الصفح، فأجابه إلى سؤله، ولكنه انتوى أن يلقى عليه درسًا.

وقابل الفتاة - كما اتفقا - فى المساء، وقضيا ساعة يدوران بالسيارة باحثين عن مكان يطيب فيه الهواء ويرق الجو، حتى انتهيا إلى مكان فى الجيزة على النهر، فقعدا هناك، واحتال هو حتى جعلها تقترح أن يلتقيا فى اليوم التالى فى الموعد المضروب لداود، ولكن فى مكان آخر.

ومضت الليلة والنهار بعده، ودلفت الشمس على المغيب كرة أخرى على عادتها، وإذا بداود يزور صاحبه ويدعوه فى خجل أن يكون معه، فيعتذر صاحبه بأنه على موعد مع قريب له فى أمر له صلة بالأسرة، فيقول داود: "إذا كان الأمر كذلك، فإنى أرى أن أخلف وعدى للفتاة".

فيؤكد له صاحبه أن هذا يكون منه عملاً غير لائق، وأنه لا يجوز أن يدع فتاة تنتظره فى طريق عام، وإذا كان لا بد من التخلف فليذهب وليقابلها وليعتذر لها، فإن هذا أكرم وأشرف، فيعدل داود عن الإخلاف ويعد صاحبه بالذهاب إلى الموعد، ولكنه يرجوه - بعد أن يفرغ من عمله - أن يوافيه فى مكان معين، فيأبى صاحبه أن يبذل له الوعد المطلوب ويفترقان.

ويذهب داود، فيقف على الرصيف ساعة يحدق فى كل ترام يمر عسى أن تكون فيه الفتاة التى كانت فى هذه اللحظة مع صاحبه الذى يكره الكذب ويمقت الكذابين!!

ذات الثوب الأرجوانى

- ١ -[٩٩]

(ملاحظة - الكلام ليس شخصيًا وإن كان بلسان المتكلم، وذات الثوب المذكورة هنا لا وجود لها إلا فى الخيال)

***

لم يكن الأرجوانى ثوبها الوحيد - وكيف يمكن أن يكون؟ - ولا كان كل ما تلبس حين تبرز، ولكنه كان أحلى ما تكتسى وأشبهه بخديها - فى رأى العين، وفى إحساس القلب أيضًا - وقد رأيتها فى ثياب شتى وأردية متنوعة - فى الشفوف والأفواف، وفى السبائب المضلعة، والمطارف المربعة، وفيما عليه من الخطوط كأفاويق السهم، ومن النقوش كهيئة الطير، ومن الصور كرسم العيون، وفى الأبيض والأخضر والأزرق، ولكنه لم يقع من نفسى شىء من هذا كله كموقع هذا الثوب الأرجوانى الذى لا نقش فيه ولا صور ولا ترابيع ولا تداوير ولا تضاليع ولا خطوط ولا وشى ولا نمنمة، ومن العسير أن يعلل المرء هذا الشعور بوقع ثوب معين، وأحسب أنى لو قلت ما يجول فى خاطرى ساعة أراها بادية فيه - أو مجلوة على الأصح - لظننى القارئ عربيدًا مستهتكًا، وما

---

(٩٩) نشرت فى "الرسالة"، ٨ يونيه ١٩٣٦، (ص ٩٢٣-٩٢٥).

أنا من هذا فى قليل ولا كثير، وليصدق القارئ أو لا يصدق، فما يعنينى ماذا يظن بى، وقديماً قلت - أيام كنت أقول الشعر:

قد أفعل الشىء لا أبغى به أملا ولا أبالى الورى ماذا يقولونا

همى ضميرى - فإن أرضيته فعلى رأى العباد سلام المستخفينا

وما زلت كما كنت يوم قلت هذا، بل لعلى أسرفت فى قلة المبالاة، حتى صرت إلى الاستخفاف المطلق.

ولأرجع إلى ذات الثوب الأرجوانى، فإنها أحق بالكلام وأولى به منى، وكم قلت لنفسى وأنا أراعيها: "بأى شىء يا ترى يمكن أن تتوسل إلى مثلها؟.... لا أنت جميل ولا محتمل... ولا لك مال.. ولا فى رأسك هذا عقل... أو ليس لو كنت تعقل أما كنت حرياً بالانصراف عن هذا العبث؟.... ماذا ترجو منها؟... فى أى شىء تطمع؟... إنها دونك سناً، وأنت دونها فى كل شىء... فلا خير فيك لها أو لمثلها".

ثم أعود فأقول لنفسى: "عن أى شىء تتكلم يا هذا؟... الجمال؟... سبحان الله العظيم! إن الجمال هو سلاح المرأة، فحظها منه ينبغى أن يكون موفوراً، وإلا زهد فيها الرجال، إذ كان لا مزية لها غير ذلك... ولكن الرجل شىء آخر، وسلاحه فى الحياة قوته وقدرته على الكفاح... لا هذه الأصباغ والألوان التى لا تلبث أن تحول.. فدع الجمال، فإنه شىء يطلب فى المرأة ولا يطلب فى الرجل... وماذا غيره؟... إنك غير محتمل؟؟.. لماذا بالله؟؟ لماذا تظلم نفسك وتبخسها هذا البخس؟.. ومع ذلك هذا شىء يترك لتقدير الغير ولا يجوز أن تكون أنت الحكم فيه... يعنى ماذا؟... أترانى أهرب بهذه السفسطة من التقدير؟... لا.. ولكنى ينقصنى أن أعرف الرجل الذى يستحيل أن يهتدى إلى امرأة تحبه، مهما بلغ من رأى الرجال فيه أو من سوء رأيه هو فى نفسه... أولم تسمع بالمثل القائل: "كل فولة لها كيال؟"، ألسنا نقول ذلك كلما رأينا رجلاً ثقيلاً تحبه امرأة جميلة

كانت تستطيع أن تجد ألف عاشق لها غير هذا الجلف أو السمج، أو ما شئت غير ذلك من الأوصاف التى لا تهون على النفس؟ ومع ذلك هذه مبالغة، فما أنا بحيث أحتاج إلى التعزى بأن كل فولة لها كيال... أعوذ بالله... بقى المال والعقل... والكلام فى هذا كلام فارغ... فليس من الضرورى أن يكون المرء ندًا لروتشيلد لكى تحبه المرأة مهما بلغ من جمالها، وليت من يدرى بماذا فاز روتشيلد من حب الجميلات فى حياته؟ ومتى كان المال يشترى الحب؟ كذلك ليس من الضرورى أن يكون المرء سقراطًا أو غيره من أصحاب العقول الضخمة ليكون محبوبًا.. ومع ذلك سل سقراط عن تعذيب امرأته له، وتنغيصها حياته، وتسويدها عيشه!... ماذا ترى نفعه عقله وفلسفته؟... لا يا سيدى! الحب شىء لا ضابط له إلا تقدير المرأة للرجل الذى تحس بغريزتها أنه أصلح لها من سواه؛ وقد تكون مخطئة، ولكن هذا هو العامل الموجه لها فى اختيارها... إذن هناك أمل... بالطبع!... ما هذه الحمارية!... إنها ولا شك عادة التفكير الطويل فى كل أمر... وهى عادة تضعف الثقة بالنفس، وتفقدها الشجاعة اللازمة للإقدام".

ودارت فى نفسى كلمة الإقدام بعد أن نطقت بها - فى سرى، وهل أنا مجنون حتى أتكلم بصوت عال يسمعه من فى البيت فتكون النتيجة أن يخربوا بيتى؟ - فلم يسعنى إلا أن أسأل نفسى: "الإقدام على أى شىء؟.. هذه فتاة أراها - وترانى هى أيضًا فما يسعها إلا أن ترى، أعنى ترانى - ومن طول ما اعتدت أن أراها صرت أحس أنها أصبحت تشغل مكانًا فى نفسى.. مغالطة!! كأن كل الذنب فى حبها أنى رأيتها مرارًا.. ولولا ذلك لما حفلت نفسى بها؟! أهذا ما أريد أن أقوله أو أدعيه؟؟ لا يا سيدى!... يحسن ما دمت أناجى نفسى أن أكون صريحًا معها، وإلا فما الفرق بين نجوى النفس ومحادثة الأغراب؟؟. وأعود إلى الإقدام.. وأسأل على أى شىء؟.. على أى شىء؟؟ أو ليس الأمر بديهيًا؟، تشير إليها.. تظهر لها هذا الحب.. كيف بالله تريد منها أن تعرف أنك تحبها وأنك تروم أن تبادلها هذا الحب؟! "تشم على ظهر يدها" كما يقول

المثل العامى؟؟، حسن.. وصحيح هذا بلا شك، ولكن ألا يمكن أن تعرف من نظرة العين وحدها؟؟ بلى!. وإن للمرأة القدرة على الإحساس بشعور الرجال نحوها، ولو كان بينهم وبينها ألف سور وسور... ما هذه المبالغة؟، مبالغة؟! ألم أسأل امرأة هذا السؤال فكان جوابها أنى أكون سائرة فى الطريق فأشعر بنوع النظرة التى يرمينى بها من يتفق أن يكون سائرًا خلفى؟، فإذا أسقطنا المبالغة من هذا الكلام كان مؤداه أن المرأة يسعها أن تدرك أتحبها أو لا تحبها من نظرة عينك؟، بل هذا يسع أى إنسان لا المرأة وحدها... ولكن إذا اكتفينا بالنظر ودلالته، فماذا يكون بعد ذلك؟ هل تروم منها أن تبدأك هى بالكلام وتقول لك: "يا سيدى إنى أعرف أنك تحبنى فأنا أشكرك على تشريفى بهذا الحب الذى لا أستحقه، وأؤكد لك أنى لست أهلاً لحب رجل عظيم مثلك؟"، سبحان الله العظيم... ما هذا البرود؟ إن الرجل حين يحب امرأة يكون معنى هذا أنه يريد أن يستولى عليها - هذا إذا كان رجلاً عاديًا سليمًا لا مريضًا - والرغبة فى الاستيلاء تجعل من واجبه هو أن يسعى للتغلب على ما عسى أن يكون هناك من مقاومة، وليس ثم فرق بين غزو قلب وغزو مدينة؛ والحقيقة الجوهرية فى كلتا الحالتين واحدة، وإن اختلفت المظاهر؛ وكما أن هناك مدنًا لا يكاد الجيش يزحف عليها حتى تسرع إلى التسليم، كذلك تجد قلوبًا لا تكاد العين تفوق إليها سهمًا حتى تذعن وتفتح بابه، غير أن هناك قلوبًا لا يسهل إخضاعها ولا بد من الكرّ عليها، وليست كل امرأة ككل امرأة، فالذى يجدى مع هذه قد لا يجدى مع تلك لتفاوت الأمزجة واختلاف الطباع؛ وما أظن صاحبتنا ذات الثوب الأرجوانى بالعسيرة، وإن لى لمعوانًا عليها من شبابها وغرارتها ومن حياة العزلة والحرمان التى تحياها، والشباب هو زمن الفورة والاضطرام فى العواطف، والحرمان والعزلة يجعلان العواطف الطبيعية أشد استعدادًا للاضطرام السريع والتسعر لأقل اتصال، وهل طبيعى ألا تعرف الحياة فتاة فى عنفوان صباها إلا من النافذة وإلا من كتاب - أو رواية - تقرأه وهى فى الشرفة؟ ماذا تعرف هذه عن الحياة؟ وماذا خبرت من أحوال الناس وأساليبهم؟ كيف تستطيع أن تقاوم

ما تهدد به؟ بل كيف تعرف أنها مهددة بشىء حتى تفكر فى المقاومة؟ هذه هى فى الشرفة واقفة تنظر من هذا الارتفاع الذى لا يمكن أن تستبين منه شيئًا... لماذا تلبس هذا الثوب الأرجوانى الأنيق الذى يبدى للعين خطوط جسمها جميعًا وانحناءاته كلها ويجلو مفاتنها ولا يحجب شيئًا منها؟.. أليست تلبسه لتبدو فيه كأجمل ما تكون وفى أفتن صورة؟.. تعرض محاسنها هذا العرض البديع ولا تجد فى مكانها العالى هذا من يقدرها!! والناس لا يشعرون بالحرمان منها لأن غيرها فى الدنيا كثيرات... ولكن هى... هى... أليس المعقول - وهى تنظر إلى الرائحين والرائحات والغادين والغاديات - أن تشعر شعورًا حادًا بما هو مكتوب عليها من الحرمان؟.. ومع هذا الشعور المستمر ماذا تقدر أن تكون النتيجة إذا اتفق أن اتصلت أسبابها أوهى اتصال بأسباب رجل يصفو بوده إليها وتأنس هى منه هذا الميل؟ يخفق قلبها على الرغم منها.. وتلفى نفسها معنية بهذا الرجل الذى يوليها العناية التى حرمتها فى حياتها، ويظهر لها الحب الذى لا يستطيع أن يظهره لها أخوها أو أبوها لأنه من نوع آخر، ولا يغنى عنه حب الأم والأخت ومن إليهما.. وتشغل خواطرها بالتفكير فى هذا الإنسان الذى لا يفتأ ينظر إليها وفى عينيه نور الحب.. وقد يكون كاذبًا أو مخادعًا، ولكنها لا تستطيع أن تعرف هذا لأنها غريرة لم تجرب الناس ولم تعرف الحياة إلا من نافذة بيتها... فتراها تبدو فى حفل من الزينة - ولم تكن تعنى بأمر زينتها كل هذه العناية - وتكون واقفة مع صاحبة لها تحدثها فتتحول عينها إليك وتخالسك النظر... ويكون الكلام عاديًا جدًا لا يستدعى كل هذه الحركة ولا يستوجب هذه الضحكات المتوالية التى يميل لها الجسم كل مميل... ولا تزال وهى تتكلم تهز رأسها وتسوى شعرها بيدها وتخرج وتدخل ولا شىء هنالك تدخل له، ولكنه الشعور المتقد القلق، والعواطف المشبوبة لأنها محبوسة تريد أن تنفجر من طول الكبت... وهذا الدبوس الذى تشيله وتحطه لم يكن قلقًا فى موضعه من شعرها ولكن نفسها هى القلقة، فيدها لا تهدأ ولا تسكن ولا تستطيع أن تكف عن الحركة... وهذا الثوب الجديد الذى لم يفصل والذى تنشره فى الشرفة

لزائرتها كان فى وسعها أن تعرضه عليها فى الغرفة ولكنها حركة عصبية تشى بالاضطراب النفسى... وهذا النبات الذى اتصل بعضه ببعض على جانب الشرفة والذى يحجب من فيها عن عيون الجيران هل تظن أنه يحتاج إلى تسوية؟، لا، ولكن يدها مع ذلك لا تزال وأنت ناظر إليها تعبث بأوراقه النضيرة وقد تنظر إليك عن عرض وهى تفعل ذلك... ولا تحسب أنها تغازلك فما تفعل شيئًا من ذلك ولكنه لا يسعها إلا أن تنظر إليك خلسة من حين إلى حين، لأنه يسرها أن تراك ناظرًا إليها وأن تعلم أنك مشغول بها حتى ولو أبدت الضجر من ذلك أحيانًا، وإذا لم ينظر الرجل إلى المرأة فماذا يكون مصيرها؟، وماذا عسى أن تصنع بنفسها!. وهى تغيب عنك وتحتجب - يومًا كاملاً أو ساعات - لظنها أن احتجابها يسعر النار فى صدرك ويرقى بألسنة اللهيب إلى السماء، وهى تقضى على نفسها بهذا الاحتجاب وخواطرها كلها معك وإن كانت تكلم أمها وأخاها وأباها كأنما خلت بها الملهيات الحاضرة التافهة عن كل ذكر لك، وليست المرأة بشىء إذا لم تكن قادرة على هذه المخادعة البريئة، والشرفة الأخرى ليست فى جانب غير هذا من البيت، بل الاثنتان على صف واحد، وليست إحداهما بأوسع أو آنق أو أحلى، ولكنها تنتقل من هذه إلى تلك لغير حكمة ظاهرة، إلا أنها تريد أن تفهمك أنها لا تحب أن تراها ولا ترتاح لطول تحديقك فيها.. وليس هذا صحيح، ولكن المرأة هكذا أبدًا... وتجلس فى الشرفة على الكرسى وفى يدها الكتاب وتتعمد أن توليك ظهرها وأن تجعل وجهها إلى ناحية أخرى لتوهمك أنها غير راغبة فيما ترميها به من النظرات... ولا تقرأ شيئًا لأنها لا تقلب الصفحة إذ كان عقلها مشغولاً بك وهل لا تزال واقفًا؟، وهل تراك تنظر إلى غيرها؟، وهل أنت ضاحك أو عابس؟، وماذا كان وقع هذا الإعراض فى نفسك؟، هل آلمك جدًا؟، هل أغضبك؟، أو زادك تعلقًا بها وإقبالاً عليها؟، وتمد ساقها وتهزها لتلفت نظرك إلى جمالها، وتنهض واقفة وتنحنى لتضع الكتاب على الكرسى ثم تخرج من الشرفة - لا لحاجة - بل لتريك خط ظهرها وبراعته وفتنته... وترفع رأسها قليلاً - وعلى مهل - حتى تحاذى عينها

حافة الشرفة لتنظر أباق أنت أم مللت وذهبت؟؟، وتراك تتهيأ للخروج فتختفى وعينها عليك من وراء الأستار - وفى ظنها أنك لا تفطن إلى ذلك - فإذا انحدرت إلى الشارع برزت فى الشرفة لتلقى عليك نظرة أخيرة... ويجئ الليل فتجلس فى الظلام وأنت فى النور لتراك ولا تراها.. وإذا جاء وقت النوم أغلقت باب الشرفة بعنف لا تدعو إليه أى ضرورة سوى أنها تريد أن تؤذنك بذلك.

هذه حياة المسكينة وهذا ما يحوجها إليه ما هى فيه من العزلة والحرمان الدائم، وأى قدرة لمثلها أو عسر يمكن أن يكون فيها إلا عسر السجن... كان الله فى عونها فإنى أرانى أعطف عليها وأرثى لها فى محنتها هذه أكثر مما أرانى أحبها، وسلام عليها.

ذات الثوب الأرجوانى

ـ ٢ ـ[١٠٠]

(ملاحظة- الكلام ليس شخصيًا وكل ما فيه متخيل ولا حقيقة لذات الثوب الأرجوانى)

***

لم يكن العزم أن أكتب هذا الفصل ولكن "الرسالة" - جزاها الله خيرًا - أبت إلا أن تستزيدنى فوضعت الرقم (١) تحت عنوان الفصل السابق، فصار لا بد أن أكتب الثانى - أو اللاحق - وإلا عدنى القراء مقصرًا أو مغالطًا أو فاترًا، وأنا أقصر فى الأغلب عن الغاية أو دونها؛ وقد تغرينى طبيعة الحياة أو مطالب الدنيا بالمغالطة، ولكنى والله لست بفاتر - والعياذ بالله! - وإنى لحريص فى العادة على هدوء المظهر واتزان الأعصاب، ولكن فى جوفى نارًا "أحر نار الجحيم أبردها" كما يقول المتنبى رحمه الله - وكان فى عوننا - فقد كان يجيد المبالغة، وما أظن بذات الثوب الأرجوانى إلا أنها تحس نارى هذه وتجد لفحها وإن كان بينى وبينها بُعدان: بُعد طريق وبُعد منال، وإذا يكن هذا هكذا فسلها بالله لماذا تلبسه لى!... أليست تلبسه لأنها تعلم أنه حبيب إلىّ؟... ومن أدراها وأنا لم أقله بلسانى ولم أفض إلى أحد بسر قلبى؟... وما أحسب أحدًا

---

(١٠٠) نشرت فى "الرسالة"، ٢٢ يونيه ١٩٣٦، (ص ١٠٠٥-١٠٠٧).

سيزعم أنها رأت فىّ مشابه من ثيران أسبانيا فهى تخايلنى لتهيجنى بهذا اللون؟!.. ومما يدل على العمد فى لبس هذا الثوب أنها تبدو ضاحكة مشرقة المحيا فى كل ما تكتسى خلافه، فإذا ارتدت الأرجوانى قطبت وزوت ما بين عينها وتكلفت التجهم الشديد، وليس فى الثوب أو لونه أو تفصيله أو حسن انسجامه على بدنها الرخص ما يدعو إلى الانقباض، وإن فى كثرة لبسها له لدليلاً على الرضى عنه، ولو كانت تشعر بشىء من الضيق للبسه لما أكثرت من ارتدائه، ولكنها على عادة جنسها تفعل الشىء تبغى به رضى رجل معين ثم تذهب تغالط وتدعى غير ذلك، ومن هنا هذا العبوس التى لا تحسنه، وإنى لأعرف أنها قرأت بعض كتبى فقد رأيت معها "خيوط العنكبوت"- عرفته من غلافه وما عليه من الرسم، ولكنى أظنها لم تقرأ ديوانى لأنه قديم جداً ولأنه نفد من زمن طويل، ولو قرأته لوجدت فيه هذا البيت:

لا يحسن التعبيس أبلجُ واضح ضحك الجمال بوجهه وأضاءا

ولكانت خليقة أن تكف بعد ذلك عن عبوس لا تتقنه؛ ولشد ما أتمنى أن أعود إلى النظم ولكن هيهات، فما تحركنى الحياة كما كانت تفعل، ولو كان شىء يردنى إلى الشعر لردنى هذا الثوب.. أأقول الثوب؟، يا للمغالطة!، أترانى لو رأيت الثوب منشوراً فى الشرفة ولم تكن هى فيه أكنت أحفله أو أباليه؟، كلام فارغ!، ويحسن بى أن أدع الثوب وأن أكف عن ذكره فما أعرف له - بمجرده - قيمة، وإنها لجميلة فى الأبيض والأخضر والأزرق والبنفسجى والوردى، وفى الطويل والقصير، وفى الخفيف والكثيف، وفى المباذل والهلاهل، ولكنى أحب أن أجرب سلطانى عليها فأزعم أن الأرجوانى هو الثوب الأثير عندى، ثم إن صورة المرأة فى اللحظة التى تقع فيها من قلب الرجل هى التى تعلق بذهنه وتظل حاضرة ماثلة لا تبرحه ولا تنى تجور على غيرها من الصور ولو كانت أبرع وأفتن، وهذا فيما أعتقد - تعليل ما أراه من استبداد هذا الثوب الأرجوانى بنفسى وخواطرى، فلتلبس ما شاءت غيره ولتطمئن على حسنها فلن تكون إلا جميلة ساحرة.

وأحسب أن اتزانى المألوف قد خدعها أول الأمر، وأن ابتسامتى التى أرسمها على وجهى - بالألوان - هى التى حيرتها فما هكذا يكون الحب الولهان والعاشق المدنف فيما تصف الكتب والروايات التى لا شك أنها قرأتها، وأين مظاهر الصبابة وآيات الوجد ودلائل الخبل الذى يورثه الحب؟ أين الدموع الغزار التى لا تفتأ تفيض بها الجفون القريحة حتى يصبح المرء فى بركة من العبرات؟؟ أين السهد الطويل الذى يترك الوجه مصفراً والجسم مطحوناً مهدوداً؟؟ وأين الزفرات الحرى والشهقات العميقة التى تخرج من أخمص القدم؟. لا يا ستى.. لست من هذا الطراز وما أراك إلا مثلى تحنسين أن تضبطى عواطفك كما يضبط المهندسون فيضان هذا النيل العظيم بالسدود والخزانات الضخمة، ثم إن الحب جميل لا شىء فيه يوجب الحزن والكآبة، وهو يملأ النفس حياةً لا موتاً، وينضر الروح ولا يذبلها، وهو سبب عمران هذا الكون فكيف تخرب من جرائه نفس إنسان؟ وهو مبعث الوحى ومصدر الإلهام وسبب الإنتاج على العموم، فكيف يجئ بالانقباض والعقم؟.. لا يا ستى.. أقول لك مرة أخرى اضحكى.. اضحكى واتركى هذا القطوب الذى لا يوائم الجمال والصحة.

ولم أر قط كمشيتها فى المشى... فيها دبة القوى الشاعر بقوته أو المعتز بها؛ وقد تبدو لى أحياناً كأنها تدب كما يدب الصبى حين يذهب عنك مغيظاً محنقاً.. ولا داعى لغضبها أو حنقها... وأين هذا الداعى وهى واقفة وحدها فى الشرفة تطل منها على الطريق؟ لا بد أن يكون الداعى شيئاً فى رأسها أو نفسها هو الذى يحملها على هذه اللفتة السريعة العنيفة التى لا مسوغ لها مما حولها، إذ كان لا شىء حولها إلا الهواء وإلا هالة هذا الحسن.. وليتنى أستطيع أن أنفذ إلى موضع التفكير أو الإحساس فأطلع على هذا الباعث الخفى! فليس أفتن ولا أسحر من حركات النفس فيما وراء الوعى، وأكبر الظن أنها هى لا تعرف ماذا يلفتها أحياناً على هذا النحو العنيف، إن كانت تحسب نفسها عارفة مدركة، ولو أنك قلت لها إن لفتتها هذه فيها عنف وسألتها عن علته لأنكرت ولكان الأرجح أن يسوءها منك ذلك.

على أنى لا أحب أن يتوهم القارئ أن مشيتها عنيفة أو أن فيها ما يعاب - حاشا الله - وإن لها لخطوة تجعل أهون حركة لها رقصًا، ومن النساء من تمشى بثدييها كأنما تدفعهما أمامها، ومنهن التى تتخلع وتتعوج وتتقصع - تكلفًا أو طباعًا - كأنما لا يمسكها شىء، أو التى تطول وتقصر فى مشيتها والتى تلوح بذراعيها فتزيدهما طولاً - إلى آخر ذلك إن كان له آخر - ولكن ذات الثوب الأرجوانى حين تبرز لى فى الشرفة صباحًا - على سبيل التحية - وهى لا تزال فى منامتها، تنساب كالماء الرقراق، فليس خطوها خطوًا وإنما هو تموج، وإنى لأراها ماشية من هذا البعد فأذكر بيتًا لابن الرومى هو قوله فى وصف صانع الرقاق[١٠١]:

ما بين رؤيتها فى كفه كرةً   وبين رؤيتها قوراءَ كالقمر

إلا بمقدارِ ما تنداح دائرةٌ   فى لجة الماء يُرمَى فيه بالحجر

ولا رقاق هناك ولا حجر ولا ماء تنداح فيه الدوائر، ولست أذكر البيت لأن هذا وقت الصباح أى وقت الشعور بالجوع، وإنما أذكره لأنى أحس - بعينى وبقلبى معًا - أن حركة المشى تبعث فى جسمها اللين اضطرابًا خفيفًا كاضطراب الماء حين يصافحه النسيم الوانى؛ ويخيل إلىّ أن جسمها كله - حين تخطو - تتعاقب على بشرته الرقيقة موجات فى إثر موجات تطير العقل وتزدهف اللب، ولا أدرى أهذا خيال أم هو الحقيقة، ولكن الذى أدريه أنه بعض ما للمرأة من سحر، فقد ترى رجلاً قده أعدل من قد المرأة ولكن مشيته لا يكون فيها هذا التموج، ولا يمكن أن تحدث الحركة فى جسمه - أو جلده - مثل هذا الاختلاج الخفيف الذى هو بعض سحر المرأة، واللين من خصائص الأنوثة - والنعومة والرقة والطراوة أيضًا - وليس أقبح ولا أبعث على النفور من المرأة

---

(١٠١) من البسيط (المحرر).

المسترجلة كما ليس أقبح ولا أدعى إلى الزراية من رجل تغلب عليه صفات الأنوثة، وتخطئ فيه مظاهر الرجولة ومعانيها.

وفتاتى تنهض مثلى فى البكرة المطلولة - أو أنا هكذا أتخيلها - خفيفة غير متثاقلة - فإنها شيء صغير دقيق يخيل إلىّ أن فى وسعى أن أطويها وآكلها بعظامها - وتدفع باب الشرفة فأنتبه على الصوت - وتقف حاسرة الرأس متهدلة الشعر - وهل يُغطى مثل هذا الشعر الذهبى؟ - عارية الذراعين، ثم تتهادى إلى الحافة وتطوى ذراعيها عليها وتدير عينها فى مجالى الحياة التى طلع عليها يوم جديد، فتبارك الله خالق هذا الوجه الصابح ومرقرق كل هذه الغضارة والنضارة فيه!، وما أكثر ما وقعت على عينى عينها وأنا أحدق فيها من حيث أحسبها لا ترانى! ولشد ما أشعر، حين يحدث ذلك، بفتنة هذا اللحظ، وما أصبحت على وجهها مرة إلا أحسست أن من حقى أن أستقبل يومى بصدر منشرح وقلب مستبشر مطمئن، وما رأيتها إلا كان ظهورها إيذانًا لى بالاضطرام والفورة، فيكون حسبى بعد ذلك أن أعالج نفسى حتى أردها إلى السكون وأفئ بها إلى الهدوء؛ وليس هينًا أن ترغم اليد المرتعشة على الثبات، والأعصابَ المضطربةَ على الاتزان، والعين المحملقة الزائغة على الفتور المألوف، والقلب الذى يعلو ويهبط كأنه لعبة "اليويو" على العودة إلى انتظام الدق واعتدال الخفق؛ والساقين المتخاذلين على الصلابة والتماسك، والنارَ التى تندلع فى الأحشاء على الخمود... كلا ليس هذا بالهين... ولكنى رضت نفسى على القدرة عليه، فلإرادتى الحكم لا لشعورى وعواطفى؛ وعسير جداً أن يبدو على وجهى شيء مما يضطرب به جنانى ويجيش به صدرى؛ وإن جوفى ليكون كالبركان الفائر أو البحر الهائج، وتنظر إلى وجهى وتسمع كلامى وتتأمل حركاتى وإشاراتى فلا يخالجك شك فى أنى أفرغ الناس قلبًا وأخلاهم بالاً، ولم لا؟...إن ما يدور فى نفسى شيء يعنينى وحدى وليس من حق غيرى أن يحيط به ويطلع عليه فإنه سرى ولا من الرجولة أن أعرضه على الناس كأنى ألتمس العون أو العطف منهم، وماذا يبقى لى مما يسعنى أن أقول إنه "لى وحدى" إذا

كنت أبيح الناس ما فى صدرى وأشركهم فى أمرى؟.. ولست أستتقل أو أستسخف شيئًا كقول الشاعر - وأظنه أبا فراس[١٠٢]-:

فَيا حَسرَتا مَن لى بِخِلٍ مُوافِقٍ   أَقولُ بِشَجوى مَرَّةً وَيَقولُ

فإن هذا ضعف وحماقة، والقول بالشجو يفضح ولا يجدى؛ وإذا كان فى البث ترفيه، فإن الانتصار على النفس أجل وأكرم وأكبر متعة أيضًا؛ والبث ثرثرة تليق بالمرأة ولا تليق بالرجل، وماذا ينفعك أن يعرف صاحبك أنك تحب أو تكره، أو أنك غاضب ساخط أو راض مغتبط؟... ماذا يستطيع أن يصنع لك؟، لا شىء!، وأجدى من ذلك عليك أن تعالج أنت نفسك وأن تردها على مكروهها - إذا احتاج الأمر - وأن تحتفظ باعتدال المزاج وهدوء التفكير واستقامة النظر ودقة الوزن وحسن التقدير، ومن كان لا يملك نفسه فأحر به ألا يملك غيره، والحب حرب بينك وبين المرأة، فاحرص على أن يبقى زمامك فى يدك وإلا ركبتْ منك جوادًا مسرجًا ملجمًا تركضُه حيث تشاء هى وحدها، وليس أطغى من المرأة إذا صار فى يدها زمام الرجل.

---

(١٠٢) من بحر الطويل (المحرر).

ذات الثوب الأرجوانى

- ٣ -(١٠٣)

(تنبيه - كل ماهو مكتوب هنا متخيل، وأنا يوافقنى ويلائم مزاجى أن أجعل الكتابة على لسانى)

***

سألنى صاحبى وهو يجلس: "إلى أين إن شاء الله؟"

قلت: "يا صاحبى؟ العجلة من الشيطان! اجلس أولاً، وتناول - ثانيًا - شيئًا، ثم سل ما بدا لك بعد ذلك، على أنى أستطيع أن أريح فؤادك القلق، فأقول لك إنا ذاهبون إلى القناطر الخيرية؛ فهل ارتاح قلبك يا مولاى؟".

فصاح بى وهو يخرج السيجارة: "القناطر؟... ماذا أخطرها ببالك؟... وماذا تصنع هناك فى هذا الحر؟... شىء غريب!".

قلت: "يا أخى إنك تفاجأ بالخبر فتستغربه، أما أنا فقد أطلت التفكير فى الأمر، وعرضت لى آراء شتى نفيتها واحداً بعد واحد، حتى استقر رأيى أخيراً على القناطر".

---

(١٠٣) نشرت فى "الرسالة"، ٢٩ يونيه ١٩٣٦، (ص١٠٤٣-١٠٤٦).

قال: "ولكن الجو حار الآن... الساعة العاشرة، وسنشتوى هناك؛ وأين يمكن أن نجد طعامًا أو شرابًا؟".

قلت: "لعلك تظن أن القناطر صحراء سينا... ومع ذلك لا تخف أن تجوع، فقد أعددت لمعدتك كل ما تحتاج إليه من طعام و...".

قال: "ولكنى رأيت السيارة ونظرت فيها فلم أجد شيئًا، وأخشى أن تكون - كعادتك - معتمدًا على أنها مدينة عظيمة مقصودة من الناس، ثم نذهب فلا نجد شيئًا".

قلت: "بل سنجد كل شيء، والآن دعنا من حديث المعدة واسمع: إذا رأيت منى ما تنكر، أعنى ما يخالف المألوف من عاداتى فرجائى إليك أن تذكر قول الشاعر(١٠٤):

إنْ مَنْ ساءه الزمان بشىءٍ　　　لحقيق إذن بأن يتسلَّى

"فهل أنت لبيب تكفيه الإشارة أم لا بد أن...؟"

وفى هذه اللحظة أقبلت الفتاة - أم ترانى لم أخبر القارئ أن فتاة كانت ستقبل؟؟ على كل حال... المهم أنه - أعنى القارئ - قد عرف أن فتاة قد أقبلت، ولا شك أنه استنتج من قولى هذا أنها وسيمة - ولا أبالغ فأقول جميلة - وأن الموعد كان مرتبًا من قبل، ونظر صديقى إليها ثم إلىّ وهز رأسه ووقف استعدادًا لاستقبالها وتحيتها، وكان وجهه كالطماطم - أعنى أحمر جدًا - وليس هذا لونه فى العادة، وإن كان صحيح الجسم، معافى البدن، حسن اللون والشارة؛ ولكنه شديد الحياء، فقلت للفتاة:

"زوزو... هذا صديقى الذى حدثتك عنه؛ وفى وسعك أن تعديه صديقًا لك أيضًا... هل جاءت ليلى؟؟"

قالت وهى تناوله يدها: "نعم... وهى تنتظر فى الخارج".

---

(١٠٤) الشاعر هو ابن الرومى والبيت من بحر الخفيف (المحرر).

قلت: "ولماذا لم تدخل؟.. هل أذهب وأدعوها؟".

قالت: "كلا، إن معها الأشياء... والأفضل أن نذهب الآن".

ومضينا إلى القناطر على مهل، وكانت السيارة جديدة، ولا بد أن أقتصد فى السرعة حتى تلين وتكتسب آلاتها المرونة اللازمة وإلا فسدت وخربت بسرعة وقصر عمرها، وكانت زوزو وليلى تنظران إلى السيارات الأخرى التى تخطف إلى جانبنا وتتركنا وراءها فتتحسران، وكانت زوزو لا تفتأ تقول لى: "ألا يمكن أن ندرك هذه السيارة؟" وتشير إلى واحدة من السيارات الكثيرة التى كانت تمرق كالسهم، فأقول: "بالطبع نستطيع، ولكن الثمن باهظ، ثم إن العجلة من الشيطان؛ وقد كنت قبل مجيئك ألقى درسًا على هذا الصديق فى وجوب التريث وتحاشى العجلة، والظاهر أنك لست خيرًا منه ولا أقل حاجة إلى مثل هذه الدروس التى أعطيها للناس مجانًا".

فتصيح بى: "دروس إيه وعجلة إيه؟؟ كلام فارغ! كيف تترك هذه السيارات تسبقنا، مع أن سيارتك جديدة وجميلة؟".

فأقول: "أشكرك - بالنيابة عن السيارة، ولو كان لها لسان لأسمعتك المطرب المعجب من آيات شكرها وتقديرها لهذا الثناء الجميل، ولكنها كما تعلمين خرساء بكماء لا تحسن إلا أن تجرى".

فتقاطعنى معترضة: "تجرى؟؟ تقول تجرى؟؟ إنها تزحف!! ألا ترى كيف سبقنا كل الناس؟ هل تريد أن نصل إلى القناطر غدًا؟".

فأتوكل على الله وأجازف بمستقبل السيارة وأعذر فى سرى الشبان الذين يكونون مع الفتيات فينطلقون كالقنابل فتتحطم سياراتهم، وقد يلقون هم حتوفهم؛ فإن وجد فتاة مع السائق يغريه بإهمال ما يشير به العقل والحكمة، وقد أركبت فتيات كثيرات فلم أرى منهن واحدة ترتاح إلى البطء، وأحسب السبب أن السرعة مظهر من مظاهر القوة وأن السبق غلبة، والمرأة تعجب بالرجل القوى السباق، ولا تعجب بالرجل

الضعيف الوانى، وهى لا تدخل فى حسابها أن هذه سيارة وأن المعول عليها لا على الرجل، وأن الذنب يكون ذنبها إذا قصرت وكانت بطيئة أو ضعيفة، وإنما كل ما تفكر فيه وتعنى به أن معها رجلاً، وأن رجلها هذا ينبغى أن يكون الأقوى والأبرز والأسرع والأبرع، إلى آخر ذلك، وهو عندها مسئول عن السيارة التى لم يصنعها، ولعل منطقها أنه اشترى سيارة، فلماذا لم يشتر سيارة قوية سريعة؟؟ وقد يكون قليل المال ولكن هذا لا ينهض عذراً له، إذ لماذا يكون قليل المال؟؟ وقد تكون السرعة بغيضة إليه، ولكن الأمر يرجع إلى تقديرها هى لا إلى تقديره، ولا إلى ما يؤثر وما يكره، وإذا كان لا بد أن يتوخى ما يشير به مزاجه، فلماذا يستصحب امرأة؟؟

من أجل هذا اضطررت أن أسرع على خلاف ما يقضى به الواجب والحزم وإلا ساء رأى صاحبتى فىّ، ومن الذى يسره أن يسوء رأى المرأة فيه؟؟ ولا سيما امرأة تكون معه ويكون همه فى هذه اللحظة على الأقل أن يرضيها.. وأدركنا بضع سيارات سبقناها ففرحت وأشرق وجهها وانبسطت أسارير محياها وكثر ضحكها - بل ضحكهما - بعد التقطيب والوجوم والاعتراض، وصارت كلما مرقنا بجانب سيارة تصفق وتصيح "هيه!!" على سبيل الإعجاب بالسيارة التى هى فيها - أى الإعجاب بنفسها، فإن إعجاب المرأة بشىء يكون لها مظهر لإعجابها بنفسها هى - والشماتة بالمسبوق والتعيير له والتحدى أيضاً؛ والمرأة إذا أعجبت برجل جعلت وكدها أن تتحدى الرجال به على صور شتى بعضها أخفى من بعض، وما أكثر ما يكون استمرار إعجابها به رهناً باستمرار فوزه على الأقران وغلبته لهم فيما تورطه فيه.

وبلغنا القناطر بعد نصف ساعة؛ وكانت هذه أول مرة تراها فيها فأقبلت علىّ تسألنى عن كل ما تأخذه العين هناك وجعلت أنا أحيلها على صديقى لأتفرغ للسير ومآزقه فى هذا الزحام الشديد حتى صرنا عند أول البساتين، وكانت الإحالة على صديقى تغضبها لتوهمها أن ذلك مبعثه الملل أو الإعراض، ولا ملل ولا إعراض منى وإنما هى مشاغل الطريق؛ غير أن المرأة قَل أن تقدر ذلك لأن خواطرها كلها دائرة

حول نفسها وشخصها، وهى تفسر كل شىء بأنه صادر عن حب أو كره، وعن رغبة أو زهد، وعن إقبال أو انصراف وإعراض، وعن ارتياح أو ملل وسآمة.

وقال لى صاحبى ونحن ندخل البساتين والفتاتان أمامنا: "والآن قل لى ماذا ساءك من زمانك ويوشك أن يخرج بك عن طورك؟".

قلت: "يا أخى إنى شاكر لك - وأنت تعلم صدقى - هذه العناية بالاطمئنان علىّ، ولكنى لو أفضيت إليك بهذا السر لما بقيت له لذة تخفف ألمه، انتظر حتى يفتر كل شىء - الألم واللذة جميعًا - فلا يعدو الكلام حينئذ أن يكون حديثًا عن شىء مضى ولا يكاد يعنينى".

فهز رأسه ومضى عنى إلى الفتاتين.

وظللت طول النهار أضحك وألعب وأثب وأجرى وآكل وأشرب وأرسلت نفسى على سجيتها - وإن كان ينقصنى أن أعرف أن الخفة من سجاياى - وخلعت ثوب الاحتشام ورحت أكلم من لا أعرف وأدعو إلى طعامنا كل من يمر بنا - رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً - وأبدأ بالحديث من لم أر وجهه إلا فى ذلك اليوم، وأخطف الكرة ممن يتقاذفونها، وأجر رِجل هذا، وأشد أذن ذاك، وأفعل ما يفعل الأطفال عادة إذا شجعتهم فأنسوا منك الارتياح إلى عبثهم، حتى ضج صاحبى وضاق صدره ولم يعد يطيق هذا الخلْقَ العظيم الذى حف بنا واندمج فينا وشاركنى وشاركته فى اللعب والضحك والجرى، فركبنا زورقًا صغيراً؛ لكن هذا لم ينجه ولم يمنع أن أمضى فيما وطنت النفس عليه فى ذلك اليوم، فقد كانت هناك زوارق أخرى فصرت أدنو بالقارب منها حتى أحاذيها، ثم أروح أعابث من فيها، فنفذ صبر صديقى وأمر النوتى أن ينأى بنا عن الخلق جميعًا فاستلقيت على ظهرى وأغمضت عينى وتظاهرت بالنوم.

ولكنى لم أنم، وإنما كنت أحدث نفسى وأسألها عن جدوى هذا الذى صنعت؟ أتراه أنسانى شيئًا أو أذهلنى عما بى؟؟ ولم يسعنى إلا أن أعترف بأن كل ما صنعت

كان عبثًا، فقد كانت ذات الثوب الأرجوانى ماثلة أبدًا أمام ناظرى لا تبرحه ولا تفتر صورتها التى تلازمنى، وكنت أراها فى كل من أرى وما تأخذه العين، فأنا حين أنظر إلى واحدة من هاتين الفتاتين لا أراها وإنما أرى ذات الثوب الأرجوانى، ويفتننى منظر فأقول لمن معى: "انظروا... ما أبدع هذا" ويكون الذى يفتننى منه ذات الثوب الأرجوانى التى تبدو لى فى إطار من هذا المنظر، ولما ركبنا الزورق كان يخيل إلىّ أنها سابحة فى الماء كعرائس البحر، وما سمعت ضحكة ناعمة إلا قلت لنفسى لعل ضحكتها أرق وأسحر.

وأعجب من هذا أنى كنت أجدنى وأنا أضاحك الناس وأحدثهم وألاعبهم وأسابقهم أفكر فيها وأسائل نفسى عنها - وكان حسبى ما أنا فيه مما يستغرق جهد النفس - وأقول - فى سرى وبينى وبين نفسى - هل أنت تحبها؟ أواثقٌ أنت أن هذا هو الحب.. فتجيبنى النفس: أن نعم لا شك فى ذلك، فأكر عليها معترضًا على هذا التأكيد وأقول: ولكنك لا تعرفها.. لا تعرف حتى اسمها.. وما رأيتها إلا عن بُعد فماذا تحب منها.. لا تستطيع أن تدعى أنك واجد فيها غير صورة جسمية هى التى تتراءى لك من هذا البعد، ولعلها لو دنت قليلاً لطالعك منها ما لا ترتاح إليه، فالأرجح أنك تحب منها صورة ألفتها أنت من الألوان التى استعرتها منها، ولا شك أنك زدت هذه الألوان قوة وأضفت إليها من خيالك، ولو أنك كنت مصورًا وحاولت أن ترسم لها صورة من ذاكرتك لما استطعت أن تثبت شيئًا من ملامحها، ولجاء الرسم لمخلوق من مخلوقات خيالك أنت، وإن كان لا يخلو من شبه بذات الثوب الأرجوانى، فحتى الصورة المادية - أو الجسمية - التى تبدو لك ليست ثابتة ولا مقررة فى نفسك، لأن الصور لا تثبت خطوطها وألوانها على مثل هذا البعد، ومن السهل أن تُعَفىّ عليها وتمحوها صور أخرى تكون أثبت لأنها تكون أقرب فأقدر على التأثير وأنفذ بسبب القرب إلى أعماق النفس والاستقرار فيها، ولو أن صورة ذات الثوب الأرجوانى كانت عميقة الأثر فى نفسك ومنقوشة بألوانها وخطوطها المميزة لها على صدرك، أكنت تظن أن فى وسعك أن تتسلى كما تتسلى الآن

بهذه الفتاة أو تلك ممن تعرف؟؟ أكان يمكن أن ترتاح إلى وجود غيرها وإن كنت تزعم أنك تتسلى؟؟ لا يا صاحبى! وحسبك أن تسأل نفسك بأى شىء تذكرها، ماذا فى نفسك منها غير صورتها فى النافذة كما تستطيع أن تراها على بعد ثلاثين مترًا؟ لو كنت كلمتها!! لو كنت رأيت ابتسامتها ونظرة عينيها ومنطق وجهها وتعبير محياها، وكيف تكون إذ ترق وتحنو، وحين يسرها شىء، وعندما تبدو عليها اللهفة أو الجزع أو الاضطراب، والزهد فى شىء والرغبة فى آخر، وحينما تتدلل أو تسخو، وإذ تضحك أو تتجهم!! لو كنت رأيت شيئًا من ذلك لأمكن أن تقول إنك عرفتها وأحببتها، ولكان لحبك لها غذاءٌ ومددٌ من ذكريات هذه الحالات المختلفة.. أما الآن فبماذا يتغذى حبك؟؟ على أى شىء يعيش؟؟ بأى شىء تذكرها إذا غابت عنك... بصورة هى أشد غموضًا من الرسم الفوتوغرافى وأخفى منه تعبيرًا؟؟ وهى مثلك... أتزعم أنها توليك عناية واهتمامًا، وأنها تفكر فيك، وأنها لا تفتأ تنظر إليك؟ فما يدريك أن هذا ليس من باب التطلع ومن قبيل الاستغراب أو إطاعة لرغبة نشأت فى الوقوف على حالات غريبة تبدو من شخص يستحق عناية على كل حال لسبب من الأسباب التى تدعو إلى العناية؟؟ هه؟؟ وهبها - جدلاً - أحبتك كما تظن أنك تحبها فإن شأنها كشأنك!.. ولعلكما لو تلاقيتما لكره كل منكما صاحبه، أو نفر منه، على الأقل، أو إذا شئت، لفتر ما يجده من الحب، إذ كان لا أساس له إلا الصور الغامضة التى ينقصها البيان والتأثير الذاتى المباشر.. ويظهر أنها مثلك واسعة الخيال... وشبابها هو عذرها إذا جمح خيالها.. فإنها غريرة ساذجة لا تعرف الدنيا، وأكبر الظن أنها لم تجرب الحب فهى لهذا شديدة الحنين إليه، ولكن أنت؟، أنت؟، أنت المجرب الذى عرف المرأة ودرس وخبر كل ما يسع الرجل أن يخبر.. كيف يمكن أن تخدع نفسك وتغلط على هذا النحو فى فهم شعورك؟ إن هذا منك مضحك!.

وقد اعترضت على نفسى وأبيت أن أسايرها إلى حيث تريد فإنى أعرفها خبيثة شديدة المغالطة، وقلت لها: "كيف تزعمين يا نفسى أن لا شىء عندى من الذكريات

أغذى بها حبها؟ ألم تسمعنى صوتها فى ضحكة فضية؟ (واها لهذا الرنين) أليست تبدو - أكثر الوقت - فى الثوب الأرجوانى الذى تعرف أنى أحبه؟ أتسألين يا نفس كيف عرفتْ أنى أحب هذا الثوب؟ قبحك الله! وما شأنك أنت؟ أعرف أنها تعرف والسلام! وأنا على يقين من أنها تعرف، وبينى وبينها لغة لا تحتاج إلى الكلام ولا إلى النظر... لغة أفهمها وتفهمها وإن كان كلانا معرضاً عن صاحبه؛ لأنها ذكية - مثلى ولا فخر - فهى تدرك أنى حين أكف عن النظر إليها، يلتفت قلبى إليها، وإن كانت عينى قد تحولت عنها لسبب غير إرادة النفس وهوى الفؤاد... ولا يخفى عليها أنى حين أنظر إلى ترام عابر أو سيارة تخطف فى الطريق أو زمرة مارة، فإنى إنما أفعل ذلك لأنى أخاف عليها الناس أن يلهجوا بنا، وليبقى حبى وحبها كنزاً لا يعرف سرّه غيرُنا.. ولا يشاركنا فيه - بالعلم - ثالثٌ، ولست أكلمها - هذا صحيح - ولا أنا أشير إليها، لأنى أعرف أنها تعرف أن الإشارة تحصيل حاصل، وما ثلاثون متراً بيننا؟؟ إن قلبها كتاب مفتوح؛ وهل تستطيع الزهرة الأرجة أن تكتم الشذى؟؟ نعم إنها حريصة كيسة، ولكنى مع ذلك أعرف حين أراها مقطبة عابسة أن قلبها يضحك وإن كانت نظرتها صارمة الجد... ولقد بدت منها إشارات تعمدت ألا أفهمها - لا لأنى لم أفهم بل لأنى خفت أن تكون قد صدرت عنها عفواً وعلى غير عمد، فأكون قد تسرعت وأسأت التأويل، ولا أقول ما هذه الإشارات فإنى حريص على الاستئثار بها والانفراد دون خلق الله بمعرفتها، وما أكثر ما أذكر من حالاتها حين تكون وحدها وحين يكون معها غيرها، وهل أنسى أنها حين تغضب علىّ لبلادتى وبطء فهمى تذهب فتلبس ثوباً غير الأرجوانى؟؟ هل أنسى كيف تلف على شعرها شريطاً وتترك خصلة الوطفاء مرسلة على جانبى محياها الصابح يعبث بها النسيم فتهز رأسها لتردها وتصلح منها وتسويها؟؟ هل أنسى كيف تجلس وفى يدها الكتاب - على ركبتها - وظهرها إلىّ وهى مع ذلك ترانى وتعرف أنى ناظر إليها ومعجب بها ومتلهف على نظرة منها؟؟ هل أنسى كيف تكايدنى وتهيجنى وتثير نفسى لتمتحن حبى وترى ماذا يكون من أثر ذلك فى نفسى؟؟ وما أعذب مكايدتها وأحلاها!! وما أجهلها بى إذا كانت تظن أن شيئاً من ذلك يثيرنى ويغضبنى! فإن فى

وسعى - دائمًا - أن أضع نفسى فى مكان الغير، وأن أتصور ما يُعْقَلُ أن يصدر عنه وأن أقدر البواعث على ما يبدو منه فاعذره فى الأغلب.. والحق أقول إنى أراها مقصرة فى مكايدتى لا مسرفة، ولا أنكر أنه يعز علىّ أن تغيب عن عينى، ولكنى أنا مضطر أن أغيب عنها وأنقطع عن النظر إليها، وعزائى أنى لا أنعم بأكثر من مرآها وأنها لم تهبنى أكثر من منظرها من بعيد، وأنها لم تولنى ما أتحسر على فقده إذا فقدتـه؛ وما دام هذا هكذا فإنى أستطيع أن أراها بعين الخيال كما أراها بعينى التى فى رأسى، ولو أنى كنت مكانها لعرفت كيف أكايدها، فلتحمد الله الذى خلقنى رجلاً ولم يخلقنى امرأة.

ولو شئت لعذبتها ولكنى أوثر الترفق - بطبعى - وإن كنت لخبرتى بالطبيعة البشرية من أعرف الناس بوسائل التعذيب، وأنا أسأل نفسى دائمًا "لماذا أعذبها وأنا أحبها؟"، وبماذا تستحق التعذيب وهى لو وسعها أن ترضينى لأرضتنى؟ لا شك فى ذلك، وصحيح أنه يسعها أكثر مما تبدى ولكنى لا أحب أن أعجل باللوم... ومن يدرى؟ لقد علمتنى حياتى أن اليأس سخافة، وأن العجلة من الشيطان، كما أقول لصديقى، وأن طول البال ينيل الأمل، كما يقول المثل العامى، وأن الغضب حماقة، وأن العتاب عبث، وهو فى النهاية يفتر الحب، وأنا أحب هذه الأرجوانية الثوب وأحب أن يطول حبها لى، لأنى أعرف من نفسى أن حبى لا يفتر وإن كان فى وسعى - بفضل رياضتى لنفسى - أن أستر ناره بالرماد، كلا لن أكايدها وسأصبر عليها وأُملى لها وأمهلها لأرى ما يكون منها ولأختبر مبلغ حبها فإنى على الرغم من الحب أوثر أن أقدر لرجلى قبل الخطو موضعها، فإذا رأيت منها ما يطمئن خرجت من هذا التحفظ الثقيل عليها وعلىّ أيضًا وإلا فإنى قادر على خنق هذا الحب ولو كلفنى تقليع أحشائى من جذورها.

فى هذا كنت أفكر، وبهذا كنت أناجى نفسى، وأنا ألاعب هذه الفتاة وتلك وأضاحكهما وأسابقهما وأسخط صديقى علىّ بترك الاحتشام الذى ألفه منى حتى صار يستغرب منى الابتسام، وليس أعجب من اشتغال النفس بأمرين فى وقت واحد.

ولكنى لا أكتب مقالاً فى علم النفس وإنما أسوق حكاية وأصف حالة فيحسن أن أقتصر على ذلك.

وقد عدت من القناطر بغير ما كنت أرجو أن أفوز به، نعم لهوتُ وضحكت وبدوت لمن لا يعرفنى كأسعد ما يكون إنسان، ومن ذا الذى يمكن أن يسمع ضحكتى ويرى وثبى وقفزى ويرتاب فى أنى سعيد موفق؟؟ ولكن صديقى كان يعلم أن فى صدرى شيئًا أكتمه، وأن ما أنطوى عليه ليس مما يهون حمله، وإلا لما التمست التلهى ونشدت التعزى، غير أنه كان على هذا يجهل - ومن أين يعرف؟ - أن فى جوفى ناراً مضطرمة من القلق والشك والحيرة والاضطراب وقد خرجت من الحوار الذى دار بينى وبين نفسى بالشك وباعتقاد أنى جاهل ما فى ضمير الفؤاد - أو على الأقل أن الأمر فيه نظر كبير فالحق أن معرفة النفس أشق المعارف وأعسرها مطلباً..

ذات الثوب الأرجوانى

- ٤ -[١٠٥]

(تنبيه: الكلام خيال ولا أصل له، كما مللت أن أقول وأؤكد في كل مرة)

***

غضبت علينا ذات الثوب الأرجوانى... وما أعرف لى ذنبًا جنيته إلا النظر، وما أحسبها تريد أن تحرم هذا علينا أو تكرهه منا، وأين المرأة التى يسوءها أن ينظر الرجال إليها ويعجبوا بها ويفتتنوا بحسنها؟ أو يسرها أن ينصرفوا عنها ولا يبالوها ولا يعنيهم أبقيت بينهم أو أمامهم، أم اختفت عن عيونهم؟ إن إتباعَ النظرةَ ثناءٌ صامت، والثناء قوت المرأة - وخمرها أيضًا - وقد ترى نساء يسوءهن النظر إليهن لسبب غير راجع إلى وحى الطبيعة فى نفوسهن، فيرتبكن ويضطربن، وتضيق الدنيا فى وجوههن ويشق عليهن ذلك حتى ليكبر فى وهمهن أنهن جنينه على أنفسهن وأثرن فضول الرجال، ولكن حتى هؤلاء لا يكرهن الثناء، بل تشرق له وجوههن، وتنشرح صدورهن، إلا إذا جاوزت الإطراء إلى ما هو خليق بسبب نشأتهن أن يزعجهن، وقد كنت مرة أتعلم الفرنسية وأتلقى دروسًا فيها على فتاة أمها روسية وأبوها نمسوى،

---

(١٠٥) نشرت فى "الرسالة"، ٦ يوليه ١٩٣٦، (ص ١٠٩٤-١٠٩٧).

فاستغربت بعد بضعة أيام أنها تلقانى متجهمة! وبدا لى أنها تستثقل الدرس والتلميذ، فشكوت إلى صديق وقلت له:

"إن معلمتى لا تكف عن النفخ، وأنها طول الدرس تتأفف، وإنى أريد أن أبحث عن معلمة أخرى، فلست أطيق هذا الضجر الذى لا تنفك تواجهنى به".

فقال: "لا تفعل".

قلت: "ولكنى لا أستطيع الصبر على هذه الحال".

قال: "لك العذر، ولكن ضاحكها وعابثها... أثن على حسنها.. غازلها برفق، أى من غير أن تخرج عن حدود الأدب".

فوعدته أن أجرب ذلك، وقد كان، أقبلت عليها فأقبلت علىّ، وصارت تهش لى وتبش، وأصبحت تلميذها الأثير، وكان لى زميل يتلقى عليها دروساً فى وقت آخر، وكان مثلى قبل أن يرشدنى صديقى، أى أنه كان معها كأنها معلم بلحية لا معلمة مدلّة بجمالها وشبابها، فكان إذا جاء تعبس وتقول: فلينتظر!

فأقول لها: "بل أخرج أنا لئلا يغضب فيضيع عليك درسه".

فتقول: "دعه يغضب... إنه يملنى ويزهق روحى".

وكان اسمه "عثمان أفندى" فصرنا - هى وصديقى الذى علمنى وأنا - نطلق اسم "عثمان أفندى" على كل من نراه بليداً جامداً فى حضرة النساء.

وأعود إلى ذات الثوب الأرجوانى فأقول إنها كانت راضية عنى، وآية رضاها أنها ظلت أياماً لا تبدو لى إلا فى ثوب أرجوانى، وكنت لا أراها إلا خفيفة مرحة، وإذا بها - فجأة - تخرج إلى الشرفة فى صباح فلا تكاد ترانى حتى تنثنى راجعة، فأعجب وأتساءل: "ما لها؟..." ولا أجد جواباً لسؤالى، فأهز كتفى وأقول: "سنرى"، ولكنى لا

أرى بعد ذلك إلا الإعراض والنفور وطول الاحتجاب، فلا يسعنى إلا أن أعرض أنا أيضًا، وأن أظهر قلة المبالاة؛ فلا أفتح النافذة ولا أطل منها إذا كانت مفتوحة، ولا أنظر إليها إذا طلعت، فإن فى طبعى عنادًا، وأنا مفطور عليه وعلى المجازفة، ولست أعرفنى اكترثت للعواقب حين يستفزنى شىء، وما أكثر ما أخسر بسبب ذلك، ولكنى أستطيع أن أكبح ثورة نفسى ولا أستطيع أن أصرفها عن الزهد، وما عجزت قط - إلا فى الندرة القليلة - عن ضبط عواطفى وصد نفسى عن الاندفاع، ولكنى أرانى عاجزًا عن علاج نفسى إذا انصرفت عن الشىء وحملها على الإقبال عليه مرة أخرى، وقد كانت أمى تقول إن قلبى أسود، وكانت تعنى بذلك أنى لا أنسى الإساءة؛ على أنى لا أنسى المعروف أيضًا ولا أجحده، فأنا كما يقول ابن الرومى: "للخير والشر بقاء عندى"، وقد صدق فأنا من طينة الأرض، "والأرض مهما استودعت تؤدى"، وما أساء إلى أحد إلا نازعتنى نفسى أن أنتقم منه، ولكنى لا أزال أحاورها وأداورها حقى أقنعها بأن الدنيا تغيرت، وأن أخلاق البدو لا تصلح فى هذا العصر المتحضر، وأن الناس لا يقتل بعضهم بعضًا فى هذا الزمان من أجل تمرة أو من جراء كلمة يسبق بها اللسان، حتى تسكن وتكتفى بالانصراف.

وجلست أحاسب نفسى وأسائلها عن ذات الثوب الأرجوانى ما خطبها؟ ولِمَ تبدى لى هذا النفور؟ أتراها تتكلفه؟ ألعل أهلها قد أغاظوا لها وضيقوا عليها فرأت أن تخفف عن نفسها وتعفيها من ثقل تدخلهم بالاحتجاب؟ ألا يجوز أن يكونوا قد كرهوا منى طول النظر إليها فكلموها فى ذلك فلم يسعها إلا أن تكف عن الظهور؟ جائز!! ولكن من الجائز أن أكون قد صنعت شيئًا أغضبها.. ومن الحزم على كل حال أن أعرض أنا أيضًا على حين، حتى تسكن الثورة التى لعلها ثارت فى بيتها وبين أهلها.. ولكن من الإنصاف أيضًا أن أحاسب نفسى قليلاً.. فتعال هنا.. اخل بنفسك واجتهد أن تتذكر..

فتذكرت... ذلك أنى كنت يومًا فى حجرتى فزارنى صديقى: وكان الجو حارًا جدًا ففتحت له النوافذ جميعًا، فقال لى بعد برهة: "أنظر.." فسألته: "ماذا؟"، قال: "هذه النافذة.. ألا ترى الفتاة التى تبدو منها؟"، قلت: "إنك بعيد النظر.. وأنا أعترف أنى لا أرى فتاة وإنما أرى ذراعًا"، قال: "هذا ما أعنى.. لا يبدو منها الآن إلا ذراعها ولكنها كانت منذ لحظة تطل علينا وتنظر إلينا"، قلت: "جائز.. كل شىء جائز.. صحيح إن العمارة التى نحن فيها سبع طبقات.. أو عشر.. لا أدرى.. وفى كل طبقة شقق كثيرة.. ولكل شقة نوافذ وشرفات لم أعدها.. وقد يكون فى بعض هذه النوافذ والشرفات التى لا نراها رجال يطلون منها.. ولكن المعقول أن الفتاة التى لا أزال لا أرى منها غير ذراعها - تنظر إلينا نحن دون هذا الخلق الذى لعله فى الشرفات والنوافذ ونحن لا ندرى".

قال: "لا تمزح.. إن نظرتها إلينا نحن.. وهل يخفى اتجاه النظر؟".

قلت: "ما يدرينى ويدريك؟ ألا يمكن أن تكون حولاء؟؟ تعرف كيف ينظر الأحوال؟؟ تكون عينه عليك ولكنه لا يراك بل يرى الذى إلى اليمين أو إلى اليسار.. أليس هذا جائزًا؟".

قال: "حولاء؟ كلا!! من قال هذا؟؟ كلام فارغ!! إن عينيها جميلتان جدًا".

قلت: "معذرة! إنى - كما تعلم - لم أر سوى ذراعها.. وعهدى بالعيون تكون فى الوجوه لا فى الذراع.. وأظن أن هذا النظام لا يزال هو المتبع فى الخلق.. على كل حال لم أر عينيها الجميلتين....".

قال: "والله إنها تنظر إلينا".

قلت: "صادق، صادق... هذه أصابعها تنقر على حافة النافذة ولا شك أنها تعنينا الآن..".

قال: "دع المزاح بالله. انظر.. انظر..".

فنظرت.. وكففت عن المزح بلا حاجة إلى زجر آخر.. وكانت الفتاة سمراء - لا بيضاء كذات الثوب الأرجوانى - وكانت نظرتها إلينا - لا شك فى ذلك - والرجل يدير رأسه أن يرى امرأة تُنْزِره النظر ولا تكاد تحول عينيها عنه، فإذا كنت قد نهضت إلى النافذة وأخرجت رأسى منها ورحت أحدق فى هذه السمراء الجميلة التى تقبل علينا ولا تعرض عنا أو تتدلل علينا، فأظن أن لى العذر.. ومن أين لى أن أعرف أن ذات الثوب الأرجوانى كانت واقفة فى هذه اللحظة وأنها كانت تراعينى وتراقبنى؟؟ ولو كنت أعرف ذلك لما صدنى عن النظر، فإن حبى لذات الثوب الأرجوانى ليس معناه أنى عميت وأن عينى لا تستطيع أن ترى غيرها وأنى فقدت القدرة على الإعجاب بالجمال فى مظاهره المختلفة، ولكن المرأة أمرها غريب، وإنى لأذكر أنى كنت راكبًا مع فتاة من صديقاتى - وكنت أنا السائق كما لا أحتاج أن أقول - فرأيت فتاة جميلة واقفة على الرصيف فتمهلت لأنظر إليها، وإذا بصديقتى تقرص أذنى فصرخت فقالت:

"هذا جزاؤك".

فسألتها: "ماذا صنعت؟.. بأى شىء أستحق أن تقطعى لى أذنى؟؟ وكيف أستطيع أن أسمع صوتك الحلو بعد ذلك".

فقالت: "ابق اسمع صوت التى كنت تنظر إليها الآن".

قلت: "ما لها؟... ألا تعجبك؟ ألا ترينها جميلة؟".

فعادت إلى القرص، وعدت إلى الصراخ، حتى كدت أستنجد بالمارة، وقد ساء رأى صاحبتى فىّ بعد ذلك، وصارت كلما ركبت معى تشترط ألا أنظر لا يمينًا ولا شمالاً، فأقول:

"ولكن لماذا؟ ما الضرر من النظر والتلفت؟ ثم كيف أستطيع أن أثبت عينى فى اتجاه واحد وقد خلق الله لى عينين تتحركان ولا تثبتان؟".

فلا تجيب عن السؤال وإنما تروح تهددنى وتتوعدنى فأخاف فإن لها قرصًا حاميًا وأنا جلدى رقيق، ولكنى لا أفهم هذا التحكم من المرأة، وما أكثر ما قلت لإحداهن وقد أغضبها أن لى عينًا ترى وقلبًا لا يسعه إلا أن يحس:

"يا ستى إن لك حديقةَ زهر، وفيها الفل والياسمين والورد الأحمر والأبيض والنرجس وما لا أدرى أيضًا.. وأنتن يا نساء كالزهور... فلماذا تريدين ألا تكون فى حديقتى إلا حواء واحدة؟".

فتقول: "بالله دع هذه الفلسفة السخيفة... ثم إنى أكره المكايدة".

فأؤكد لها أنى لا أقصد إلى المكايدة، وأقول:

"نعم إن حواء واحدة مصيبة... وثقى أن غلطة أبينا آدم هى أن جنته لم يكن فيها إلا هذه الحواء المفردة... ولو كان فيها سواها... عشر مثلاً أو عشرون... لما خرج من الجنة".

فتثور بى وتذهب وتعدو ورائى فأضع ذيلى بين أسنانى وألوذ بالفرار.

وما أشك فى أن ذات الثوب الأرجوانى أسخطها علىّ نظرى إلى السمراء، وما تعنينى السمراء لو علمت، ولكنها المرأة لا تعرف إلا نفسها ولا ترضى عما تسميه "العين الزائغة" وهى تشعر بالمنافسة من كل امرأة مثلها، ولا تستطيع أن تفسر النظر إلى امرأة غيرها إلا بأنه تفضيل لهذه الأخرى عليها ولو كانت واثقة من حب بعلها أو رجلها، كنت مرة أتنزه فى إحدى الحدائق مع صديقة فقالت: "هل نركب زورقًا؟" فاستحسنت هذا الرأى وانحدرنا إلى الماء واستأجرنا قاربًا، وقبل أن نمضى به تناولت ذراعى وهمست فى أذنى:

"لا تتحرك... إننى لا أكاد أصدق".

فرفعت عينى إليها فألفيتها ناظرة إلى الحديقة التى انحدرنا عنها إلى الماء، وكان الهواء ساكنًا والمنظر الذى أمامنا كأنه مرسوم، وكان لفرط جماله يذكرنى بأعذب ما قرأت من الأغانى، ثم أشارت بيد أحلى من أناشيد سليمان بن داود وقالت: "ليتنى أستطيع أن آخذها!!". وكأنما قرأت فى وجهى استغراب هذا الكلام فقالت: "إنها أحلى لعبة رأيتها فى حياتى!".

فقلت مستفسرًا: "لعبة؟ هل قلت لعبة؟؟ أين هى؟".

فصاحت بى وهى تشير بأناملها المغرية: "هذا.. هذا.. هذا المنظر.. ألا يروقك؟".

فأدركت مرادها وإن كنت قد بقيت أستغرب عبارتها، وقلت: "لا.. ليس هذا لعبة.. وإنما هو أسطورة..".

فهزت رأسها كالموافقة ثم وضعت راحتها على كتفى وقالت: "إنى سعيدة لأنى رأيت هذا".

قلت: "هو أسعد منك.. وما أكثر ما رأى هذا البستان من نساء ولكنه احتاج أن ينتظر إلى اليوم حتى تروده حواء لها دل الفتاة وقلب الطفل".

قالت: "لا أظن.." ثم رفعت وجهها إلىّ وقالت: "انتظر .. لا تتحرك .. إنى أنظر إلى نفسى فى عينيك".

فقلت ـ وقد أعجبنى ذلك: "حسن.. والآن.. لا تتحركى أنت.. فأنى أتأمل قوس هذه الشفة..".

فذهبت إلى آخر الزورق وأرسلت لى مع الريح قبلة وقالت وهى تجلس هناك:

"إن الذى يعجبنى منك هو هذا.. أنك لا تأخذنى على غرة.. الأكثر فى الرجال يعدون المرأة صيدًا أو قنصًا ... أما أنت فتشجعنى على استعمال حريتى وعلى الشعور

بأن لى استقلالاً وإرادة يجب أن يحسب حسابهما.. وكأنى بك يسرك أن تدع غيرك يحيا حياته على هواه هو ، أكثر مما يسرك أن تفوز من دنياك بمتع حياتك.. والآن ألا نمضى؟؟".

فقلت وأنا أضرب الماء بالمجداف: "إن فيما قلته عنى بعض الغلط.. فأنا أحب أن أصحح لك هذا.. وأنا أعترف أنى لست وحشًا.. إذا كان هذا ما تعنين.. ولكن نظريات أفلاطون لا تروقنى.. نعم يسرنى أن أرى كل إنسان يحيا حياته كما يروقه – ولم لا ؟ – ولكن من أبرز نقط الضعف فى نفسى أنى أحب أن أحيا أنا أيضًا كما أشتهى".

فدنت منى وأراحت أناملها على كتفى، وأسندت وجهها إلى صدرى وقالت وهى تضحك: "إنك عبيط.. ألست كذلك؟ وهذا هو الذى يحببك إلىّ..".

قلت: "يا ملعونة.." – وأحطتها بذراعى – "ارفعى فمك فإنى أريد أن... أسوى ربطتى فى مرآة عينيك..".

وفى هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات خطرت فى دائرة نظرى فتاة كان لا يسعنى إلا أن أراها، وليس لى فى هذا حيلة ولا كان منى عن عمد، ولكنها صارت أمام ناظرى، فأنا لا بد أن أبصرها، وأحست صاحبتى أن عينى تحولت – كما كان لا بد أن يحدث – فحولت وجهها إلى حيث أنظر فأبصرت الفتاة، فما كان منها إلا أن انتفضت قائمة، وضربت المجداف من يدى، وصاحت بى:

"ارجع بى حالاً... إلى البر... قبل أن نبعد...".

فذهلت وقلت: "ولكن لماذا؟؟... إنا لم نبعد إلا خمسة أمتار...".

قالت: "ليتنا بعدنا جداً... ولكن لا... كنت إذن أبقى مغشوشة... مخدوعة... ارجع... أقول لك ارجع...".

ولا حاجة إلى رواية كل ما قالت وما أجبت به، وليثق القارئ أن ريقى نشف كما لم ينشف قط، فقد ثقل علىّ هذا الطبع، وأضجرتنى هذه الغيرة السخيفة التى لا محل لها على كل حال، فبعد أن تألقتها من نفرتها ذهبت ألقنها درسًا لا أظن أنها ستنساه فى حياتها.

ولكن أمثال هذه الدروس لا خير فيها ولا جدوى منها؛ وما أظنها إلا كالكتابة على الماء، وقد تظهر المرأة مجاراتك ساعة تتلقى الدرس، لأنها ترى هذه المجاراة والتظاهر بالاقتناع والتوبة أحزم وأحسم للنزاع، ولكنها لا تملك أن تغير طبيعتها، فهى تظل على الرغم من دروسك كما هى.

وقد أحنقنى من ذات الثوب الأرجوانى هذا النفور الذى لا داعى له، فغضبت وثرت وانتفضت، فرميت ورقات كانت بيدى؛ وكنت جالسًا بحيث أراها وترانى، ويظهر أن ما رأته من خروجى عن طورى المألوف أدهشها جدًا، فقد رأيتها تهب وتطل، فِعْلَ من يريد أن يثبت ويتحقق، ومضيت أنا فى ثورتى، فجعلت أروح وأجئ فى الغرفة، وأقول لنفسى:

"لماذا تحرمُ قبل أن تعطى؟؟ لماذا تبدأ بالمنع ولا تبدأ بالجود؟؟ لماذا تؤثر السوء ولا تؤثر الخير؟ ما هذه الطباع؟ وماذا جنيت أنا؟ إنى أرانى وهبتها الشعور بحسنها حين أحببتها، ولو أنها لم يحببها أحدٌ لما وسعها أن تدرك أن لها حسنًا يعشق وجمالاً يُحب... فشعورها بحسنها هو هبةٌ وعطية منى، لأنى أحببتها... فكيف تتيه علىّ وتتدلل، وتحاول أن تعذبنى جزاء لى على مجهودى الذى استفادت هى منه ولم أستعد أنا شيئًا؟، أى يد لها علىّ؟؟ أنى أراها؟؟ فكل من شاء أن ينظر إلى شرفتها ساعة تكون فيها يستطيع أن يراها مثلى فلا فضل لها فى ذلك يحسب علىّ... ماذا غير ذلك؟ لا شىء... انتهينا إذن!.. وما دامت لا تختصنى بشىء فلا حق لها فيما تتكلفه من حرمانى... لو كانت لم تتكلف لما عبأت ولما أحسست أن فى الأمر عمدًا.. ولكنها عادة

ولست أنوى أن أشايعها على ظلمى... إذن فأنا أنفر كما تنفر... وأحتجب كما تحتجب وليكن ما يكون!".

وبعد أيام عدت أقول لنفسى: "اسمع.. إنها ليست مثلك أنت تستطيع - أن تخرج، وتروح، وتجئ، وتتسلى وتتلهى، ولكنها مسكينة لا تملك ما تملك من الحرية ومن وسائل التعزى.. وما يدريك أنها ليست مضطرة إلى هذا الذى ثقل عليك وكرهته منها؟؟ ولا تنس أنها رقيقة القلب.. أليست قد رأت أنك تشكو ألمًا فى ذراعك فحدثتك نفسك أن قد بدا لك منها عطف كان له وقع حسن فى نفسك".

وقد توسطت وخير الأمور الوسط – كما يقولون – فأنا لا أتكلف الاحتجاب ولا أتعمد أو أتحرى أن أراها، وأدع هذا وذاك للمصادفة؛ وسأرى ما يكون، وأخوف وما أخافه أن أملَّ هذا التعب العقيم فيركبنى عفريت العناد وأجازف.

ذات الثوب الأرجوانى

- ٥ -[(١٠٦)]

(تنبيه: الكلام خيالي ولا أصل له، كما مللت أن أقول وأؤكد في كل مرة)

***

قالوا لى أمس فى البيت: "قم ركب لنا هذه الستائر!".

فقلت: "ستائر؟؟ يا حفيظ!! يا ناس ما هذا الحال المقلوب؟.. فى الشتاء نرفع الأستار، وفى الصيف الحامى نضعها لنزيد الوقدة وليعظم البلاء؟ أما إن هذا لعجيب!".

قالوا: "بل هى تحجب الشمس التى بهت منها لون السجاجيد...".

قلت: "كونوا منصفين.. السجاجيد قديمة، وعسيرٌ أن نطلب من القديم البالى أن يكون له لون الجديد الطريف الزاهى.. خذوا مثلاً هذه الخادمة العجوز... هل كان وجهها مغضنًا هكذا فى صباها؟ أو كان شعرها كما هو الآن أبيض؟ وهل كانت عينها كعين الموتى - لا حياة فيها ولا معنى ولا تعبير؟".

---

(١٠٦) نشرت فى "الرسالة"، ١٣ يولية ١٩٣٦، (ص ١١٢٤-١١٢٧).

قالوا: "دع الخادمة فإن ذنبها إليك معروف... لو كانت شابة لأغضيت عن كل عيب".

فاعترضت على هذا الرأى السيئ والاتهام القبيح لذوقى، ولكنهم ردونى إلى موضوع الستائر الذى أردت أن أستطرد عنه إلى حديث آخر، فقلت:

"الأمر لله.. إنما ينبغى أن تجيئونى بالأدوات اللازمة كلها.. يعنى السلم والمسامير الصالحة لعمل فنى دقيق كهذا.. وهاتوا أيضًا قلعًا (أى فأسًا صغيرة)، فما أستطيع أن أستعمل هذا المعول الضخم، فإنى كما تعلمون رجل رقيق مترف.. ثم لا بد من تمليس الحائط بعد دق المسامير فيه، وإلا بدا للعين الفاحصة متضرسًا غير مستو...".

فلم يجيئونى بما كان من حقى أن أطالب به وأصر عليه؛ وإنما جاءوا بمطرقة كبيرة أحتاج فى حملها إلى رجلين معى، ووضعوا فى يدى مسامير كالتى كانت فى فلك نوح... لا تصلح لهذا الزمن أبدًا... ولكنى كما لا يعرف القراء رجل تضحية – وما أكثر ما أتقبل بالصبر – ومن غير تعليق طويل – ما يمتحننى به الزمن الغادر، لذلك دعوت الله فى سرى أن يبيض وجهى، فإن سواده الحالى كاف جدًا، وشرعت أعمل؛ ولكن هل تركونى أعمل كما ينبغى أن يفعلوا لأكسب رضاهم بعرق جبينى؟ كلا... فقد أحاطوا بالسلم وجعلوا يصدرون إلى أوامر غير معقولة، فقلت لنفسى: "إن جدالهم عبث، فدعهم فى جهلهم واتركهم ولا تجبهم فإنهم يحبون الكلام، وماذا علىّ أن يثرثروا..." ولم أجعل بالى إليهم، ولم أرد عليهم، ورجوت أن يشغلوا بالحديث والثرثرة عما عدا ذلك، ولكنهم لما يئسوا من إصغائى لهم جعلوا يهزون السلم لألتفت، فحدث ما كان لا بد أن يحدث، وما كان طفل صغير يستطيع أن يتوقعه؛ ذلك أنى اضطربت وأنا على السلم، وكنت أهم بدق مسمار، فوقعت المطرقة على أصابعى لا على رأس المسمار كما كان ينبغى أن تفعل لو كان لها عقل! فصرخت... وهل أنا حجر؟؟ ثم ما أشعر إلا والسلم يهوى بى إلى الأرض... وقد كانت أيديهم عليه، وكان فى وسعهم أن يمنعوا

سقوطى وسقوط السلم معى، ولكنى دققت أصابعى فيجب أن يضحكوا!! نعم ضحكوا، بل قهقهوا، بدلاً من أن يأسفوا أو يقلقوا علىّ، أو يحزنوا لما أصابنى فى سبيلهم، فتركوا السلم يفعل بى ما يشاء... وقد أسمعتهم رأيى الصريح فيهم وفى هذا الكفران لنعمتى، والجحود لفضلى، وفى تعريضى للمضرات، وفى أنهم إذا حاق بى مكروه فى سبيلهم ضحكوا وسروا وفرحوا جداً... ثم تركتهم ومضيت أظلع - فوق ظلعى - إلى النافذة، وكنت أفرك أصابعى لأسويها وأرد إليها استدارتها فقد عجنتها المطرقة، ولألطف الألم أيضًا فإنى لست بحجر كما أسلفت، وإذا بذات الثوب الأرجوانى واقفة فى شرفتها تضحك كما يضحكون! فنظرت إليها أسفًا وقلتُ - كما قال يوليوس قيصر حينما طعنه بروتس -: "وأنت أيضًا؟؟"، ولولا أن وقع المطرقة على أصابعى لم يفقدنى حبى للحياة ولم يضعف إرادتها فى نفسى لتمثلت بقول القائل: "فيا مَوْتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَميمَةٌ"[١٠٧] ولكن الحياة ليست ذميمة على الرغم من المسامير العتيقة والمطارق الطائشة التى لا عقل لها فى رأسها الناشف والأهل الجاحدين والحبيبة التى يسرها أن تفرم أصابعك وتلتوى ساقك، بل هى جميلة - أعنى الحياة - ومرضية على كل حال وحميدة كيفما كانت - بل أعنى الحبيبة أيضًا وإن كانت تسخطنى ولا ترضينى، ولا أدرى ما لذتها التى تستفيدها من هذه المكابدة؟؟

والله إن النساء أمرهن عجيب!! هذه ذات الثوب الأرجوانى تفتح النافذة وتنظر ثم تولينى جنبها، وما شبعت من وجهها، ثم تدير لى ظهرها ثم تهز رأسها فينتشر شعرها الجميل ويعود كالشمسية المفتوحة ثم ينسدل على جانبى وجهها ثم ترمى إلىّ نظرة سريعة جداً يغيب عنى معناها من شدة السرعة - مضافًا إليها البعد - ثم تدخل

---

(١٠٧) من بيت لأبى العلاء المعرى من الطويل ونصه:

فيا مَوْتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَميمَةٌ ويا نَفْسُ جِدّى إنّ دهرَكِ هازِل

وتختفى!! ماذا كسبت بالله من هذا؟؟ وما حيلتى إلا أن أهز رأسى أنا أيضًا وأقول لنفسى إن أصحاب العقول فى راحة! ولو كانت تسمعنى لغضبت، ولكنها بعيدة فأنا أقول ما أشاء وأنا آمن!

ومكايدة أخرى.. ظهرت - لى - فى الشرفة يومًا فى ثوب أزرق لا أحبه، وكنت لابسًا ثيابى ومتهيئًا للخروج فما أستطيع أن أقضى حياتى فى شرفة - كما تفعل هى - وإذا بها تدخل ثم تعود فى ثوب أبيض جميل من الحرير الأبيض له شقتان واحدة على الصدر والأخرى تحتها على سائر البدن إلى القدمين، وعلى رأسها قبعة بيضاء كقلبها - مجازًا فما فتح لى قلبها إلى الآن - تثنى حافتها على حاجبها الأيسر دلالاً، فقلت لنفسى: "إلى أين إن شاء الله؟؟ وإنها لحادثة فما رأيتها قط تخرج، بل هى بشرى تنعش الأمل، إذ ما دامت تخرج فلا موجب لليأس، وإذا بها بعد قليل خارجة من باب البيت، ولكن مع أهلها!! فسبحان الله العظيم!! وهل كان لا بد من هؤلاء الأهل؟ ما فائدتهم أو ما الضرورة إليهم على كل حال؟ ثم إن الأهل لا داعى للحرص على الاتصال بهم وملازمتهم لأنهم فى الحقيقة ثمرات المصادفة البحت والاتفاق المحض، الأخ مثلاً شىء يجئ مصادفة.. ولو كان أبى - ولست أتكلم عن نفسى وإنما أضرب مثلاً تأييدًا لنظريتى ليس إلا - أقول لو كان أبى مات قبل أن يموت بأربع سنوات أو خمس - وهو قد مات على كل حال، فما ضر أن يموت قبل ذلك - لما صار لى أخ، ولكنه اتفق أن عمر أبى طال أكثر مما كان ينبغى - إذا اعتبرنا الذرية والإسراف الذى لم يدع لنا ميراثًا يستحق الذكر - فصار لى أخ كان من الممكن ألا يكون لو أن أبى كان عاقلاً مقتصدًا - على الأقل فى الأبناء - وقل مثل ذلك عن الأب والأم وأبناء العم وبنات الخال إلى آخر هذا البلاء الطويل فإنهم جميعًا أقارب بالمصادفة ليس إلا... فلماذا يجب أن أحبهم وأراعى مزاجهم وأتحرى مرضاتهم؟؟ ولا بأس بالحب فإنى مستعد أن أحب الدنيا كلها ما دام هذا الحب لا يضايقنى ولا يفرض علىّ أعباء لا أطيقها أو لا استسهل حملها.. ولكن الملازمة وتوخى المرضاة هذا تكليف ثقيل جدًا،

هذه المسكينة مثلاً لا بد أن تخرج مع أخيها أو أبيها أو لا أدرى من أيضًا من هؤلاء الذين هم أهلها بالصدفة... لماذا؟ ماذا جنت؟؟ ما ذنبها هى إذا كان هذا أو ذاك قد شاء أن يكون أخاها أو عمها أو أمها؟... لماذا لا تخرج وحدها فيتيسر أن تشعر بأن لها وجودًا خاصًا مستقلاً عن وجود هؤلاء الآباء والأمهات والأخوة والأعمام والخالات إلخ؟؟ والحق أقول إنى تحسرت عليها ولها، فإنها مسكينة ولا شك تحيا حياة مرهونة بحيوات أخرى على حين لكل من هؤلاء الأخرين حياته الخاصة المستقلة التى لا علاقة لها بحياة هذه الفتاة.

وقد كانت تضحك وهى واقفة تنتظر الترام مع أقرباء الصدفة ومن حقها أن تضحك، فقد نزلت إلى الأرض وداست قشرتها الصلبة بقدميها الصغيرتين وركبت الترام - أو هى ستركبه بعد دقيقة - ورأت الناس عن قرب بعد أن كانت تراهم عن بُعد كالأشباح، وألفت نفسها سابحة فى لجة الحياة التى لا يمكن أن تحسها أو تدركها وهى فى شرفتها... نعم كانت فى المريخ تحلم بدنيا لا تعرفها فهبطت إليها وصار الحلم حقيقة والظن يقينا... فلها أن تضحك وتسر.

وأنا؟ أنا أبدى لها المودة فتتلقاها بهذه الجفوة والنفور والتخفى والتدلل كأنما أسئ إليها بحبى لها، وأجنى عليها بميلى إليها، أو كأنما من الشتم لها أنى تركت مئات ومئاتٍ من الفتيات وآثرتها عليهن جميعًا!! فلو أنى كنت أبدى لها الكره والاستخفاف والاشمئزاز أكانت تقابلنى بشر من هذا؟؟ كلا! بل كانت حينئذ تتعمد أن تبدو لى وتتكلف أن يكون ظهورها فى حفل من الزينة، لأنه كان يشق عليها فى تلك الحالة أن رجلاً لم يَصْبُ إليها، لم يفتنه جمالها، ولم يسب لبه حسنها، وكان هذا الإحساس خليقًا أن يدفعها إلى التحدى - غير أنه تحدى ينطوى على استجداء للإعجاب من الرجل، وأنا أقول الاستجداء وأعنى ما أقول بلا نقص، ذلك أن الجمال هو السلاح الوحيد الذى وُهبَتْهُ المرأة، وليس لها فى كفاحها فى الحياة سلاح غيره، فإذا فقدته فحكمها هو حكم كل مناضل ليس له سلاح، وصار أعزل لا يملك كرًا ولا فرًا ولا

مصاولة ولا محاورة ولا مداورة، وماذا يملك الأعزل أمام الشاكى إلا أن يذعن لقضاء الله فيه ولتحكم القوة المسلح؟؟ ولا فرق بين أن تفقد السلاح الذى تصول به وتجول، وبين أن يثبت لك أنه قد صار لا فعل له فإن عمل السلاح ومزيته أن يحدث أثره لا أن يكون فى يدك والسلام، فإذا لم يكن له أثر كان يكون قد فله شىء، أو لاقى ما يثنيه أو يرده أو ما يصبر على وقعه ولا يتضعضع أمامه، فهو وعدمه سيان؟ كذلك المرأة - إذا فقد سلاحُها قيمتَه فلم يعد جمالها يحدث أثره المطلوب فى نفس الرجل فإنها تكون فيما تحس حيال هذا الرجل عزلاء لا حول لها ولا طول فلا يسعها إلا أن تخضع وتذعن وتروح تستجدى العطف وتلتمس الرضى، وتتوسل إليه باللين والمصانعة والتحبب والإغراء بعرض كل ما عندها من المفاتن، وكأنى بذات الثوب الأرجوانى قد خيل إليها أنها قد ضمنت حبى واستوثقت منه، فهى لا تباليني لأنها فى ظنها منى على يقين، وأولى بها أن تعنى بغزو قلب غير قلبى - قلب آخر لا يزال مستعصيًا عليها نابيًا فى يديها - أما أنا فقد علق جناحى بالشرك فكيف الفكاك وأين المهرب؟ وهذا ظن كل امرأة معشوقة من الرجل الذى تعرف أنه يحبها وتأنس منه الصبر على دلالها، وليس يصرفها عن ذلك إلا أن تساورها الشكوك، وتدور فى نفسها الوساوس، ويحك فى صدرها الخوف من ملل الرجل وضجره من هذا العبث، ولو كانت تعرفنى لخافتنى فما أنا ممن يصبرون على هذا اللعب، وإنى لأحبها - أو هكذا يخيل إلىّ - ولكنى فيما أظن أحب نفسى أيضًا، وحبى لها هو بعض حبى لنفسى، وليس الأمر على العكس، وحب الرجل للمرأة معناه أنه يريدها خالصة لنفسه، لينعم بها وحده، ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها، وليس معناه أنه يريد أن يعذب نفسه وينغص عيشه ويسود وجه الحياة فى عينيه، أما حب المرأة للرجل فمعناه أنها رأته - بغريزتها لا بعقلها فإنها تنقاد لغريزتها ولا تفكر بعقلها - أحق رجل بامتلاك زمامها والسيطرة عليها وأكلها وهضمها، فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة أما المرأة فإنها تطلب الرق وتسعى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل، فهو لهذا أنانى فى حبه، وهى لهذا مضحية فى حبها، فليس عجيبًا أن تحتمل هى المكاره فى سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى

فأولى أن تصبر على التضحيات الصغرى، بل العجيب ألا تصبر ولا تحتمل، أما الرجل فهو كما قلت أنانيٌّ فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه للعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة، لأن طبيعة حبه لا تبيح له أن يفهم هذه التضحية ولا تجعله مستعداً لها، ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيقى، فإن الوفاء من الرجل إفلاس نفسى وخيانة لطبيعته التى فطر عليها، وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل فى تاريخ الإنسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع وتكون له الجوارى فضلاً عن الزوجات أو من هن فى حكمهن، ولم نر المرأة تتخذ من الرجال اثنين أو ثلاثة أو أربعًا، إلا أن تفعل ذلك سراً وخفية ولعلةٍ، ولكن الرجل لم يكن يعمل هذا سراً بل جهراً، وكان يقيمهن فى بيت واحد، وكانت المرأة ترضى وتذعن وتسعى سعيها لتكون هى الأثيرة لا الوحيدة، وكان الرجل لا يكف عن الاشتهاء والتطلع على غير الموجودات، والتبرم بالموجودات، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة فى الرجل والمرأة، فمن كان يشق عليه أن يقرأ هذا فليتدبر تاريخ الإنسانية قبل أن يفتح فمه، وليحاول أن يعلل هذا التاريخ على وجه مقبول معقول قبل أن يعترض، ثم فليتأمل حاضر الإنسان وليسأل نفسه عنه أتراه يختلف عن الماضى إلا فى المظهر دون المخبر والجوهر؟؟

فالوفاء - فيما يتعلق بالرجل - أكذوبة ومنافاة للطبيعة، ولكنه فيما يتعلق بالمرأة صدق إخلاص للطبيعة؛ ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات، وهذا هو تفسير الغيرة الشديدة من جانب المرأة، وهى غيرة لا تقاس إليها غيرة الرجل مهما عظمت، لأن غيرة الرجل على امرأته هى كغيرته على كل ما يملك! فإذا أمن أن يضيع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر؛ فغيرته فى الكليات لا فى الجزئيات والتوافه، ولكن غيرة المرأة مرجعها إلى إدراكها - بغريزتها الذكية التى تهديها فى حياتها - إن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء، ولا يملك إلا أن يتحول ويتقلب فى حبه، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هنا، فكل حركة منه أو لفتة نذيرٌ منه

عندها يوشك هذا التحول، وفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وإيثار، وعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتى لا يباليهن ولا يحفلهن ولا يحسهن أو يفطن إلى وجودهن، فهى غيرة على الوجود وكل ما ينطوى عليه من الحقوق والمزايا، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطرمة.

ومن حق ذات الثوب الأجوانى أن تغار وتقلق، ويجب أن أكون منصفًا، فإنى أنا أثرت غيرتها بطول النظر إلى جارتها، وأقول جارتها وإن كان بينهما مثل ما بينى وبينها هى من البعد.

والحق أن جارتها جميلة فاتنة، ولست أحبها - على الأقل إلى الآن - ولكنى لا أرى ما يمنع أن أحب الاثنتين معًا، فإن لكل منهما مزيتها وخصائص حسنها وتعبيرها الذى لا يشبه تعبير الأخرى؛ والسمراء ألين وأسلس فى العنان على ما يبدو، نعم إن ذات الثوب الأرجوانى أسلم فطرة وأنقى وأخلص سريرةً وأبسط قلبًا وأبرأ من العبث، ولكن تلك شيطانة ملعونة وعفريتة من الجن تجعل الحياة كلها حركة دائمة، وما قيمة الحياة الراكدة؟؟، على أنى كما قلت لم أحبها بعد، وإن كنت أعجب بحيويتها الزاخرة، وقد أحبهما معًا، أو تستأثر بى التى هى أقدر.

ذات الثوب الأرجوانى

- ٦ -[١٠٨]

(تنبيه: الكلام خيالي ولا أصل له)

***

كذبت على الله وعلى نفسى حين زعمت أنى معجب بالسمراء وأنى لا أحب الثوب الأزرق.. لا والله.. فما أبالى السمراء ولا إعجاب لى بها، وكل ما فى الأمر أنى رأيتها كثيرة المرح فراقنى أن تتلقى الحياة هاشة باشة، وأن تضحك للدنيا، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة، وأنا مفطور على الجد، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبرى، فأنا لا أزال ألتمس التسرية والترفية بما يدخل فى طوقى من الوسائل، ومن هنا هذا التناقض الذى يراه الناس فى طباعى، ولا تناقض هناك فيما أعلم، وإنى لكما كنت طول عمرى، وإنما اختلفت المظاهر، وأُولاى معقودة بأُخراى، ولقد كنت فى صباى يائسًا من الخير والسعادة فى هذه الحياة، وأنا الآن أكفر بهما، ولكنى كنت فى حداثتى يحزننى عجزى عن الاطمئنان إلى الخير فأكتئب وأتجهم وأروح أعذب نفسى وأقطع قلبى حسرة، وأغرانى هذا بالزهادة ونشدان الراحة - على الأقل - بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون إليه؛ وكنت

(١٠٨) نشرت فى "الرسالة"، ٢٠ يولية ١٩٣٦، (ص ١١٧٦-١١٧٨).

أقول لنفسى جاداً إنى تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح، وإنى طلبت اللذات فما وجدت فيها لعاقل غناء.. فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد فى الطب شفاء منه، ولكنى ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إحماءً، وأن الزهد ليس منجى، وأن النفس تخسر به طيبها ورضاها، وأن الذى لا يمد يده ليجنى ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التى يراها على أفنان الشجرة، وقد لا يفوز الطالب الساعى بكل ما يبغى، ولكنه لا شك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه، فإذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع، فالطلب أولى، والسعى أوجب، لأن الطلب والسعى من مقتضيات الحياة، والحياة هى الحركة لا السكون ولا الجمود، والزهد قهر للنفس، والطلب فيه كذلك قهر للنفس، وقهر النفس مع إفادة ما يمكن أن يفاد خير من قهرها مع الحرمان، والدنيا تسير على مقتضى نواميسها هى، لا على هوانا نحن، فسيان أن تضحك لها وأن تعبس، وللضحك إذن خير وأحزم وأولى بالعاقل.

وعلى ذكر الضحك أقول إنى أعجب لذات الثوب الأرجوانى لماذا لا أراها تضحك أبداً؟؟ إن من تعاريف الإنسان أنه حيوان يضحك – أى يستطيع الضحك – ولكن هذه لم أرها تضحك إلا مرة واحدة، فعظم وقع ذلك فى نفسى لندرته ولأنه كان فلتة مفردة، فوجهها كالقمر – سوى أن ماء الحياة والشباب والصحة يجرى فيه – أعنى أن تعبيره لا يتغير ولا يختلف ولا يتعدد، وقاتل الله البعد! وما يدرينى؟؟ فلعلها تبتسم ولكنى لبعدها لا أراها رؤيتها، ولست أذكر أنى رأيت وميض عينيها، أو أن عذوبة نظرتها أو قوتها حركت قلبى، أو أن ابتسامتها الحلوة أو الساخرة أغرتنى بالأمل أو الحزن... ولكنى على هذا سمعت صوتها... نعم سمعته على الرغم مما يفصلنا من البعد... وكانت الليلة مظلمة والحر شديداً، وكنت قاعداً فى الشرفة والشجر على جانبى الطريق كأنه صور مرسومة من فرط الركود، فرأيتها تميل على جانب الشرفة؛ ونظرت فإذا

جارتها فى شرفتها وبينهما نحو مترين أو زيادة، وانطلقتا تتحدثان بصوت خفيض فى أول الأمر، ولم أكن أرجو أن أسمعهما، ولا كنت آمل ذلك وإذا بالصوت يرتفع فى الليل الساكن وإذا بصوت فتاتى يحمله إلىّ.. ماذا؟ لا أدرى! فما كان هناك نسيم حتى أقول إنه حمله.. ولكنه صافح أذنى على كل حال، وقد شق علىّ أن أكون بحيث أسمع حديثهما، ولكنى لم أكن أتسمع، وكان بينى وبينهما عشرون أو ثلاثون مترًا - إذا حسبت الارتفاع - فإذا كانتا قد شاءتا أن تتكلما بصوت يسمعه الجيران فأظن أن هذا ليس ذنبى، ولولا الحر والركود الخانق لدخلت جحرى وأويت إلى حيث لا يبلغنى الصوت، وكنت ساعة تهدى إلىّ الصوت أنظر إلى الطريق الخالى الموحش فى هذا الليل الساكن - ولو شئت لقلت الراكد ولكنى شاكرٌ - وكنت ربما رفعت عينى إلى النجوم الخفاقة اللمعان، وإذا بالصوت يقع فى مسمعى فيكاد قلبى يقف... ولم يخالجنى شك فى أن هذا صوتها هى لا صوت الجارة... ولا أدرى من أين جاءنى هذا اليقين؟! وياله من صوت!!. رنان.. نافذ.. عميق الواقع.. فلو كنت تغنين لما كان أحلى ولا أسحر.. بل أنت كنت تغنين.. فما يرتفع الصوت بهذا الوضوح البلورى ولا يخفت - فى غير همود - إلى مثل الهمس، ويبريه الشجى أحيانًا، ثم يعلو كأنه صيحة الحرية، ثم يضطرب ويتردد كأنه زفرة الأسى التى تتمرد على الكتمان - أقول ما يكون الصوت هكذا إلا فى الغناء.. ولا أدرى لماذا، ولكنى لم أكد أسمع صوتكِ حتى خيل إلى أنى أسمع "أورفيوس" يناشد حبيبته ويدعوها إليه ويصيح "ماذا ترانى أصنع بغير يوريديس؟" نعم.. كذلك بدا لى أن صوتك الذى هفا إلىّ على جناح النسيم الراكد.. صوتك الحافل بالأسى المكتوم والرغبة المكبوتة ينادى.. ويدعو.. ثم لم أعد أدرى ماذا جرى لى ولا ماذا أصاب الدنيا حولى؟ وأحسست أن حياتى قد التف عليها صوتك كما تلف الخيال على أعضاد الأسير.. وكأنما تسرب وجودى فى وجودك الغامض.. وأطفئت الأنوار... وازداد الليل حولى ظلامًا وصار السكون أعمق، وأنا واقف لا أشعر إلا بخفق

هذا الصوت الملائكى فى نفسى، وطلع النهار - نهار الناس - وأنا ماثل على حافة الشرفة أنظر ولا أرى...

وقد صارت لى بعد تلك الليلة حياتان تتصارعان - أنا الذى كنت لو تصدقينى، أقضى أيامى ساكنًا لا يكاد يسرنى أو يسوءنى شىء - أما الآن فإنى أثب وأتنقل من الرغبة الجامحة إلى العقل الجاف المحل، وأحس دمى الحار ينبض فى عروقى - لا بل أراه - وقلبى يثب إلى حلقى فتتعلق أنفاسى وتكاد تحتبس، ثم تغمرنى موجة من المرارة الأليمة ويسخر منى عقلى ويهزأ مما تخيلته من صيحة أورفيوس إذ يدعو إليه يوريديس، وما دعا إلا قلبى، وأين منى أورفيوس؟ وأين منك تلك التى لم أعرفها إلا من "جلوك".

وليت من يدرى أين أنت الساعة؟؟ إن الليل ساج كليلتنا تلك، والدنيا ساكنة تنتظر أن تخرجى إليها فى هالة من الحسن، وأنفاس معلقة وأذنى مرهفة لأسمع، ولى على هذه الشرفة ثلاث ساعات طويلات المدد، ولست أحس تعبًا أو أشعر بقلق، فإنى كالمجنون أو المخمور، إنى لأرسل إليك من صيحات القلب ما لا يسمعه سواك لو أنك تصغين.. ثلاث ساعات وأنا أدعوك وأنت لا تجيبين.. كلا!! صوتك الملائكى لا يسمع مرة أخرى، ولا ينطلق فى هذا الليل الساجى لينعشه ويحييه، وإن نوافذ بيتك لمفتوحة، وإن الحجرات لمضاءة، ولكنها ساكنة كأنها مهجورة، حتى ليفزعنى النور الذى يخرج منها.

لم أسمع صوتك بعد ذلك ولكنى رأيت الوردة التى فى يدك وكنت تنفضين عنها الطل أو الماء، ثم غبت بها واختفيت بعدها كأنما يكفى غذاء لروحى أن أرى معك وردة حمراء... كلا... لست أريد وردًا وإنما أريد أن أسمع ذلك الصوت وأنعم به، وأن أجتلى عينيك وأرى فى صقالها روحى، وأن أرى رجفة شفتيك وأنت تبادليننى الإعراب عما ضاق الصدر بما أجن منه والقلب بما وجد، وأن أحس خفق قلبك وتحسين دقات

قلبى... فإذا كنت تؤمنين بما أومن به - وما أومن من الناس إلا بكِ وحدكِ لا شريك لكِ - وإذا لم تكونى خيالاً ينسخه النور.. وإذا كنت أنثى... وكان ذلك قلب، فبالله ألا ما أسمعتنى هذا الصوت مرة أخرى!! وهل أقل من ذلك؟؟.

إنك جميلة وحزينة يا من لا أعرف اسمها - ولو كنت أعرفه لضننت به على الدنيا التى تجملينها - هذا ما قاله لى صوتك حين سمعته فى فحمة الليل الساكن، وقد رأيتك بعد ذلك فى الشرفة وفى يدك الوردة الحمراء ونظرت إلى عينيك الواسعتين تحت حاجبيهما المستقيمين فأعادت على نظرتهما ما كان صوتك قد أوحى به إلىّ - وإلا فلماذا يرتخى الهدب الطويل الأوطف إلا ليحجب ما عسى أن تشى به النظرة من الخواطر؟؟ ورأيت فمك الجميل وشفتيك الورديتين خلقة لا صناعة... شفتيك اللتين لا تعرفان كيف تبتسمان.. وفكرت فى هاتين العينين اللتين لا أجتلى فيهما البشر والرضى، وفى هذا الفم الحلو الذى لا تريدين أن تدعيه يفتر عن ابتسامة - ولو ساخرة - فكرت فى ذلك لحظة وإن كانت عيناك وشفتاك جديرة بالتأمل دهراً كاملاً.. ومن أعاجيبك أنى أراك أحياناً مسرورة ويبدو لى أنك قريرة العين ولكن لا ابتسام، ولا ضحك، ولا شىء من مظاهر السرور المألوفة... فقد لاحظتك ودرستك وخبرتك بقدر ما يتيسر ذلك لبعيد مثلى لا يراك إلا من النافذة، وأعجبت بشبابك وجمالك ورزانتك وكبريائك أيضًا، وبذوقك السليم فى الثياب والزينة.. ودرست الذين حولك من أهلك... وأحسب هذا الرجل المحتشم أباك وأظنك ورثت عنه هذا الجد الصارم والتحفظ الشديد.. وتلك أحسبها أمك وإن كانت تبدو أصغر من أن تكون أمًا، ويعجبنى منك ومنها أنكما تبدوان كصديقتين لا كأم وابنتها، والآخرون.. ولكن ما لى وهؤلاء جميعًا؟؟.

وقد رأيتك أمس تخرجين مع أمك أو يحسن أن أسميها صديقتك فإنها أشبه بذاك - وكنت واقفة بالباب تنتظرين أن تلحق بك وفى يدك وردة صغيرة تشمينها.. وإنى

لجنون.. وإن لك أن تقول إنى طفل يرجو ويؤمن، أو رجل يحلم، ولكنى أعتقد أن هذه الحركة الرقيقة كنت أنا المقصود بها، فما كان فى الطريق ولا فى النافذة غيرى.. نظرتِ إلى ناحيتى ثم رفعت الوردة إلى أنفك الجميل وبعثت إلىّ بهذه الوسيلة رسالة.. رسالة من مجهولة إلى مجهول.. وخيل إلىّ - وقد أكون واهمًا - أنى لمحت امتقاعًا فى لونك حينئذ فزادت الرسالة غموضًا على جمالها.. ثم مضيت وما لبثت أن غبت عن عينى.. وبقيت أنا مسمرًا فى مكانى لا أبرحه انتظارًا لعودتك.. مضت ساعة وأخرى وثالثة وأنت لا تعودين.. وإذا بك فى الشرفة!! فإن كنت قد دخلت قبل ذلك بكثير ورأيت عينى التى لا ترتفع عن الطريق حتى لا يفوتها منظرك وأنت عائدة، فلا شك أنك قد ضحكت من هذا الأبله المخبول الذى ينظر ولا يرى من فرط الاضطراب.. لا بأس.. وإذا كنت لم أرك فإنك فى قلبى.. قلبى الذى صار محرابًا لحسنك.. وإنى لأحس أنى أصبحت شيئًا مقدسًا بحلولك فيه....

ذات الثوب الأرجوانى

- ٧ -[١٠٩]

(تنبيه: الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)

***

طلبت من الريف ما لا سبيل إليه فى هذه المدينة العظيمة ذات العمائر الشامخة، والبنى الرفيعة، والهواء الحبيس، والنفوس المروضة على تكلف غير طباعها، وكان بعض قومى قد سبقونى؛ فأنبأتهم أنى لا حق بهم، وإذا ببرقية تردنى منهم يقولون فيها: "هات فتنة معك" فلم أدر ما - أو من - "فتنة" هذه.. أقطة هى يا ترى؟ أم فتاة؟ أم كلبة؟ أم ماذا؟... وكنت أعد حقائبى، ومكتب البرق بعيد منى، وحدثتنى نفسى أنهم يعرفون أنى لا أعرف "فتنة"، فالأرجح أن يكونوا قد أبرقوا إليها لتتصل بى، أو لأصحابها إذا كانت حيوانًا، وقلت سأسافر على كل حال فى الوقت المعين، جاءت "فتنة" أم لم تجئ؟ وأقبلت على الحقيبة أحشر فيها - فما لى قدرة على الترتيب والتنظيم - ما أقدر أن سأحتاج إليه، وإذا بالباب يقرع قرعًا مزعجًا لا عهد لى به، ففزعت ومضيت إليه على عجل مخافة أن يكسره الطارق، ودار فى نفسى أن هذا دق "تيمون الأثينى" باب الآخرة حين انحدر إليها بعد أن وافاه حينه الذى كان ينتظره بصبر فارغ من فرط كرهه

---

(١٠٩) نشرت فى "الرسالة"، ٢٧ يوليه ١٩٣٦، (ص ١٢٠٦-١٢٠٩).

للناس، فإن أساطير اليونان تزعم أن الناس يهبطون بعد موتهم إلى وادى الظلال، وهناك يحشدون فى الفجر ويُعدّون وتقيد أسماؤهم ثم يركبونهم زورقًا - غير بخارى بالطبع - إلى وادى القنوط حيث يكون الحساب، ومن غرائب هذه الأسطورة أن على كل راكب أو محمول فى هذا الزورق أن يؤدى أجرة العبور إلى وادى القنوط... وقد ضحكت وأنا أذكر هذا إذ أمشى إلى الباب، وقلت لنفسى والله إن بيتى لكوادى القنوط بفضل "ذات الثوب الأرجوانى" وما أخلقنى حين أفتح الباب لهذا الزائر المستعجل أن أرحب به بهذه الأبيات القديمة التى نظمتها لمناسبة شبيهة بهذه:

"دارُنا مغرب أنوار الحياةْ   من رآها ير الضوء الطليق

مل لمن يهوى إليها من نجاةْ   ما لما يغرب فيها من شروق

***

وهى، فى الأكوان، دنيا عاقرُ   كل زّخار له فيها ركود

ضرب السحرَ عليها ساحرُ   فهى عنوانٌ على عقم الوجود"

ولكن شيئًا - لعله الإلهام - صرفنى عن هذه التحية غير الطيبة، فقد كان الزائر فتاة أشهد أنها من أجمل - إذا لم تكن أجمل - من رأيت فى حياتى؛ وكانت رشيقة ممشوقة، ووجهها وضاح؛ أما عينها فأعوذ بالله منها! أعنى أن البراقع ما اتخِذت إلا لتقى الناس سحر مثلها.

وقالت هى تنساب كالماء الرقراق: "لست تعرفنى بالطبع.. ولكنى أنا أعرفك".

قلت: "تفضلى.. أعنى أولاً.. وبعد ذلك يتسع الوقت للسؤال والجواب".

قالت: "متى تسافر؟".

قلت: "هل تعلمت فى انجلترا.. أو لعل أباك إنجليزى؟".

قالت: "لماذا.. إنى سمراء، أو لونى أقرب إلى السمرة.. ثم إنى لا أعرف الإنجليزية... تعلمت فى "الميرده دييه (فقط)".

قلت: "هذا أحسن.. على كل حال إنما عنيت أنك تمضين إلى غرضك بلا لف ولا تضيعين الوقت... سأسافر فى الفجر".

قالت: "سأبعث إليك إذن بالحقائب الليلة وأجئ أنا قبيل الفجر".

قلت بفرح: "أنت إذن "فتنة"؟؟ لقد صدق الذى سماك".

فقالت وهى تنهض عن الكرسى وتمضى إلى المنضدة وتقلب ما عليها: "أليس عندك سجاير؟ أم أنت لا تدخن؟".

قلت: "إنك صغيرة جداً.. ولكن خذى".

فأخذت سيجارة وانطلقت تدخن وهى ساهمة وأنا أنظر إليها ولا أقول شيئًا، فقد خطر لى أنى سأشهد فصولاً كثيرة متعاقبة لهذه الرواية، وإذا بها ترمى السيجارة من النافذة وتقول "إلى الملتقى إذن.. وشكراً لك".

وليس أبغض إلىَّ من أن يرى الناس ما أصنع أو يشهدوا خروجى ودخولى وسفرى وإيابى، ولكنى أحسب الدنيا كلها - دنيا شارعنا على الأقل - قد علمت أنى مسافر بالسيارة، وأن معى فتاة جميلة سترينى النجوم فى الظهر الأحمر.. وأطلعت - أعنى الدنيا الخاصة - على ما فى حقيبتى الصغيرة وحقائبها الكثيرة المنتفخة فقد كانت لا تفتأ تأمرنى بأن أغير كل ما رتبت، هذه الحقيبة لا يجوز أن تكون تحت غيرها لأنها من جلد طرى فهى تخشى عليها التلف.. وهذه الكبيرة فيها ما قد تحتاج إليه فى الطريق فيجب أن تكون فوق، فأقول ولكن الطرية يجب أن تكون فوق فماذا أصنع؟؟ فتقول هات الطرية معنا فى السيارة فأطيع وأحل ما عقدت، وأعقد ما حللت، ثم يتضح

أن فيما ربط خلف السيارة أشياء لا بد منها كل بضع دقائق فى الطريق، فأسأل مثل ماذا؟ فتقول مثل زجاجة الكولونيا الصغيرة وملحقاتها من أدوات الزينة المعروفة التى لا غنى عنها - حتى الفتيات الصغيرات مثل "فتنة" صرن لا يستغنين عن ذلك، فأعود إلى الحل والعقد وأفتح لها الحقائب - فى الطريق من فضلك - ولم تكن الشمس قد طلعت، ولكنه كان هناك خلق كثير احتشد لمكيدتى!! وقد عنيت بأن أحمى هذا الخلق وإليك البيان:

(١) سائق مركبة "كارو" - سكران على الأرجح.

(٢) ستة من عمال الطرق عائدون يمشون صفين ومعهم المكانس يحملونها كما يحمل الجنود البنادق، وقد وقفوا ينظرون إلينا مسرورين.

(٣) قطتان: واحدة على رصيفنا والأخرى على رصيف "ذات الثوب الأرجوانى".

(٤) أربعة غلمان كانوا سائرين فلما رأونا راقهم منظرنا فوقفوا ينظرون ويتبادلون الملاحظات ولا أدرى من أين جاءوا ولا إلى أين كانوا ذاهبين فى هذه البكرة.

(٥) رجل من عمال شركة النور كف حين رآنا عن إطفاء المصابيح وجاء ووقف مع الغلمان.

ولم أحسب المارة الذين أبى لهم أدبهم - أو ذهولهم أن يقفوا يتفرجوا، وقد كان هؤلاء جميعًا يضحكون منا حتى القطتان.

ولا أمل القارئ بوصف هذه الرحلة وما جرى فيها فليس لهذا آخر، فقد كان كل كيلو فيها لا يخلو من حادثة، وصار لى فى هذه السكة الزراعية من الذكريات بعدد ما على جانبيها من الأشجار، ولما دونا من البلدة قالت:

"هل هذه هى..."

قلت: "قربنا"

قالت: "أراهن أنك لن تقبل بعد اليوم أن تحمل فى سيارتك فتاة أخرى".

ثم التفتت إلىّ أعنى أنها انحنت قليلاً إلى الأمام، وواجهتنى وهى تبتسم وقالت:

"قد تكره أن تسمع منى هذا ولكنى شاكرة... شاكرة جداً.. وقد أتعبتك.. لا تقل شيئًا فإنى واثقة أنى أتعبتك، ولكنك كنت حليمًا جداً".

فقلت: "كلام فارغ.. قولى شيئًا آخر".

قالت: "لا أدرى متى يتاح لى أن أراك مرة أخرى ولهذا عجلت بشكرك فى الطريق".

فضبطت نفسى بجهد، ومع ذلك كانت "إيه؟" التى ندت عنى كالصيحة فقالت:

"نعم فإنى مرتبطة بأهلى فإذا رحلوا - كما ينوون أن يفعلوا - إلى الإسكندرية رحلت معهم وإلا بقينا... وأنا أرجو أن يبقوا فإنى أريد أن أتملى بـ... وبـ..."

فصحت بها: "ماذا تعنين؟؟ أعنى ما الفائدة من حملك كل هذه المسافة من القاهرة إلى هذه القرية السحيقة إذا كنت ستختفين غداً؟؟".

قالت: "وماذا أصنع؟ وعلى كل حال كيف يعنيك هذا؟ ماذا يهمك؟".

قلت مغالطًا: "لا شىء بالطبع! لك الحق".

قالت: "لقد كنت أهم بأن أقول لك أكتب إلىّ إذا شئت ولكنى عدلت الآن.. من فضلك انتظر لحظة.. دقيقة واحدة فإن جوربى اتسخ جداً وأريد أن أغيره قبل أن ندخل البلدة".

فوقفت ونزلت من السيارة وذهبت أتمشى فلما عدت - إجابة لندائها - قالت:

"الآن أنا نظيفة وجميلة".

فقلت: "أنت دائمًا هكذا".

قالت: "صحيح؟".

وكنت صادقًا فما فقدت ذرة من نضارتها ورونقها بعد مائة وثمانين كيلو مترًا.

فقالت: "إن خير ما فيك أنك تعنى ما تقول.. فأنا أعرف الآن أنى دائمًا جميلة.. وأنا أعرف بغير معونتك أن ساقى جميلتان لاتكابر.. لقد قلت هذا، ولكن عينى.. و.. و.. وشعرى.. أنا مضطربة.. لم أسمع منك ثناء على عينى وشعرى".

فقلت باختصار: "خير ما رأيت".

فابتسمت وقالت: "ثناء وجيز.. وجيز جدًا.. ولكنه مكنى للاطمئنان..".

فلم يسعنى إلا أن أقرصها وأنا أصيح بها: "يا ملعونة".

***

وأعود إلى الريف الذى نشدت فى ظله الروح والراحة فأقول إن هذه الزروع التى تمتد إلى النهر والتى كانت تبدو لى فى الظلام سوداء أنعشت روحى وبردت دمائى التى كانت تغلى فى عروقى ووهبتنى السكينة والهدوء لأعصابى التى أثارها الغيظ والغضب، والروح لقلبى الذى أجهده حب عقيم، ولكنه مع ذلك مضطرم، وقد كلمتنى الأشجار الوارفة، والمياه الجارية، والهواء الندى، والظلال المديدة تحت الألفاف المتشَجِّنَة، وقالت لى كلها إنى مخطئ فى ثورتى وغضبى وإنى يجب أن أعرف وأدرك أنى لا شىء فى حياة ذات الثوب الأرجوانى، ولما كنت لا شىء فإن من التطاول والغرور أن أحاول أن أحشر نفسى فى حياتها، وأن أزحمها بوجودى وأن أهيمن عليها وأسيطر، نعم أنا لا شىء، وليس لى عند ذات الثوب الأرجوانى شىء.. لا اختلاجة واحدة من جفنها، ولا نبضة من عروقها، ولا خفقة مفردة من قلبها، ولا خاطرًا مما يجول فى رأسها أو يدور

فى نفسها.. ولا نَفَسًا واحدًا من هذه الآلاف والملايين من الأنفاس التى يعلو لها صدرها ويهبط.. حتى هذا الذى هو للهواء ليس لى منه شىء!!.

وقضيت يومين بين أحضان الطبيعة الصريحة فكانت أشجارها ومياهها وأطيارها تعيد على مسمعى هذا المعنى فى كل ليلة وتكرره وإن اختلفت الأنغام وتعددت الأصوات، وما كانت تعيد أو تسمعنى إلا ما كانت نفسى تحدثنى به، وقلبى يخبرنى أنه الحق الذى كنت أحاول بالأمل أن أخنقه كل ليلة فى ظلمة الليل على وسادتى كأنه صوت "ديدمونة" إذ يميل على عنقها عطيل بيديه الكبيرتين الغليظتين.

وعدت وقد وطنت نفسى على اليأس، وخيل إلىّ أنها سكنت واطمأنت، فجلست فى شرفتى ملفوفًا فى سواد الليل، وفى قلبى برد السكينة، أنظر إلى النجوم المتلامحة، ولا أنظر إلى شرفتك وإذا بصوتك يهفو إلىّ منها... صوتك إذ تنادين أخاك.. فذهبت سكينة نفسى ومزقتها العاصفة الكامنة فى أعماق البحر، وأحسست أن روحى كلها تهزها نبرات هذا الصوت العجيب... وخفت صوت الطبيعة التى ناجتنى به فى الريف فى ظل الشجر وعلى سيف النهر.. وكنت تميلين على حافة الشرفة وترسلين الصوت مجلجلاً فى سكون الليل، وتهيبين بأخيك أن يرتد إليك قبل أن يذهب فى شأنه، فوددت لو أقف وأصيح به وأعينك على إسماعه ورده! ونهضت فعلاً، ولكنى وضعت يدى على فمى، وكتمت ما كان يوشك أن ترتفع به عقيرتى ثم انحططت على مقعدى وقد شاع فىّ اليأس "علوًا وسفلاً" كما يقول النواسى - اليأس من الشقاء - والسخط على نفسى إذ ذهبت إلى الريف وحرمت نفسى مرآك يومين كاملين بلا جدوى.

كلا.. لست ذلك "اللاشىء" الذى زعمتنى الطبيعةُ الساذجة!، وليس صحيحًا أن أنفاسك كلها ذاهبةٌ فى الهواء كما تذهب أنفاس الناس.. ولا أن خفقات قلبك ليس لى منها نصيب.. ولقد غافلتُك ومضيتُ إلى غرفة مظلمة واستعنت بمنظار مكبر، فإذا عينك على شرفتى، وإذا أنت تتلفتين ثم تحدقين لتتبينى ولتعرفى أباقٍ أنا فى الشرفة حيث

كنت أم دخلت؟، وكنت قد غالطتك وخادعتك فأسندت شيئًا على الكرسى مكانى لتظلى متوهمة أنى هناك حين تنظرين، ولأستطيع أن أعرف أين تنظرين حين تفعلين.. فزال الشك فقد طال تحديقك ثم كأنما رابك شىء من جمود هذا القائم على الكرسى فجعلت تتحولين إلى كل موضع فى الشرفة وتنظرين، ولبثت هكذا زمنًا ثم دخلت، فما كان منى إلا أن أسرعت وعدت إلى الكرسى فقعدت عليه مطمئنًا كما كانت الحبشية التى وضعتها قاعدة! إذن كانت لى تلك الوردة الحمراء التى نفضت عنها ظلّها وشممتها.. ولى هذه الإشارة إذ تظهرين على الشرفة فترفعين أناملك إلى خصل شعرك المرسل وتردينها عن أذنك.. ولى هذه الابتسامات الوضيئة حين يسرك من جليسك أو جليستك ما تسمعين... وإذن لم يكن عفوًا أن الفتاة التى زارتك عصر يوم كانت لا تنفك تدير وجهها وتنظر إلى ناحيتى كأنما تريد أن ترانى، ولقد عجبت يومئذ لكثرة تلفتها ونظرها إلىّ وظننت أن هذا من الفضول المألوف، ثم ترددت وشككت فقد رأيتك تتكلمين ورأيتها تتلفت، فتخفين أنت وجهك حتى ترد هى وجهها إليك، وتكرر هذا مع زائرة أخرى جلست معك فى الشرفة - وكنت أحسبها قديمًا أختًا لك متزوجة لمشابه رأيتُها فيها منك - وكان ظهرك إلى ووجهها هى إليك وإلىّ، وكان الكلام يدور بينكما، ولكن عين الزائرة لم تكن إلا علىّ أنا، وأنا أتشاغل عنكما ولكنى أراكما، وقديمًا قالت أمى عنى إن لى عينًا فى قفاى.. إذن ليس عفوًا أن أهلك جميعًا معنيون بى وأنهم لا يزالون يراعوننى وينظرون إلىّ بل يراقبوننى - لولا أنى أكره هذه اللفظة - حتى ليبدو لى أحيانًا أنهم يصطفون فى الشرفة ويبعثون إليك وأنت فى الحجرة بأخبارى وأنبائى لتعرفى أباق أنا أم خارج، كأنما يحجرون عليك ويمنعونك أن تظهرى لى، ولا يسمحون لك بالبروز إلا بعد أن يوقنوا أنى خرجت وأن فى الوسع اتقاء شرى.. كأنما فى الأمر شر.. ويكبر هذا فى وهمى أحيانًا حتى لأترك البيت لغير سبب أو داع سوى أن أعفيك من عنت أهلك، وأطلق لك الحرية التى يقيدونها بسببى.. وإذا جلستُ فى الشرفة تعمدت أن أحول عينى إلى ناحية أخرى وإن كان هذا حرمانًا لى لا حق لهم فيه، ولكنى من

أجلك أحتمله وفى سبيلك أصبر عليه، وليت من يدرى بأى شيء لفتُّ نظر أهلك إلى حبى لك وأنا أتحاشى كل إشارة؟ بل أنا أجتنب أن أنظر إليك حين يكون معك أحد ولو كان طفلاً صغيراً.. فهل ترى حدثتيهم أنت بما أحسست من ناحيتى؟؟ ربما.. فإن كنت قد فعلت فأنت طائشة، فقد جعلتِ على نفسك منهم رقباء بلا موجب، فما بيننا شيء سوى النظر "وهل ذاك نافع؟" كما يقول الشاعر القديم.. وقد حدثت نفسى أمس أن أشترى ورداً أحمراً، فإنك تحبينه على ما يظهر، وأن أشير به إليك، ولكنى لم أفضل وقلت لنفسى: "ما الفائدة؟، هبنى أشرتُ وأشرتُ وهبها أجابت وأجابت؟؟ أفنظل أنا أشير إليها من بعيد، وهى تجاوبنى من بعيد؟؟ ثم لا شيء غير ذلك.. عرفنا أنَّ محبان ثم ماذا بعد هذا؟؟ هى تظهر فى الشرفة، وأنا أنظر إليها من الشرفة.. هى فى السماء نجم لامعٌ، وأنا فوق الأرض عين يرفعها إليه قلب واجف!! كلا!، لا ورد ولا شبهه!، ما الفائدة؟، ما الفائدة؟، إنى أرانى أرجع القهقرى قرونًا.. بل أنا لا أرجع ولا أتقدم.. وإنما أرى الحياة تركد وتأسن من حولى لأن ذات الثوب الأرجوانى شاءت أن تكون قطعة من أثاث بيت فهى فيه لتكون زينةً له لا لتحيا وتنعم بالحياة.. وأثارنى هذا الخاطر فغضبت وسخطت وأحسست أن نفسى امتلأت مرارة حتى لوجدت طعمها على لسانى... سخطت على نفسى لأنى خيّل إلىّ أنى إنما أحب فتاة ساذجة يسرها أن تكون محبوبة وتقنع من الحب بأن تنظر إلى الرجل وترى الرجل ينظر إليها.. وغضبت لأنى رأيت أن هذه مهزلة فأنا أذوى نفسى، وأمزق أعصابى، وأحرق دمى، وهى تظن أنى مغتبط راض قانع بمرآها فى هذه الأثواب العديدة التى لا تنفك تخلع منها واحداً وتلبس أخر؟، وما أكثر ما آليت لأسحقن هذا الحب ثم ما هو إلا أن أراها ناظرة إلىّ حتى يتحلل العزم وينقض ما كنت أبرمته منه، فالحق أن هذه مصيبة لم تكن لى فى حساب ولا كان يخطر لى فى بال أنها ستنتصب يومًا على أم رأسى.. وانظر ماذا تصنع منى!! تبدو لى فى الأرجوانى، وتبقى فيه حتى أراها - أعنى حتى توقن أنى رأيتها فإنى أراها كثيراً وهى لا ترانى - فإذا وثقت دخلت وغيرته!! أليست هذه مكايدة متعمدة...؟.

ذات الثوب الأرجوانى

-٨-(١١٠)

(تنبيه: الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)

***

لو كانت ذات الثوب الأرجوانى مع "موسى" - عليه السلام - لما ذهب إلى فرعون يدعوه إلى ربه لكان الأرجح أن يؤمن ولا يكفر، ولكان من المحقق - عندى على الأقل - ألا ينزل بمصر ما نزل بها من البلايا والضربات والمصائب الكبَر، ولكن موسى - عليه السلام دائمًا - لم يكن على ما يؤخذ من تاريخ حياته - يعرف مبلغ تأثير الأرجوانيات فلم يسأل الله أن يشد أزره إلا بأخيه هارون؛ وقد فطن قومه إلى هذه الحقيقة، ولكن بعد خراب البصرة، على أنى لا أرى ذات الثوب الأرجوانى تقينى شيئًا ولا أعرفها تدفع عنى بلاء، وإن المكاره جميعًا لتحيق بى تحت عينها ومع ذلك لا تحرك ساكنًا، ولا ترفع إصبعًا كابحًا، فأى حب هذا بالله؟؟... لكأنى بها تشمت بى ويسرها أن يصيبنى كل يوم سوء، وكأنما تظن أن حسبى كلما مسنى ضرّ أن أنظر إليها وهى قاعدة على كرسيها، وإحدى ساقيها على الأخرى، وذراعاها على حافة الشرفة، وخدها على ظهر كفها، وأصابعها تنقر على الحجر، وقدميها الدقيقة تتحرك متابعة نقر الأصابع، كأنها

---

(١١٠) نشرت فى "الرسالة"، ٣ أغسطس ١٩٣٦، (ص١٢٤٣-١٢٤٥).

تحلم بصوت أو كأنما تدندن لنفسها بصوت خفيض... وليتنى مع ذلك أسمع!! إذن لكان لى بعض العزاء.. ولقد سمعت صوتها إذ تكلم جارتها أو تدعو أخاها - أو هو لا بد أن يكون أخاها - ولكنى لم أسمع غناءها، وما من شك عندى فى أنه شجى وأن صوتها رخيم فإنه خالص كالفضة، ولكنها بخيلة... جداً...

وآخر ما حدث مما لم تدفع عنى شره أنى بعد أن كتبت فصلاً من هذه الفصول كان فى البيت لفيف من الأهل والأنسباء - قبحهم الله جميعًا - فقالوا: "ما هذا؟"، قلت: "فصل فى ذات الثوب الأرجوانى". قالوا: "من عساها تكون؟" فكرهت هذا الفضول منهم - ولكنهم يحسبون أن كونهم أقارب يشفع لهم فى كل فضول - غير أنى كتمت مقتى لفضولهم - لا لهم هم - وقلت: "إنها من مخلوقات الخيال" فجعل هذا يزوم، وذاك يحدق فى وجهى، وثالث يقول لى: "عينى فى عينك؟" ورابع يقول: "طبعًا، طبعًا" إلى آخر ذلك، ثم اقترح واحد منهم - هو أخبثهم - أن أقرأه لهم، فقلت: "حتى ينشر". قالوا: "بل الآن وهل ثم مانع؟ وما الفرق بين أن نسمعه الآن وأن نقرأه مطبوعاً فى "الرسالة"؟؟ فاقتنعت - لا أدرى كيف؟ - وشرعت أقرأ لهم، وليتنى ما فعلت فقد كنت كأنما بعت نفسى..

وقال أحدهم: "اسمع.. ما دام أن الأمر كما تقول فإن من الواجب تغيير كذا وكذا وإبداله بكيت وكيت...".

فقلت: "هذا مستحيل.. لقد كتبت ما خطر لى وانتهى الأمر".

قال: "كلا.. يجب أن تجعل الرجل الذى تتحدث بلسانه أرق مما يوهم كلامك".

قلت: "ولكنه هكذا.. وقد خلقه الله كذلك فكيف أشوهه أنا؟؟".

قال: "إذن هو شخص حقيقى؟".

قلت – وقد أحسست أنى وقعت –: "يا أخى ومالك أنت؟، إن صورته فى ذهنى هى كما أصف.. ولست أستطيع أن أغيرها إلا إذا استطعت أن أغير طريقة تفكيرى وصبغة خيالى.. وهذا شىء لا قِبلَ لى به فأقصر بالله عليك".

فشرعوا يتهكمون ويسخرون، وقال أحدهم: "هل قلت إن أنفه أقنى؟؟".

قلت: "كلا فإنى استقبح هذا النوع من الأنوف".

قال: "إنى واثق أنك كنت تتصورنى وأنت تصف هذا العاشق المدنف، ولهذا أرى من حقى أن أُستشار فيما تكتب عنه".

قلت: "إن عاشقى ليس مدنفًا.. هو على العكس صحيح معافى... ثم إنك آخر من يصلح لهذه المواقف الإنسانية.. ولست مجنونًا حتى أصفك فى قصة".

قال: "هل تسمعون؟؟ لا بأس!. عض اليد التى تطعمك وتغذيك!!. هذا جزاء من يسمح لك أن تصور شخصيته البارعة.. لا بأس!! ولكنى لا أفهم كيف تكون هذه الحبيبة عصرية ولا يكون لها كلب؟، أو على الأقل جرو صغير؟؟... نعم لا بد من كلب فقم أدخله فى القصة".

فقلت بغيظ: "يكفى أنك ستقرأها فيتحقق مرادك".

فلم ينهزم وقال: "صحيح؟؟ ولكن هذا لا ينفى أن الفتاة المسكينة لا كلب لها إلا على بعد ثلاثين مترًا!! كلا، هذا لا يليق!! اسمع منى وغير ما كتبت.. وهأنذا مستعد أن أساعدك.. إن المناسبة توجد الرجل الصالح.. وأنا أسألك بإخلاص أى شىء أوفق من أن أمد يدى إليك لأشد أزرك؟ وهل يليق بى أن أقعد ساكنًا وأنا أراك تخلط وترسم لنا صورة رجل وامرأة لا يمكن أن يمشى مثلهما فى الدنيا؟؟ كلا – على التحقيق.. (والتفت إلى الموجودين وسألهم) أهذا ينتظر منى؟؟".

ولأول مرة فى هذه الجلسة سررت إذ سمعتهم جميعًا يقولون بلسان واحد: "نعم".

ولكنه لم يعبأ بهم ومضى يقول: "هأنذا.. أجئ فى اللحظة الحافلة بالاحتمالات متنكرًا فى زى رجل هرم وفى قدمى حذاء قد يليقان بأبينا آدم - فقد زعموا أن طوله والعياذ بالله أربعون مترًا - وبفم ليس لحقله سقف.. حسن.. ولا يرانى أحد.. ولا تفطن إلى وجودى الفتاة ذات الثوب الأرجوانى، على الرغم من حذائىّ المهولين... فأخرج منهما، وأتسلق أنابيب المجارى حتى أبلغ الشرفة التى تتخذها ذات الثوب الأرجوانى، غرفة جلوس، وحجرة استقبال، وبستانًا للنزهة، وملعبًا للتنس ومرصدًا للأفلاك!! فأفاجئها وهى قاعدة تفكر فى حبيبها المخرف الذى لا يستطيع حتى أن يحرك إصبعًا يشير به إليها وأقول لها "بِخ بِخ.." فتفزع وتصيح "ياى.. ياى..".

فلما سكنت الضجة قلت: "إنى أكتب قصة ولست أصف ملعبَ مهرجين أو سِرك حيوانات".

قال: "ما أحسن هذا الأدب!! أنت لا تستطيع أن تفهم المواقف الروائية ولهذا..".

فصاحت إحدى الفتيات الموجودات: "هس.. أظن أن هذه هى ذات الثوب الأرجوانى.. الحق إنها جميلة.. ويجب أن نعترف أنه معذور".

فعاد اللعين يقول: "آه.. لا شك.. لا شك.. جميلة جدًا.. ولكن انظروا ماذا صنع بها؟؟ لقد صارت فى يده.. أعنى فى وصفه لها.. ثوبًا أرجوانيًا لا فتاةً من لحم ودم.. ولو أنه استمع لى..".

وهنا ضاق صدرى ونفد صبرى ولم تبق لى طاقة على احتمال هذه السخرية فتناولت الورقات التى كانت مكتوبة وكنت أقرأها لهم ومزقتها كل ممزق.

***

وليس هذا سوى مثل لبعض ما ألقى فى سبيل ذات الثوب الأرجوانى، وهى لا تعبأ ولا تبالى!! والحق أقول إنى لم أعد أفهم شيئًا من أمرها، فأما أنها معنية بى فهذا ما لا يخالجنى شك فيه، ولقد حرصت مرات على أن أتبين هل فى العمارة التى أسكن إحدى شقاتها من يغازلها أو يناجيها أو يصنع ما يصنع المعجب أو العشق أو المفتون، فلم أجد أحدًا، وكثيرًا ما انحدرت إلى الشارع ووقفت على الرصيف الآخر المقابل لرصيفنا ونظرت إلى عمارتنا، وقد وجدت فى كل مرة أن النوافذ جميعًا إما موصدة أو لا أحد فيها، ثم إنى أعرف متى يكون مساكنىّ فى بيوتهم ومتى يخرج كل منهم؛ فقد لاحظتهم جميعًا وعرفت عاداتهم - حتى الشبان الملاعين الذين تخشى مزاحمتهم - فلا أحد هناك تنظر إليه أو ينظر إليها سواى فى هذه العمارة الضخمة ذات الطبقات السبع، فهى لا شك تعنينى وحدى بكل ما يبدو عليها من ارتياح واشمئزاز، ومن نفور وإقبال، وأنا المقصود بكل ذلك، ومؤدى هذا أن لها عناية بى، وليس المهم أن تكرهنى أو تحبنى فإن المآل واحد فى الحالتين؛ ومتى نجح الرجل فى لفت المرأة إليه فإنه يستوى أن تظهر له البغض وأن تبدى المودة، فإن المهم أنها صارت تعنى به، وأنها أصبحت مشغولة بأمره، ولا بد أن يؤدى هذا إلى الحب آخر الأمر، فليس للحب أول عند المرأة إلا العناية مهما كان باعثها والداعى إليها، ولا ريب فى عنايتها بى، بل فى وسعى أن أقول وأنا آمن ومطمئن إنها تدرسنى فى الصحة والمرض، والسرور والحزن، والضحك والكآبة، والجد واللعب، بل هى ترصد كل حركة لى، وكل إشارة، وتتبع ما يصدر عنى وما يكون منى ما دمت باديًا لها، وقد كنت أمس أنظر من الشرفة إلى الطريق وأتأمل الرائحين والغادين وأسرى عن نفسى بمناظر الناس وما يكون منهم، فاتفق أن رأيت فتاة فى ثوب بنى محبوك وحذاءين خيّل إلىّ أن أحدهما أبيض والآخر أسود، فاستغربت أن تلبس فتاة حذاءين مختلفى اللون، ودعوت إحدى من فى البيت إلى النظر فوقفت مستغربة مثلى، وكانت الفتاة تروح وتجئ على الرصيف فى انتظار الأمنيبوس، وقد أبطأ عليها فطال تمشيها أمامنا، وطال عجبنا من حذاءيها المختلفين، وكنت أشير

إليها وأنا أتحدث عنها ثم رفعت رأسى إلى شرفة الأرجوانية فإذا فتاتى قد نهضت وانحنت تطل على هذه الأعجوبة، وقد ظهر لنا أن الحذاءين ليسا مختلفين وأن كلا منهما نصفه أبيض والنصف الآخر أسود، ولما كانت الفتاة تسير وجانبها إلينا فإنه لم يكن يبدو لنا من لونى كل حذاء إلا جانب واحد، ولهذا ظنناها بالغت وأسرفت فى الأناقة إلى حد اتخاذ حذاءين: واحد أبيض، والثانى أسود.

أريد أن أقول إن بال الأرجوانية إلىّ - لا شك فى ذلك - وأن عينها على كل حركة لى وأنها تتعقب إشاراتى - وكلامى أيضًا - وتحاول أن تدرك المقصود منها والمراد بها، ولم أقص حكاية الحذاءين وصاحبتهما إلا على سبيل التمثيل، وثم قصص أخرى تجرى هذا المجرى وتؤدى إلى هذه الدلالة، وفى ذكرها تطويل لا موجب له، ومع ذلك تجاهد ذات الثوب الأرجوانى أن تخفى حبها - أو على الأقل عنايتها الشديدة - وتروح تغالطنى فتبدى لى صفحة الإعراض بعد أن تشير لى بوردة أو تطمعنى بهذه الإيماءة الرقيقة، وما أكثر ما تنتفض قائمة كأنما شكها أحد بسيخ محمىّ وتخرج ثم لا تلبث أن تعود ضاحكة مشرقة الديباجة!! ويجن الليل فتجعل من شرفتها مرصداً لأنها هى فى الظلام وأنا فى النور، وتظن أنى لا أراها، وأنا يحلو لى أن أجلس فى الصيف فى شرفتى وأتعشى فيها أيضًا، فإن الغرف حارة حامية كاوية، كنار الله الموقدة، والعياذ به تعالى.

وليس أحلى من ليالى الصيف إذا لم يركد الهواء، فإذا جلست فى شرفتى جعلت ذات الثوب الأرجوانى تراعينى من مكمنها المظلم وهى تحسب أنى غافل عنها، أو أنى لا أرى فى الظلام، ولها العذر، ومن أدراها أن لى عينًا كعين القطة؟ - ترى فى الظلمة كما ترى فى النور.. وأحسب أن الأرجوانية قد صارت تعرف كل شىء عنى فليس عندى ما أكتمه، وإذا كان أحد من خلق الله يؤمن بالسر فإنى لا أؤمن بذلك، ولا أعتقد أن فى الدنيا شيئًا يبقى سرًا مكتومًا، ولهذا أرى أن من العبث أن أحاول كتمان أمر،

وما دام ليس هناك ما يخزينى فلماذا أتكتم وأتستر؟؟ ولا بد أن يعرف الناس ما تحاول إخفاءه، فأولى بك أن تدعهم يعرفونه منك اتقاء للتشويه، واجتنابًا للغلط وسوء التصوير، ولكنى لا أعرف عنها إلا القليل البادى لأنها فتاة وليست رجلاً مثلى، وللرجل من الحرية ما ليس للمرأة، وقد لا يضير الرجل أن يعرف عنه الناس أنه عاشق، ولكن فتاة صغيرة غضة السن قد يضيرها ذلك، ولا سيما إذا كانت لا تعرف آخرتها مع الرجل الذى ترى قلبها مجذوبًا إليه، ومن هنا أعذرها، ولكن الذى لا أستطيع أن أتبين وجه العذر فيه أو الحكمة هو هذا التقلب، فإنها تارة ترضى وأخرى تغضب، ومرة تقبل وطورًا تنفر، وإنها لتقبل أحيانًا حتى لا تبقى عندى ذرة من الشك فى سرورها بحبى لها وحتى لأحس برغبة شديدة فى أن أقفز من النافذة إذ يخيل لى فى هذه اللحظات أنى أستطيع أن أطير إليها من فرط الخفة والسرور، ثم تعرض وتنفر فيثقل على نفسى ذلك حتى لأهم بأن أضرب حجارة الشرفة بيدى وأركلها برجلى كأنها هى المسئولة عما أرى من إعراضها.. ولا سبب أعرفه لإقبالها ولا لإعراضها فما بيننا أكثر من النظر.. ولو شاءت لكان بيننا ما يختصر هذه الثلاثين مترًا ويجعلها مترًا أو نصف متر أو شبرًا أو أقل من ذلك.. ولكنها لا تشاء، وأكبر الظن أن ليس لمشيئتها دخل فى الأمر وأن رغبتها لا تقدم أو تؤخر.. كان الله فى عونها.. وفى عونى أنا أيضًا، فإن ضيق صدرها بما تجد من القيود التى حولها ينقلب على أم رأسى أنا... وما لى ذنب ولكن العامة صدقوا فى قولهم "ضربوا بتاع الكسبرى...".

(**تنبيه** – وقع خطأ مطبعى فى أبيات لى قديمة رويتها فى الفصل السابق تكتب الحياة (بالتاء المربوطة) الحياء بالهمزة، وكذلك النجاة (تاء مربوطة) كتبت بالهمزة، والصواب فى الاثنين بالتاء، وتنطق فى البيتين هاء لا أدرى لماذا، وشعرى لا ينقصه أن يزيد فسادًا بالخطأ (المطبعى – **المازنى**)

فهرس المجلد الرابع

القسم الأول

المراجعة اللغـوية : **هبة الله المخلص**
الإشـــراف الفنـــى : **أنجى جورج**